

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية



مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة

رئيس التحرير: أعمار غراسية



العدد
10

رقم الاصدار الثاني 2015-1471

Issn 2437-0584

الرئيس الشرفي : عمر فرحاني - مدير الجامعة
المدير الشرفي للمجلة : عبد الرحمان توكي - عميد الكلية



مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد العاشر – جانفي 2017

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف
للبحوث و الدراسات التاريخية
ص - ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر -
الهاتف / الفاكس 032223005
العنوان الإلكتروني:
el-maaref@univ-eloued.dz

إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادى. الجزائر.

recteur@univ-eloued

المدير الشرفي :

الأستاذ الدكتور محمد الرحمان تركي ، عميد كلية العلوم

الاجتماعية و الإنسانية.

adab -- 39@hotmai.com

مدير المجلة :

الدكتور محمد السعيد محجوب ، نائب عميد الكلية المكلف

بالعلاقات الخارجية و التعاون والتنشيط و الأتصال و التظاهرات

العلمية.

maguieb@yahoo.fr

رئيس هيئة التحرير :

الأستاذ عمار غرايسه ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

gheraissa-ammara@univ-eloued

هيئة تحرير المجلة

أ. رابع رمضان. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

أ. الطاهر سبوق. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

د. خنائية البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

أ. محلال بن عمر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

د. رشيد قسيه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

أ. الجباري عثمانى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

أ. محمد الحميد العابد. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادى

أ. محمد القادر عزام عوادى. جامعة الشهيد حمه لخضر. الوادى

التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة
و في إطار الاحتفالات بالذكرى

الستون المخدلة لها ، جاءت

فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة

بمجلة المعارف للبحوث و

الدراسات التاريخية التي حازت

على موافقة المجلس العلمي

لكلية العلوم الاجتماعية و

الإنسانية لتكون فضاء متميزا

للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا

شك الطريق الأنسب لمحاولة

الاقتراب أكثر من الحقيقة التي

هي أمل السالكين دروب العلم

على أمل ملامستها في ظل

أجواء الفكر الإنساني الحر و

الذي لا يلتزم بغير ضوابط

الموضوعية و الحقيقة المستندة

للوفاة و الحقائق الثابتة.

إن مجلة المعارف تسعى لأن

توجد لنفسها مكانا بين

الدوريات التاريخية المتخصصة

لتسهم بفضل جهود الأعلام

للتألق في فضاءها في الغوص

في مجال البحوث و الدراسات

التاريخية لتخرج بها نحو أرحب

الآفاق الدالة على مدى قدرة

التاريخ في الإسهام إلى جانب

العلوم و المعار الأخرى في

صناعة واقع الأمة انطلاقا من

فهم واقعها و محاولة لرسم

مستقبلها. و تبقى المعرفة التي

جاء بها أول غيث الوحي

السماوي خير ما تستهدي به

البشرية في دروب الحياة .

المهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. إبراهيم بن محمد بن حمد المزيبي . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية.
أ. د. أحمد شريقي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	أ. د. أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة
أ. د. بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانة .	أ. د. جمال حجر . جامعة قطر. قطر
أ. د. صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. عبد الوهاب شلالي . جامعة العربي التبسي . تبسة.
أ. د. علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة.	أ. د. محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس.
أ. د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة.	أ. د. عمر حاج الزاكي . جامعة أم درمان السودان.
	أ. د. وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق.
أ. د. بويه مجاني . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.	أ. د. جمال يحيوي . جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر.
د. أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس.	د. العمري مومن . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.
د. الوفي نوحى . جامعة محمد الخامس . المغرب.	د. أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن.
د. بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين . سطيف.	د. بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة.
د. جمال بلفردى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د. خير الدين شثرة . جامعة محمد بوضياف . المسيلة.
د. دلال لواتي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	د. رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. طارق لعجال جامعة ملايا . ماليزيا.	أ. د. عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عبد الحكيم أروغي . جامعة فريبورغ . ألمانيا.	د. عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس.
د. علي بن سعد آل زحيفه الشهراني . جامعة ملايا . ماليزيا.	د. علي غنابزية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت .	د. لزهر بديدة . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد

الأردن.	الله . الجزائر .
د . لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنه .	د . محمد الأمين ولد آن جامعة نواقشط . موريتانيا .
د . محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .
د . محمد رشدي جرایة . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د . محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة .	د . محمد وادفل . جامعة قسنطينة 2 قسنطينة .
د . نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت .	د . هيووا عزيز سعيد . جامعة السلیمانية . العراق .
د . ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر .	د . يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر .
د أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر .	د علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان .
د مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار .	د نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة .
د . ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر . باتنة د . اسماعيل وارشد EH SS ismail warscheid فرنسا . أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .	أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .
د . Augustin Jomier أوغسطين جوميهه (ce / cnrs - fondation thiers rhio) جامعة لومان . فرنسا .	د . البشير غانية . قسم العلوم الانسانية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات

العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- أن تكون المادة المرسله للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
 - 2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.
 - 3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
 - 4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
 - 5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع **simplified Arabic** مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي **simplified 16 Gras** العناوين الفرعية **simplified Arabic** مقاسه 14.
 - 6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).
 - 7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية **Not de fin** على أن تعرض في نهاية المقال.
 - 8- المقالات المرسله لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
 - 9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
 - 10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
 - 11- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.
- ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : el-maaref@univ-eloued.dz

مجلة المعارف

مع اشراقه كل يوم جديد يبرز فجر الأمل ملوحاً بغد أفضل تحياه الأمة في ظل استفافتها من غفلة أمت بها وعطلت مسارها الحضاري وحال دون قدرتها على الأخذ بأسباب التفوق العلمي الذي بسببه تبوءت القوى العالمية الكبرى مكانتها التي استطاعت من خلالها تحقيق المصالح العليا لشعبها وضمنت لهم افضل الفرص ليعبروا عن طموحاتهم ويحققوا أحلامهم واقعا ملموسا في ظل ما استطاعوا أن يجسدوه بينهم من قيم العدالة الاجتماعية.

يعيش عالم يومنا حالة من فقدان التوازن بين مكوناته في ظل ما هو قائم من تباين في المستويات الحضارية. وهو ما كان وراء حدوث حالة من الترهل في التعاطي مع القضايا الانسانية العادلة لأمتنا التي وجدت نفسها انطلاقا من واقعها المخزي غير قادرة على احداث حالة الفعل الذي كان يفترض فيه ان يعفيها من حالة الجرم والمفعول به. الا أنها كانت أمام كل ذلك ضحية واقع اشتركت في صياغته عوامل عدة كان الذاتي فيها مقدا على غيرها من العوامل الأخرى التي كان بالإمكان تلافي تأثيراتها السلبية أو على الأقل التقليل منها مع المحافظة على الخصوصية التي من شأنها أن تحقق لها القدرة على تلمس معالم الطريق المفضية الى العوالم الحضارية الرائدة.

وأمام هذا وفي ظل استفاقة عابرة تجرد الأمة نفسها أمام موروث كمي هائل من القوى البشرية التي تحمل في جوارحها ارادة التغيير و تسعى بكل جد وأمل أن تبلغ غدها المنشود في ظل ما تسلحت به من مقومات الفاعلية الدافعة بها نحو تحقيق مسعاها في التغيير الهادئ والثقة في امكاناتها وأن الغد القريب سيكون لها ان لم تتخل عن الأدوار المنوطة بها أو أن تنخذل أمام الآمال المعقودة عليها باعتبارها الرهان المستقبلي الذي يمثل الغد المنشود لشعوب ملت من الفعل غير المتوافق وطموحاتها وغير القادر على الاستجابة لتطلعاتها التي لا يمكن ان تتحقق الا على أيدي أمينة ليس لها من هم سوى أن تكون قادرة على تجسيد ما تلقته من معارف وما تحقق لها من كفاءات لترجمه واقعا ملموسا يعانق طموح الأمة و يلامس شغاف أحلامها التي أعيها الزمن و طال معها حال الاغتراب.

مع اشراقة العام الميلادي الجديد تقف الأمة على عتبات التاريخ ترسم

ملامح صورة عنوانها : نحو غد أفضل

الفهرس

الصفحة	الموضوع
06	كلمة العدد
12	مكانة الأندلس في التواصل الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية * أ.د./وجدان فريق عناد /مركز إحياء التراث العلمي العربي/جامعة بغداد/ العراق
80	حضور طائر النعام في بلاد المغرب من خلال شواهد الحضارة القفصية و إمتدادتها. * د/ محمد رشدي جراية /قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر-الوادي
107	العلاقات العراقية - البريطانية بعد عام 2003 * أ.د. ستار جبار الجابري/مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية/ جامعة بغداد/ العراق
183	الآثار الاجتماعية للتوحيد من خلال مقارنة إسماعيل الفاروقي * د/ عبد الجليل بن سالم /جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية / قسنطينة
201	نشاط المجلس الأمريكي لمفوضي الإرساليات الخارجية في الدولة العثمانية 1819-1909م. * د/ يوسف حسين يوسف عمر قسم التاريخ/ جامعة الأقصى / غزة/فلسطين
246	الأضرحة بمدينة تلمسان . دراسة نموذجية . * د/ مطروح ام الخير / قسم الاثار القديمة /معهد العلوم الانسانية و الاجتماعية / بجامعة مرسلي عبد الله تيبازة. * د / دحماني صبرينة نعيمة /جامعة ابو بكر بلقايد تلمسان / قسم الاثار /معهد العلوم الانسانية و الاجتماعية.
281	عجز الميزانية في الدولة العثمانية: الأسباب والحلول * أ.د./قاسم محمد الحموري/ قسم الاقتصاد/ كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية/ جامعة اليرموك/الاردن * أ/ معاذ محمد عابدين /كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/قسم الاقتصاد والمصارف الإسلامية جامعة اليرموك/ الاردن
308	ملاحظ عن تقلبات قيمة النقود بالأندلس في القرنين 5 و 6 الهجريين (11-12م) وتأثيراتها الإقتصادية و الاجتماعية. * د/ مراد تجنانت /كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة علي لونييسي/ البليدة
329	العلاقات الجزائرية_التركية : بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة * أ/ رزايقية حنان/ جامعة الجزائر 03 / الجزائر
356	معبد الجهني والبدايات التاريخية لعلم الكلام الاسلامي * أ/ عبد الحميد العابد/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه الأخضر / الوادي
397	معاهدتا الجزائر مع إسبانيا 1786 و 1791 ظروفهما وانعكاساتهما على العلاقات بين البلدين * د/ عبد القادر فكراير /جامعة الجليلي بونعامة/ خميس مليانة

428	أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي ✻أ/ صادق الحاج /جامعة الجزائر 02 / أبو القاسم سعدالله
460	مصورون أجنب في الثورة التحريرية ،بين المهنة والصدقة. ✻ أ/ عمراوي جمال الدين /جامعة سطيف 2-قسم التاريخ/ الجزائر

تظلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتما عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة
يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط بمرتبة الباحث ولا
مكانته العلمية

مكانة الأندلس في التواصل الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية

أ.د. وجدان فريق عناد /مركز إحياء التراث العلمي العربي/جامعة بغداد/
العراق

الملخص :

نشطت الحركة العلمية في الأندلس خلال العصور الوسطى، وقد تصدر نتاجها في العلوم والمعارف خلال تلك الفترة، إذ انتقلت العلوم منها إلى أوروبا وكانت سبباً مباشراً في تطور النهضة الأوروبية، لذلك تعد من أهم حلقات التواصل بين علوم الحضارة الإسلامية والغربية، ولها دور كبير في تطور وازدهار عدد من العلوم كالطب والفيزياء والرياضيات والفلك والزراعة والصناعة والموسيقى، وغيرها الكثير من العلوم . لذلك كانت محاولتنا إبراز بعض مجالات اللقاء الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ودور الأندلس الحضاري الذي نتج عنه إشعاع علمي وثقافي وعمراني واقتصادي واجتماعي أثار طريق أوروبا وهي تعطي منصة السيادة الحضارية العالمية .

Abstract :

The science in Andalusia during the Middle Ages was very energetic, has published her work in science and knowledge during that period, as science which moved to Europe and was the direct cause of the evolution of the European Renaissance, so it is one of the most important communication between Islamic and Western civilization, science workshops, and has a

great role in the development and prosperity of a number of science such as medicine, physics, mathematics, astronomy, agriculture, industry, music, and many other sciences.

المقدمة :

الأندلس هو الاسم الذي أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال)، وتاريخها الإسلامي الممتد من (92- 897هـ / 711-1492م) يقسم على: عصر الولاة (92-138هـ / 711-756م)، وعصر الأمراء الأمويين (138-316هـ / 756-929م)، وعصر الخلافة (316-422هـ / 929-1031م)، وعصر الطوائف (422-484هـ / 1031-1091م)، والمرابطين (483-541هـ / 1091-1147م)، والموحدين (539-643هـ / 1145-1238م) ودولة بني الأحمر في غرناطة (636-897هـ / 1238-1492م).

وخلال تلك العهود نشطت الحركة العلمية فيها، التي جعلت الأندلس تصدر العلوم والمعارف خلال القرون الوسطى، إذ انتقلت العلوم منها إلى أوروبا وكانت سبباً مباشراً في تطور النهضة الأوروبية، لذلك تعد من أهم حلقات التواصل بين علوم الحضارة الإسلامية والغربية، ولها دور كبير في تطور وازدهار عدد من العلوم كالطب والفيزياء والرياضيات وعدد من التطبيقات التقنية، وكانت حركة تنقل الأشخاص لأسباب دينية وتجارية ودبلوماسية، وانتقال المعارف والكتب عاملاً حاسماً في ذلك الازدهار .

ستتناول دراسة " مكانة الأندلس في التواصل الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية " الجوانب الآتية: العلوم الطبية، العلوم الرياضية، العلوم الفيزيائية والكيميائية، العلوم الفلكية، علم الملاحة، العلوم الزراعية، العمارة، النسيج، الصناعة والموسيقى . علماً أن هناك ميادين أخرى لاتقل أهمية ولا أثر، وكان اختيارنا لهذه الجوانب من باب كونها مفتاح يقود إلى ميدان رحب فيه الكثير من الحقائق العلمية التي تثبت مكانة الحضارة الإسلامية في خدمة البشرية، لذلك كانت محاولتنا إبراز بعض مجالات اللقاء الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية، إذ قامت الأندلس بدور حضاري نتج عنه إشعاع علمي، ثقافي، عمراني، اقتصادي، اجتماعي... الخ ، أثار طريق أوروبا وهي تعطي منصة السيادة الحضارية العالمية .

أولاً : العلوم الطبية

كان الطبيب الأندلسي كما هو الحال في بلدان العالم الإسلامي صيدلي وعالم نباتي في معظم الأحيان¹ ، كما قام هؤلاء الاطباء بترجمة مجموعة من الأعمال الطبية، كما ساهموا بكتابة بحوث طبية، بقيت كمرجع طوال حقبة العصور الوسطى . كل هذا الجهد الذي بذل في الأندلس لجمع البحوث الطبية وتنسيقها تم نقله إلى أوروبا عن طريق الترجمة من العربية إلى اللاتينية، مكوناً حجر الأساس ومادة طبية على غاية من الأهمية لأطباء عصور النهضة² .

وكان لتطور العلوم الطبية في الأندلس أثره في النهضة العلمية في أوروبا من خلال مؤلفات أطبائها، التي انتقلت الى أوروبا بفضل الترجمة، فعلى سبيل المثال كتاب أبو مروان زهر الأشبيلي صاحب كتاب التيسير في المداواة والتدبير، في هذا

الكتاب وصف مجموعة من الأمراض المعروفة ويشرح كيفية مداواتها، يعد واحداً من الكتب الأكثر استخداماً في عصور النهضة بعد ترجمته الى العبرية واللاتينية³، محمد بن قسوم بن أسلم الغافقي القرطبي صاحب كتاب "المرشد في الكحل"، وفيه رسوم للآلات التي كان يستعملها في عملياته الجراحية، فكان بذلك له الفضل في تطور طب العيون في النهضة الأوروبية .

ومن الأندلس انتقلت دراسة علم الأمراض⁴، واستئصال أي عضو من الأعضاء، ووصف خفقان القلب، والأورام، وغيرها⁵، وفي حالة الحمى فقد شخصت أكثر من مائة حالة، بعض هذه التصنيفات كانت بحسب مدتها، وأخرى تشخص الحمى بحسب المكان من الجسم الذي تصيبه، كذلك التشخيص بحسب المزاج الناتج عنها، كما درست حالات الحمى الناتجة عن الأوبئة وغيرها⁶، والتدرج في مداواة المرضى . وكذلك تعلموا دراسة العقاقير، فهي تعد عملاً روتينياً بالنسبة للكثير من الأطباء⁷ .

ومن الأطباء المسلمين الذين أثروا على أوروبا من خلال ترجمة ونقل مؤلفاتهم عبر الأندلس علي بن العباس⁸ المعروف عند اللاتين باسم (هالي أباس) صاحب كتاب كامل الصناعة الطبية، الذي كان أول كتاب طبي عربي ترجم إلى اللاتينية باسم الكتاب الملكي، وترجمه (قسطنطين الأفريقي)⁹، ولقي عناية فائقة ، ودُرِّس في أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر الميلادي، فكان المرجع الرئيس في علم التشريح في سالرنو في إيطاليا وغيرها للمدة من 1070-1170م¹⁰ .

والرازي¹¹ الذي له مؤلفات كثيرة في علم الطب، منها : كتاب من لا يحضره الطبيب، وكتاب المنصوري، وأشهر كتبه الحاوي، وله رسالة في الجدري والحصبية، وكان كتاب الحاوي معتمد عند أساتذة الطب في أوروبا في العصور الوسطى . ومن المهم أن نذكر إن مكتبة الكلية الطبية في باريس كانت تتكون من تسعة كتب رئيسية في العام 1395م، كان كتاب الحاوي للرازي أحدها، كما إن الملك لويس الحادي عشر أراد استنساخ هذا الكتاب فدفعت مقابل ذلك مبلغ كبير من الذهب والفضة من أجل استعارته، وطبع مرات عديدة في أوروبا بترجمته اللاتينية¹² ، وترجم الكتاب على يد طبيب يهودي من صقلية يدعى فرج بن سالم ويعرف باسم (فراجوت) بأمر من شارل الأول، وانتهى من ترجمته عام 1279م، إلا إنه لم ينشر إلا في عام 1486م، وهناك ترجمة أخرى صدرت في البندقية عام 1542م . أما كتابه المنصوري وهو أصغر من الحاوي فقد ترجم إلى اللاتينية، وصدرت أول طبعة في عام 1481م . كما ترجمت أعمال الرازي إلى العبرية والفرنسية، ومنها كتاب (اقربازين)، وكتاب تقسيم العلل المعروف باسم كتاب التقسيم والتشجير، ورسالته في الفصد، ومقالة في الحصى في الكلى والمثانة، ومقالة في أمراض المفاصل، ومقالة في أمراض الأطفال، ولا يزال الغربيون ينظرون إلى الرازي بتقدير حتى أن جامعة برنستون الأمريكية أطلقت اسمه على أهم أبحاثها تقديراً لعلمه¹³ .

أما ابن سينا¹⁴ الذي عرف بلقب الشيخ الرئيس والمعلم الثالث، فمن أهم كتبه في الطب كتاب القانون الذي يعد موسوعة طبية جيدة التنظيم، وبفضل هذا الكتاب حاز ابن سينا شهرة واسعة وانتشرت أبحاثه، حتى أن أوروبا كانت تنظر إلى هذا الكتاب بصفة القدسية . فضلاً عن ذلك فالكتاب ظل معتمداً في أوروبا ستة

قرون وترجمه الفرنج إلى لغاتهم، وأصبح مرجعا للدراسات الطبية، فكان يدرس في جامعتي مونبيليه في فرنسا، وجامعة لوفان في بلجيكا، وهي جامعة كاثوليكية تأسست في سنة 1425م¹⁵. وترجم كتاب القانون في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية من قبل (جيرارد الكرموني)، وللتدليل على أهمية ابن سينا أن جامعة باريس تحتفظ حتى اليوم بصورتين كبيرتين في قاعتها الكبرى للرازي ولابن سينا¹⁶.

أما ابن الهيثم¹⁷ فله بحوث مهمة في العين وكيفية تكوين الصورة، خدمت هذه الأبحاث علوم الطب والإنسانية بشكل كبير، فهو أول من اهتم بأقسام العين ورسمها ووضع أسماء لبعض أقسام العين أخذها عنه الإفرنج وترجموها إلى لغاتهم، منها الشبكية، والقرنية، والسائل الزجاجي، والسائل المائي... الخ¹⁸.

أما ابن النفيس¹⁹ فهو الطبيب الذي اهتم بالقلب والحنجرة، وكان لأبحاثه في هذا المجال أن توصل إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، ويعد هذا كشفا للمعرفة الإنسانية، وقد عدّه علماء الغرب السلف الحقيقي لوليم هارفي في هذا المجال²⁰.

أما الزهراوي²¹ فقد اشتهر بعلم الجراحة، وله الريادة في استعمال ربط الشريان لمنع النزيف، ومن أشهر كتبه كتاب التعريف لمن عجز عن التأليف، وهو كتاب عام في الطب، وفيه بين الزهراوي أن الجراحة علم مستقل بذاته، ومتصل بالتشريح، وبقي كتابه يدرس في جامعات أوروبا، مثل سالرنو ومونبيليه حتى القرن السابع عشر، وقد طبع كتابه باللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر، وكان أسلوبه في جراحة المثانة وإخراج الحصاة دروساً متداولة بين طلبة كلية الطب وأبناء صناعته²². ويعرف الزهراوي عن اللاتين باسم (أبو لكسيس)، وقام جيرارد الكرموني

بترجمته إلى اللاتينية، وصدرت الترجمة عام 1519م، كما ترجم الكتاب إلى البروفنسية والعبرية²³.

ومن الأطباء العرب المسلمين الذين ترجمت كتبهم إلى اللاتينية ابن الجزار العربي²⁴ الذي قام (قسطنطين الأفريقي) بترجمة كتابه زاد المسافر، بيد أن الأخير انتحله لنفسه، ولم يضع عليه اسم مؤلفه الحقيقي²⁵، وقد نقل هذا الكتاب في حياته إلى الأندلس وصقلية، ثم إلى إيطاليا، وترجم إلى اليونانية والعبرية فضلاً عن اللاتينية²⁶. وابن رشد الذي ترجم كتابه الكليات في الطب، وقام بترجمته اليهودي (البدوي بونا كوزا) وطبع مرات عديدة. وابن زهر الذي ترجم كتابه المجربات في الطب بفضل يهودي من البندقية، وعلي بن عيسى البغدادي المعروف عند اللاتين باسم (جيزو هالي)، وعمار الموصللي المعروف باسم (كانا موصللي)، إذ ترجمت رسالتهما في طب العيون، وهي من الكتب المهمة في دراسة هذا الجانب حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي. وكذلك ابن خاتمة الذي كتب عن الطاعون الذي اجتاح المرية في اسبانيا 1348-1349م²⁷، ويعد من أعظم الكتب في هذا المرض في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلاديين²⁸.

أما في مجال العقاقير فقد كان لماسويه المارديني كتاب في العقاقير، وكان مهما للدراسة في أوروبا لعدة قرون، كذلك كتاب الأدوية المفردة لابن وافد²⁹.

كما لا بد من الإشارة إلى البيمارستانات التي كانت منتشرة في شرق الدولة الإسلامية وغيرها، إذ تحولت إلى كليات للطب، يفد إليها الطلاب من كل ناحية، ولاسيما في الأندلس، إذ وفدت أعداد كبيرة من أوروبا لتعلم علوم الطب على يد

الأطباء المسلمين، قبل أن يؤسس الأوروبيون المدارس الطبية التي ألحقت بها المستشفيات³⁰.

إن هؤلاء العلماء الذين تركوا آثاراً مهمة في العلوم الطبية كان لهم الأثر البالغ في تطور هذا العلم في أوروبا، وقد وصل إليهم عن طريق المعابر التي ذكرناها سابقاً، وأهمها الأندلس، لاسيما وأن الصناعة الطبية فيها كانت مزدهرة .

ثانياً : العلوم الرياضية

تعد الرياضيات العربية حصيلة للاتصال ومن ثم التمازج بين تراث عدد من الحضارات القديمة، وهي حصيلة شهدت في ما بعد إثراءً مهماً من خلال مرحلة التجديد التي امتدت من القرن التاسع الميلادي وحتى القرن الخامس عشر .

وانطلاقاً من هذه المساهمات النظرية والتطبيقية قدم العرب والمسلمون تطورات ومساهمات جديدة على مر القرون، وتحقيق نتائج جديدة في الهندسة ونظرية الأرقام، ودراسة مواضيع رياضية جديدة (الأشكال المستوية، والصلبة، والسلسلات الرقمية)، وطرق التقريب، وابتكار تخصصات جديدة، ومن هذه الأخيرة ما حقق استقلاله عن تخصصات أخرى أكثر قدماً، ومنها ما بقي في طيات صفحات التاريخ، كما هو الشأن بالنسبة للتحليل التوافقي والمربعات السحرية³¹.

وكان للأندلس دور فعال في نقل العلوم الرياضية إلى الحضارة الغربية، فقد وصلت إلى الأندلس ترجمات مهمة لمؤلفات علماء قدامى مثل اقليدس وأبولونيوس ومينيلاو وأرخميدس وبطليموس، ووصلت أيضاً مؤلفات مبتكرة للرياضيين المسلمين مثل ثابت بن قرة وابن سنان وأبو كامل، وعن طريق الرياضيات الأندلسية أدخل

الترقيم العشري إلى أوروبا، وعرفت الأرقام التسعة منذ القرن العاشر الميلادي في الأندلس . وكان أخطر رمز حسابي اهتدى إليه المسلمون هو الصفر الذي لم تعرفه أوروبا إلا عن طريق المسلمين، ثم عرفوا النسبة بين محيط الدائرة وقطرها التي يرمز إليها بالحرف (ط)، وقسموا الأعداد إلى زوجية وفردية، وقالوا إن الواحد أصل الأعداد جميعا فردية كانت أو زوجية، ووضعوا الطرق لإجراء العمليات الحسابية، وتوسعوا في بحوث النسبة والتناسب كذلك عرف المسلمون تقسيم الحساب العملي إلى غباري وهو ما يحتاج إلى ورقة وقلم عند استعماله، وهوائي أي ذهني وهو لا يحتاج إلى أدوات في استعماله³².

وأشهر عالم رياضي هو الخوارزمي³³ الذي أثر على أوروبا بأفكاره ومؤلفاته التي ترجمت إلى اللاتينية، ومن كتابه الحساب عرف الأوروبيون نظام الأعداد الهندية التي انتشرت في أغلب البلاد العربية الإسلامية، وعرفت الثانية بالأرقام الغبارية، وانتشرت في بلاد المغرب العربي والأندلس، وانتقلت منها إلى أوروبا.

لقد ترجم كتاب الخوارزمي إلى الإسبانية اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، ونقل الكتاب المترجم إلى الأراضي الألمانية وسموه (Alogorizmus)، ونظموا الأشعار باللاتينية تعليقا على نظرياته، وعرف أنصاره في إسبانيا وألمانيا وانكلترا الذين كافحوا من أجل نشر قاعدته الحسابية باسم الخوارزميون³⁴.

أما علم الجبر فيرجع الفضل فيه إلى الخوارزمي أيضا عندما ألف كتابه (الجبر والمقابلة) وفيه شرح أصول الجبر، فقام بشرح العمليات الأربعة، وهي الكميات الجبرية، وطرحها، وضربها، وقسمتها، وأوضح ستة أنواع من معادلات الدرجة الثانية

مع حلها، وتوصل إلى معرفة أحجام بعض الأجسام الهندسية البسيطة، كالحرم الثلاثي والرباعي والمخروط³⁵، وبقي يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر الميلادي .

لقد حقق المسلمون في علم الجبر حل معادلات الدرجة الأولى بطريقة حساب الخطأين وتوسعوا فيها، ونقلوها إلى أوروبا، وحلوا معادلات الدرجة الثانية بطريقة هندسية، فجمعوا بين الجبر والهندسة، ووضعوا أساساً للهندسة التحليلية، مما ساعد على ظهور التفاضل والتكامل، وحلوا معادلات من الدرجة الثالثة، وبعض معادلات الدرجة الرابعة، كما عرفوا الجذور الصماء، ويعود إليهم الفضل في استعمال الرموز في الأعمال الرياضية³⁶.

وكذلك كان للعالم العربي أبو بكر محمد بن حسن الكوجي (ت 407هـ) فضل على تطور علم الجبر في أوروبا، وهو صاحب كتاب الفخري في الجبر والمقابلة. والعالم أبو الحسن القلصادي (ت 891 هـ) وكتابه كشف الأسرار عن علم الغبار، فضلاً عن أبو كامل شجاع بن أسلم بن محمد الحاسب المصري الذي نبغ بحدود القرن الثالث الهجري، وأبو حنيفة الدينوري (ت 282 هـ)، وأبو الوفاء البوزجاني (ت 388 هـ) . وبفضل هؤلاء وغيرهم تقدم علم الجبر والهندسة، وساعدت أوروبا بالتقدم بالهندسة التحليلية بالتفاضل والتكامل، وفي علم المثلثات أوجد المسلمون الجداول الرياضية للجيب والمماس والقاطع وقمامه، وانتفع علماء الغرب من هذه الانجازات ونقلوها إلى لغاتهم³⁷.

فضلاً عن ذلك فقد كان لابن معاذ قاضي جيان الذي أدخل إلى الأندلس علم حساب المثلثات الجديد، الذي كان تطوره قد بدأ في المشرق، دور مهم، ويعد مؤلفه الأساسي المسمى " كتاب مجهولات قسي الكرة " أقدم بحث معروف في الغرب حول الهندسة الكروية، شرح اقليدس في " مقالة في شرح النسبة "، إلى جانب وضع كتاب في علم الفلك . والمؤتمن بن هود ملك سرقسطة الذي كان رياضياً بارزاً، كما عني بالفيزياء والفلسفة، ويعد كتابه "الاستكمال" مؤلفه الأهم، وهو موسوعة رياضية مخصصة للرياضيين والفلكيين والفيزيائيين، وقد وحد بين المعارف الرياضية الإغريقية والمشرقية، مضيفاً إسهاماته المهمة المبتكرة، وقد عالج مسائل حول نظرية الأعداد، والاحجام غير المعتدلة، والهندسة المستوية، وهندسة الكرة والمجسمات والقطع المخروطية وغيرها . وابن سيد وهو رياضي آخر نشأ في بلنسية، وبرز من خلال دراساته في حقل الهندسة، لم يحفظ من مؤلفاته غير ما نقله عن تلميذه ابن باجة، وقد وضع كتاباً حول نظرية الأعداد³⁸.

وفي علم الهندسة تعد الزخرفة الهندسية بأشكالها الفسيفسائية المتناظرة كنزاً مخفياً تكمن فيه المفاتيح للتعبير عن نموذج اجتماعي، فقد أعطى الأندلسيون شكلاً مادياً لمعتقداتهم، وذلك في دلالة جميلة على عبقريتهم أدت إلى قدرة إبداعية لا سابق لها في صناعة الفسيفساء التي بلغت أوجها في قصر الحمراء في غرناطة . ومن المدهش جداً أن مصممي تلك الأشكال قاموا في أيامهم بتنمية جميع الامكانيات التي تبرهن اليوم " نظرية المجموعات البلورية المستوية " ، التي تم تطويرها خلال النصف الثاني من القرن العشرين باستخدام الأشعة السينية³⁹.

ولا يمكن نكران أثر الاندلس في انتقال إنجازات المسلمين الرياضية إلى أوروبا، ولا سيما عن طريق دور الترجمة المنتشرة فيها، والتي كانت نشطة في ترجمة الكتب العلمية ومنها الرياضية إلى اللغات الأوروبية بما ساهم في تطور الحركة العلمية في أوروبا.

ثالثاً : العلوم الفيزيائية والكيميائية

تناول العلماء المسلمون مواضيع فيزيائية متنوعة مثل سكون الجماد والسوائل والحركة والبصريات، وتطرقوا كذلك للميكانيك، فقد أخذ العلماء المسلمون عن الأغرقيق بأمانة علمية، وأضافوا إلى أعمال سابقهم شروحات وتعليقات، وطوروها من خلال طروحات رياضية وتجريبية جديدة، وما زالت محفوظة إلى اليوم حوالي ستين مؤلفاً عربياً في عالم السكون، من بينها مؤلفات قيمة لابن سينا والرازي والبيروني، ومساهمات الخازني حول الجاذبية ومركز الأرض⁴⁰.

كما بحث الفارابي وأبي الصلت وابن باجه وابن رشد في فلسفة الطبيعة، وطرحوا مسائل يمكن أن تعد فيزيائية إلى حد ما، فالفارابي مثلاً أنجز دراسة عن مفهوم الفراغ ترجمت إلى اللاتينية في العصور الوسطى، كما إن كتاب الهيئة للبتروجي يعد أقدم مصدر في الأندلس يتطرق لنظرية الدافع، وترجمه إلى اللاتينية ميغيل سكو⁴¹.

أما في مجال البصريات التي كانت أحد فروع علم الفيزياء ويعد ابن الهيثم أبرز العلماء المسلمين الذين نالت مؤلفاته شهرة وكان لها أثرها في النهضة الأوروبية، إذ استخدم منهجاً علمياً مبنياً على الاستقراء والاستنباط، وإبطال النظرية اليونانية التي

كانت التي كانت تدعي أن الرؤية تتم بواسطة أشعة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقدم نظريات جديدة في مجال البصر، وخصائص الضوء والألوان، مزج فيها بين الفيزياء والرياضيات والفسولوجيا وعلم النفس، وذلك في كتابه المناظر، والذي ترجم إلى اللاتينية . وكان ابن الهيثم مرجعاً لروجر بيكون وعلماء ومفكرين أوروبيين آخرين، وكان معروفاً لهم باسم "الحزن" أو "الحسن"، إذ إن اسمه الكامل هو: أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم . كما اعتمد الفرس والأترك كتبه مراجعاً وتناولوها بالتعليق . وفي الأندلس تمت ترجمة رسالته في " المرايا المحرقة بالدوائر " إلى اللاتينية في طليطلة في القرن الثاني عشر، فضلاً عن كتابات عربية مهمة في مجال البصريات، سواء منها النظرية أو التطبيقية، تناولت بالبحث مواضيع كالانعكاس والانكسار، والخسوف والكسوف، وقوس قزح، والبصر، وانتشار الضوء. وتبين الترجمات اللاتينية التي أُنجزت في شبه الجزيرة الأيبيرية أن النصوص العربية الأصلية نقلت إلى هذه اللغات عبر الأندلس⁴² .

وفي مجال علم الكيمياء، كانت كلمة كيمياء تستعمل في العربية للدلالة على علم الكيمياء وعلى الكيمياء القديمة في الوقت نفسه، فبينما كان علم الكيمياء يشمل تحويل المواد لصناعة الأصباغ والمداد والعمود ومواد التجميل، واستخراج بعض المواد المستخدمة في الصناعة (النسيج والخزف والورق) وتطبيق المعارف الكيميائية في مجال صناعة المعادن وغيرها، كانت الكيمياء القديمة ذات طابع خرافي، حيث كان المشتغلون بها يؤمنون بإمكانية استخراج المعادن الكريمة أو الثمينة كالذهب من المعادن الخسيسة، وكانوا يسعون إلى ابتكار أكسير الحياة أو حجر الحكمة⁴³ .

وإلى غاية القرن الحادي عشر الميلادي كان هناك أكثر من أربعين عالم كيميائي قدموا مساهمات كبيرة، وبرز منهم جابر بن حيان والرازي والفارابي، وفي الأندلس مسلمة القرطبي (القرن العاشر الميلادي) والذي ألف "رتبة الحكيم"، تطرق فيه لتحويل المعادن بالحرارة، وأشار إلى تجارب مثل كيفية الحصول على أكسيد الزئبق، بشكل يذكر بنظرية احتراق الزئبق لعالم الكيمياء الشهير لافوازييه (القرن الثامن عشر الميلادي).

وكان عباس بن فرناس الأندلسي الذي حاول الطيران، كانت له مساهمات أخرى في مجال الكيمياء⁴⁴، فهو أول من استنبط استخراج الزجاج من الحجارة والرمل بالأندلس⁴⁵.

رابعاً : العلوم الفلكية

يعد التراث العربي الإسلامي في مجال علم الفلك تراث ضخم نجده في الأفكار والمصطلحات العلمية والتقنية وأسماء النجوم والكواكب، وآخر ملموس يتمثل في المخطوطات والآلات، تلك الآلات والأدوات التي تعد خير رفيق لعالم الفلك، والتي كان يصطحبها في ذهابه وإيابه إلى الحواضر العلمية العربية الكبرى في العصور الوسطى، من بغداد إلى قرطبة، ومن الأندلس إلى سمرقند⁴⁶.

وكان علماء الفلك والمراسد الفلكية يتوفرون على أدوات كالربع الحائطي والسمتي وذات الحلق والاسطرلاب وأدوات معقدة أخرى، وبفضل هذه الأدوات تمكن علماء الفلك من مراقبة السماء وكواكبها ونجومها، والمساهمة بنظريات فلكية،

وإعداد جداول فلكية وحساب الوقت، كما استعملوها لضبط أوقات الصلاة والصوم والحج... الخ⁴⁷.

وتوجد العديد من المؤلفات التي ما زالت مخطوطة نخبرنا عن تلك الأدوات، ويرتبط تاريخ تصميم الأدوات الفلكية بتاريخ الرياضيات التطبيقية، وتطور الهندسة الوصفية، ونظرية الاسقاط . ومن بين مؤلفات العصور الوسطى حول الأدوات الفلكية بعض الأعمال التي هي عبارة عن جرد للأدوات التي كانت معروفة للمؤلف، ومن هذه الأدوات ما كان قياسياً ومعروفاً وشائع الاستعمال، ومنها ما هو معقد هندسياً لدرجة أن المرء قد يشك أنه كان موجود في ذلك العصر . وكانت للأندلس مساهمة متميزة في صناعة الأدوات المعقدة، وكان علماء الفلك وصناع الأدوات الفلكية الأندلسيون ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين هم الذين يطورون الأدوات الفلكية العالمية التي كانت تعود في النهاية إلى الشرق، أو تصدر إلى أوروبا⁴⁸.

فقد عني حكام الأندلس في قرطبة بإنشاء المكتبات، وبعثوا إلى المشرق أساتذة لتأهيلهم علمياً، ولكي يجلبوا كتب العلماء المشرقيين، ومنهم الأمير القرطبي عبد الرحمن الثاني الذي عني بعناية كبيرة بعلم الفلك أول من أدخل الجداول الفلكية إلى الأندلس، محيطاً نفسه بمجموعة من الفلكيين من بينهم ويحيى الغزال، وعباس بن فرناس .

بلغ علم الفلك تقدماً كبيراً في النصف الثاني من القرن العاشر، فبرزت شخصيات مثل مسلمة المجريطي الذي أنشأ مدرسة فلكية، ولد في مدريد، ونمى

نشاطه العلمي في قرطبة، وكان واحداً من الفلكيين الذين ضمهم بلاط الخليفة عبد الرحمن الثالث، عني بجداول الخوارزمي التي اعتمد فيها على كتاب "السند هند" على الإحداثيات الجغرافية لقرطبة، ومن جهة ثانية تبني جداول البتاني التي ارتكزت على كتاب بطليموس، ولعل من ألمع تلاميذه مسلمة بن السمع القرطبي صاحب رسالة الاسطرلاب وابن الصفار .

وخلال القرن الحادي عشر الميلادي، وأثناء حقبة ملوك الطوائف، لمع علم الفلك، وكان له بريق خاص، ففي عهد الملك المأمون ظهرت في طليطلة مدرسة فلكية مهمة، ومن بين الفلكيين الذين انتموا إليها برزت شخصية عظيمة، هو أبي اسحاق إبراهيم بن يحيى الزرقالي، وكان أهم عالم فلك في الأندلس، بدأ نشاطه في طليطلة، ثم انتقل إلى قرطبة فيما بعد، وتوفي فيها عام 1100م، اشتهر باختراعه لأجهزة فلكية، ومن الناحية النظرية كان أيضاً عالماً من الطراز الرفيع، ومن مؤلفاته الكثيرة البارزة رسائل مثل الصفيحة، وحركة النجوم الثابتة، ورسالة في الكواكب السيارة، كما كانت له مساهمة مهمة في "جداول طليطلة"⁴⁹.

وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تميز علم الفلك الأندلسي بعلاقته الحميمة والوثيقة بعلم الفلك المغربي، فالزحف النصراني المتقدم، وقيام عواصم الدول التي خضع لها الأندلس في الشمال الأفريقي ساعد على تنقل علماء الفلك بين الضفتين وانتشار مؤلفاتهم، وكان من علماء الأندلس البارزين في هذا العصر أبو الصلت الداني، وله رسالة في الاسطرلاب .

وفي عصر بني نصر زار الأندلس بعض الفلكيين المغاربة امثال ابن البناء، وفي هذا العصر برز علماء مثل ابن باصو الذي اخترع آلات فلكية، والعالم ابن الرقام وأصله من مرسية، صاحب رسالة في علم الضلال، والتي يصف فيها طريقة بناء أنواع المزاوِل الشمسية، وكتب أيضاً الجداول الفلكية، ومن الفلكيين أيضاً ابن القضاعي .

إن التطور الذي شهده هذا العلم في الأندلس يعود الى ركيزتين أساسيتين: تمثلت الركيزة الأولى بكتاب "السند هند"، والذي دخل مدرسة بغداد في القرن الثامن الميلادي، وقد أنجز العالم المشرقي الخوارزمي الترجمة العربية له بأسم السند هند الصغير، ووصل هذا الكتاب إلى الأندلس في القرن التاسع الميلادي من خلال عباس بن ناصح، الذي رحل إلى المشرق، وجلب معه عدداً كبيراً من الكتب العلمية، وفي الأندلس قام أبو القاسم مسلمة بن أحمد الجريطي (ت 397 هـ) بتصحيح زيج الخوارزمي، وكانت هذه النسخة أساس الترجمات اللاتينية لهذا الكتاب⁵⁰، وعن طريق الأندلس دخلت تلك المؤلفات الى أوروبا .

والركيزة الثانية كتاب بطليموس أهم عالم فلك في الحضارة اليونانية، وكتابه عرض لنظرية مركزية الأرض، وحساب أمد الفصول، ودورات القمر وحركاته، وضم أيضاً مجموعة من الجداول للتنبؤ بمواقع الكواكب، ودخل كتاب بطليموس إلى الأندلس في القرن التاسع الميلادي. وقام محمد البتاني بتصحيح أخطاء بطليموس، ومن أهم مؤلفاته الزيج الصابي الذي طبع في أوروبا عدة طبعات بعد أن ترجم، وهو عبارة عن جدول رياضي عددي يحدد مواضع الكواكب السيارة في أفلاكها، وقواعد

معرفة للشهور والأيام والتواريخ الماضية، والوقوف على حركة الكواكب، ويعتمد الزيج على قواعد حسابية وقوانين عديدة غاية في الدقة⁵¹.

ومن أوائل كتب الفلك في الأندلس كتاب "الصلب" أول كتاب في الفلك والتنجيم في الأندلس، وقد عاجل، فضلاً عن حساب مواقع النجوم، مسائل فلكية مختصة بالأرصاء الجوية، مثل تحديد أوقات نزول المطر وحصول الجفاف وغيرها، ويعد "كتاب الهيئة" للقاسم بن مطرف القطان، من أوئل الكتب الفلكية الأندلسية أيضاً، وفيه وصف هذا الفلكي الكون الفيزيائي، مهتماً بقضايا مهمة لأداء الشعائر الإسلامية، مثل أهلة القمر، وتحديد الأوقات، ودرجات العرض، وغيرها.

ومن العلوم المرتبطة بالفلك علم التنجيم وهو فرع من علم الفلك التطبيقي، وتمكن علماء الفلك من تصميم جداول فلكية وخرائط أبراج على درجة عالية من الدقة، وكان التنجيم المرتبط بالبلاط رائجاً في الخلافة والإمارات الأندلسية، وبجانب التنجيم العلمي، كان هناك تنجيم شعبي وهو أقرب ما يكون إلى الشعوذة⁵²، وفي الأندلس تطورت طرق التنجيم الرياضي، بحيث بسطت أساليب الحساب المستعملة لأبراج الطالع، فضلاً عن جداول وتقنيات رياضية كانت تستعمل لحساب إجراءات تنجيمية، مثل مطارح شعاعات الكواكب، والتسييرات، وتقسيم منازل الكواكب، فتمكنوا من وضع خرائط الأبراج التاريخية، وتقنية الاختبارات التنجيمية، وعلم الأحوال الجوية المبني على التنجيم⁵³.

أما علم الميقات فقد كان يطبق على الشعائر الإسلامية، لتحديد منازل القمر وبعض الأعياد الدينية، مثل بداية أو نهاية شهر رمضان، وتقسيم اليوم إلى خمسة

أقسام للصلوات، وتوجيه المصلين نحو القبلة في مكة المكرمة وغيرها، وكل هذه التطبيقات العملية سمحت بتطور علم الفلك منذ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي . أما كتب الأنواء في الأندلس فقد كانت هناك عناية في مراقبة السماء بغرض الحصول على معلومات قابلة للتطبيق في الحياة اليومية، مثل طرق تحديد الجهات، ومعرفة حالة الطقس، وفي القرن العاشر أنشئ في قرطبة "تقوم قرطبة" الذي حوى معلومات حول أمد الفصول ومسائل طبية حول ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، ومتى ينصح بالاجار في البحر المتوسط، وفي الهندسة الزراعية، وغيرها . ومن مؤلفي كتب الأنواء ابن عاصم الثقفي، وابن الكتاني، وابن خلف القرطبي .

قدمت الأندلس عدداً كبيراً من الفلكيين، ومؤلفات أصيلة، منهم الزرقالي الذي أثر في علم الفلك في الشرق والغرب في العصور الوسطى⁵⁴ . ومن خلالها عبرت العلوم الفلكية الى الحضارة الغربية، وكان للترجمة أثر كبير في ذلك فقد عني الملك الفونسو العاشر بذلك ومن أبرز المؤلفات في عهده كتب الحكمة، وهي الكتب المؤلفة بأمر من الملك الفونسو العاشر "الحكيم" ، بين العامين 1276-1277م ، والتي تجمع ست عشرة رسالة علمية من التراث العربي، كرس معظمها لوصف الآلات الفلكية، ونخص منها بالذكر : الرسالة في آلة ذات الحلق، وهي ترجمة مؤلف لأبي اسحاق الزرقالي، الرسالة في الكرة السماوية "الكرة"، الرسالة في الصفيحة، الرسالة في الاسطرلاب المسطح، الرسالة في الكواكب الثابتة، والرسالة في الاسطرلاب الكروي أو الدائري، وكذلك ابن يونس المصري الذي له دراسة في كسوف الشمس وخسوف القمر والاعتدال الشمسي وتحديد خطوط الطول، كذلك أبو الوفاء البزجاني الذي اشتهر في الجداول الفلكية، ثم البيروني الذي له

رسالتين في الفلك هما افراد المقال في أمر الضلال وتمهيد المستقر لمعنى الممر، وخير ما يبين تأثير المسلمين في علم الفلك هو إن هذا العلم لا يزال مليئاً بالمصطلحات ذات الأصل العربي، كالعقرب والغراب وغيرها⁵⁵.

فضلاً عن ذلك فقد اهتم العرب بالمرصد للتحقيق الدقيق للظواهر السماوية، وفي هذه المراصد العديد من الآلات التي كانت من صنعهم، وتمكن علماء الفلك المسلمون من التوصل إلى كروية الأرض، ودورانها حول محورها، وقدروا محيط الأرض⁵⁶. ومن الأندلس انتقلت فكرة بناء المراصد الفلكية الى أوروبا.

كما اخترع العرب بعض الآلات والأجهزة القياسية مثل الرقاص الذي استعملوه في الساعات الدقايقية، ونسب اختراعه إلى أبي الوفا البوزجاني، كما أن كمال الدين بن يونس استعمل الرقاص، وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد، وهم بذلك مهدوا السبيل لغاليلو لاستنباط كل القوانين التي تسود الرقاص. كذلك الإسطرلاب وهو آلة فلكية لقياس بعد الكواكب، واخترعها الإغريق وسنها بطليموس الجغرافي، ثم تولاها علماء مسلمون، حتى أخذها عنهم علماء الغرب. كما إن علماء الفلك كانوا يتمتعون بالحرية فيؤلفون ويناقشون ويبحثون في الفلك، في وقت كان التفكير في هذا يعد جريمة في أوروبا يعاقب مرتكبوها بالموت كما حصل لغاليلو الإيطالي سنة 1642، كذلك تعرض كوبرنيكوس إلى التجريم من قبل البابا لأنه قال لكل كوكب حركتين حول الشمس وحول محوره⁵⁷.

ويمكن القول أن الأندلس كونها أهم معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، فقد مارست دوراً أساسياً في انتقال العلوم الفلكية وإنجازات المسلمون ومؤلفاتهم في هذا العلم إلى أوروبا، فقد اطلع وأفاد علماء الحضارة الغربية من علوم المسلمين الفلكية من خلال ترجمة المؤلفات إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وكان لحركة الترجمة التي نشطت في الأندلس أثرها الفعال في ذلك .

خامساً : علم الملاحة

إن الثقافة العربية بشكل عام والأندلسية بشكل خاص قد ساهمت في تطور علم الملاحة، فالتقنيات الملاحية المعروفة في مجالات علم الخرائط وعلم الفلك التي أغناها العلماء المسلمون كانت حلقة مهمة في تاريخ العلوم، وعن طريق الأندلس نقلت معارف الحضارة الإسلامية في علم الملاحة إلى الحضارة الغربية .

كانت الملاحة البحرية تعتمد التقويم الشمسي، نظراً لكونه يصادف الفصول الأربعة، فغالباً ما كانت الملاحة تبدأ في الربيع في شهر نيسان وتنتهي في تشرين الثاني، لتجنب عواصف فصل الشتاء، وتوخي الرياح المناسبة حسب موقع المكان الذي يمارس فيه النشاط الملاحي⁵⁸، ويمكن التمييز بين نوعين من النشاط الملاحي هما :

1- الملاحة البحرية : هناك ثلاثة دوافع أساسية وراء الملاحة البحرية، هي تجارية وحرية والصيد البحري .

أ) الملاحة التجارية : عادة ما كان البحر يمثل الوسيلة الأكثر استخداماً في ما يتعلق بالنقل التجاري، فتذكر المصادر كيف أن البضائع كانت تنقل مثلاً من الشام

إلى المرية، أو من أفريقيا إلى شمال أوروبا، وكانت السفن تنقل مختلف البضائع، ومنها مواد الترف، وكذلك نقل الحجاج إلى مكة المكرمة . وكانت أهم المواد التي تصدر من الأندلس : الحديد، والصوف، والأرز، والحبوب، والزيت، والكتان، والقنب، والفخار، وغيرها . وكانت تستورد : البلور الصخري، والزجاج الإيراني، والخزف المذهب القادم من مصر والعراق، وغيرها⁵⁹ .

ب) الملاحة الحربية : تتعلق الملاحة في بعض الأحيان بالمواجهات العسكرية، إذ إن الاهتمام بهذا النوع من الملاحة في الأندلس في عهد بني أمية كان نتيجة للهجمات التي شنها النورمنديين في القرن التاسع على السواحل الأندلسية، إلى درجة أنهم تمكنوا من الوصول إلى اشبيلية عبر الوادي الكبير، هذا الحدث جعل عبد الرحمن الثاني يبني في هذه المدينة ترسانات وأسطولاً لمواجهةهم . وفي النصف الأول القرن العاشر قام عبد الرحمن الثالث بسياسة بحرية لينازع سيطرة الفاطميين على البحر المتوسط، وخلال مدة حكم الخلافة في قرطبة وصل تطور الأسطول الأندلسي إلى درجة عالية جداً.

ج) ملاحة الصيد البحري : كان الصيد البحري من ضمن الأنشطة الاقتصادية المهمة في الأندلس، وتحدثت بعض المصادر عن أماكن الصيد البحري في كل السواحل الأندلسية⁶⁰ .

2- الملاحة النهرية : استغل الأندلسيون كون بعض الأنهار في الأندلس صالحة للملاحة النهرية مثل الوادي الكبير وإيرو وتاخو واديانا، وأنهار أخرى

أصغر، فالإدريسي مثلاً أشار إلى المراحل بين شريش واشبيلية، وبين اشبيلية وقرطبة عن طريق الوادي الكبير⁶¹.

وقد نقلت إلى الحضارة الغربية معارف أساسية من علوم الحضارة الإسلامية في علم الملاحة، بما في ذلك التقنيات البحرية والملاحية، ومن أهم تلك التقنيات :

1- الهندسة البحرية : إن التطورات التقنية التي أدخلت على علم الملاحة في البحر المتوسط وبحار أخرى، بما فيها المحيط الهندي، يعود الفضل فيها إلى الملاحة الإسلامية التي كلفتها مع الأوضاع التي يتطلبها كل مجال وكل استعمال، وكان من الأهمية معرفة الرياح لإعطاء الأشرعة الميل اللازم لكي يبحر المركب، وكان التجديدان الأساسيان الذين أدخلهما العرب على الملاحة يتمثلان في⁶² :

أ) شراع ذو شكل مثلث : يسمح هذا الشراع برفع الرياح المضادة، بينما كانت في الماضي تستعمل الأشرعة المربعة، التي تتطلب أن تأتي الرياح عبر مؤخرة السفينة لكي يتم الإبحار، مما يجعل سير السفينة بطيء جداً من جهة، ويرفع تكلفة النقل من جهة أخرى⁶³.

ب) الدفة : أدخل المسلمون إلى أوروبا الدفة، وهذه القطعة كانت عنصراً من العناصر الأكثر أهمية إلى جانب الشراع في المراكب، إذ عوضت عن المجاذيف وعن وضعها في مؤخرة السفينة، مما يسمح بالحركة أكثر، فضلاً عن إنها تشغل من قبل شخص واحد، في حين كان التحكم بالسفن يتم من خلال المجاذيف الموضوعة بطريقة عمودية على جوانبها في اتجاه المؤخرة، مما ينتج حركة أقل، لاسيما إذا كان الطقس رديئاً⁶⁴.

ج) الفلك : طور الأندلسيون التقنيات التي تمكنهم من التوجيه في البحر عبر أساليب فلكية، وفي بعض الأحيان لم يكونوا في حاجة لمحاذاة الشواطئ أثناء الإبحار، لكونهم اعتمدوا على البوصلات منذ القرن العاشر الميلادي تقريباً⁶⁵. كما كانت الملاحة في الليل تجري بشكل طبيعي نتيجة لتطور علومهم الملاحية، فمثلاً قياس علو النجم القطبي يحدد الارتفاع، وفي النهار كانت تتبع ملاحظة الشمس في منتصف النهار عبر زاوية الميل الشمسي⁶⁶.

أما سرعة المركب فكان يمكن رصدها عن طريق الساعة الرملية التي يمكنها قياس زمن تنقل المركب، أما في الليل فالزمن يتم قياسه بواسطة الساعة الليلية (الاسطرلاب) الذي ظهر موثقاً في الأندلس في القرن العاشر الميلادي وهو على أشكال منها⁶⁷ :

الاسطرلابات والمربعات البحرية: وهي أدوات مصنوعة لقياس الأركان، كارتفاع الشمس، أو النجم القطبي في الأفق⁶⁸.

الجغرافيا (الخريطة البحرية): ظهرت الخريطة البحرية في وسط القرن الثالث عشر الميلادي على يد العلماء المسلمين ومنهم الأندلسيين، وكانت العطاءات الإسلامية في فن رسم الخرائط مهمة جداً أثناء القيام بالاستكشافات الجغرافية التي بدأت منذ القرن الخامس عشر الميلادي، فالبحارة الأندلسيون كانوا يعرفون مثلاً أبعاد البحر المتوسط مع هامش بسيط للخطأ لا يتعدى الدرجة الواحدة⁶⁹.

أما عن الأدوات المستعملة في الملاحة الأندلسية⁷⁰، فقد استطاع الأندلسيون الإبحار دون الحاجة إلى محاذاة الشواطئ، من خلال تحديد ارتفاع الشمس والنجم

القطبي اثناء عبورها خط الزوال بأدوات كانت تمكنهم من تحديد الاتجاه، والوجهة التي يتبعونها، وسرعة المركب ومنها :

البوصلة: ذات شكل مستدير وتتألف من دائرتين متحدتي بالمركز، يدور الجانب الداخلي الذي يحوي الابرة المغناطيسية، التي تبين اتجاه السفينة، في حين أن الجانب الخارجي ثابت عليه شارة الاتجاه .

الساعة الرملية: آلة تتكون من قنيتين ملتصقتين من العنق، تستعمل لقياس الزمن من خلال الرمل الذي يتساقط من الواحدة للأخرى .

الاسطرلاب الليلي: أداة فلكية قديمة تستعمل لقياس الزمن عن طريق ملاحظة النجم القطبي وموقع النجوم داخل السماء ولاسيما الدب الأكبر .

الاسطرلاب: كان مرسوم عليه القبة الزرقاء، ويستعمل لملاحظة وتحديد موقع وحركة النجوم.

المربع البحري: يحدد علو الشمس في الأفق عند عبورها خط الزوال، أو تحديد نجم معين، للحصول على درجة علو المكان .

بوصلة ذات أبرة عائمة: وتعد الشكل الأكثر بدائية للبوصلات، فهي عبارة عن أبرة ممغنطة توضع على قطعة من الخشب تعوم فوق الماء، وتتحرك الأبرة نحو الشمال .

آلة الربع البحرية: كانت آلات الربع البحرية تستخدم في تعيين المواقع الجغرافية على متن السفن، وهي تحدد ارتفاع الشمس أو النجوم من أجل التعرف على خط عرض المكان .

71: كانت صناعة المراكب متطورة في الأندلس، إذ وجدت أنواع متعددة منها

المركب : كان المركب بمثابة الوسيلة الأكثر أهمية، لكونه يستعمل في التجارة وفي الحرب للقتال ولنقل الجنود .

قارب : عبارة عن زورق صغير مساعد كان يستعمل لخدمة الاسطول الحربي، وكذلك السفن التجارية في البحر، وكذلك في الأنهار .

جفن : زورق مسطح كان يستعمل في الغالب لنقل الخشب .

حراقة : سفينة حارقة تستعمل لنقل النار الاغريقية التي هي عبارة عن خليط من الجلود ممكن اشتعالها، تصوب باتجاه العدو عبر أنابيب مكونة من قاذفات اللهب، ممكن أن تشتعل ولو باحتكاكها بالماء .

شانية : سفينة شراعية حربية كانت تستخدم منذ القدم .

فطاس : قارب صغير .

غريبان : زورق شراعي .

شيتي : قارب ذو صارتين .

زورق : مركب صغير يستعمل لخدمة سفن أخرى، سواء كانت حربية أو تجارية .

غراب : سفينة حربية شبيهة بالقارب الشراعي .

طريدة : سفينة شراعية تستخدم في نقل الخيل والعتاد للأساطيل .

كركور : سفينة تجارية كبيرة .

سفينة : مركب بحري قادر على قطع مسافات كبيرة .

قصور : مركب صغير الحجم .

إن جغرافية شبه الجزيرة جعلت الأندلس تتوفر على شبكة من الموانئ ، وكذلك على شبكة دفاعية ساحلية مهمة مكونة من مراصد وأرباط . ويمكن الحديث عن الموانئ أيضا ومنها ⁷² :

لشبونة : كانت تتوفر على إنتاج سمكي وأهمية تجارية كبرى، وكانت تستورد العنبر الرمادي، والرزين العطري المستخرج من الثدييات البحرية ليستعمل في الطب والعمارة ، قصر أبي دانس : وهو مركز مهم لصناعة السفن ، شلطيش : دار لبناء السفن تتمتع بأهمية كبيرة، وفيها كانت تصنع المراسي للسفن الحربية والتجارية ، قادس : كانت مشهورة بالصيد البحري وإنتاج الملح الذي كان يتم الحصول عليه من المعادن (أملاح صخرية)، أو من البحر (أملاح بحرية) . وهذه الأملاح كانت كثيرة الاستعمال، ولاسيما في حفظ السمك، وكذلك الحفاظ على اللحوم والمواد الغذائية الأخرى ، الجزيرة الخضراء : أحد أهم الموانئ الأندلسية ، مالقة : وفيها حركة ملاحية مهمة، كانت تستورد التين والمملحات بشكل خاص ⁷³ ، فينتاس دي شميليانا : قرية من مالقة، تتميز بنشاطها في الصيد البحري وبأسواقها ، المنكب : كانت مشهورة بصيد الأسماك، المرية : خلال القرن العاشر الميلادي كانت بمثابة القاعدة البحرية لأسطول الخلافة، وكان مينائها من أهم موانئ الأندلس، وكان له

نشاط مهم يتمثل بتصدير النسيج، والمرجان، ومواد مستعملة في المجوهرات تنسب لها خصائص طبية⁷⁴، قرطاجنة : ميناء بحري ، لقنت : وفيها كانت تبنى السفن التجارية والحراقات ، دانية : وكانت تشهد حركة ملاحية كبيرة، ولاسيما في القرن الحادي عشر الميلادي ، بلنسية : وكانت تمثل مركزاً تجارياً مهماً، لاسيما مع حركة الصادرات والواردات الكبيرة وطرطوشة : التي كانت بمثابة القاعدة البحرية الأكثر أهمية خلال حكم بني أمية، فالغابات المحيطة كانت توفر الخشب الجيد من أشجار الصنوبر لبناء السفن، جزر البليار: وتتمتع بموقع تجاري مهم⁷⁵.

كان البحارة المسلمون يملكون التقنيات المتعلقة بالهندسة البحرية المستخدمة في المحيط الهندي، كما في بحر الظلمات (الأطلسي) ، فضلاً عن أنهم كانوا يبنون ويرمون ويصينون المراكب، وفيها كانوا يحفظون العتاد والأصناف الضرورية لتجهيزها، وكان يتبع أسلوبيين في بناء السفن : يتم البدء ببدن السفينة، أو يتم البدء بالعمود، ثم الهيكل .

وذكر ابن خلدون أن النجارين كانوا يحضرون أجساماً هندسية متحذين الحوت نموذجاً لبناء السفن، فالنجارة كان لها صلة وثيقة بالهندسة، وكانوا يجتهدون بالقياسات والأشكال الهندسية التي يختارونها⁷⁶.

كانت تلك المراكز تقام في المناطق الغنية بالخشب، أو الأماكن التي يسهل العثور عليه فيها، وكل دار صناعة كانت تستعمل نوع الأخشاب التي تناسب نوعية المراكب المطلوبة . ففي المتوسط كان أنواع الخشب المستخدم غالباً هو خشب الصنوبر والسنديان وشجر الخوخ والزيتون، أما في ساحل بحر الظلمات (الأطلسي)

فكان يستخدم خشب القسطل الأخضر والمران إلى جانب أنواع أخرى . وبعد أن يقطع الخشب كان يحتاج إلى معالجة لتخليصه من النسغ حتى يجف، ثم يخضع للحرارة لتساعد على إعطائه شكله النهائي⁷⁷ .

وإلى جانب الخشب، كانوا بحاجة إلى مواد أخرى كالحديد للمسامير والمراس والمرافع، والقار والقطران ، والكتان وواأنواع أخرى من الأنسجة لصناعة الأشرعة، وغيرها من المواد⁷⁸ .

وكان إصلاح السفن أمر لا يمكن الاستغناء عنه، يتمثل في تجديد بدن السفينة بإدخال القطن والكتان والشحم، لاسيما حول المسامير التي تجمع قطع الخشب، وفي إصلاح الأشرعة كذلك .

كون الأندلسيون شبكة للحراسة والمراقبة، التي يكون موقعها على الجانب الأقصى من السواحل وعلى المخارج البحرية، أو على نقاط مرتفعة مما يسمح بالقيام بمراقبة عينية للشواطئ، أما التواصل فيما بينها فيتم عن طريق نيران مشتعلة . ويمكن تمييز نوعين منها في الأندلس وهي : المراقب التي كانت عبارة عن أبراج مقامة على مرتفعات لمراقبة البحر، والإشعار بكل ما يقع داخله، والأرباط : التي تمثل حصون عسكرية ودينية إسلامية .

كما قد عرض الجغرافيون الأندلسيون المسافات الفاصلة بين الموانئ الأكثر تردداً عليها، فالبكري والادريسي والحميري على سبيل المثال ذكروا المدة التي تستغرقها الرحلة البحرية بين الأندلس والمغرب للعديد من الطرق البحرية، وتحديد

تلك الطرق، فضلاً عن الكثير من التعليقات على الكثير من مظاهر الملاحظة الأندلسية⁷⁹.

وهناك العديد من المصادر والرسائل عن الملاحظة في الأندلس، منها :

- كتاب أكريات السفن وهو مخطوط عربي في مكتبة الايسكوريال .

- رسالة في المد والجزر وهي مخطوط عربي 1636 في مكتبة الايسكوريال . .

لقد بلورت الإنسانية عبر العصور فن رسم الخرائط، إذ اهتم الانسان منذ القدم بجمع المعلومات والقياسات لكل مناطق الأرض، إن العناية بفن رسم الخرائط يرجع إلى فائدته الكبيرة، فاتساع حدود الدولة الإسلامية ولد الحاجة لمعرفة المناطق المفتوحة، وتلك الحاجة للمعرفة يمكن إرجاعها إلى عوامل عدة⁸⁰:

1- عوامل إستراتيجية : فمعرفة المنطقة تسهل فتحها بسهولة كبيرة .

2- عوامل اقتصادية : كانت المناطق المفتوحة تخضع لدفع الضرائب، والمعرفة الجيدة لها تسهل عملية جمع الضرائب .

3- عوامل دينية : العديد من المؤمنين كانوا يقومون بالرحلة لأداء فريضة الحج، مما أدى إلى الحاجة لمعرفة الأقاليم الإسلامية .

إن رسام الخرائط إلى جانب كونه عالماً، كان عليه أن يكون فناً كذلك، فتحضير خريطة ما ليس معناه التوفر على المعلومات الضرورية للوصف فقط، بل

يحتاج أيضاً إلى صياغة تلك المعلومات، وهو عمل لا يقل أهمية عن سابقه، فوضوح الخريطة شرط أساس للأستخدام الصحيح للعلامات والرسوم واللوان .

إن الخرائط العربية بشكل عام، والأندلسية بشكل خاص كانت متصلة بشكل عميق بالمعارف والتطورات التي شهدتها اختصاصات أخرى، كعلم الفلك والرياضيات .

كما أن الأسفار البرية والبحرية أثرت بشكل كبير في فن رسم الخرائط، فالأسفار فسحت المجال لنوع جغرافي جديد أطلق عليه اسم " الرحلة "، وتشكل كتبه وصفاً دقيقاً للبلدان التي زارها الرحالة، ويعد عمل ابن بطوطة أحد أهم الأعمال، فقام برحلة شملت أماكن كثيرة من أنحاء العالم المعروف آنذاك .

وقبل أن يظهر للوجود رسامو خرائط الأندلس، فإن هذا الفن تطور في المشرق الإسلامي، كما هو الحال في اختصاصات أخرى، فقد شهد بيت الحكمة في بغداد تحضير أول خريطة عربية إسلامية للعالم، وبعد ذلك تطورت مدرسة لفن رسم الخرائط في المشرق ينتمي لها جغرافيون كالبخري والاصطخري وابن حوقل والمقدسي⁸¹ .

ويعد الإدريسي أعظم جغرافيي العصور الوسطى، وأهم مؤلف له أنجزه في صقلية في بلاط الملك روجير الذي كلفه بإنجاز خريطة للعالم . وبعد جهد كبير بذله في سبيل الحصول على الوثائق اللازمة لعمله، تمكن من إتمامها سنة 1154 مرفقة بمؤلف جغرافي وصفني وصفيحة فضية، تتكون الخريطة الكاملة من 70 خريطة، كل

واحدة تمثل واحداً من العشرة أقسام للمناخات السبعة، تضاف لها خريطة أحيرة مستديرة في بداية الكتاب . ومميزاتها الأساسية هي ⁸²:

- 1- موجهة مع الجنوب في جانبها العلوي .
- 2- خطوطها تظهر بدقة محيط السواحل ومجري الأنهار أو تحديد الجبال .
- 3- تقسم الأرض إلى سبعة أقاليم من الشمال إلى الجنوب، كل واحد منها كان يقسم بدوره إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق .
- 4- تستعمل بطريقة منظمة الألوان والرموز، الماء لونه أزرق، رموز للسلاسل الجبلية، ودوائر بالنسبة للمدن .
- 5- أفريقيا تمتد من الغرب إلى الشرق، وتحتل كل الجانب العلوي من الخريطة .
- 6- للمحيط الهندي بعد يعادل بعد البحر المتوسط، وشكل مطول ويحتوي عدد من الجزر .

كذلك لا بد من الإشارة إلى الجغرافي الأندلسي الغرناطي ابن سعيد المغربي . وربما يمكننا القول إن الفن المتعلق برسم الخرائط كان له دور أساسي في ظهور مجموعة من الخرائط البحرية والملاحية لعبور بحر الظلمات (الأطلسي) وبالتالي اكتشاف القارة الأمريكية .

سادساً : العلوم الزراعية

لقد رافق وصول العرب المسلمين إلى الأندلس تطور في مجال الزراعة، فقد تم إدخال مزروعات جديدة إلى الأندلس لم تكن معروفة في أوروبا، مثل قصب السكر والبن والرز والحوامض ومنها البرتقال والنانج والموز ونخيل التمر وبعض الخضار والبقال (السبانخ والبادنجان والبطيخ الأحمر والبطيخ وقرع النبيذ)، ونباتات أخرى مثل القنب والزعفران والحناء، كما زرعت أنواع متوسطة أخرى مثل الزيتون وشجر التوت المستعمل في صناعة الحرير المهمة، وشتى أنواع شجر التين والخرشوف والليمون والمشمش والزعفران والقطن وقائمة طويلة من النباتات والفواكه التي غيرت وأغنت العادات الغذائية وفن الطعام لدى المجتمع⁸³.

فالزراعة والبستنة والتجارة والصناعة بلغت درجة عالية من التطور في الأندلس بشكل أثار إعجاب أوروبا، فمن الأندلس دخلت أصناف كثيرة من المزروعات الى أوروبا وأصبحت جزءاً من المائدة الاوربية⁸⁴، حتى أنها أثرت في اللغة، ومن المفردات العربية التي دخلت على اللغة الأسبانية للتعبير عن أسماء نباتات منها : الأرز، والسكر، والزيت، وفي الأدوات المنزلية مفردات منها : الجرة، والقلة ، ومفردات في الموازين والمقاييس⁸⁵.

كان العرب حاذقون في استخدام الماء بسبب المميزات الخاصة لمناخ الأندلس، ومعارفهم في هذا المجال أدخلوا تغييرات في استعمال الأرض في الأندلس، عبر إنشاء شبكة مائية معقدة . وكانت هذه المنتجات تحتاج إلى ظروف مناخية ملائمة وكميات كافية من المياه، وكان تحقيق ذلك يتطلب تحقيق نظام يضمن تدفق الماء في مختلف فصول السنة، الأمر الذي أفرز زراعة مكثفة طوال السنة ما زالت قائمة حتى اليوم .

وإذا كان الرومانيون قد برعوا في كيفية إيصال المياه إلى المدن بفضل منشآت مائية كبرى، فإن الأندلسيين اتقنوا ذلك في الوسط الريفي، من خلال استحداث بنى تحتية جديدة، فقد أنشأوا مناطق زراعية جديدة، وابتدعوا آليات جديدة للري، عبر هندسة مائية جديدة لازالت مستخدمة إلى يومنا هذا في بعض الأماكن في إسبانيا .

فقد كانت عناية العرب في الاندلس بالزراعة كبيرة ، قامت على أسس بنيت على تجارب غنية في مجالات مختلفة فتطورات الزراعة وغدت من المعالم البارزة للحضارة الإسلامية هناك، وقد ساعدتهم الطبيعة حيث وفرة المياه والتربة الخصبة، وسعى المسلمون الى إدخال أفضل أنواع الطرق والأساليب الزراعية، فاهتموا بدراسة أنواع التربة وأنواع السماد وطرق الغرسة واختيار البذور وأساليب السقي وأنظمة الري التي لا يزال قسم منها باقياً كما هو في بعض المدن الاسبانية، مثل بساتين البرتقال في مدينة بلنسية التي تسقى من الاقنية التي أنشأها العرب منذ أكثر من ألف سنة⁸⁶ .

لقد أسهمت المعارف الأندلسية في فن الزراعة في تطوير تقنيات مهمة لتحسين جودة المزروعات، في مجالات تخصيص الأرض، وتقنيات السيطرة على الآفات، وتناوب المزروعات، وتقنيات التلقيح، واستعمال التخصيم، وتكييف وتجريب مزروعات جديدة . وكانت في الأندلس مدرسة فلاحية متطورة في قرطبة ، طليطلة واشبيلية .

ولما كانت الاندلس قبلة أوروبا للرحلة في طلب العلم والاطلاع على التطور الحضاري فيها، كان من البديهي أن يحدث محاكاة وانتقال لكثير من تلك الجوانب من الأندلس لتدخل في حياة الأوروبيين، ومنها الزراعة والطعام فقد تأثر الأوروبيون بالأندلسيين، وقلدوهم في مجالات كثيرة⁸⁷.

فعلى سبيل المثال القمح الذي نقله العرب إلى الأندلس، ومنها انتقل إلى جنوب فرنسا، ومنها انتشرت زراعته في أوروبا كلها⁸⁸. وذكرت المصادر التاريخية أن القمح المزروع في الأندلس يمتاز بالجودة، وإنه زرع في أماكن مختلفة منها، وإن المزروع في طليطلة لا يتسوس على مر السنين يتوارثها الخلف من السلف⁸⁹.

كما نقلوا الرز، حتى أن كلمة الرز العربية بقيت ضمن مفردات اللغة الإسبانية⁹⁰، فغدا جزءاً من الأكلات المشهورة، وكان الأندلسيون يطبخونه مع اللبن الحامض، وتسمى تلك الطبخة (الرز باللبن)، فضلاً عن دخوله في إعداد أصناف أخرى⁹¹. والكروم (العنب) نقله العرب إلى الأندلس وانتشرت زراعته فيها، ومنها وجد طريقه إلى أوروبا، ومنه يصنع الزبيب⁹²، والموز أيضاً من المحاصيل التي نقلها العرب إلى الأندلس، ومنها إلى جنوب فرنسا، ومنها نقلت إلى سائر بلدان أوروبا⁹³، والرمان⁹⁴، والمشمش الذي أدخله العرب إلى الأندلس ويسمى البرقوق⁹⁵، والتوت ويسمى توت العرب⁹⁶، وكانت لهم طرقهم الخاصة في زراعته وحفظه، وغدا جزء من قائمة طعامهم، فقد انتشرت زراعته، فضلاً عن أهميته الاقتصادية، إذ هو غذاء دودة القز التي تعد مصدراً مهماً للحرير الذي تصنع منه المنسوجات الحريرية⁹⁷، والنانج الذي لا يزال يلفظ بالاسم العربي ذاته وهو من المحاصيل التي

أدخلها العرب⁹⁸، كذلك الليمون⁹⁹، وقصب السكر الذي انتشرت زراعته حتى إنه يصدر إلى البلاد المجاورة¹⁰⁰.

وكان الزعفران من المحاصيل التي أدخلها العرب إلى الأندلس، وكانوا يطلق عليه الجادي والكركم¹⁰¹، ويزرع في مدينة وادي الحجاره التي "..... بها من غلات الزعفران الشيء الكثير يتجهز به منها ويحمل إلى سائر العمالات والجهات"¹⁰²، كما أن مدينة قرطبة حولها "زراعات ومستغلات الزعفران بها كثيرة"¹⁰³.

كذلك اهتم علماء الزراعة العرب في الأندلس بزراعة الزيتون وهو من المحاصيل التي نقلها العرب إلى الأندلس ومنها إلى إيطاليا واليونان والبرتغال¹⁰⁴، فكانت لهم خبرة واسعة في العناية بزراعة الزيتون ويتضح ذلك من خلال ما حوته كتبهم الزراعية¹⁰⁵، والتي من خلالها يظهر ما وصل إليه العرب في الأندلس من التطور في استخدام الأساليب الجيدة لزراعة الزيتون¹⁰⁶.

وقد اهتم الملوك الاسبان بطيبات الطعام، والتفنن به، وهو أمر مقتبس من الأندلسيين الذين تركوا أكثر من كتاب في الطبخ، وتحدثت عن مطابخ ثلاث: أندلسي، ومسيحي، ويهودي، وإشارات لطريقة إعداده¹⁰⁷. وأكدت على نوع من الطعام، يدعى المجينات، وهذا النوع لا يزال معروفاً في المجتمع الاسباني تحت اسم (الموخابنة)، وهي نوع من المعجنات المحشوة بالجبن المقلبي، وتؤكل مغلفة بالسكر والقرفة والعسل وشراب الورد، فضلاً عن استعمال الفلفل المسحوق في الطعام¹⁰⁸.

ولابد من الإشارة إلى أن مجال الزراعة والصناعة والتجارة كان من الجوانب المهمة التي تأثر بها الأوروبيين من خلال الاحتكاك بالحضارة الإسلامية عبر أحد

أهم معابرها إلى الحضارة الغربية وهي الأندلس¹⁰⁹، لذلك نعتقد أن الغربيين اكتسبوا من الأندلس نظام زراعي متطورة كان له أثر واضح في تطور الزراعة الأوروبية¹¹⁰.

سابعاً : العمارة

أفادت الحضارة الإسلامية من خبرات وتقنيات الحضارات الأخرى في مجال البناء، ففي الأندلس امتزجت طرق بناء ترجع إلى العصر الروماني أو ما قبله مع تقنيات أخرى جديدة جلبت من المشرق، ومن بين طرق البناء التي كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي البناء بالحجر المنحوت، وكذلك الآجر والطوب غير المفخور من بين المواد الأكثر استعمالاً، سواء في المساكن أو البنايات العامة . ومن طرق البناء التي تطورت في الأندلس وشمال أفريقيا الطابية التي تتمثل باستخدام قوالب من الخشب (Tapia) لبناء الحيطان من الطين المضغوط المخلوط بمواد تساعد على التكتل، مثل الجير والجبس، ما يجعل من الخليط شيئاً شبيهاً بالخرسانة المسلحة، ثم دخل الجبس في عمل الواجهات والتزيين، وذلك لسهولة العمل فيه، فضلاً على أنه مادة تساعد على التراص والتكتل سواء كان البناء بالآجر، أو الطابية، أو الحجر . كذلك أستعملت الأقواس والقباب بالآجر والجبس بدون الحاجة الى قوالب لدعمها، كما بنيت القباب بشكل طبقات من الآجر المترص أفقياً¹¹¹.

كان للمسلمين أثرهم الواضح في تطور العمارة في أوروبا، ولاسيما في اسبانيا، وإيطاليا، وفرنسا وأظهر الفنانون الأوروبيون مهاراتهم الفنية في البناء وفقاً للتقاليد

الفنية العربية في الاندلس، وأمتد تأثير العرب في ذلك المجال إلى معظم بلاد أوروبا الغربية، وجزء من أوروبا الشرقية . ويبدو التأثير العربي الإسلامي في العمارة الأوروبية في عقد ثلاثي الفتحاح من طاق الواجهة الجنوبية للكنيسة في مدينة (شانتوخ) في محافظة (اللور الأعلى) في فرنسا، وكذلك في عقد مقصوص على باب الواجهة الجنوبية لكنيسة (بلا تراك) في محافظة (الشارانت السفلى) في فرنسا وبوابة كنيسة (لابيل دنوار) في محافظة (كروز) في فرنسا¹¹² . ويظهر تأثير الفنون الإسلامية في بعض البلدات الواقعة في جنوبي فرنسا ولاسيما بلدة بوى، إذ نرى الطابع العربي الإسلامي في العقود المتعددة والفصوص وفي الزخارف المشتقة من الكتابة الكوفية والزخارف المؤلفة من الجرائد أو سعف النخيل وفي العقود ذات الفصوص الملونة والمساند الخشبية كما يظهر تأثير تلك الفنون في كتدرائية (بوى) وهو المكان الذي يعد من أقدس الأماكن المسيحية المبنية في فرنسا، حيث ظهرت عناصر معمارية زخرفية كمواد مجملة ومكملة لعناصر البناء¹¹³ .

ويتضح تأثير العمارة العربية الإسلامية في بعض مباني اسبانيا وفرنسا كملعب المصارعة في مدينة مدريد الذي بني على الطراز العربي بأفواسه وأعمدته الرقيقة المتناظرة ونقوشه الاندلسية المتداخلة، وماتزال بيوت السكن في أسبانيا مبنية على الطراز العربي وهي لا تختلف عن البيوت العربية القديمة التي لا تخلو من الزخارف، وقد نشأ من تمازج فنون المسلمين والاسبان طراز خاص يعرف بالطراز المدجن الذي ازدهر في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر بصفة خاصة، وما أبراج كثر من الكنائس في مدينة طليطلة إلا نماذج مقتبسة من المآذن الإسلامية¹¹⁴ .

كما إن الدراسة التي قام بها الأمريكي (واشنطن إيرفناك) أكدت تأثر البناء في ألمانيا وانكلترا وفرنسا بالطراز العربي في الأندلس، وكانت المنصة الأندلسية للملك البافاري (لوريك الثاني) نموذج على ذلك، وكذلك الحال بما يسمى بمزهريات الحمراء

115

إن القوس على شكل حدوة الفرس، والقناطر ذات الخلفية الثقيلة هي بعض من مميزات العمارة الإسلامية في الأندلس¹¹⁶، التي دخلت في تصاميم البناء عند الأوروبيين واستمرت حتى بعد زوال الحكم العربي الإسلامي عن الأندلس، فنجد في بعض الأبنية التاريخية عقدة نعل الفرس في كنيسة ببشتر التي أقيمت في قصر عمر بن حفصون في جبال مالقة، وفي " سان سلفادور دي بو يدس " بالديديوس فإن أسلوب البناء على شكل التيجان وشبكات النوافذ والشرفات المسننة وبعض النوافذ المزروجة ذات عقود نعل الفرس، وكذلك الحال في كنيسة سان ميغل دي فيارديميو، وكنيسة سان اندرس دي بدرينيانا، ولاسيرة وغيرها، ونجد البناء بالعقود المتراكمة التي تعدّ محاكاة لما في المسجد الجامع بقرطبة، في مقصورة الصور المقدسة في كنيسة سانتا كريستينا دي لينا¹¹⁷.

وكذلك قصر بيدرو القاسي في اشبيلية يتكون من أشكال معمارية ترتبط عامة بالفن الإسلامي، منها الأشكال الزخرفية المصنوعة بالجص في كل أنحاء القصر، يظهر اسمه بحروف عربية، والأمر ذاته في الكنائس في طليطلة وسرقسطة أروقة مزخرفة مقفلة ومفتوحة، مأخوذة من واجهات ومآذن ذات طراز إسلامي، ولا يقتصر الأمر عن ذلك بل إن أثر قديم مسيحي في ما يسمى "تمبيتو" في دير غواديلوب يحمل ملامح أحسن أختيارها من أنماط إسلامية من العصور الوسطى،

وفي برغش وهي من مركز حرب الاسترداد التي لم يصل إليها الحكم الإسلامي، صمم دير لاس هو يلغاس في أوائل القرن الثالث عشر ليكون في بعض مظاهره معلماً تذكاريًا لألفونس السابع، وهو من قادة الصليبيين المعادين للنفوذ الإسلامي في الجنوب، فزخارف هذا البناء الحصية مأخوذة بالكامل من نماذج إسلامية¹¹⁸.

كذلك فإن معبدين من معابد اليهود، أحدهما بني في القرن الثاني عشر ويعرف اليوم بكنيسة سانتا ماريا لابلانكا، والثاني تاريخه في عام 1537م قد حول إلى كنيسة تسمى الترانزيتو، التي بنيت في طليطلة أبان الحكم المسيحي قد زينا بأساليب الزينة الإسلامية الصرفة¹¹⁹.

وامتد تأثير فن المدجنين¹²⁰ الأندلسي إلى المكسيك وبيرو، واستمر ذلك الفن في اسبانيا حتى بعد طردهم، إذ كان الفن القوطي القادم من الشمال يتغلغل في الساحة الفنية، ومع ذلك لم يختفي الفن الإسلامي إلا مع ظهور عصر النهضة المصبوغ بالطابع الإيطالي، كمنزل بيلاطس في اشبيلية، وحتى ذلك الوقت بنى شارل الخامس قصره الغرناطي الفخم بالقرب من قصر الحمراء مشرفاً عليه ومتأثر ببناءه¹²¹.

ولابد من ذكر الحمامات، كونها من الأشكال المعمارية ويعود الفضل في إنشائها إلى الوجود الإسلامي في الأندلس، وكانت ذات طابع إسلامي بعيد عن النمط الروماني الإسباني القديم. وأقدم الحمامات الموجودة في غرناطة ويعود تاريخه إلى القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي، ويتكون من ثلاث حجرات واحدة للماء البارد وأخرى للساحن والثالثة مكان دافئ، وبعد انتهاء

الحكم الإسلامي في الأندلس بقيت الحمامات مرتبطة بالحياة الاجتماعية المسيحية، وخير مثال الحمام المسيحي الموجود في جيرونا مما يدل على تأثرهم بوجود المسلمين في تلك البلاد¹²² .

وحفظت اللغة الإسبانية عدداً من المصطلحات المعمارية التي ترجع إلى اللغة العربية منها : كدان، الخزانة، البناء، القبة، السطحية، الدعامة، الجب¹²³ .

ومما يجدر ذكره أن هناك تناقض يجلب الانتباه هو أنه في الوقت الذي كانت السياسة تؤدي إلى تدمير الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية، كان الافتتان بالفن الإسلامي مستمر حتى أن البعض يرى أنها لا تزال منذ ذلك الحين في الخلفية الفنية، ومما يدعو إلى الاستغراب أن بلاد صرفت الكثير من الجهد المادي والروحاني للقضاء على الوجود العربي الإسلامي، حافظت خلال قرون عدة على النماذج الفنية للعدو¹²⁴ .

وربما يكون الجواب " بأن النمو المركب لتراث مشترك من الأشكال الذي كان في بعض أجزائه، إن لم يكن فيها جميعاً، مميزاً من خلال وجوده في تلك الأرض بعينها بدلا من خلال ارتباطه بجماعات دينية أو قومية تقيم على تلك الأرض . وفي داخل هذا التراث، قد تحمل ظاهرة معينة دلالات إسلامية، أو عربية، أو مسيحية، أو قشتالية، أو قطلونية، بيد أن التوصل إلى هذه الخصائص لا يتم إلا بإدراك أن لغة مشتركة للتعبير عن الأفكار والأذواق والمقاصد المختلفة كانت قائمة . ومع ذلك، فمن المحتمل وجود عوامل أخرى غير الانتماءات الثقافية تأثر بها الفن في العصور الوسطى في اسبانيا وفي أماكن أخرى أيضا " ¹²⁵ .

ومع ذلك لا يكفي هذا لتفسير الفنون الاسلامية في شبه الجزيرة الاسبانية خلال العصور الوسطى، لأنها شهادة على الصفات المميزة البارعة على مدى القرون، التي أحدثت تغييراً كاملاً في البلاد وعبرت عن بعض أفضل الطموحات لنظام عالمي، دينيا وخلقيا، تكون في منطقة نائية¹²⁶.

وفي صقلية كان سقف المعبد (الكتدرائية) الذي بناه روجير الثاني في بلم عاصمته قد زخرف بالصور والأشكال التي فيها نقوش كوفية، لذلك فمن المحتمل أن الصناع العرب اشتركوا في بنائه، وكذلك الحال في العمارات الأخرى في بلم وصقلية¹²⁷.

ثامناً : النسيج

جلبت أثواب الطراز الفاخرة التي كانت تستعمل في المناسبات الرسمية في قرطبة من قبل عبد الرحمن الثاني، وخلال العصر الأموي وما بعده ازدهرت صناعة الطراز في المصانع التابعة للبلاط ازدهاراً كبيراً، مثلها مثل صناعات فاخرة أخرى، وما زالت الأندلس تحتفظ بمئزر الخليفة القرطبي هشام الثاني .

وكانت تقنيات ومواد النسيج تشمل الألياف التي تصنع من مواد نباتية كالكتان والقطن والقنب، أو حيوانية كالحرير والصوف، وكانت تعزل ثم تصبغ وتعد للحياكة، وكانت صناعة النسيج تشمل أنواعاً مختلفة من الأثواب والزرابي والقماش الحائطي، وكانت صناعة هذا النسيج تتطلب منسجاً (أفقياً أو عمودياً) بمثاقيل، تم العثور عليها بحفريات أثرية، وكشتابين، وأبر بأحجام مختلفة .

وكان النسيج الأندلسي إما بسيطاً أو مركباً، حسب عدد اللحم والسدى، ومن بين النسيج من النوع الأول نجد التافتا والقماش الصوفي الخشن والساتان،

وكانت صناعة النسيج من الصناعات بالغة الأهمية في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى، إذ كانت تمثل نشاطاً مهماً سواء في مجال الإنتاج، أو في التجارة، وفي هذا الإطار أبرز الشريف الإدريسي مصانع النسيج الثمانمائة في مدينة المرية ومنتجاتها المختلفة¹²⁸.

ولعل ما يدل على مكانة صناعة النسيج في الأندلس العدد الكبير من الأثواب التي تشير إليها المصادر، أو التي لازالت محفوظة حتى اليوم، كالتي يضمها متحف لاس ويلغاس، فضلاً عن أن اللغة الإسبانية لا زالت تحتفظ بعدد كبير من الكلمات في مجال النسيج ذات أصل عربي، مثل: *Algodón* , *Alvexi* , *Algodón* , *Alvexi* , *cendal* , *ceneta* , *damasquino* , *gasa*¹²⁹.

كان العرب أول من حمل إلى أوروبا، عبر الأندلس، أسرار صناعة الحرير، وأدخلوا تقنيات تربية دودة القز وصناعة الحرير . وكانت هناك ورش تخصصت في إنتاج نسيج فاخر كان يصدر إلى بلدان إسلامية أخرى، وإلى القصور المسيحية التي كانت تتهافت على هذا النسيج، وكان أحياناً يتم مزج الحرير بألياف أخرى مثل القطن والكتان والصوف، وكانت الأصباغ الطبيعية المستخدمة في تلوين النسيج تستخرج من الحيوانات والنباتات والمعادن¹³⁰.

عمل المسلمون على إنتاج الحرير والورق الذي اكتسبوا سر صناعاتهما من الصين، وبلغوا في تلك الصناعة مستوى عالي من الحرفية، حتى أن بعض الانسجة الحريرية الموشاة والمخطوطات المنمقة بالصور الملونة لاتزال تحتفظ في المتاحف بعناية فائقة¹³¹.

كما نسجت في طرز الملابس لبعض ملوك النصارى كتابات بالخط الكوفي مثل أدعية وآيات قرآنية دون معرفة بما تمثله، واستخدمت على أنها نقوش لغرض

الزينة¹³². وكانت الكتابة الكوفية تلائم الطرز الزخرفية في ذلك العصر، إذ كانت تلائم الزخرفة في النسيج والخشب والمعدن¹³³.

لقد انتقلت الملابس الحريرية المطرزة والقلائس إلى أزياء النبلاء والحكام، فضلاً عن تقليد الملوك الاسبان للحكام المسلمين في طريقة ارتداء الملابس والفرش المستعملة في أماكن الجلوس¹³⁴. وكان ملك صقلية غليام يتشبه بالحكام المسلمين "وليس في ملوك النصرى أترف في الملك ولا أنعم ... وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين"¹³⁵. وربما كان المقصود بالزينة الملابس والنقوش التي كان الحكام المسلمين يستعملونها، وتأثر بها ولاسيما أنه يقلدهم في جوانب أنحاء مملكته¹³⁶.

وكان أحد الدواوين في دولته ديوان الطرز، الذي يصنع الملابس الملكية المطرزة بالذهب والفضة، وكان أحد العاملين في ذلك الديوان اسمه يحيى بن فتيان "وهو يطرز بالذهب في طراز الملك"¹³⁷، ويبدو أن فيه تغزل قطع الحرير خيوطاً ذات ألوان كثيرة وتحمياً لنسج أشياء متنوعة¹³⁸.

ومن المنسوجات الباقية عباءة مصنوعة سنة 528 هـ "للمك رجار إسلامية المناظر والزخرفة، ففي نصفها نخلة على جانبيها أسدان منقضان على جملين وعلى حاشيتها كتابة بالعربية جاء فيها: مما عمل الحضرة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال، والمجد والكمال، والطول والافضال، والسماحة والجلال، والفخر والجمال، وبلوغ الأماني والآمال، وطيب الأيام والليال، بلا زوال ولا انتقال، بالعز والرعاية، والحفظ والحماية، والسعد والسلامة، والنصر والكفاية، بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسائة"¹³⁹.

ويعد التأثير بجوانب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من قبل الحكام أمر طبيعي وذلك للقرب الجغرافي، وإنما البلد الأكثر تحضراً في المنطقة، ففي مجال الأقمشة والملابس كانت صناعة الأقمشة والملابس متطورة بحيث أنه شكلت جزء من تجارتها الخارجية وصورتها الحضارية¹⁴⁰.

وكانت مدينة غرناطة¹⁴¹ مركز مهم لتزويد أوروبا بالأنسجة المعروفة بالـ "غرنادين" وكان الطلب على تلك المنسوجات ذات الألوان الزاهية والرسوم الهندسية والنباتية المختلفة في أوروبا كبيراً، حيث دخلت حتى في ألبسة رجال الدين وحفظ آثار القديسين، وكذلك في ملابس الطبقة الأرستقراطية حيث صنعوا من تلك الأقمشة جيب، حتى أن ازدياد الحاجة إلى تلك الأقمشة جعلت التجار ينشئون الأنوال في مناطق متعددة من فرنسا وإيطاليا، وكان بعض العاملين في تلك المراكز من المسلمين .

ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي ازداد اهتمام الحياك الأوروبيين بالمواضيع الإسلامية حيث كثرت النماذج الخرفية المعتمدة على تقليد الحروف والكلمات العربية دون الاهتمام بالمعنى، واستمر ذلك حتى بعد انتهاء الحكم العربي الإسلامي، إذ أن بقايا الصناع الأندلسيين الذين لم يهاجروا ظلوا يمارسون تلك الصناعة¹⁴².

وكانت مدينة المرية¹⁴³ الأندلسية فيها عدد كبير من دور الطراز، فإنتجت الأندلس جميع المنسوجات من الأصفهاني والجرجاني، إلى الديباج، وهو المعروف في المراجع الأجنبية باسم البروكاد، واشتهرت مدينة المرية بصنع الحلل والستور والمعاجر والثياب المعينية والخمر والعتابي (واسمه مستمد من حي العتابية في بغداد) . وأحسن الأندلسيون تقليد الأخير، حتى اشتهرت به المرية، وعن طريق الأندلس عرف الايطاليون والفرنسيون هذا النسيج، ومنهما انتشر في أوروبا تحت اسم (تاي)¹⁴⁴.

ذكر ذلك الإدريسي فقال: " وكان بها من كل الصناعات كل غريبة وذلك أنه كان بها من طرز الحرير 800 طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبھاني والجرجاني، والستور المكلفة والثياب المعينية والخمر، والعتابي، والمعاجر، وصنوف أنواع الحرير¹⁴⁵ ؛ وذكر ياقوت عنها: " ويعمل بها الوشي والديباج فيجاد عمله، وكانت أولا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يثقف في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية¹⁴⁶ .

وكانت مدينة جيان¹⁴⁷ فيها أكثر من " ثلاثة آلاف قرية كلها تربي بها دود الحرير " ¹⁴⁸ . وكانت مدينة جنجاله¹⁴⁹ يعمل "بها من وطاء الصوف مالا يمكن صنعه في غيرها " ¹⁵⁰ . وكانت مدينة كونكه¹⁵¹ " لها ررض ويصنع بها من الاوطية المتخذة من الصوف كل غريبة " ¹⁵²

وكان حصن بكيران¹⁵³ " تصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة وهي من أبداع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض " ¹⁵⁴ .

وكانت مدينة البيرة¹⁵⁵ مشهورة بانتاج نوع من الكتان، ذكر الحميري: " وكتان هذا الفحص يربي جیده على كتان النيل، ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين " ¹⁵⁶ .

إن النص الذي ذكره ابن حوقل عن ما يصنع من الملابس والفرش في الأندلس يدل على التقدم وعلى المهارة، حتى إنها كانت تحمل إلى أصقاع مختلفة فقال: " ومن الصوف قطع كأحسن ما يكون من الارمني الحفخور الرفيع الثمن إلى حسن ما يعمل بها الأنماط. ولهم من الصوف والأصبغ فيه وفيما يعانون صبغة بدائع بمحشائش تختص بالأندلس، تصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما

يُثرونه من ألوان الخزوالقز، ويجلب منها الديقاج، ... ويعمل عندهم من الخز السكيب والسفيق ... ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابسه ويعمل في بلدهم من الكتاني الداني للكسوة " ¹⁵⁷ .

إن تلك الاشارات تعطينا فكرة عن التقدم الذي شهدته الأندلس في العصور الإسلامية، وإن تأثير حضارتها لم ينتهي بنهاية الحكم العربي الإسلامي، بل على العكس استمر ليعطي دلائل مهمة في الحوار الحضاري بين الشعوب . فقد أستم تأثير الحضارة العربية الإسلامية في المجتمع الاسباني بعد سقوط غرناطة، حيث أن نبلاء قشتالة وأبناءهم كانوا يتزينون بأزياء الأندلسيين ¹⁵⁸ .

إن المفردات التي دخلت الحياة اليومية تعكس التأثير الحضاري منها: ألفاظ عربية خاصة بقص الشعر وتسريحه، والملابس الداخلية، فملابس السيدات الاسبانيات تزدان بأروع وأغلى الملابس، وكانت تحمل أحيانا اسمها العربي نفسه فيقال الجبة والدراعة، وهي جبة ذات أزرار، واللحاف وهو المعطف من الفراء، والنسيج الحريري (الطراز) ¹⁵⁹ . وكان تكفين القديسين باستعمال الأقمشة الإسلامية أمر وإشارة غاية في الأهمية لأنه يعكس بأن المسيحيين كانوا ينظرون إلى تلك المصنوعات بعين الإعجاب والتقدير ¹⁶⁰ .

وفي متحف فيش قطعة من الحرير تزدان بصور من الحيوانات وهي تقليد للأندلسيات ¹⁶¹ . ومن الآثار المهمة الموجودة في متحف كليفلاند الستارة المأخوذة من الحمراء، وغيرها من الأقمشة التي كانت توضع مع جثمان الميت في الشمال المسيحي وهي في الأصل أقمشة إسلامية ¹⁶² .

ويبدو من المناسب ذكر روجير الثاني ملك صقلية الذي كان يلبس كالمسلمين فسماه منتقدوه بالملك الوثني، وكانت جبته مزينة بالحروف العربية وبالخط الكوفي، وظل الزي الإسلامي شائعاً حتى ولاية حفيده وليم الثاني (1166-1189)¹⁶³. وفي مدينة بلرم كان زي النساء المسيحيات هو أزياء المسلمات، فقد شاهد ابن جبير ذلك فقال " وزي النصرانيات في هذه المدينة زي المسلمات: فصيحات اللسان، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، ويردن لكنايسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر " 164 .

وفي عهد فردريك الثاني الذي كانت سياسته عنصرية مع المسلمين، فقد ضم قصره فلاسفة من بلاد الشام وبغداد ذوو لحى مستطيلة وجبب فضفاضة¹⁶⁵. وهكذا يبدو أن هناك ذوق جديد اكتسبه الأوربيون من خلال الحضارة الإسلامية في الأندلس، حيث نشأت عندهم عادات جديدة في ما يتعلق بالنسيج وصناعة الأزياء والملابس¹⁶⁶.

تاسعاً : الصناعة

نتقلت من الأندلس إلى أوروبا العديد من الصناعات ، وربما من أهمها :-

- الخزف والزجاج

كانت الأندلس مركزاً مهماً لصناعة الخزف¹⁶⁷، وكانت مدن مالقة والمرية ومرسية مشهورة بهذه الصناعة، وكانت مدينة بلنسية تصدر منتوجاتها من الخزف والزجاج إلى مدينة بواتيه التي غدت فيما بعد مركزاً لتلك الصناعة، ومنه الخزف

المصقول الأبيض المدهون باللونين الأخضر والأسود وهو المعروف بخزف إيفيرا أو مدينة الزهراء . وعلى العموم فإن صناعة الخزف كانت منتشرة في الأندلس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ومدرسة الخزف الأندلسية تميزت بأشكال متعددة من صناعة الخزف والفسيفساء، لاسيما الآجر المختلف الألوان الذي لا يزال رائجاً في إسبانيا والبرتغال، وعن طريق الأندلس انتقلت صناعة الخزف إلى إيطاليا¹⁶⁸ .

وتبين الآثار والقطع الفنية التي ما زالت محفوظة إن صناعة الخزف كانت مزدهرة في الأندلس، وقد بلغ الصناع الأندلسيون مستوى تقنياً عالياً في هذا المجال، وأنجزوا قطعاً فنية وطرزاً متميزة، كما كانوا يصدرون منتجاتهم الخزفية إلى الخارج، واستمرت تقنياتهم وطابعهم الخاص في فخار المدجنين والموريسكيين، وبالخصوص الطابع الأخضر والأرجواني والأزرق، ومن الأندلس انتقلت إلى أوروبا¹⁶⁹ .

وجمعت الأندلس بين التقاليد الخزفية المحلية والمشرقية، وكان التجديد الأهم الذي أدخله الأندلسيون هو التزجيج، وكانت تتطلب استعمال تقنيات التزجيج الرصاصي والقصديري، والحبل اليابس والملمع . وكان الطراز الأخضر والارجواني والذي يميز الخزف الأموي يزجج بالقصدير، واستعملت تقنية الحبل اليابس في الأندلس ابتداء من القرن العاشر الميلادي، وتتمثل في رسم التصميم أو الشكل الزخرفي بالمنغيز والشحم، وفصل الخانات أو المربعات ذات الألوان المختلفة، وتزجيج الآنية في عملية الفخر الثانية¹⁷⁰ .

ودخل الخزف المذهب المشهور في الأندلس في القرن العاشر الميلادي، قادماً إليها من المشرق، وفي العهد النصري انتجت مالقة والتي حمل هذا الخزف اسمها : "ماليشا" ، "ماليكا"، نماذج رائعة من هذا الفن (جرار قصر الحمراء مثلاً) . وكانت هذه الجرار تفخر مرة واحدة، ثم تغطس في كبريتيد القصدير والرصاص، ثم تزين

بأوكسيد الكوبالت (الذي يعطيها اللون الأزرق فوق التزجيج القصديري)، وكانت الانعكاسات الذهبية تحصل بفضل استعمال كبريتيد الفضة والنحاس والزئبق وأوكسيد الحديد والشب، وفخر القطعة للمرة الثالثة في درجة حرارة تبلغ 650 درجة مئوية، وابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي بدأت هذه التقنية تصدر إلى أوروبا¹⁷¹.

- الورق

جاء الورق من الشرق، وانتشر في أوروبا عن طريق الأندلس، وقد وصلت صناعة الورق إلى قرطبة في القرن العاشر الميلادي، ابان أوج الازدهار الثقافي التي وصلت إليه في ظل الخلافة الأموية، واشتهر ورق شاطبة بجودته، وهي أول مدينة في الغرب ظهرت فيها صناعة الورق¹⁷².

وتكمن جوانب التقدم التقني التي أدخلها العرب في مجال صناعة الورق في استعمال الطحن المائي، وتبييض الألياف بالجير، وتصفيتها بالنشاء، وكانت المواد الخام الأكثر استعمالاً هي الكتان والقنب. وكانت المادة الخام لصناعة الورق عند العرب تتمثل بالكتان والأسمال البالية، وكان الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر، والذي كان شغوفاً بالعلم والكتب، يشجع صناعة الورق بالأندلس، فضلاً عن أنه أنشأ مكتبة قرطبة الكبيرة، والتي مازال جامع القرويين بفاس يحتفظ بكتاب منها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي¹⁷³.

وكان الورق يصنع بأماكن مختلفة من الأندلس، غير أن الورق المصنوع في شاطبة، والذي كان يستعمل فيه نشاء الأرز، كان الأكثر قيمة، وانطلاقاً من الأندلس وصقلية انتقل وانتشر استعمال وصناعة الورق في بقية أنحاء أوروبا. وقد

أدى ظهور الورق إلى مضاعفة أعداد الكتب إلى أضعاف كثيرة، وكان محركاً أساسياً للنهضة الفكرية في أوروبا .

عاشراً : الموسيقى

تميزت الحضارة الأندلسية بازدهار الموسيقى، إذ امتزجت موسيقها مع موسيقى المشرق الإسلامي مع وصول موسيقيين وجواري من المشرق إلى الأندلس، ونجد ذلك في المصادر التاريخية عن الموسيقى والموسيقيين في الأندلس، إذ تضم رسائل المنظرين الأندلسيين (من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي) الجوانب النظرية والتطبيقية للموسيقى في الأندلس . كما أن الرسوم والتماثيل والآلات الموسيقية التي تم العثور عليها خلال الحفريات الأثرية تعكس تنوع الموسيقى وآلاتها في الأندلس، التي تؤكد اطلاع الموسيقيين الأندلسيين على الأعمال الموسيقية الشرقية، والاقتراب من أعلامها مثل الكندي والفارابي وأخوان الصفا وابن سينا وغيرهم . وتناولوا الموسيقى بمختلف أنواعها : الموسيقى الكلاسيكية والشعبية والصوفية، وهي على تنوعها تعكس تنوع أهداف الموسيقى (الترفيهية منها الجمالية والوظيفية)، واختلاف الألوان الشعرية التي ترافقها، وبفضل انتشار الموسيقى الأندلسية في بلاد المغرب العربي، استمر هذا التراث إلى يومنا هذا¹⁷⁴ .

وكانت المدارس الموسيقية في الأندلس تقسم على : مدرسة جنوب الأندلس (قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة)، ومدرسة سرقسطة والبرازين (بني الرزين)، ومدرسة (مرسية وبلنسية وشاطبة)، وكلها ترجع بالأصل إلى المدرسة القرطبية التي كان محورها

الرئيس الموسيقي زرياب . وتخبّرنا المراجع أنه كان هناك نظام تنويط أجمدي مبني على النوتة الأساسية للأوتار المزدوجة الأربعة للعود، وعلاقتها بالعناصر الكونية والأمزجة والطبائع البشرية، المقامات والإيقاعات الرئيسة للموسيقى الرفيعة¹⁷⁵ .

أدخل الأندلسيون عدة آلات موسيقية إلى أوروبا أشهرها العود والقانون والرباب والناي والنفير والدف والطلبل وغيرها . وكان أكثر الموسيقيين شهرة وتجديداً زرياب الذي أدخل الوتر الخامس على العود التقليدي، وكان صنع الآلات الموسيقية من اختصاص فئة النجارين المهرة¹⁷⁶ .

وعند الحديث عن الآلات الموسيقية، لا بد من الاستشهاد بالمقري الذي تحدث عن أصناف الآلات الموسيقية الموجودة في الأندلس، فذكر منها العود، والروطة، والرباب، والقانون، والمؤنس، والكثيرة، والفنار، والزلامي، والشقرة، والنورة، والبوق، والدف، وأبو قرون، ودبدبة السودان¹⁷⁷ .

ويبدو تأثير الموسيقى العربية الإسلامية في الفلكلور الشعبي الإسباني من خلال إيقاعات الفلامنكو الذي يجمع بين الرقص والعزف والغناء، وتسمى أغاني الفلامنكو باسم كانتي (Cante)، ومنه الكانتي انترمديو (Cante Intermedio) الذي يعدّ النوع الأكثر تأثراً بالشعر العربي، وفيه تبدو المؤثرات الأندلسية واضحة¹⁷⁸ .

وكان لبروز الموشحات والأزجال الأندلسية أثر كبير على موسيقى الفلامنكو، فكلاهما يعتمد تطبيق الإيقاع الغنائي على الإيقاع الشعري أساساً¹⁷⁹ ، ويقترّب الجو العام لموسيقى الفلامنكو من الجو العام للموسيقى العربية، فكلاهما يعتمد الارتجال

بالعرف، فضلاً عن الارتباط الوثيق بالرقص، كما أنّ توزيع الأدوار في فرق الفلامنكو يتمّ على غرار مثيله في الفرق الموسيقية العربية¹⁸⁰.

ولابد من الإشارة إلى أن الفلامنكو لم ينحصر فقط في الأندلس بل انتقل منها إلى البرتغال حيث يسمى (fado)، ولم يقتصر الأمر عند ذلك بل إن الكثير من أسماء الآلات انتقل عن طريق الأندلس إلى أوروبا عامة باللفظ العربي وأحياناً بلفظ عربي محرف¹⁸¹.

لذلك ليس بالغريب أن تدخل الكثير من أسماء الآلات والموسيقى إلى الفلكلور الإسباني¹⁸²، ومنها: القيثارة وفي اللغة الإسبانية الغيتار (guitarra) الآلة الموسيقية الأهم لدى مغنيّ الفلامنكو¹⁸³، وآلة العود (laud) في الإسبانية، وأدخل العرب هذه الآلة في القرن التاسع إلى إسبانيا، ومنها انتشرت في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديّين¹⁸⁴، وهناك أيضاً الدفّ (aduf)، وهو من الآلات الإيقاعية المستخدمة لدى الكثير من فرق الفلكلور الإسباني، وهو ذا أصول عربية، والدف هو البندير (ponder) وفي الإسبانية (pandero)¹⁸⁵. التيمبال وهو الطبل في اللغة الإسبانية (atambal)، والرباب (Rabel) بالإسبانية¹⁸⁶، والصنوج (sanajas)¹⁸⁷، والنفير في اللغة الإسبانية (anafil) ومنها اشتقت كلمة (fonfar)، إذ تطلق على الآلات النحاسية التي يكثر فيها استخدام النفير¹⁸⁸، وهناك كلمات أخرى بينت تأثر الفلكلور الإسباني في الموسيقى والرقص بالحضارة الإسلامية، ومن إسبانيا انتقل ذلك التأثير إلى موسيقى القارة الأوروبية ومنها:

الزمر (Zambra) أو التزمير (Sombor) وتعني رقصة؛ rondo نوبة ؛ القانونون the kan con /la canon ؛ الشقير echiquier وهو لفظ يطلق حتى القرن الرابع عشر على آلة صغيرة ذات مفاتيح سوداء فيبيضاء على التوالي توضع على المنضدة في أثناء العزف، وهذه الآلة الأساس الذي تطورت منه آلة البيانو، النقارة (naker – nacaire)، الطنبور (tambourin a) (cordes)، البوق (albugue)، وغيرها¹⁸⁹ .

ومن ذلك يبدو تأثير الحضارة الإسلامية في الفلكلور بجوانب عديدة لازالت مستعملة، وهي من أصل عربي، ولم يقتصر الأمر عند ذلك بل نجد أن بعض الكلمات دخلت إلى موسيقى أمريكا اللاتينية عن طريق الاسبان، وتحديدًا عن طريق فن الفلامنكو، ومازالت تستعمل إلى يومنا هذا¹⁹⁰ .

الخاتمة :

احتلت الأندلس موقعاً ريادياً في ترجمة العلوم والفكر، ونقلت إلى الغرب الأوروبي أعمالاً إسلامية جوهريّة، ولاسيما المؤلفات المتعلقة بالعلوم الطبيعية، والفلسفة، وعلم النبات، والصيدلة، والطب، وغيرها، وفي إطار تلك الحيوية العلمية التي تميز بها المجتمع الأندلسي، ازدهرت المعارف وقدمت الأندلس العديد من العلماء والمؤلفات الأصيلة، فقد كانت المهمة الأساسية للأندلس هي نقل المعارف من عالم إلى آخر زمانياً ومكانياً، من الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الغربية، لذلك فإن الكثير من المؤرخين يعدّون الحضارة الأندلسية جسراً ما بين الشرق والغرب .

إن أرض الأندلس شهدت أكبر لقاء حضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وتتحق ذلك اللقاء بفضل الإسلام الذي يؤمن بالتسامح الذي مكن من انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في جوانب متعددة ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية . وكانت الإنجازات العلمية من آثار تلك الحضارة، فالعلم الإسلامي كان شامل لكل أنواع المعارف التي فاضت وغمرت أوروبا بغزارتها ودقتها، فعن طريق الأندلس أنتقلت إلى أوروبا مخترعات كثيرة، أصبحت فيما بعد ركائز للنهضة العلمية الأوروبية .

قائمة الهوامش :

- ¹ - Dubler, Cesar E., La Materia Medica de Dioscórides. Transmisión medieval y renacentista, Barcelona, 1959, vol.9, p. 112 ; García Ballester, L., Los moriscos y la medicina. Un capitulo de la medicina y la ciencia marginadas en la España del siglo XVI, Barcelona, 1984, p. 67 ; وجدان فريق عناد ، علم الصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية ، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية ، المجلد السابع ، العدد الثالث ، 2012، ص 384-387.
- ² - Liavero Ruiz, E., La mediciana andalusi y su aportacion a la botanica ciencias de la Naturaleza en al-Andalus Textos y Estudios, Granada, 1990, p. 68 ; Giron Irueste, F., Los médicos mozárabes y el proceso de constitución de la medicina árabe en al-Ándalus , Asclepio, 1978-1969, p. 43 .
- ³ - Giron Irueste, F., Occidente Islámico Medieval- Historia de la Ciencia y de la Técnica, Madrid, 1994, p. 144 ; Al-Imrani, Abd Allah, Andalusian medicine : theory and practice Boletin de la Asociacion Espanola de orientalista , 1987, p. 54 ; Rosa Khune, Abu Marwan b. Zuhr un

professionnel de la medecine en plein XII siecle, en:La Patrimoine Andalous dans La Culture Arabe Et Espagnole, Tunis, 1991 , p. 133 ; Jacquart, D, Influence de la medecine arabe en Occident Medieval , en: Roshdi Rashed, Histoire des sciences arabes, Technologia, alchimie et sciences de la vie , vol. 3, Paris, 1997, p. 79 .

- Vernet, J., La Cultura hispanoarabe en Oriente y Occidente, Barcelona, ⁴ 1978, p. 36 .

- Giron Irueste, op.cit , p. 45. ⁵

Smith, E., Medician, en: Roshdi Rashed, Historie des sciences - Savage ⁶ arabes Technologia alchimie et sciences de la vie, vol. 3, Paris, 1997, p. 221.

- Pena, C.; Diaz, A.; Alvarez de Morales, C.; Giron, F.; Kuhne, R.; ⁷ Vazquez, C. y Labarta, A., Corpus Medicorum arabico-Hispanorum , Awraq, 4, 1981 , p. 59.

⁸ - علي بن العباس الجوسي الأهوازي (ت 384 هـ) من سكان الأهواز ، ظهرت شهرته في القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي . وألف كتابه كامل الصناعة بناء على طلب عضد الدولة بن بويه ، وكان رئيساً لمارستان عضد الدولة في بغداد ، وبقي كتابه المرجع الأساس للدارس إلى حين ظهور كتاب القانون لابن سينا . ينظر : فرج محمد الهوني، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام ، ليبيا، 1986، ص 145-146 .

⁹ - قسطنطين الأفريقي : ولد بقرطاجنة سنة 406 - 480هـ وتوفي في جبل كاسينو، قام برحلة طويلة في أرجاء المشرق، ثم عاد إلى قرطبة، ثم رحل إلى سالرنو حاملاً معه مجموعة من المخطوطات، وهو يعد مؤسس مدرسة سالرنو، دخل بعد ذلك إلى دير جبل كاسينو، وأصبح المشرف عليه، وعكف على ترجمة بعض المخطوطات العربية، وبالأصح انتحاله، وكان من أكبر العاملين على نقل العلوم العربية إلى أوروبا . ينظر : الهادي روجي إدريس . الدولة الصنهاجية تاريخ أفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، ج 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 428 .

¹⁰ - ماهر عبد القادر محمد علي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، 1988، ص 79-80 .

- ¹¹ الرازي : أبو بكر محمد بن زكريا المولود في مدينة الري، برع في علم الطب حتى ألف كتباً كثيرة، وأصبح رئيساً لمراستان الري، ثم انتقل إلى بغداد إذ عين رئيساً لمستشفى بغداد أيام المفتي العباسي، وله مؤلفات كثيرة في الطب والهندسة والمنطق وما وراء الطبيعة والإلهيات وعلم النفس والجغرافية والكيمياء والموسيقى والسياسة. ينظر : القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت 646 هـ) . أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة، مصر، 1329 هـ ، ص 414 ؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681 هـ) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس، ج 4 ، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص 244 ؛ ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت بعد سنة 384 هـ) ، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955 ، ص 77 .
- ¹² غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ت، ص 589 .
- ¹³ - ماهر عبد القادر محمد علي ، مقدمة في تاريخ الطب العربي ، ص 81-83 .
- ¹⁴ ابن سينا : أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا المولود سنة 370 هـ / 980م في قرية من قرى بخارى ، ومن صغره اهتم بالعلم والتعليم ، فكان إلى جانب كونه طبيباً فيلسوفاً ، مهتم أيضاً بالرياضيات وعلم الفلك والموسيقى . ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 1/420 ؛ إدوارد براون ، الطب العربي ، ترجمة داود سلمان علي ، (بغداد ، 1964) ، ص 63 .
- ¹⁵ - حسين أمين ، جهود العرب في العلوم الطبية في العصرين العباسي والأندلسي ، مجلة المورد ، العدد الثاني ، المجلد 35 ، سنة 2008 ، ص 16-18 .
- ¹⁶ - ماهر عبد القادر محمد علي ، مقدمة في تاريخ الطب العربي ، ص 83-84 .
- ¹⁷ ابن الهيثم : الحسن بن الحسن بن الهيثم المولود في البصرة سنة 354 هـ / 965م ، انتقل إلى مصر وكان معروفاً بالذكاء ومتفناً في العلوم ولاسيما الرياضيات، واشتهر أيضاً بصناعة الطب . ينظر : ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت 686 هـ) . عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر، بيروت، 1957 ، 149/3 .
- ¹⁸ - أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب قبل الإسلام، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1959 ، ص 121 ؛ الديميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، دار القلم، د.م، 1962 ، ص 306 ؛ حسين أمين ، جهود العرب في العلوم الطبية ، ص 18 .
- ¹⁹ ابن النفيس : علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس ، المولود سنة 607 هـ قرب مدينة دمشق ، واشتهر بصناعة الطب ، توفي سنة 687 هـ . ينظر : ابن تغري بردي ، جمال الدين يوسف الأتابكي (ت 874 هـ) . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج 7 ، القاهرة ، 1963 ، ص 377 .
- ²⁰ - حسين أمين ، جهود العرب في العلوم الطبية ، ص 18 .

- 21 - الزهراوي : خلف بن عباس الزهراوي المكنى بأبي القاسم المولود في مدينة الزهراء، والمشهور بعلم الجراحة، توفي سنة 427 هـ . ينظر : الطيبي ، أحمد بن يحيى (ت 599 هـ) . بغية المتمسك ، القاهرة، 1967 ، ص 217 ؛ عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، القاهرة ، 1960 ، ص 35 .
- 22 - حسين أمين ، جهود العرب في العلوم الطبية ، ص 18-19 .
- 23 - ماهر عبد القادر محمد علي ، مقدمة في تاريخ الطب العربي ، ص 85 .
- 24 ابن الجزار : طيب فيرواني (ت حوالي 395 هـ / 1004-1005م) من كتبه المشهورة : كتاب سياسة الصبيان وتدبير أمورهم . وكان غنياً جداً ولكنه يعيش عيشة بسيطة، متبعداً عن المحافل الرسمية ، يعالج المرضى ويوزع الأدوية على المحتاجين دون مقابل، وألف من أجل ذلك كتاب طب الفقراء والمساكين، وله أيضا كتاب إبدال الأدوية . ينظر : ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 38/1 ؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ص 427 .
- 25 - ماهر عبد القادر محمد علي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، ص 84 .
- 26 - الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ، 427 .
- 27 - خليل ابراهيم السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، مديرية دار الكتب والطباعة والنشر، جامعة الموصل ، الموصل، 1986، ص 482 .
- 28 - ماهر عبد القادر محمد علي ، مقدمة في تاريخ الطب العربي ، ص 86-91 .
- 29 - Rachel Arie ، Espana Musulmana siglos VIII-XV, Barcelona, 1993, p.415-422.
- 30 - فرج محمد الهوني، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية ، ص 199 .
- 31 - Giron Irueste, F., op.cit, p. 48 .
- 32 - وجدان فريق عناد ، تأثير الحضارة الأندلسية على أوروبا - العلوم العقلية أنموذجاً ، مجلة كلية التربية الأساسية - جامعة بابل ، العدد الثاني ، آذار 2010 ، ص 95-96 .
- 33 الخوارزمي : أبو عبد الله محمد بن موسى (ت 232 هـ / 846م) من أشهر علماء الرياضيات المسلمين في عهد المأمون . ينظر : ابن النسيم ، أبو الفرج إسحاق بن يعقوب (ت 385 هـ) . الفهرست ، المكتبة التجارية، مصر، 1348 هـ ، ص 274 .
- 34 - عبد الحسين مهدي الرحيم، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، طرابلس، 1995، ص 205-207 ؛ قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، بيروت، د.ت، ص 160 .
- 35 - الخوارزمي، محمد بن موسى (ت 232 هـ) . الجبر والمقابلة، مصر، 1968، ص 30 ، 31 ، 34 ، 38 ، 54 .

- 36 - عبد الحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص 607 .
- 37 - المرجع نفسه ، ص 607-610 .
- 38 - Emilio Gonzalez Ferrin, Historia General de al-andalus, Segunda Edicion, Almuzara, 2007, p.431-471; Giron Irueste, F., op.cit, p. 52 .
- 39 - Giron Irueste, F., op.cit, p. 53 .
- 40 Abbas ibn Firnas el asbio de al- - Antonio R.Acedo del olmo ordonez, andalus, Editorial la serranía,2015,p19-30.
- 41 Rodrigo Gutierrez Vinuales, el legado científico, Ronda , 1995 , - p.141.
- 42 - Savage-Smith, E., op.cit, 3/ 64 .
- 43 Vernet, J., La ciencia en al-Andalus, Sevilla, 1986, p. 83.-
- 44 Abbas ibn Firnas el asbio Antonio R.Acedo del olmo ordonez , - de al-andalus, p.79-100.
- 45 - Ibid ,p.57,123.
- 46 - Antonio claret dos santos, Azarquiel y Otras Historias la astronomía en al-andalus , instituto de astrfísica de Andalucía ,2005,p24-27.
- 47 - Ibid ,p.31-33.
- 48 Vernet, J., op.cit, p. 84.-
- 49 - Roser Puig, Une connexion hispano-maghebine dans le domaine des instruments astronomiques: La Safiha d al-Zarqalluh (Azarquiel) Xle siecie, en:La Patrimoine Andalous dans La Culture Arabe Et Espagnole, Tunis, 1991 , p. 207 .
- 50 ابن صاعد الأندلسي، أبو القاسم بن أحمد (ت 462 هـ) . طبقات الأمم، مطبعة التقدم، مصر، د.ت ، ص 68-67 .
- 51 - القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 177-178 ؛ الديميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الخليم النجار، دار القلم ، د.م ، 1962، ص 208 .
- 52 Antonio claret dos santos , op.cit,p. 64.-

53 - Samsó, J., Las ciencias de los antiguos en al-Andalus, Madrid, 1992, p. 19.

54 - Roser Puig, op.cit, p. 212.

55 - عبد الحسين مهدي الرحيم ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص 611-613 .

56 - المرجع نفسه، ص 612 .

57 - بدري محمد فهد وآخرون، الحضارة العربية الإسلامية، مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1988، ص 141 .

58 - ينظر:- سليمان بن أحمد بن سليمان المهري ، تحفة الفحول في تمهيد الاصول في أصول علم البحر، تحقيق

ابراهيم خوري ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 1970 .

59 - كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، مركز الإسكندرية

للكتاب ، الإسكندرية ، د.ت، صص349-357.

60 - الإصطخري ، ابن إسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت النصف الأول من القرن الرابع الهجري /

العاشر الميلادي) . المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مطابع دار القلم، القاهرة، 1961،

ص38؛ الحميري ، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت 900هـ / 1494م) . الروض المعطار في خبر الأقطار،

تحقيق إحسان عباس، ط2 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937، ص81، 47.

61 - الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت 548هـ / 1154م) . صفة المغرب وبلاد السودان ومصر

والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، ليدن ، 1894م، ص 201-207.

62 - حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، دار العودة ، بيروت ، 1982، ص 37-52.

63 - سليمان بن أحمد بن سليمان المهري ، تحفة الفحول ، ص 40 .

64 - المصدر نفسه ، ص40-55.

65 - حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ص ص 179-203.

66 - المرجع نفسه ، ص 197.

67 - المرجع نفسه .

68 - عبد الرحيم بدر ، الفلك عند العرب ، مؤسسة مصري للتوزيع ، لبنان ، 1986، ص 83.

69 - ينظر :- حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ص 79-83.

70 - ينظر عن الأدوات المستخدمة في الملاحة الأندلسية : سليمان المهري بن احمد بن سليمان المهري ، العمدة

المهريّة في ضبط العلوم البحرية ، تحقيق ابراهيم خوري ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 1971.

- ⁷¹ - ينظر عن أنواع المراكب المستخدمة في الملاحة الأندلسية : ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد بن شهاب النجدي ، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، تحقيق ابراهيم خوري ، مركز الدراسات والوثائق ، الإمارات ، 2001 ، ص 16 ، 379.
- ⁷² - ينظر :- وجدان فريق عناد ، إمارة الحج في المغرب العربي والأندلس ، دار أمجد ، عمان ، 2015.
- ⁷³ - المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 1041هـ) . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، د.م، د.ت، ج ، 1 / 187 ، 206
- ⁷⁴ - عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ، 1969 ، ص 169.
- ⁷⁵ - كمال السيد أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، الاسكندرية ، د.ت ، ص 337.
- ⁷⁶ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ / 1405م) . المقدمة ، المطبعة الزهرية ، القاهرة ، 1311هـ ، ص 152 .
- ⁷⁷ - السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مؤسسة الجامعة ، الإسكندرية ، 1981 ، ص 66.
- ⁷⁸ - الحميري ، الروض المعطار ، 106.
- ⁷⁹ - وجدان فريق عناد ، إمارة الحج في المغرب العربي والأندلس ، ص 89- 98.
- ⁸⁰ - ينظر : بيرنت خوان ، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط الملاحية ، ترجمة مختار العبادي ، مجلة المعهد المصري، العدد الأول ، 1953 ، ص 45.
- ⁸¹ - بيرنت خوان ، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط ، ص 45.
- ⁸² - المرجع نفسه.
- ⁸³ -; Manuela Marin, El banquete de las palabras, Madrid, 2005, p. 132
- محمد مولود خلف، فضل العرب على زراعة الرمان بالأندلس، منشور في ندوة التربة والزراعة عند العرب ، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، بغداد، 1988 ، ص 4 .
- ⁸⁴ - غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص 274. ينظر: ابن حجاج الاشبيلي ، أبو عمر أحمد بن محمد (ت 414هـ) . المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار وحاسر أبو صافية، مجمع اللغة العربية الأردني، 1982 ، ص 63؛ ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي الأندلسي (571هـ) . نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الاندلس، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مطبعة مصر، القاهرة، 1955 ، 290؛ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ) . عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978 ، ص 298.

⁸⁵ - إغناطيوس فيراندوفروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية ، بحث منشور في ماء العينين ماء العينين العتيق، اللغة العربية في إسبانيا، الرياض، 2015، ص85-86 ؛ ينظر كذلك : تقي الدين عارف الدوري، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم في الأندلس - دراسة في المصادر والتاريخ والحضارة والتأثير - ، منشورات جامعة ناصر، الخمس، ليبيا ، 1997، ص318 .

⁸⁶ - ينظر : ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي (ت 367 هـ) . صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت ، 1979، ص 104 ؛ محمد مولود خلف، فضل العرب على زراعة الرمان بالاندلس، ص1 .

⁸⁷ - Manuela Marin, op.cit, p. 133.

⁸⁸ - عادل محمد علي الشيخ، النبات في اسبانيا العربية، الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، الكويت، 1988، ص328.

⁸⁹ - البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ) . كتاب المسالك والممالك نشر بعنوان جغرافية الأندلس وأوربا، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، بيروت، د.ت، ص88، ص112؛ الأنطاكي ، داود (ت 1008هـ) . تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، المطبعة الأزهرية المصرية، مصر، 1309هـ، ج1، ص 12.

⁹⁰ - عبد الرضا سرحان، دور الحضارة العربية الإسلامية في تطور أساليب الزراعة والري في العراق، ندوة أساليب الإنتاج الصناعي والزراعي في الحضارة العربية الإسلامية، الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم، الأردن، 2001، ص231؛ إغناطيوس فيراندوفروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية، ص85-86 .

⁹¹ - ابن زرين التجيبي، أبو الحسن علي بن محمد (ت 630هـ) . فضالة الخوان في طبيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص91 .

⁹² - عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الاندلس، إسهاماتها ميادينها تأثيرها على الحضارة الأوربية ، دار الإرشاد، بيروت، 1996، ص60.

ينظر عن زراعة العنب : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص110؛ الشقندي، إسماعيل بن محمد (ت 629هـ) . فضائل الأندلس وأهلها، تقدم صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1968، ص51 .

⁹³ - المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 1041هـ) . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج1، ص467-468؛ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، دمشق، 1972، ص148.

⁹⁴ - ابن عذارى، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت بعد 712 هـ) . البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ، تحقيق كولون وليفي بوفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص 40 ؛ الغرناطي ، محمد بن مالك . زهر البستان ونزهة الأذهان ، تحقيق محمد مولود خلف ، بغداد، 2000، ص 123 .

- ⁹⁵ - فيليب حتي، تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت، 1953، ج 3، ص 629؛ بيداء محمود حسن حميد القيسي، الزراعة والري في الاندلس في عصري الإمارة والخلافة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2005، ص 138؛ إغناثيون فيراندوفروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية، ص 85-86. ينظر عن الأمكنة وأساليب زراعته في الاندلس : ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي (ت بعد سنة 318هـ)، الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، دمشق، 1995، 2/ 1184-1185؛ ابن الحجاج الاشبيلي، المقنع في الفلاحة، ص 34؛ ابن بصال، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت 499هـ). كتاب الفلاحة، نشر خوسيه ماريا ومحمد عزيمان، تطوان، 1955، ص 34.
- ⁹⁶ - ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت 749هـ). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في الحيوان والنبات والمعادن، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي، د.ت، 1996، ص 233.
- ⁹⁷ - ينظر : ابن وحشية، الفلاحة النبطية، 2/ 1222؛ المقرئ، نفع الطيب، 197/1.
- ⁹⁸ - ابن بصال، الفلاحة، ص 82؛ الشقندي، فضائل الاندلس وأهلها، ص 52؛ المقرئ، نفع الطيب، 4/ 200.
- ⁹⁹ - ابن ميمون القرطبي، ابو عبد الله موسى بن عمران . الطب القديم، تحقيق عوض واصف، مطبعة المحيط، مصر، 1932، ص 49؛ القزويني، عجائب المخلوقات، ص 302.
- ¹⁰⁰ - لوبون، حضارة العرب، 274. ينظر: ابن وحشية، الفلاحة النبطية، 520/1؛ ابن بصال، الفلاحة، 114-115؛ القزويني، عجائب المخلوقات، ص 329.
- ¹⁰¹ - فيليب حتي، تاريخ العرب، 3/ 629؛ ابن بصال، الفلاحة، ص 117.
- ¹⁰² - الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن أدريس (ت 560 هـ). المغرب وارض السودان ومصر والاندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1968، ص 189.
- ¹⁰³ - المصدر نفسه، ص 203.
- ¹⁰⁴ - احمد حلوي، الأساليب الزراعية المتبعة في إكثار وتربية شجرة الزيتون عند علماء الفلاحة العرب، ندوة أساليب الإنتاج الصناعي والزراعي في الحضارة العربية الاسلامية، الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم، الأردن، 2001، ص 146.
- ¹⁰⁵ - ينظر حول الاهتمام بزراعة الزيتون والعناية به في الاندلس : ابن حجاج الاشبيلي، المقنع في الفلاحة، ص 53؛ ابن البصال، كتاب الفلاحة، ص 60.
- ¹⁰⁶ - محمد مولود خلف، أصالة تجربة العرب في زراعة الزيتون في الاندلس، منشور في إسهامات العرب في العلوم الزراعية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، بغداد، 1987، ص 7؛ سانشير، الزراعة في اسبانيا المسلمة، بحث منشور في : سلمى الخضراء الجيوسي، كتاب الحضارة الاسلامية في الاندلس، ترجمة صلاح جرار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، 378/1؛ محمد بشير العامري، براعة الأندلسيين في فن الطبخ، مجلة جمعية المؤرخين والآثريين، العدد 9، 2002، ص 179.

- 107 - ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت 614 هـ) . رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص 267 .
- 108 - خليل إبراهيم السامرائي، علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية، وزارة الثقافة، بغداد، 1985 ، ص 408 .
- 109 - عاطف علي، الحضارة العربية الإسلامية دورها في تكوين الحضارة الاوربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ص 61 .
- 110 - Manuela Marin, op.cit, p. 134 .
- 111 - إغناثيون فيراندوفروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية، ص 85-86 .
- 112 - تقي الدين عارف الدوري، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم، ص 328 .
- 113 - المرجع نفسه، ص 328 .
- 114 - كاظم شمهود طاهر، العمارة الإسلامية في إسبانيا، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 15؛ إغناثيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في إسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، بحث منشور في ماء العينين ماء العينين العتيق، لغة العربية في إسبانيا، الرياض، 2015، ص 95-96 .
- 115 - تقي الدين عارف الدوري، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم ، ص 328-329 .
- 116 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة ، بحث منشور في : سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999 ، 2 / 865 .
- 117 - يوسف عيد ، الفنون الأندلسية وأثرها في أوروبا القروسطية، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1993 ، ص 92 ؛ ينظر : جمعة أحمد قاجحة، موسوعة العمارة الإسلامية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص 402 .
- 118 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة ، 2 / 852 .
- 119 - المرجع نفسه ، 2 / 856 .
- 120 - إغناثيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص 95-96؛ كاظم شمهود طاهر، العمارة الإسلامية في أسبانيا، ص 15-17؛ جمعة أحمد قاجحة ، موسوعة العمارة الإسلامية، ص 402 .
- 121 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة 2 / 856 .
- 122 - المرجع نفسه ، 2 / 878 .
- 123 - فيليب حتي، تاريخ العرب، ص 682 ؛ تقي الدين عارف الدوري، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم ، ص 318 ؛ إغناثيون فيراندوفروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية، ص 85-86 .
- 124 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة ، 2 / 852 .

- 125 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة ، 2 / 853 ؛ إغناثيون كوتيرث دي كومث بنيتا ، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص95-96.
- 126 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة ، 2 / 853 .
- 127 - عاطف علي ، الحضارة العربية الإسلامية، ص66-67.
- 128 - Manuela Marin, Tejer y vestir: de la Antigüedad al Islam, Madrid, 2001, p. 38 .
- 129 - إغناثيون فيراندوفروتوس، التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية ، ص83-84.
- 130 - Xaime Varela Sieiro, Tejidos y vestimenta de procedencia arabe en la documentacion altomedieval gallega 900-1250, Madrid, 2001, p. 147 .
- 131 - ينظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630 هـ) . الكامل في التاريخ، ج 5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 90 - 91 ؛ سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية، ص 1480 .
- 132 - Ciampini Laura, La capa de fermo de al- andalus. Universidad, 2009, 171-172. Granada,
- 133 - إغناثيون كوتيرث دي كومث بنيتا ، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص115-116 ؛ صلاح حسين العبيدي، الملابس العربية في العصرالعباسي من المصادر التاريخية والاثنية، دار الرشيد، بغداد، 1980، ص361.
- 134 - p.171-172; Ciampini Laura, op.cit, -
- خليل ابراهيم السامرائي، علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية، ص 407-408 .
- 135 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص267.
- 136 - Manuela Marin, op.cit, p. 39 .
- 137 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 268.
- 138 - إحسان عباس، العرب في صقلية دراسة في التاريخ والادب، دار المعارف، مصر، د.ت، ص146.
- 139 - المرجع نفسه ، ص147.
- 140 - Xaime Varela Sieiro, op.cit, p. 148 .
- 141 - ينظر : ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت 626 هـ) . معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د. ت، ج4، ص 195.
- 142 - عاطف علي، الحضارة العربية الإسلامية، ص 111 .

- 143 - ينظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5/ 119 .
- 144 - يوسف عيد، الفنون الأندلسية وأثرها في أوروبا القروسطية ، دار الفكر اللبناني، بيروت ، 1993 ، ص 124 .
- 145 - المغرب ، ص197
- 146 - معجم البلدان ، 5/ 119
- 147 - ينظر : المصدر نفسه ، 2/ 194
- 148 - الإدريسي، المغرب، ص 202
- 149 - ينظر : المصدر نفسه، 2/ 168.
- 150 - المصدر نفسه، ص 195
- 151 - ينظر : المصدر نفسه، ص 195.
- 152 - المصدر نفسه، ص 195.
- 153 - ينظر : المصدر نفسه ، ص192
- 154 - المصدر نفسه، ص192
- 155 - ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان، 1/ 526
- 156 - الحميري، محمد بن عبد المنعم (727هـ). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2 ، مكتبة لبنان، بيروت، 1982، ص 46 .
- 157 - ابن حوقل، صورة الارض، ص 109.
- 158 - خليل ابراهيم السامرائي، علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية، ص 406 .
- 159 - تقي الدين عارف الدوري، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم، ص 317- 318 .
- 160 - إغناثيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص115-
- 116 ؛ يوسف عيد، الفنون الاندلسية، ص 125 .
- 161 - المرجع نفسه، ص 125
- 162 - جيريلين دودز، تراث المدجنين في فن العمارة ، 2/ 879.
- 163 - عاطف علي، الحضارة العربية، ص 66 ؛ عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، منشورات دار سالاداب، بيروت، 1965، ص 10 .
- 164 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 274 .
- 165 - إغناثيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص115-
- 116 ؛ عاطف علي ، الحضارة العربية الإسلامية، ص68.
- 166 - Xaime Varela Sieiro, op.cit, p. 149 .

- ¹⁶⁷ المقرئ، نفع الطيب، 8 / ص 568-569.
- Carmen Gonzalez Roman, La carpintería de armar, malaga , 2012,p. 21-3;
p.283-289. Rachel Arie , op.cit,
- ¹⁶⁸ المقرئ، نفع الطيب، 8 / 568-569 ؛ عاطف علي، الحضارة العربية الإسلامية، ص110 ؛ إغناطيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص111.
- ¹⁶⁹ - إغناطيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص109-110؛
- Carmen Gonzalez Roman, op.cit,p. 21-30.
- ¹⁷⁰ - إغناطيون كوتيرث دي كومث بنيتا، النقوش الكتابية في اسبانيا وصناعة الأحرف على المواد الصلبة، ص111 .
- ¹⁷¹ - المرجع نفسه ، ص111؛
- Carmen Gonzalez Roman, La carpintería de armar,p. 21-30
- ¹⁷² - وجدان فريق عناد، فن التسفير (التجليد) في بلاد المغرب خلال العهود الإسلامية، مجلة التراث العلمي العربي، العدد الرابع، 2011 ، ص 118 .
- ¹⁷³ - المرجع نفسه، ص 118 .
- ¹⁷⁴ - Rachel Arie , op.cit, p.315-320.
- ¹⁷⁵ - Maria Dolores Guardiold,La figure de la kayna dans les sources musicales , en:La Patrimoine Andalous dans La Culture Arabe Et Espagnole, Tunis, 1991 , p. 111.
- ¹⁷⁶ - Rachel Arie , op.cit,p.315-320.
- ¹⁷⁷ - المقرئ، نفع الطيب، 3 / 213؛ أوين رايت، الموسيقى في الأندلس دراسة شاملة، بحث منشور في سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ج1، ص 820.
- ¹⁷⁸ - وجدان فريق عناد، تأثير الحضارة الإسلامية في الفلكلور الاسباني فن الفلامنكو " Flamenco " أمودجا، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي الدولي السابع، 12-13 / 3 / 2014، ج1، ص 831-834.

- 179 - عاطف علي، الحضارة العربية الإسلامية، ص 68 ، 78 ؛ يوسف عيد، أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1993، ص 67 وما بعدها، ص 94 وما بعدها .
- 180 - Maria Dolores Guardiola, op.cit, p. 112; Rachel Arie , op.cit, p.321- 324.
- 181 - يوسف عيد، الفنون، ص 284، 252؛ خليل إبراهيم السامرائي ، تاريخ العرب وحضارتهم، ص 484-485.
- 182 - في اللغة الإسبانية خمسة آلاف كلمة من أصل عربي تقريبا . ينظر : شاكر مصطفى، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990، ص 160.
- 183 - الغيتار : وقد أدخلها العرب إلى إسبانيا في القرن التاسع الميلادي تحت مسمى "قيثارة"، ينظر: المرجع نفسه، ص 160 .
- 184 - يوسف عيد، الفنون، 248؛ وجدان فريق عناد، تأثير الحضارة الإسلامية في الفلكلور الإسباني فن الفلامنكو، 1/ 832؛ أوين رايت، الموسيقى في الأندلس، 1/ 820.
- 185 - فيليب حتي، تاريخ، ص 686؛ وهو الدف من آلات النقر ينظر: يوسف عيد، الفنون، ص 302 .
- 186 - فيليب حتي، تاريخ، ص 686؛ أما عن عازف الرياب فانه يمسك بما فوق ركبتيه وهذا الأسلوب لا يزال يستخدمه العازفون في إسبانيا حيث يضعون الكمان على الركبة عند العزف ينظر : - يوسف ، الفنون ، 254 ، 241،
- 187 - فيليب حتي، تاريخ، ص 686؛ الصنوج منها " ما يجعل في إطار الدف من النحاس المدور صغاراً أو الهنات المدورة . " يوسف، الفنون، ص 305 .
- 188 - فيليب حتي، تاريخ، ص 686 ؛ يوسف عيد، الفنون، ص 239؛ وجدان فريق عناد، تأثير الحضارة الإسلامية في الفلكلور الإسباني فن الفلامنكو، 1/ 832-833.
- 189 - فيليب حتي، تاريخ، ص 686 ؛ يوسف عيد، الفنون، 283 - 293؛ شاكر مصطفى، التاريخ، ص 167 .
- 190 - سوزان بياتري مسايرو ودي لا اجليسيا ماريا دلكار، آثار الفن الإسباني المسلم بالأرجنتين : خاصيات عامة، بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي الخامس عشر للدراسات الموريسكية، تونس، 2011، ص 136 ؛ عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000 ، ص 28 - 30؛ تقي الدين عارف الدوري ، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم ، ص 318 - 320 .

حضور طائر النعام في بلاد المغرب من خلال شواهد الحضارة القفصية و إمتداداتها.

د. محمد رشدي جراية /قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه
لخضر-الوادي

ملخص:

نستعرض في هذا المقال بعض آثار طائر النعام المادية المتبقية خلال فترة عصر ما قبل التاريخ الضاربة في القدم ببلاد المغرب و ذلك من خلال الآثار المادية المتمثلة في أصداف البيض و الرسوم الصخرية و البقايا العظمية و نقوش للطائر على الحجارة، و لقد أردت من خلال هذه الدراسة أن نفتح الباب للنقاش حول الإطار الكرونولوجي - الثقافي مما قد يلقي قليلا من الضوء على مسألة دور طائر النعام في خيال إنسان ما قبل التاريخ التي خلدها سواء على الحجارة أو على جدران الكهوف و المغارات أو حتى على أصداف بيض الطائر.

Abstract:

We review in this article some of the effects of bird physical ostrich remaining during the era before the strike date in the foot Maghreb and through the physical effects of the shells of eggs and rock paintings and its skeleton and inscriptions of the bird on the stones, and I wanted in this

study to open the door to talk about the chronological context – cultural, which may shed a little light on the question of the role ostrich in the imagination of prehistoric man that immortalized on both on stones or on the walls of caves and caverns or even the shells of their eggs.

مقدمة:

يعد طائر النعام أكبر الطيور حجما على وجه البسيطة يزن البالغ منه حوالي 150 كلغ و يبلغ طوله 2،20 متر و يعيش ما يقارب 60 سنة و هو الطائر الوحيد الذي يمتلك إصبعين في قدمه وهو لا يستطيع الطيران كما يستطيع العدو بسرعة 60 كلم /سا و يبقى محافظا عليها لمدة 30 دقيقة عندما يكون فارا من خطر محقق،¹ يعيش في الصحاري مثل صحراء شبه الجزيرة العربية و صحاري إفريقيا و أستراليا كما يعتبر بيضه أكبر أنواع البويض حجما،² و يتميز بسرعته في الجري، آكل للعشب سماه العرب الطائر الجمل لكبر جسمه و طول عنقه وهو من فصيلة أكالات العشب و لا يعتبر من الطيور الجارحة³، أسمه العلمي (Struthio camelus).⁴

أنواعه:

ينقسم طائر النعام الى ثلاثة أنواع هامة هي

النعام أسود الرقبة .

النعام الأزرق الرقبة .

النعام الأحمر الرقبة .⁵

الإمتداد الزمني و المكاني للفترة القفصية:

أطلق مصطلح القفصية سنة 1909 من قبل ج.دي مورغان، على المواقع الواقعة بضواحي مدينة قفصة التونسية، وتنفرد جمعها بصفة مشتركة فيما بينها ، وهي ركام القواقع الحلزونية الممزوجة بالرماد والتراب، وأدوات صناعية وعظام الحيوانات والإنسان وتعتبر الحضارة القفصية مكونة للعصر الحجري القديم المتأخر، بشمال إفريقيا.⁶

بينما قسم الدكتور غوبير (Gobert) سنة 1914 القفصي التونسي الى ثلاثة أقسام، أسفل وقصد به القفصي النموذجي، وأوسط وقصد به الصناعة المختلطة ببئر الخنفوس، وأعلى سماه القفصي النيوليتي (حيث إختفت أدوات القطع الكبيرة، أو أصبحت نادرة، عوضتها أدوات الحز القزمية وندرة الأزامل)، ثم في سنة 1933 نعت ر.فوفري هذا الأخير بالنيوليتي ذو التقاليد القفصية⁷

إن المجال الجغرافي الذي غطته الحضارة القفصية و إمتداداتها النيوليتية واسع جدا لأنه يغطي شرق تونس الغربية ثم يمتد غربا حتى يصل الى المحيط الأطلسي ، ثم يمتد ليغطي قسم كبير من الجزائر التلية وقسم من الصحراء الكبرى .⁸

القفصي يغطي فترة زمنية تمتد من الألفية الثامنة الى الخامسة ق.م.⁹ حيث يسجل أقدم تاريخ للقفصية النموذجية ، بجوالي 6900 ق.م بينما يسجل الانتقال من القفصية النموذجية الى العليا بموقع المقطع في حدود 5600 ق.م. وتنتهي القفصية العليا في حدود 4500 ق.م، و قد تتزامن كلا المرحلتين أحيانا في بعض المواقع¹⁰ بينما التسلسل التاريخي للنيوليتي ذو التقاليد القفصية يغطي الفترة الممتدة بين نهاية الألف السادسة و الألف الثانية قبل الميلاد.¹¹

فبفضل بعض الإجتياحات النادرة من القفصيين للصحراء الشمالية ، تحققت هجرة إنسانية بأتم معنى الكلمة، غطت كل المنطقة الواقعة بين الأطلس الصحراوي، شمالا و موريطانيا غربا وخط غير منتظم يمتد الى شمال الأدرار إيفوراس و شمال الطاسيلي جنوبا، ومن ثم يمتد الى غاية التبستي شرقا.¹²

يبقى هذا الرأي من وجهة نظر ر. فوفري إذ يعتقد بأن النيوليتي ذو التقاليد القفصية ، يغطي قسم كبير من إفريقيا إذ إنتهى الى تغطية السمات النيوليتية الموجودة قبله بإفريقيا الشمالية، والصحراء، حتى الى غاية خليج غينيا والكونغو ، و لقد عارض هذا الرأي بالتعاقب كل من إ.ج. روبير ، ل. بالو، ه. ج. هوجو، ه. فاربر كامبس، غ . كامبس ، ك. روبي .¹³

1/ تفاعل الإنسان البدائي القديم مع طائر النعام.

وجد طائر النعام منذ حوالي 20 إلى 60 مليون سنة حول حوض البحر المتوسط في الغرب إلى الصين في الشرق و منغوليا شمالا، و هناك جدال تعيشه الأوساط العلمية خاصة علم الحفريات والمتحجرات حول ذلك إذ من الأسئلة المطروحة من أين هاجر النعام في البداية ؟ من إفريقيا إلى أوراسيا أم العكس؟

يشار بالإجماع إلى هجرة عدة أنواع من الحيوانات عاشت من حوالي مليون سنة تقريبا حيث هاجرت الكثير من الثدييات الكبرى إلى الجنوب نحو إفريقيا كان إلى جانبها النعام.¹⁴

لقد تطور تدجين النعام في أزمنة غابرة حيث نجد آثاره عند الكتاب القدامي وفي التسجيلات الآشورية و المصرية وكذلك في الكتب المقدسة.¹⁵

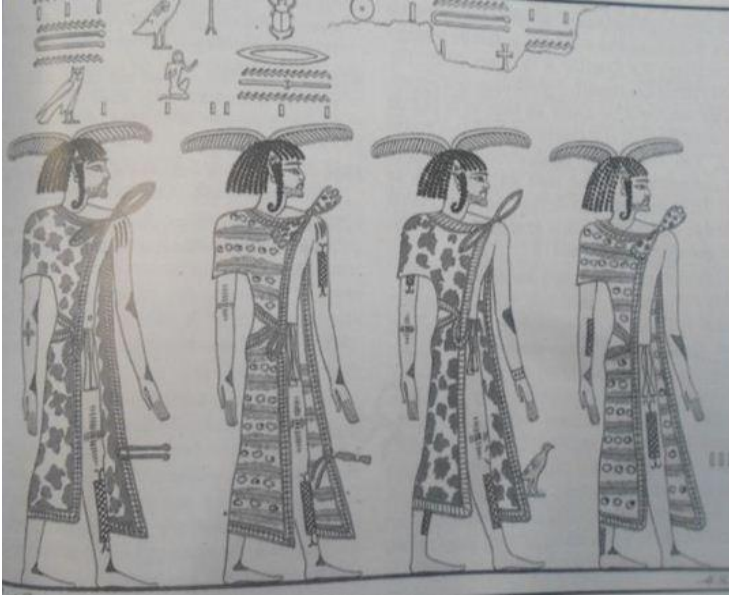
إذ عثر بالصين على أصداف بيض النعام في كهوف إستغلت منذ 2500 سنة قبل الآن ، كما إرتفع تدجين النعام في العصور القديمة الأولى خاصة في شمال إفريقيا و بهذا أثبتت أقدم الشواهد عمق العلاقة بين الإنسان والنعام.

كما تظهر لوحة الصيد بمصر في ما قبل التاريخ أي ما يعرف بلوحة الأسود حيث تظهر هذه اللوحة عدة رجال بأيديهم أقواس و حراب و تظهر حولهم حيوانات كثيرة للصيد و يزينون أعلى رؤوسهم بريش النعام و لهم ذيول

تتدلى من قمصانهم و لقد إستنتج الباحثون أنها ترجع لليبيين القدامى خلال عصور ما قبل التاريخ لأن هناك علامات تشبههم في الرسومات الصخرية بالصحراء الكبرى ، كذلك يظهر لبيون من قبائل (التمحو) على جدران ضريح سيبي الأول و على رؤوسهم ريش النعام كذلك.(أنظر الصورة رقم 01)¹⁶

و لقد عرف المصريون القدامى جيدا طائر النعام إذ كان يمثل أحد الأشكال في الكتابة التصويرية الهيروغليفية، كما كان جنود جيش الفرعوني يروون عنه الكثير من القصص بعد عودتهم من الفتوحات إلى ديارهم ، و رسم النعام في أسفل الجبال والصخور في فترة حكم الفرعون رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الآن و يرجح أن تعود تربية طائر النعام في بدايتها بمصر إلى عصر الدولة الوسطى .¹⁷

كما أن هناك مشاهد تعود للفترة التاريخية لذبح الطائر مما يدل على نشاط تربيته أو على الأقل صيده وحبسه في حضائر ، كما أكدت الكاتبات من جهة أخرى أن النعام كان يشكل جزء من الضرائب العينية ، التي تقدم للفرعون في مصر القديمة.¹⁸



الصورة رقم 01: رجال ليبون قدامى خلال عصور ما قبل التاريخ
يزينون رؤوسهم بريش النعام.

les cahiers de l'AARS, n°= 13, 2009.p 83.

فصدفة بيض النعام تدهم بالقنينة و الكأس و الكوب الصغير و كذلك
حلقات نظم العقود كل ما في الأمر تثقب البيضة و يستهلك محتواها لتصبح
قنينة أو تقسم نصفين لتصبح أكواب أو تقطع لإستخدامها في أدوات الزينة
كالأقراص المستديرة أو القلائد و حلقات نظم العقود ، هذه المواد تنقش
عليها أشكال حيوانية أو أشكال هندسية و يرسم عليها بالألوان أحيانا¹⁹

كل هذه الممارسات نموذجيا قفصية حيث إزدهرت خلال القفصية العليا و
 إستمرت كذلك خلال النيوليتي القفصي.



الصورة رقم 02: من عادات البوشمن حفظ الماء في
 أصداف بيض النعام.

C.Roubet, Le gisement du : المرجع
 damous el ahmar, et sa place
 dans le néolithique de tradition capsienne, pp
 77,78.

3/ دلائل حضور الطائر:

1/3- من خلال الرسوم الصخرية و الجدارية:

هي تلك النقوش و الرسوم و المنحوتات المرسومة على واجهة الكهوف و الجدران و المخابئ الصخرية و الكتل الجبلية و هناك من يسميها بالرسوم الصخرية (l'Art rupestre) بينما آخرون ينعوتها بالفن الجداري (l'Art pariétal) و آخرون يسمونها التصوير الجداري مثل الخبير هنري لوت الذي يعتبر كتابه (a la découverte des fresques du tassili) من أهم المصادر عن هذا الفن بالجنوب الجزائري، هذا و يطلق بعض الباحثين عليها إسم الحجارة المكتوبة بناء على نعت الأهالي لها بهذا الإسم.

20

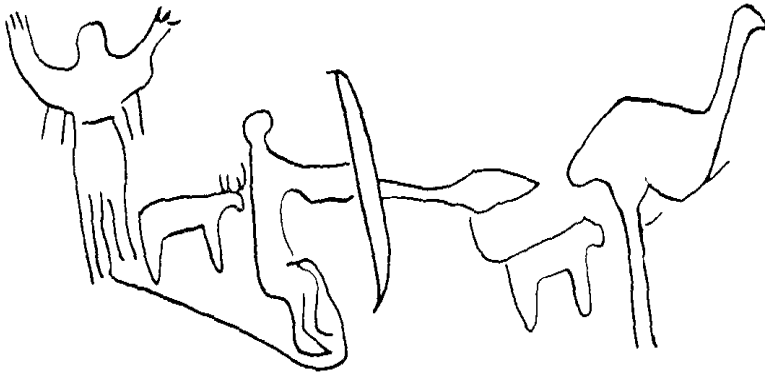
قد تسمح الرسوم الصخرية التي خلدت لنا حضور طائر النعام بالمنطقة بمعرفة بعض مناطق إنتشاره و ذلك لكون أغلبها موجودة بالجزائر حاليا من جهة المكان و لأنها من جهة أخرى أي الناحية الزمنية ترجع للفترة النيوليتية القفصية.²¹

لا يمكن إتخاذ مناطق إنتشار قشور بيض النعام دليلا على تواجدها بهذه المناطق نظرا لإمكانية إنتقالها عبر المقايضة و التبادل بين أماكن بعيدة عن بعضها البعض.²²

فطائر النعام لم يرسم بموقع جبيبيينة التونسي ، لكن بالجزائر الشرقية رسم الطائر في كاف مصوّر و خنقة ل حجر و حجر لغراب العارية و بوادي التل

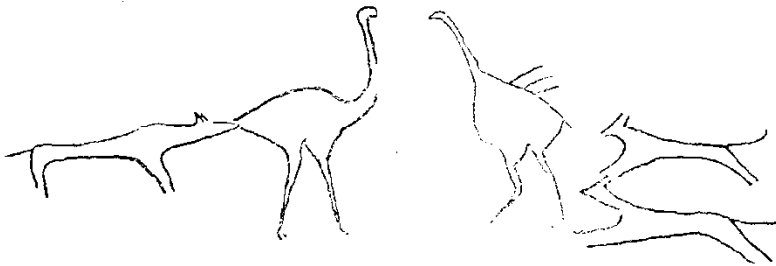
جنوب بسكرة ، بينما في الجزائر الوسطى رسم على صخور قصر الزكار ،
بينما في الجزائر الغربية رسم في محطتين بتيارت بوادي سفالو و بعين الصفا ،
و عين كريتر ، وبوعلام ، وعين مارشال ، و لقصر لحر ، و لكريما ، و
غارة الطالب و روسفال الحمراء ، و تيووت و المغرار التحتاني ، و زناقة ، و
جبل يوسف ، و في الجنوب بطاهيت و طاغثانية و كورما و غيرها من المواقع
المنبشرة في العديد من المناطق بالجزائر.²³

إن ضغط الصيد ساهم الى حد كبير في إختفاء عدة أنواع من الحيوانات
البرية من مناطقها الجغرافيا الاصلية وهذا ينطبق بطبيعة الحال على النعام .²⁴
و ربما وحده صيد النعام حفزت لنا بعض الرسوم الصخرية النادرة عملية
صيده في هذا النيوليتي القفصي، فقد عرف صيد النعام منذ عصور ما قبل
التاريخ، لكن تقنياته وممارسته تطورت خلال الفترة النيوليتية خاصة بعد
تدجين كلاب الصيد (السلوقي) التي أستخدمت في هذا الغرض، كما
أستخدم التفخيخ مثل الحفر المغطاة بالأغصان أو إيقاعها في شرك ، و في
أحيان كثيرة مباغتتها في أعشاشها إذ ترمى بالسهم (الصور رقم
03،04).²⁵



الصورة رقم 03 : صيد النعام بالقوس و السهم)

تيوت).



الصورة رقم 04 : صيد النعام بكلاب الصيد)

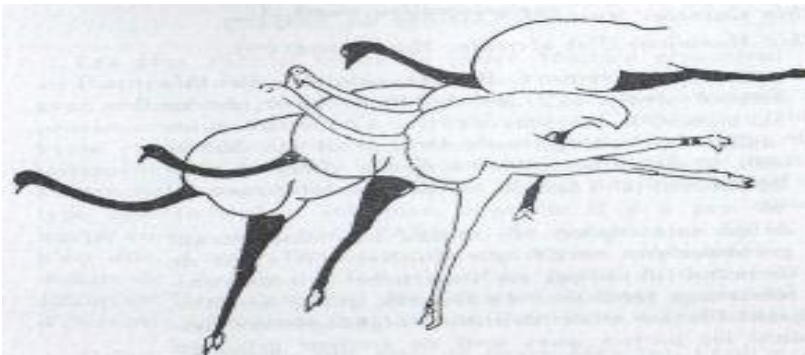
أحنات).

المراجع : H.Camps-Fabrer , La disparition de
l'autruche en Afrique

du nord , pp 88, 89.



الصورة رقم 05 : رسم صخري بعين الصفا (تيارت).



الصورة رقم 06 : رسم صخري بتاحيلاحي (طاسيبي النيجر).

المرجع : و ح 52 Dissine N.Rahmant et D.Lubell,
moi une autruche

عشر خلال صائفة 1972 على أداة أستعملت كمطرقة و جدت بوحدة
الدرك الوطني بجانت و بتعلق الأمر بعضا (rondin) حجرية طولها 53,5

سم وزن 3,100 كلغ و تحمل على إحدى جهاتها مجموعة رسومات، و يبدو أنه عشر عليها أول الأمر قبيل مدة بمنطقة تامريت (Tamrit).

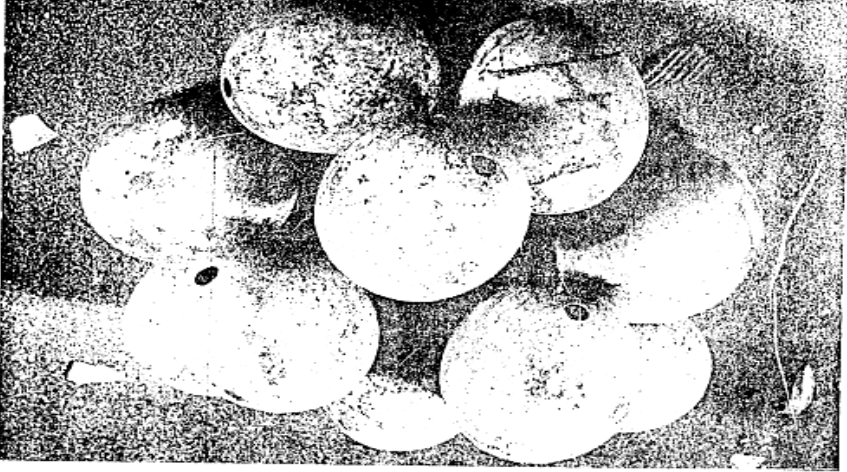
الصور المرسومة على العصا من الأسفل الى الأعلى هي رجل يحمل في يده قوسا، ثم سحلية ضب كبير ثم ضب صغير ثم أفعى ثم طائر نعام بالغ حيث شكله و اضح و تام و كذلك ريشه منفوش و يظهر ذيله و أطرافه بما فيها الأصابع و الرقبة و الرأس كما هو موضح على الصورة، وهذا دليل واضح على حضور الطائر بأقاصي المنطقة الجنوبية، و في الأخير يظهر حيوان الجمل .²⁶

/2/- من خلال المواقع الحفرية:

1/2/3- مواقع جزائرية:

حسب العالمين الأثريين مارمبي و تريكول (F.Marmier et G.Trecolle) فقد حفرا ما يقارب العامين بمساعدة بعض الأصدقاء وبنصائح غ. كامبس (G.Camps) مدير (C.r.a.p.e) في منجم يعود للفترة النيوليتية ببئر (حاسي المويلح) بورقلة حيث أرخت الطبقة التي عشر بها على الأصداف من خلال (c.14) ب:(3330ق.م+250) ، إذ تم في يوم 11 أكتوبر 1966 إكتشاف كومة هرمية في إحدى الطبقات النيوليتية متكونة من 11 صدفة بيض نعام مثقوبة لكنها خالية من النقوش أستغلت كقوارير.²⁷

حيث وجدت الاصداف في طبقة من الرماد المختلطة بالتراب سمكها م 05 إلى 06 سم إثنان من الإحدى عشر مهشمتان والتسعة الباقية في وضعية سليمة وجيدة أما موقع حاسي المويلح فيوجد على حافة بحيرة قديمة (سبخة) خالية حاليا من الماء يحيط بهذا الموقع العديد من المحطات النيوليتية والتي إكتشفت بإثنان منها مستودعات تحتوي على قوارير من أصداف بيض النعام.²⁸ (أنظر الصورة رقم 07)



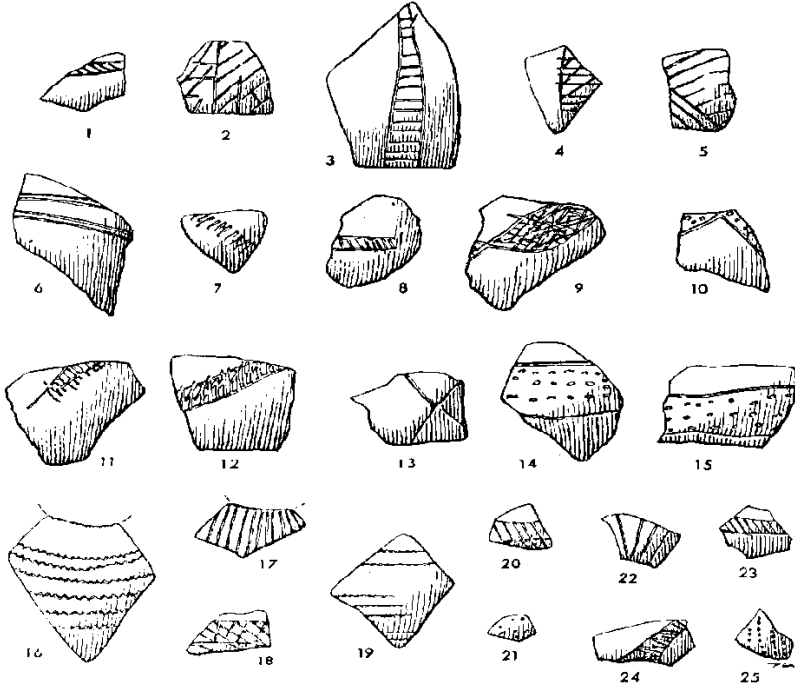
صورة رقم 07 : أصداف بيض النعام أستخدمت كقوارير ، (حاسي لمويلح).

المرجع : C.Brahimi, Initiation a la préhistoire de l'algerie , ph2

عرفوا كذلك النقش على بيض النعام أحيانا بلمسات فنية مستهلكة ذات أشكال هندسية ، بإمكاننا أن نسميها الخطوط القفصية لتحديد أحيانا تكون خطوط متوازية مرتبة ومنظمة في قطاعات متقاربة وياشراقات مختلفة.²⁹

الحقيقة بإمكاننا التحدث عن حضارة كاملة لبيض النعام بالنسبة للصحراء الجزائرية الشمالية خاصة الجانب الفني إذ إحتوت على الزخارف و النقوش التجميلية و إن بقي في الكثير من الأحيان محتفظ بمميزات الزخرفة القفصية العليا، كإستخدام الزخارف المستقيمة إذ يبدو هذا الإرتباط واضحا في زخارف منطقة وادي سوف بصفة خاصة حيث الخطوط الأهدائية المقوسة و المشطية الأهدائية تعبر عن ذلك بكل وضوح.³⁰

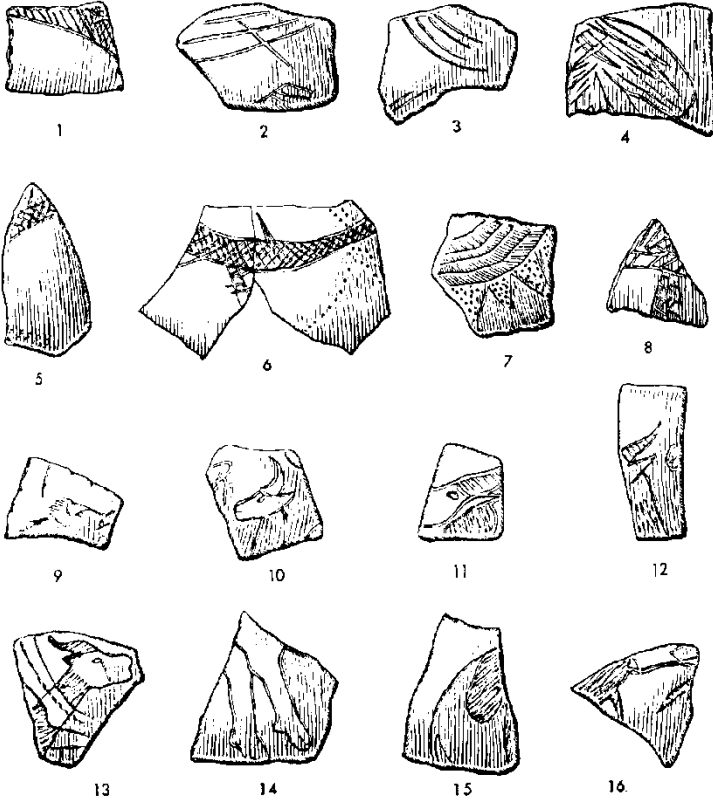
إن تزيين قشور بيض النعام على علاقة وطيدة بالحضارة القفصية ، وخاصة إمتدادها المتمثل في النيوليتي القفصي لاسيما في شطره الصحراوي حيث وجدت آثار هذه القشور المزينة في كل العرق الغربي الكبير ، الحنش ، تروننيل3 (tarentule3)³¹ رقان ، أولف ، عين إسوقي (تادمايت) ، الزاوية الكحلة ، وادي سوف ، وادي ريغ ، أولاد مية و قاسي الطويل، الساورة.³² (الصورة رقم 08)



الصورة رقم 08 : الرسم و النقش على قشور بيض النعام بالصحراء الجزائرية الشرقية (1-5) تقرت ، (6-15) عين أمناس ، (16-21) حاسي مسعود ، (22،24،25) زاوية ثرية ، (23) إيجلي .

المرجع : H.Camps-Fabrer ,Matière et

art mobilier, p 378, 381



الصورة رقم 09 : رسوم على قشور بيض النعام من الصحراء

الجزائرية الغربية (ترونتيل 3).

القطعة رقم 9 (رأس خنزير) ، القطع رقم 10-11-12-

13 (رؤوس ظباء من أنواع مختلفة)

رقم 14 (أرجل ثور) ، رقم 15 (مؤخرة ثور) ، رقم 16)

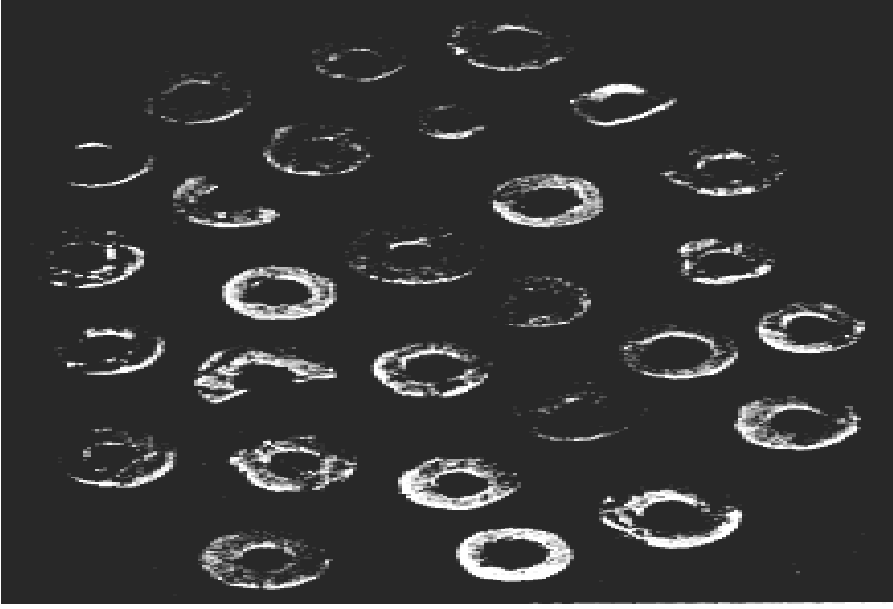
ردف نعام).

المراجع : H.Camps-Fabrer , Matière et art mobilier, p 386.

و ضمن تزيين القشور نجد تقليد نيوليتي قفصي آخر مبعثر في هذه الصحراء الشاسعة الا و هو رسم الحيوان عليها، فقد عثر بالصحراء الجزائرية في موقع ترونثيل3 (tarentule3) بعرق إيقيدي، على قشور تحمل رسوم خنازير وظباء وغزلان (الصورة رقم 09)، بينما أكتشف بورقلة صدفة كاملة لبيضة نعام ، تحمل رسم حيوانين هما ظبي و بقرة.³³

أما عن زخرفة الأقداح ، النياط ، الأقراص فتختلف زخرفة هذه الأدوات نوعا ما عن زخارف القطع الناتجة عن البيضة الكاملة ، فالمساحات هنا صغيرة أثرت عن تنظيم الزخارف و لهذا لوحظ كثرة النقوش أو الحزوز الموزعة بانتظام على حافة القرص أو النوط وقد تم التعرف على هذه العناصر بالخصوص في مناطق تلبالة ، فم سعيدة ، وديديدي (منطقة مزاب).³⁴

إن الزخرفة والرسم على قشور بيض النعام ليست بالأمر السهل لطبيعة المادة الخام إلا أن النيوليتيين الصحراويين بموهبتهم استطاعوا إتقان هذا الفن الخالد و برعوا فيه. (الصورة رقم 10)



الصورة رقم 10 : حلقات نظم العقود من قشور بيض النعام (أولاد
مبية)

المراجع: G.Aumassip, néolithique sans poterie
de la région de

l'oued mya, p 63 , 64.

مواقع موريطانية و صحراوية:

ترسم لنا ألف (1000) من أصدف بيض النعام المنقوشة الحد الفاصل
بين ثقافتين كبيرتين لعصر الهولوسين الأوسط خلال فترتين مفتاحيتين أي بين

العصر الحجري القديم اللاحق (الذي سبق بقليل دخول النيوليتي) والنيوليتي الأوسط حيث تبين لنا ذروة الحضور الإنساني في ذلك العصر. أنه إستعمال (إستخدام) النقش (الحز) على أصداف بيض النعام كان معروفا في العديد من ثقافات العصر الحجري القديم اللاحق (المتأخر) والنيوليتي في شمال الصحراء.

هناك أربعة مواقع حدد إطارها الزمني من خلال دراسة أصداف بيض النعام بالألف السابعة قبل الآن فالمواقع الموريطانية الأكثر قدما ترجع الى (7040 ق الآن) و الأحداث منها ترجع الى (6000 ق الآن) ، أما الموقعان المتجاوران بهضبة (تاوكلت) بالشمال الشرقي لطرفاية (الموقع 19، و TR15) حيث أرنخ على التوالي، بـ6350 ق الآن و 6150 ق الآن ، هذه المواقع ترجع ثقافيا للعصر الحجري القديم المتأخر و تنتمي الى الثقافات المجاورة لتاولكت و فم عرقين، و لقد حدد تأريخ خامس لظلي منقوش على صدفه نشر من قبل (Grebentart) سنة 1973 بـ 2790 ق الآن.

الواضح أن هناك مجموعتان من النقش على قشور بيض النعام بموريطانيا و شمال الصحراء عموما إحداهن في الشمال تنتمي للحجري القديم اللاحق و الأخرى لنيوليتي هذا الأخير تتميز نقوشه على الأصداف بالتجريد في الشكل و الأسلوب.³⁵

كما عثر على حجرة منقوشة برمادية كاف الزاورة (D) بالشرق الجزائري المكتشفة سنة 1972 و الواقعة على بعد 60 كلم جنوب غرب تبسة حيث أرجعت محتوياتها الى القفصية النموذجية و القفصية العليا، عثر بها على محتويات عدة أهمها حجرة مصقولة الوجهين رسم على إحداها خطين منحنيين بينهما فراغ يبدو أنه لا تفسير لهذا المخطط أو معرفة الهدف منه.

بينما في الوجه المقابل نقش عليها رسم طائر النعام في شكل دائري حيث يظهر ريشه من خلال التظليل منتفخ و متموج، ذو مظهر سميك و رأس صغير و أطراف متحركة في وضعية العدو، وتبدو لمسات هذا الرسم و ميزاته قفصية.³⁶

مما يثير الإنتباه الغياب الممنهج تقريبا للبقايا العظمية في المواقع القفصية و الذي كان حسب رأي البعض بسبب أسطورة الحيوان المقدس.³⁷

و كما هو معلوم إحتلت خلال الهولوسين ببلاد المغرب أصداف بيض النعام مكانة هامة في الحياة اليومية و في الفن القفصي و النيوليتي إلا أن النعام كان غائبا في قائمة الحيوانات المستهلكة لأنه لا يمكن القبول بفرضية أن عظام الطائر لم تحفظ بل العكس هناك عظام طيور أصغر منه حجما بقيت ضمن بقايا المستهلكات.

هل هو عزوف عن أكل النعام لأهميته ؟

إن التباين في الحضور الكبير و الواضح لبقايا أصداف بيض النعام و الغياب التام للبقايا العظمية في مزابل مطابحهم يؤدي بالبعض الى تفسير ذلك بإمكانية أن النعام ربما كان مقدسا أو بإحدى الطابوهات عند القفصيين³⁸.

خاتمة.

لا شك أن تواتر محطات مشاهد رسوم النعام و الإنتشار الكثير لأصداف بيض هذا الطائر يدفعنا الى الإستنتاج بأن هناك إهتمام به من قبل أناس الحضارة القفصية خلال الباليوليتي المتأخر- اللاحق و عبر إمتداددها النيوليتي كذلك.

إن دراسة الرسوم الصخرية و الحجارة المنقوشة و بقايا المواقع الأثرية عبر كمل المنطقة المغاربية تسمح بإستعراض طرق حضور النعام في حياة القفصيين إذ أن حيوان السهوب هذا كان يزودهم ببيضه الذي كان يعتبر مادة أولية ضرورية لهم.

فخلال الآف السنين وجدت الشعوب التي سكنت مناطق شمال إفريقيا الساحلية والتلية و الصحراوية في بيض النعام مادة خام صالحة لإنجاز بعض الأدوات الضرورية فبعد إستهلاكهم محتوى البيضة تستعمل في إنجاز بعض الأدوات الضرورية كقارورة في حالة وضع الثقب دون إنكسار البيضة، أماحالة الإنكسار الجزئي فتستخدم كإناء، أما الحطام المتبقي في جميع

الحالات فيستخدم في صنع حبات نظم العقود و أدوات زينة أخرى ، في حين إستمر إستعمال بعض هذه الأشكال خلال فترة فجر التاريخ وحتى الفترة التاريخية بين القرطاجيين و الليبيين.

و الآن بعد إنقراض هذا الطائر الجميل من منطقتنا المغاربية الا يحاول إعادة توطينه من جديد مثلما حدث في عدة بلدان أخرى و ذلك بالإستثمار في إعادة تربيتها حيث أصبح النعام حيوان عالمي يوجد في جميع مناطق العالم ومحمي من الإنقراض ،إنه طائر متنوع وتجارب تربيته مختلفة.

الهوامش:

¹ _ N.Rahmant et D.Lubell, Dissine moi une autruche- la gravure de Kef Zoura (D) et la représentation de l'autruche au Magreb, Sahara,n°= 16,2005, p 49.

² _ عبد الله السبيل و محمد البدرى ، النعام (حقائق و معلومات)، مادة علمية، قسم الإنتاج الحيواني ، مركز الإرشاد الزراعي في كلية الزراعة بجامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية ، دت ن، ص 03.

³ _ أمل أحمد محمود بخيت ،مستقبل النعام في جمهورية مصر العربية ،أسبوط ، مجلة أسبوط للدراسات البيئية، العدد التاسع و الثلاثون، (يناير 2014) ص 43.

⁴ _ Njikam Nsangou Ibrahim , Egypte ancienne Aperçu historique sur la domestication de l'Autruche (Struthio camelus), [En ligne], <http://hdl.handle.net/2268/74309> , (15/10/2016).

⁵ _ عبد الله السبيل و محمد البدري ، المرجع السابق، ص 03.

⁶ _ L. Balout, préhistoire de l'Afrique du nord , Essai de chronologie, Arts et métiers graphiques, paris, 1955. pp 387, 391.

⁷ _ C.Roubet, Le gisement du damous el ahmar, et sa place dans le néolithique de tradition capsienne, arts et métiers graphiques, paris, 1968, p113.

⁸ _ Ibid , p113.

⁹ _ G.Camps, Les Berbères (Mémoire et Identité), éd.Barzakh, Alger, 2007, p 58.

¹⁰ _ محمد سحنوني ، ما قبل التاريخ ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1999 ، ص120.

¹¹ _ H.j.Hugot , le sahara avant le désert, Editions des hespèrides, Paris , France , 1974 , p 14.

¹² _ H.j.Hugot , Op.Cit, p108.

¹³ _ أنظر : - 281 G.Camps, Les civilisation préhistoriques, pp 281- 282.

¹⁴ _ Njikam Nsangou Ibrahim , Egypte ancienne Aperçu historique sur la domestication de l'Autruche (Struthio camelus), [En ligne], <http://hdl.handle.net/2268/74309> , (15/10/2016).

- ¹⁵ _ J.Oudot, Le Fermage des autruches en Algérie challamel Ainé, Libraire-éditeur, 1880, p 05.
- ¹⁶ _ J.D'Huy, une volonté de s'approprier symboliquement les qualités de l'autruche serait a l'origine de certains jeux graphiques dans l'art rupestre de sahara orientale, les cahiers de l'AARS, n°= 13, 2009 ,83.
- ¹⁷ _ Njikam Nsangou Ibrahim , Egypte ancienne Aperçu historique sur la domestication de l'Autruche (Struthio camelus), [En ligne], <http://hdl.handle.net/2268/74309> , (15/10/2016).
- ¹⁸ _ Ibid.
- ¹⁹ _ N.Rahmant et D.Lubell, Op.Cit, pp 39- 40.
- ²⁰ _ محمد الصالح بوعنقة ، فن الرسوم الصخرية في الجزائر بين الدافع ، التقنية، المراحل، رسالة ماجستير في التاريخ القديم ، إشراف عبد العزيز بن لحرش ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، 2001، ص 6.
- ²¹ _ H.Camps-Fabrer , La disparition de l'autruche en Afrique du nord ,c.r.a.p.e, alger ,1963, p18.
- ²² _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques de l'Afrique du nord et du sahara ,éd doin , paris , 1974 , pp223, 224.
- ²³ _ H.Camps-Fabrer , Op.Cit , p20.
- ²⁴ _ Njikam Nsangou Ibrahim , Op.Cit.
- ²⁵ _ H.Camps-Fabrer , Op.Cit , pp83,89.

²⁶ _ G.Aumassip et G.Trecolle et p.Vimont -Vicary, le Rondin de pierre gravé de tamrit (Tassili-n-Ajjer), Libyca, T22, 1974, C.R.A.P.E, Alger, 169.

²⁷ _ F.Marmier et G.Trecolle, étude de L'industrie du gisement d' Hassi Mouillah région de Ouargla, sahara Algérien, Libyca, T19, 1971, C.R.A.P.E, Alger, pp 53-114.

²⁸ _ F.Marmier et G.Trecolle, Op.Cit , p 313.

²⁹ _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert, p 119.

³⁰ _ دراجي عبد القادر، المظاهر الفنية في المغرب منذ 13000 سنة الزخرفة والنحت على قشور بيض النعام ، مجلة الدراسات الأثرية، الجزائر، حولية معهد الآثار بجامعة الجزائر، العدد الثاني، 1992، ص ص 6، 14.

³¹ _ ترونثيل 3، تقع على بعد 120 كلم جنوب تلبالة، بعرق إيقدي.

³² _ H.Camps-Fabrer ,Matière et art mobilier, pp 515, 516.

³³ _ H.Camps-Fabrer, Matière et art mobilier, p 516.

³⁴ _ دراجي عبد القادر، المرجع السابق ، ص 10.

³⁵ _ R.Vernet,A.Rodrigue,P.Tous , Les Textes d'ouefs d'autruches gravés du litoral atlantique saharien du nord du banc d'Arguin a l'oued Draa,Sahara,n°=17,2006,pp59-61.

³⁶ _ N.Rahmant et D.Lubell, Dissine moi une autruche- la gravure de Kef Zoura (D) et la représentation de l'autruche au Magreb, Sahara,n°= 16,2005, pp 39- 40.

³⁷ _ Ibid, pp 39- 40.

³⁸ _ Ibid, pp 39- 40.

العلاقات العراقية – البريطانية بعد عام 2003

أ.د. ستار جبار الجابري/مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية/ جامعة بغداد/
العراق

الملخص:

أدرك البريطانيون أهمية العراق الإستراتيجية منذ مطلع القرن السابع عشر، لذلك بدأوا منذ ذلك التاريخ التخطيط للسيطرة عليه، وأصبح لهم نفوذ كبير فيه حتى عام 1914 عندما احتلت القوات البريطانية العراق. وعلى الرغم من دخول العراق إلى عصبة الأمم وإعلانه دولة مستقلة عام 1932، إلا أنه بقي خاضعاً للنفوذ البريطاني حتى ثورة 1958.

تذبذبت العلاقات بين البلدين بعد عام 1958، ولغاية عام 1991 عندما اشتركت بريطانيا بحرب الخليج ضد العراق وقطع العلاقات الدبلوماسية بينهما. وفي عام 2003 دخلت بريطانيا تحالفاً مع الولايات المتحدة خارج إطار الشرعية الدولية لغزو العراق واحتلاله، وبعد هذا التاريخ أعيدت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وتطورت العلاقات بشكل كبير في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية بعد عام 2003.

Abstract

The British knew the importance of Iraq strategy since the beginning of the seventeenth century, so they planned to control it, and it became a big influence them there until 1914, when British forces occupied Iraq. Although Iraq's entry into

the League of Nations and declared an independent state in 1932, but it remained under British influence until the 1958 revolution.

Relations between the two countries had not stabilized after 1958, and in 1991 Britain participated Gulf War against Iraq and the severance of diplomatic relations. In 2003, Britain entered into an alliance with the United States to occupy Iraq, and after this date restored diplomatic relations between the two countries. And developed relations politically, economically and culturally after 2003.

المقدمة :

كان العراق منذ القدم محط اهتمام دول العالم لما يتمتع به من موقع جغرافي وحضارة وتاريخ ضارب في القدم، وكان العراق أحد الدول التي كان (نابليون) يزعم أن يقيم فيها مركزاً لقيادته في طريقه لاحتلال الهند، ولعل البريطانيين أدركوا هذه الحقيقة، فازداد شعورهم بأهمية العراق الإستراتيجية، ونظراً لموقعه الجغرافي ومركزه السوقي الذي يربطه بإيران والخليج، ويجعله طريقاً سريعاً ومختصراً تأتي منه المواد الأولية، وتعود الصناعات البريطانية عبره ثانية إلى أسواق الشرق، لذا دخل ضمن دائرة اهتمام الحكومة البريطانية حتى من قبل أن تنزل القوات البريطانية في البصرة عام 1914م بقرون.

وعلى الرغم من أن العراق كان جزءاً من الدولة العثمانية، إلا إنه كان يتمتع بعلاقات مع دول العالم، لذا يمكن أن يطلق عليها مصطلح (العلاقات غير الرسمية)،

فعلى سبيل المثال كانت هناك علاقات للعراق مع فرنسا، ومن ثم وبريطانيا وألمانيا وغيرها من الدول، منذ القدم وقبل تأسيس الدولة العراقية وذلك في أيام حكم المماليك، والذي كان يتمتع فيه العراق بشكل من أشكال الحكم الذاتي أو الاستقلال الجزئي . لذلك اخترنا في هذه الدراسة أن نسلط الضوء على العلاقة بين العراق وبريطانيا في حقبة مهمة وحساسة من تاريخ العراق، وهي حقبة ما بعد العام 2003.

ولكي تتضح الصورة فلا بد من تسليط الضوء على جذور تاريخ العلاقة بين البلدين، إذ يعد العراق من أهم الدول التي حظيت ولا تزال تحظى باهتمام بريطانيا، ومؤسسة السياسة الخارجية فيها على وجه التحديد، لأهمية العراق لبريطانيا تحديداً، وأهميته في العالم عموماً .

وسيهتم البحث بدراسة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين البلدين في حقبة ما بعد العام 2003 .

أولاً : اطلالة على العلاقات العراقية – البريطانية قبل العام 2003

يعدّ العراق واحداً من أكثر الدول التي تقع على طريق الهند أهمية بالنسبة لبريطانيا، لذا سعت إلى مد نفوذها فيه منذ مطلع القرن السابع عشر¹ . ويرجع تاريخ العلاقة بين العراق وبريطانيا إلى العام 1640م حينما شوهد موظفو ووكلاء شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة والتي أسست لهذه العلاقة، ولو أن الشركة لم تتمكن في بادئ الأمر من أن تجد موطئ قدم لها بشكل ثابت، إلا إنها وجدته

وثبتته بعد قرن من العام المذكور، فقد أصبح وزن الشركة ملحوظاً منذ حوالي 1775م عندما كان البريطانيون يجمعون ويقودون السفن المسلحة التي يملكها والي بغداد والتي كانت ترفع العلم البريطاني. وكان الوالي في أغلب الأحيان يتصرف بإيجازات من الممثل البريطاني والذي كانت له علاقات مع شيوخ العشائر الرئيسيين، وكان المقيم البريطاني يمتلك سفن تحمل المدافع تجوب في نهر دجلة .

كان لبريطانيا وكلاء تجاريون في بغداد والبصرة، واحتلت البصرة مكانة أثرية لديهم واستمر ذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر، وكانت الوكالة التجارية البريطانية أول مؤسسة ترفع إلى مستوى قنصلية. وقد استصدر السفير البريطاني في الاستانة (هنري نيفل) في سنة 1764 فرماناً (قراراً) من السلطان بالموافقة على تعيين (روبرت غاردن) ممثل (شركة الهند الشرقية) قنصلاً في البصرة، ومنحه الامتيازات والحصانات الممنوحة عادة لقناصل الدول الأجنبية، وكان روبرت غاردن أول ممثل رسمي للحكومة البريطانية في العراق . أما في بغداد فقد كان هناك وكالة لكنها لم تكن دائمية يقوم بها شخص أرمني في سنة 1755 ثم بريطاني بعد ذلك بعشرة أعوام أي في سنة 1765².

وفي العام 1798 - وهي السنة التي غزا فيها نابليون بونابرت مصر - سمح والي بغداد سليمان باشا بتعيين مبعوث بريطاني دائم في العراق، وعندها افتتحت المقيمة البريطانية في بغداد في تلك السنة، وعين هارفورد جونز (Harford Johns) لرئاستها، وتمكن الأخير من إثارة سليمان باشا على النفوذ الفرنسي، حتى وصل الأمر إلى إقدام الوالي على إيداع القنصل الفرنسي المسيو روسو وأتباعه السجن، دليلاً على حسن النية إزاء البريطانيين³.

وفي العام 1808 عينت بريطانيا المستر ريج قنصلاً في بغداد⁴، وبعد هذا الرجل هو أول من عمل على تكريس الدور البريطاني في العراق، ونجح في ذلك بنجاحاً كبيراً⁵، وكان يتمتع بعلاقات كبيرة ومهمة مع العراقيين، وكانت شخصيته أقوى من شخصية الوالي العثماني، فكان محط تقدير وإعجاب العراقيين، لاسيما وأن النزاع كان على أشده بين الولاة والقادة في بغداد، وكانوا في تغيير مستمر، فقد شعر العراقيون بأن المستر ريج باقٍ بقوته ولم يتغير لاسيما حينما رأوا أن الولاة في بغداد يلجأون إليه في دعمهم وتثبيتهم، فأصبح الناس "لا يقيمون وزناً لوعود بشواتهم وأعيانهم إلا إذا كانت مدعومة بضمان من المستر ريج"⁶، ولعل النزاع الذي حصل بين القنصل البريطاني ريج وداود باشا⁷ في العام 1820 يوضح ما ذهبنا إليه من قوة النفوذ البريطاني في العراق⁸.

ففي العام المذكور فرض والي بغداد داوود باشا ضرائب إضافية على الصادرات والواردات البريطانية، فاحتج ريج على هذا الإجراء بقوله إن للبريطانيين حقوقاً أقرتها الاتفاقيات مع العثمانيين، فرد الوالي بأنه لا يعترف بأي حق للبريطانيين في بغداد، وتطور الأمر ومنعت السفن البريطانية من الدخول إلى ميناء البصرة، وأراد القنصل البريطاني الخروج من بغداد، وحوصرت القنصلية البريطانية بالمسلحين، وحصن ريج نفسه بالجنود، وكادت تنشب معركة بين الطرفين، ثم حلت بعد إدراك الوالي لحجم المشكلة، فأرسل مفاوضين عنه إلى المستر ريج فاستقبلهم القنصل البريطاني بغضب وانزعاج شديدين⁹.

استمرت العلاقة البريطانية العراقية بعد ذلك، فعينت الحكومة البريطانية الكابتن تيلر قنصلاً جديداً في بغداد ليكون خليفة ريج في هذا المنصب وذلك في

العام 1821، وحاول القنصل الجديد أن يتولى الضباط البريطانيون مهمة تدريب الجيش حينما التمس رغبة الوالي في تطوير القدرات العسكرية العراقية، وبالفعل اعتمد داوود باشا على بريطانيا في تسليح الجيش، وجلب بعض الضباط البريطانيين أمثال جورج كيبيل ورفاقه لهذه المهمة . ولم تنحصر العلاقة بين بريطانيا والعراقيين في التمثيل الرسمي فحسب، بل تعداه إلى التمثيل الشعبي فقد بعثت بريطانيا المبشر المسيحي غروفز الذي سكن بغداد واتصل بأهلها وأصبحت له علاقات معهم ووقف معهم في زمن محنة وباء الكوليرا¹⁰.

ظل المقيم السياسي البريطاني يتمتع بمكانة متميزة في بغداد العثمانية حتى بداية الحرب العالمية الأولى وكانت الحكومة البريطانية تحرص على إظهار المقيم السياسي واحاطته بكل مظاهر الأبهة، وكان للمقيمين منذ عهد ريج حراس مسلحون يبلغ عددهم بضع مئات وكانت لهم قيافتهم المزرکشة. كما كان للمقيمية زورق مسلح اسمه (كوميت) يرسو إلى جوار المقيمية التي تقع بنايتها على نهر دجلة. واستمر ذلك حتى وقوع الحرب العالمية الأولى ووقوف الدولة العثمانية مع ألمانيا في الحرب ضد بريطانيا، وقيام الأخيرة بإرسال حملتها المعروفة واحتلال البصرة 1914، ثم احتلال بغداد 1917، واحتلال الموصل 1918، وهكذا قطفت بريطانيا ثمار جهود مقيميها السياسيين ووكلائها التجاريين¹¹.

كانت بريطانيا تعول على "المقيم السياسي" فهو الذي يرعى مع موظفيه المصالح السياسية والاقتصادية البريطانية في بغداد ومدن الخليج العربي بما فيها البصرة وبغداد حتى ان اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطاني صرح سنة 1892 في مجلس

اللوردات: "إن بغداد تقع ضمن موانئ الخليج ويجب أن تدخل ضمن اهتمامات السياسة البريطانية"¹².

أما على الصعيد التجاري فكانت هناك صلات بين التجار البريطانيين والعراقيين، فقد ذكر بطاطو أن البريطانيين كانوا يحضون بمعامله خاصة و متميزة في السوق العراقية، فموجب معاهدة الامتيازات الانكلو عثمانية عام 1675م فقد أعفي التجار البريطانيون من الضرائب، أما البضائع التي يقومون باستيرادها وتصديرها فلا تخضع إلا لرسم مقداره 3%، بينما كان العراقيون يدفعون 7.5% وربما تصل إلى 8.5% في بغداد، وكان التجار الذين يتمتعون بحماية البريطانيين متحررين من الضرائب التي يفرضها الباشوات، وهذا يدل على وجود علاقات خاصة بين العراقيين وبريطانيا، ومن جانب آخر كان البريطانيون يولون للعراق أهمية خاصة ولعل هذه السياسة كانت ذات مغزى بعيد اتضح فيما بعد، فقد صرح اللورد كيرزن في العام 1892م بأهمية بغداد التجارية فقال يجب أن تدخل بغداد ضمن السيطرة البريطانية، وذلك بعد التقرير الذي رفعة نائب القنصل البريطاني في البصرة الذي يحمل الرقم 921 للعام 1891م حيث قال إن تجارة ميناء البصرة تقع كلياً في أيدي أربع شركات بريطانية، وقد أسهب لورد بريطاني في خطابه الذي ألقاه في مجلس اللوردات عام 1911م فقال: " من الخطأ أن نفترض أن مصلحتنا السياسية تنحصر في الخليج، كما إنها ليست منحصرة بين بغداد والبصرة، بل تتعداها وتمتد إلى بغداد نفسها"، وفي العام 1909م كانوا التجار البريطانيون يجوبون بغداد¹³.

ناهيك عن بعض العلاقات التي كانت بين بعض القادة العراقيين والحكومة البريطانية قبل الاحتلال البريطاني للعراق كالعلاقة التي ربطت السيد طالب النقيب عام 1913م مع بريطانيا. يستدل مما سبق بأن العلاقات العراقية البريطانية غير الرسمية كانت وثيقة وممتدة قبل الاحتلال البريطاني للعراق عام 1914 .

وفي أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام 1914 ودخول الدولة العثمانية (التي كان العراق تحت سيطرتها) في تحالف إلى جانب ألمانيا، نزلت القوات البريطانية على الشواطئ العراقية، وسيطرت على البصرة بعد انسحاب القوات العثمانية في تشرين الثاني 1914، وواصلت القوات البريطانية تقدمها باتجاه بغداد، ونجحت بالسيطرة عليها في 11 آذار 1917، ثم تقدمت حيث سيطرت على كركوك في شهر آب من العام 1918 ، ثم سيطرت على الموصل في تشرين الثاني من العام ذاته، ليصبح كامل العراق تحت الاحتلال البريطاني¹⁴.

شرعت القوات البريطانية بإقامة (إدارة مدنية عامة) وقد عين السير بيرسي كوكس (حاكماً سياسياً عاماً) للعراق، وبذلك يعد كوكس أول ممثل لبريطانيا في العراق بعد الحرب العالمية الأولى . وفي سنة 1918 نقل بيرسي كوكس إلى طهران فأصبح نائبه الكولونيل آرنولد ويلسن وكيلاً للحاكم المدني العام. وقد عرف ويلسن بإنتماءه للمدرسة الهندية البريطانية التي كانت تذهب بإتجاه الاستمرار في حكم العراق حكماً عسكرياً مباشراً، ودون أن تتاح لسكانه فرصة حكم أنفسهم بإنفسهم¹⁵.

إن الاحتلال البريطاني للعراق مر بعدة مراحل، فلقد ناقشت بريطانيا بعد الحرب سياستها العامة في العراق والأنموذج الإداري التي كانت تنوي تأسيسه،

وكانت هناك مدرستان من الفكر أثرتا على صانعي القرار السياسي في لندن. كانت الأولى قد أقرتها الدائرة الاستعمارية والتي ركزت على سياسة السيطرة المباشرة لحماية المصالح البريطانية في الخليج والهند. أما المدرسة الثانية فكانت تسعى إلى أن تستميل القوميين العرب، وتوجههم بسيطرة غير مباشرة. وكان البريطانيون منقسمون في العراق نفسه على هذا الموضوع، قسم تحت تأثير السير أرنولد ويلسون الذين أيدوا الهيمنة المباشرة، والآخرون متهميين من عدم الاقتناع بالإدارة البريطانية، نصحوا بالسيطرة غير المباشرة واقترحوا تأسيس نظام محلي يكون تحت الإشراف البريطاني

16

ولم تكن بريطانيا في عام 1920 قد قررت بعد أي من السياستين ستبعب حين أثرت الأحداث في الأقطار العربية الأخرى على الأوضاع في العراق بصورة كبيرة ومتطرفة. ففي بدايات 1920 قام الأمير فيصل بن الشريف حسين الذي قاد الثورة العربية في 1916، بتأسيس حكومة عربية في دمشق ونصب نفسه ملكاً على سوريا. في هذه الأثناء التقت مجموعة من الوطنيين العراقيين لتنصيب الأمير عبد الله الأخ الأكبر لفيصل ملكاً على العراق.

وفي 25 نيسان سنة 1920 عهدت عصبة الأمم إلى بريطانيا بالانتداب على العراق بإعتبار أن أهله غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، أو إنهم بحاجة إلى وصاية دولية، لكن العراقيين ثاروا ثورتهم الكبرى سنة 1920¹⁷، فإضطر البريطانيون أن يغيروا سياستهم ويصرفوا النظر عن سياسة الحكم المباشر ويفكروا في إقامة حكومة محلية، وقد أعيد بيرسي كوكس إلى العراق بصفة (مندوب سامي)

تمهيداً لتأسيس حكومة عراقية تدار - كما قالت المس بل - بأيد عراقية وأدمغة بريطانية¹⁸.

في تشرين الأول 1920 عاد السير بيرسي كوكس إلى بغداد، وبدأ اللقاءات مع قادة الحركة الوطنية، وأخذ يمهد لتلبية مطلب العراقيين بأن يكون أحد أبناء الشريف حسين ملكاً على العراق، ومع أن العراقيين كانوا يجذبون أن يكون الأمير عبد الله بن الحسين ملكاً، إلا إن البريطانيين فضلوا الأمير فيصل¹⁹.

وفي آذار 1921 عقد مؤتمر القاهرة الذي ترأسه تشرشل لتأمين الاستقرار لشؤون الشرق الأوسط، وسمي فيصل ملكاً على العراق مع توصية بإجراء استفتاء لتأكيد التنصيب. كان السير بيرسي كوكس والمعين حديثاً حينها كمندوب سامي في العراق، مسؤولاً عن تنفيذ الاستفتاء. وكانت الحكومة الانتقالية المشكلة من قبل كوكس (حكومة عبد الرحمن النقيب) قبيل مؤتمر القاهرة قد مرتت قراراً في 11 تموز 1921 تعلن فيه فيصل ملكاً على العراق، على أن تكون "حكومته دستورية، ممثلة لكل أبناء الشعب وتنهج الديمقراطية، ولقد اقر الاستفتاء هذا الإعلان، وتوج فيصل رسمياً ملكاً في 23 آب 1921.

إن تأسيس الملكية كان الخطوة الأولى لتأسيس النظام الوطني. وتبعته خطوتان: التوقيع على معاهدة التحالف مع بريطانيا، ووضع مسودة الدستور (القانون الأساسي). وكان من الضروري أن تسبق المعاهدة الدستور وتعريف العلاقات بين العراق وبريطانيا. وفي هذه الأثناء تقاعد السير بيرسي كوكس وعاد الى بلاده وخلفه السير هنري دوبس²⁰ الذي شغل منصب (المندوب السامي البريطاني)

ست سنوات، وتم توقيع المعاهدة العراقية البريطانية الأولى في 10 تشرين الأول 1922، ولقد كانت المعاهدة صياغة أخرى لإعلان الوصاية دونما إشارة مباشرة إليه.

ولقد توضح فيما بعد بأن ما كان قائماً جوهرياً وليس شكلياً هو الانتداب ولم يجر تحقيق الاستقلال التام. ولم يكن الرأي العام في العراق موافقاً على الاتفاقية، مثلما كان الرأي العام البريطاني مقتنعاً بالالتزامات إزاء العراق. ولقد كانت هناك حملة صحفية خلال الانتخابات العامة التي تمت في 1922 ضد ما تنفقه بريطانيا في العراق. ولاختلاف الرأي العام في كل من بريطانيا والعراق، فقد تم توقيع بروتوكول للاتفاقية في 30 نيسان 1923 بتقليل مدة الاتفاقية من عشرين سنة إلى أربع سنوات. ولقد تم في 11 حزيران 1924 إجراء تعديلات على المعاهدة بعد أن هددت بريطانيا بأن رفض المعاهدة سيؤدي إلى رفع الموضوع إلى عصبة الأمم²¹.

كان العراقيون الوطنيون غير مقتنعين بالانتداب، وطالبوا بالاستقلال كحق من حقوقهم، كما وعدوا خلال إعلان الحرب والمعاهدات، ولقد تمت عدة محاولات لتعريف العلاقات الانكلو عراقية كما نصت معاهدتي 1926 و 1927 دونما تحريف أساسي بمسؤوليات بريطانيا²². وقررت الأخيرة في 1929 أن تضع حداً لهذا المأزق وتسوي مصالحها مع طموحات الوطنيين العراقيين، وأعلنت العراق بإن الانتداب سينتهي في 1932، وستناقش اتفاقية جديدة حول الاستقلال، وشكلت حكومة جديدة ترأسها نوري السعيد²³.

وقعت المعاهدة الجديدة في 30 حزيران 1930، وأقرت تأسيس تحالف قوي بين العراق وبريطانيا، مع إقرار "التشاور التام والصريح بين الطرفين في جميع الأمور التي تخص السياسة الخارجية، والتي قد تؤثر على مصالحهما المشتركة". وللعراق إدارة النظام والأمن الداخلي ويدافع عن نفسه تجاه الاعتداءات الأجنبية، بإسناد بريطانيا. ويجب التشاور مع بريطانيا حول أي خلاف يحصل بين العراق ودولة ثالثة يشتمل على خطر الحرب بينهما، على أمل إيجاد تسوية استنادا إلى ميثاق عصبة الأمم. في حالة وجود تهديد وشيك بالحرب، فيتخذ الطرفان وضعاً دفاعياً مشتركاً. وافر العراق بأن حماية وإدامة طرق المواصلات الأساسية البريطانية تصب في مصلحة الطرفين. لذا منحت بريطانيا مواقع لقواعد عسكرية جوية لقطعاتها قرب البصرة وغرب الفرات، وقد نصت المراسلات بين العراقيين والبريطانيين على أن يمنح السفير البريطاني امتياز التقدم على ممثلي باقي الدول كما يكون ممثل العراق في بريطانيا بدرجة وزير مفوض. وإن مدة صلاحية هذه المعاهدة هي لـ 25 سنة، وتكون نافذة حال دخول العراق إلى عصبة الأمم، وفي 3 تشرين الأول 1932 قبل العراق في عصبة الأمم دولة مستقلة.

بعد دخول العراق عصبة الأمم لم ترشح بريطانيا سفيراً جديداً لها في العراق كما تقتضي ذلك قواعد البروتوكول، بل غيرت صفة المندوب السامي إلى سفير، وكما هو معروف فإن المندوب السامي يتبع وزارة المستعمرات، في حين يتبع السفير وزارة الخارجية، لذلك بقي السير فرانسيس همفريز سفيراً لبلاده في العراق²⁴.

وبعد وفاة الملك فيصل الأول، خلفه ولده الملك غازي من سنة 1933-1939، وفي عهده استقال السير فرانسيس همفريز من منصبه لكبر سنه وعاد الى

بلاده سنة 1935، فعينت الحكومة البريطانية محله السير ارجيبولد كلارك كبير، والذي نقل من ستوكهولم حيث كان هناك وزيراً مفوضاً. وكان الملك غازي فتى وقليل الخبرة، وهذا الوضع أعطى الزعماء السياسيين الفرصة للمنافسة على السلطة، ولجأت المعارضة إلى أساليب خارج الدستور أو العنف، كان أهمها يتمثل بتحريض زعماء القبائل، وصولاً إلى التدخل العسكري، إذ حاول زعماء المعارضة الحصول على تأييد ضباط الجيش ليضعوا خطة انقلاب عسكري، وهذا الأسلوب الذي اعتمده المعارضة كان له نتائج خطيرة جداً، لأن الجيش عندما يتدخل بالسياسة يصبح إقامة حكم مدني من الأمور الصعبة، وأبرز حدث كان انقلاب بكر صدقي سنة 1936²⁵.

عين السير موريس بيترسون سفيراً لبريطانيا في العراق، وبقي بين سنتي 1938-1939، وفي نيسان 1939 نقل بيترسون وخلفه السير بازل نيوتن، ثم عين بعده السير كيناهان كورنواليس، وخلال حقبة سفارته حدثت ثورة 1941 والحرب العراقية-البريطانية وقد بقي سفيراً حتى أوائل سنة 1945.

ففي 2 أيار 1941 قامت ثورة ضد الوجود البريطاني بقيادة رشيد عالي الكيلاني وحلفائه قادة الجيش العراقي العقلاء الأربعة²⁶، وتم تشكيل حكومة جديدة بعد مغادرة نوري السعيد إلى خارج العراق، ولم تستطع الثورة الاستمرار في المقاومة، فاستسلمت بعد شهر من الحرب، وتم التوقيع على هدنة مكنت بريطانيا من استعادة السيطرة على العراق، وفي كانون الثاني 1943 أعلن العراق الحرب على دول المحور.

إن العلاقات العراقية البريطانية مرت بعد الحرب العالمية الثانية من القرن العشرين بمرحلة صعبة وحرجة، لاسيما وأن بريطانيا بدأت تتخوف من مخاطر بروز قوة الاتحاد السوفيتي وتحذت كثيراً عن أطماعه في نفط العراق . فأطلق سياسة بريطانيا تصريحات عديدة بشأن توجه جديد في التعامل مع دول الشرق الأوسط وقد تبين بعد ذلك أن تلك التصريحات ليست أكثر من محاولة لذر الرماد في العيون، وتم تعيين السير فرانسيس وليم ستونهيور بيرد، وبقي في بغداد حتى اوائل سنة 1948، وخلفه السير هنري ماك في 4 شباط 1948 .

وبعد مفاوضات طويلة ومعقدة بين العراق وبريطانيا وقع الطرفان معاهدة العام 1948 التي عرفت باسم (معاهدة بورتسموث) لم تكن تختلف جوهرياً عن معاهدة 1930، فقد اقتصر التغيير على إعادة صياغة بعض الفقرات، وبقاء بعضها الآخر على ما هو عليه، فكان أمراً طبيعياً أن ترفض الحركة الوطنية العراقية المعاهدة الجديدة بشدة، لم يسبق أن رفضت بها أية معاهدة مع بريطانيا .

بعد ذلك عينت بريطانيا السير جون تراوتبك سفيراً في بغداد وبقي حتى سنة 1955. وكان آخر السفراء البريطانيين في العراق في العهد الملكي السير مايكل رايت، والذي انتهت مهمته كسفير لبلاده عند قيام ثورة 14 تموز 1958 وسقوط النظام الملكي وتأسيس جمهورية العراق²⁷.

إن العلاقات العراقية - البريطانية التي اتسمت على الدوام بالتوتر الذي وصل حد الصدام في أكثر من مرة قبل العام 1945 وبعد العام 1958 وحتى الوقت

الحاضر بسبب المواقف البريطانية من القضايا الوطنية العراقية وكذلك القضايا العربية

28

وبعد ثورة 14 تموز 1958 أبلغت بريطانيا عبد الكريم قاسم في 21 تموز بوساطة سفارتها في بغداد عدم تدخلها في الشؤون الداخلية العراقية، وإن كان ذلك الإعلان بعيد عن الواقع، إلا إنه يدل على أن النظام الجديد في العراق حينها أصبح أمراً واقعاً²⁹.

وضعت ثورة 14 تموز 1958 حداً للنفوذ البريطاني في العراق، أو لنقل بدأت بتغيير ملامح هذا النفوذ، فبعد أن طمأن قادة الثورة بريطانيا والدول الأخرى إن الثورة قامت من أجل الشعب وإنها لا تستهدف مصالح بريطانيا ولا غيرها من الدول، اعترفت بريطانيا بالنظام الجمهوري، وبقيت السفارة البريطانية من دون سفير قرابة ستة أشهر، أي منذ أن انتهت مهمة السير مايكل رايت بقيام الثورة. وفي كانون الأول سنة 1958 عين السير همفري ترافليان سفيراً لبريطانيا في العراق، وقد وصل بغداد وبدأ عمله في ظل ظروف صعبة مرت بها العلاقات العراقية - البريطانية. وكان من أوليات عمله التعرف على ذهنية قادة الثورة وسلوكهم إزاء حلف بغداد، والعلاقات مع الغرب، والموقف من الكتلة الاسترلينية، ومن قضية النفط، وما شاكل ذلك من قضايا الخبراء والاتفاقيات والمعاهدات المعقودة بين العراق وبريطانيا³⁰.

خرج العراق من حلف بغداد في 24 آذار 1959، وبدأ جلاء القوات البريطانية من قاعدة الحبانية في 6 نيسان 1959، وبحلول 31 أيار 1959 غادر

العراق آخر مجموعة من الجنود البريطانيين، وفي 21 حزيران 1959 اتفق البلدان على خروج العراق من الكتلة الإسترلينية³¹.

ظل السير همفري ترافليان في العراق حتى أواخر سنة 1961، وخلفه السير روجر إلن الذي عين في تشرين الثاني سنة 1961، وبقي سفيراً حتى سنة 1965. وعين السير ريتشارد بومونت) سفيراً لبريطانيا في العراق خلفاً للسير روجر إلن. وقد سبق له العمل في السفارة البريطانية بصفة مستشار، وكان يعد من الخبراء بالشؤون العربية، وقد أصبح بعد تقاعده وتركه العمل الدبلوماسي رئيساً لغرفة التجارة العربية-البريطانية. وخلال حقبة سفارة بومونت حدثت حرب حزيران 1967 وقطع العراق علاقاته مع بريطانيا بسبب موقفها المؤيد لإسرائيل، ولم تستأنف العلاقات إلا في ايار 1968. وفي هذا التاريخ عين تريفور ايفانز ولم يكن يحمل لقب سير الذي كان يحمله السفراء البريطانيون السابقون، وكان ايفانز هذا متخصصاً بالشؤون العربية عمل سفيراً لبلاده في الجزائر ودمشق، ولما عاد من بغداد وانتهت مهمة سفارته عين أستاذاً في جامعة درهام.

بعد تريفور ايفانز عين بالفور بول في 1969، وكان يجيد اللغة العربية، وفي عهده قطعت العلاقات بين العراق وبريطانيا ثانية بسبب موقف بريطانيا من قضية استيلاء إيران على الجزر العربية الثلاث طنط الكبرى وطنت الصغرى وأبو موسى، وقد نقل بالفور بول إلى سلطنة عمان، وعند تقاعده عين أستاذاً في جامعة إكستر.

وفي أيلول سنة 1974 عادت العلاقات بين العراق وبريطانيا وعين جون الكساندر غراهام سفيراً لبريطانيا في بغداد، وكان يعمل سكرتيراً خاصاً لوزير

الخارجية البريطانية، وأعقبه في نيسان 1977 جون سترلينغ، وكان من قبل يعمل سكرتيراً ثانياً في السفارة العراقية ببغداد .

وبعده عين ستيفن لوفتس اغرتن في ايلول 1980 سفيراً لبريطانيا في العراق، وقد سبق له أيضاً العمل في السفارة البريطانية ببغداد، وفي تشرين الأول 1982 قدم السفير الجديد السير جون كامبل موبرلي أوراق اعتماده سفيراً جديداً لبريطانيا في العراق³².

وصلت العلاقات السياسية بين الدولتين إلى أسوأ درجاتها بعد احتلال نظام صدام حسين للكويت في عام 1990، واستمرت العلاقات الدبلوماسية بينهما على مستوى "شعبة رعاية المصالح" رغم قطع نظام صدام لهذه العلاقات مع بريطانيا في كانون الثاني 1991.

وبعد صعود حزب العمال³³ للحكم خلال المدة 1997-2007 كانت السياسة الخارجية تتمتع بخصائص عديدة، وكان لزعيم الحزب ورئيس الوزراء توني بليز أثر في قرارات السياسة الخارجية البريطانية، ولهذا السبب فإن مشاكل حزب العمال البريطاني التي واجهته في حكمه في المملكة المتحدة كانت لمحاولة تجاوز الصيغة التقليدية البريطانية في صياغة أساسيات السياسة الخارجية³⁴.

شاركت بريطانيا في عهد حزب العمال في عملية ثعلب الصحراء في العراق³⁵، تم الاتفاق على المشاركة في اجتماع لجنة (DOP) (اللجنة المسؤولة عن نشر القوات)، بينما كان هذا القرار لغير المطلع على أعمال هذه اللجنة يرى بأنه قرار رئيس الوزراء فقط، ولكن الواقع كان خلاف ذلك، وبالطبع مثل هذا القرار لم

يكن خالي من إقرار دستوري لرئيس الوزراء البريطاني بلير أيضاً. فقد أفادت التقارير بأن رئيس الوزراء بلير اجتمع بالمستشارين على نطاق واسع في دائرة صنع القرار الإستراتيجي (ديفيد مانينغ، جوناثان باول واليستر كامبل)، ووزير الخارجية جاك سترو، وزير شؤون مجلس الوزراء ريتشارد ويلسون، ورئيس لجنة الاستخبارات المشتركة (Joint Intelligence Committee) (JIC) جون سكارليت، ورئيس MI6 ريتشارد ديرلوف، ورئيس MI5 ستيفن لاندر. ومع ذلك، ربما لتهدئة المخاوف بشأن وسائل الإعلام وأمام حزبه، عقد بلير في وقت لاحق اجتماعاً في مجلس الوزراء مع سبعة من الوزراء في الحكومة حينها للتنسيق بشأن العمليات العسكرية في العراق خلال عمليات ثعلب الصحراء³⁶.

ثانياً : العلاقات السياسية العراقية البريطانية بعد عام 2003

شهدت العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا تطورات مهمة خلال حقبة ما بعد العام 2003، تنحصر القوة السياسية في البرلمان البريطاني في ثلاثة أحزاب رئيسة هي العمال والمحافظين والأحرار الديمقراطي³⁷، ومن خلال موقف هذه الاحزاب تشكلت ملامح السياسة الخارجية البريطانية إزاء العراق، ذلك إنها شكلت الحكوات خلال الحقبة التي أعقبت العام 2003، وستتناول المجال السياسي في العلاقات العراقية البريطانية في عدة محاور :

1- العلاقات بين البلدين في عهد توني بلير حتى عام 2007

شاركت بريطانيا في جميع التحضيرات التي بدأتها الولايات المتحدة الأمريكية للحرب ضد العراق، من خلال التنسيق المباشر بين جورج بوش وتوني بلير، لذلك وخشية أن تتم عرقلة جهود بلير تلك، فإنه ذكر بأن استشارة لجنة (DOP) غير عملي في سبيل الاقرار على تلك الحرب، وفضل أن يكون القرار ضمن مجموعة مختارة من المقربين منه، والذي ضم مانينغ، باول، كامبل، سكارليت، ديرلوف، سالي مورغان المساعد الخاص لبلير، والأدميرال سير مايكل بويس رئيس أركان الدفاع³⁸.

إن هذا البعد في السياسة الخارجية لتوني بلير وُلد انتقادات صارمة، وسميت في حينها نمط السياسة الخارجية لرئيس الوزراء توني بلير الذي كان مفرط بالسرية، وبعيداً عن القرار الجماعي، وكانت العلاقات مع أعضاء الحكومة ليست بالتنسيق وإعلام كافة الإدارات الحكومية وهذا أثار الجدل بين الحكومة ولجنة الاستخبارات البريطانية المشتركة مع لجنة بلير³⁹.

وعلى الرغم من ذلك فإن أعضاء مجلس الوزراء يحاولون في أغلب الأحيان بأن يظهروا الإجماع أمام العالم الخارجي وأن يكونوا جبهة موحدة في القرار السياسي. وفي العادة تقوم بعض أطراف الحكومة بمحاولة التوفيق بين الانقسامات الداخلية من خلال إجراءات دبلوماسية وقائية، قبل إقرار قضية أو مشروع مثل التهديد بالاستقالة من قبل احد الوزراء أو النواب في مجلس النواب البريطاني قد تكون ضارة للغاية مثل ما حصلت حين استقالت كلير شوت (وزيرة الدولة لشؤون التنمية الدولية للفترة 1997-2003 ونائبة في حزب العمال البريطاني) في عهد توني بلير ضد الحرب على العراق⁴⁰.

فضلاً عن ذلك فإن المخابرات البريطانية تحتل دائماً موقعاً مهماً في صياغة عملية السياسة الخارجية في المملكة المتحدة، وتحدد المجال بالسرية داخل المجال المسموح بها للعمل، كما وإن مبلغ الميزانية العامة للهيئات الاستخباراتية البريطانية هي أكثر بكثير من ميزانية وزارة الخارجية البريطانية. كما وإن الإستراتيجية الجديدة في وايت هول البريطاني تأثر بعد أحداث 11 سبتمبر والاستخبارات تتمتع بدور أكبر منذ ذلك الحين، وأدى إلى تأسيس مؤسسات جديدة مثل لجنة للإرهاب الدولي في مجلس الوزراء البريطاني، كما تعمل هذه اللجنة مع مكتب رئيس الوزراء ومكاتب الوزراء، واللجنة عبرت عن رغبتها أن تلعب دورها المباشر في العمليات

41

وفي الأشهر التي سبقت غزو العراق، أتت هذه الخصائص أمام الجمهور البريطاني للمناقشة العامة، والتي لم يسبق لها مثيل، وتبين مركز المخابرات العامة وMI6 وJIC على وجه الخصوص ودورها الرئيس في إقرار الحرب ضد العراق والادعاء بأنها حرب "وقائية" ⁴².

ومع ذلك، فإن رئاسة الوزراء البريطاني في (10 Downing Street) ركزت نشاطاتها على المعلومات الاستخباراتية حول العراق ووضعتها في جدول أعمال لجنة الاستخبارات المشتركة، والتي شملت أيضاً معلومات استخباراتية حول تطورات هامة في باكستان وإيران وكوريا الشمالية وليبيا وكذلك العراق. كما أن نوعية المعلومات الاستخباراتية حول العراق، في تقرير ما يسمى (تقرير بتلر) أسوء استخدامها بشكل لافت.

وبالإمكان وضع الكثير من التركيز على دور المخابرات الأجنبية في صنع السياسات الخارجية البريطانية، لاسيما في حالة الحرب ضد العراق، وظهر لاحقاً بأن التحليلات الاستخباراتية كانت عاملاً رئيساً قاد حكومة المملكة المتحدة لإقرار المشاركة في الغزو الذي قاده الولايات المتحدة على العراق. كما وتضمن تقرير بتلر " بأن لا توجد معلومات استخباراتية تستنتج بأن العراق محل قلق أمني " ⁴³.

إن الموقف البريطاني إزاء العراق أشار بأن الحكومة البريطانية أخذت قراراتها استناداً إلى التهديدات التي شكلها تصورات أعقاب 11 سبتمبر، والحاجة الماسة للمملكة المتحدة أن تقف جنباً إلى جنب مع إدارة الرئيس جورج بوش، وهذا من أجل الوقاية من المخاطر المحتملة. في هذه الحقة خرجت لجنة المخابرات البريطانية JIC من دورها التقليدي وبلير كان يريد أن يسمع أكثر من ما هو بحاجة إلى دراسة الوضع ⁴⁴.

استمر تدهور العلاقات مع اشتداد حملة الإعداد للحرب ضد نظام صدام حسين عام 2003 ، وبالفعل شاركت بريطانيا في حرب العراق عام 2003، وكانت القوة الثانية بعد القوات الأمريكية، وكان لمشاركة توني بلير الأثر الكبير في دعم توجهات إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش .

لقد وجدت بريطانيا نفسها مرة أخرى في العراق بعد حرب 2003 واحتلال العراق، وأُسندت للقوات البريطانية مهامها العسكرية في مدينة البصرة بجنوب العراق، وبعد ذلك اتفقت الحكومتان العراقية والبريطانية على إعادة

العلاقات الدبلوماسية بينهما في 28 حزيران 2004 وتم تبادل السفراء بين البلدين.

2- العلاقات بين البلدين في عهد جوردن براون 2007-2010

استلم جوردن براون منصب رئيس الوزراء للمدة من 2007-2010 وكان رئيساً لحزب العمال في بريطانيا، إذ راقب الشعب البريطاني والسياسيين حكومة جوردن براون متوقفاً تغيراً جذرياً في السياسة الخارجية لبريطانيا بعد حرب العراق، لأن معظم الشعب البريطاني كان ولا يزال يتذكر النواحي السلبية للتدخل البريطاني في العراق، والتكلفة المادية والمعنوية والخسائر البشرية التي سببها ذلك التدخل.

فضلاً عن الجدل حول أسباب ومبررات تلك الحرب والتي لا تزال حادة، وكان من المتوقع أن يرى المراقبين السياسيين تغيراً في علاقة المملكة المتحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن تبين بأن هناك تغيراً ضئيلاً في الاتجاهات الرئيسة في السياسات الخارجية البريطانية مقارنة مع عهد بلير. على سبيل المثال وبالرغم من محاولات الهيئات الإدارية بإعداد مذكرات وتعليمات إلى الامتناع عن استخدام عبارة "الحرب على الإرهاب" ولكن ضلت هذه العبارة تستخدم من قبل حكومة جوردن براون، وكذلك جوهر السياسة الخارجية لبريطانيا في الشرق الأوسط من ناحية، وعلاقة بريطانيا مع أوروبا والتعهد للاتحاد الأوروبي، وكذلك بقاء الحضور العسكري في أفغانستان من ناحية أخرى لم يتغير⁴⁵.

استمر تواجد القوات البريطانية في جنوب العراق، حتى تم الاتفاق على تسليم البصرة للقوات العراقية في عام 2007، إذ أكد كل من العراق وبريطانيا على ضرورة تطوير العلاقات الاقتصادية بين البلدين، هذا ما أكده وزير الخارجية البريطاني ديفيد ميليباند خلال زيارته إلى العراق بمناسبة تسليم قوات بلاده مقاليد الأمن في البصرة للقوات العراقية، إذ قال : " بحلول ربيع عام 2008 سيقلص الوجود العسكري في البصرة إلى 2500 جندي، ونود الآن أن نركز على آفاق جديدة للتعاون في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وكانت قواتنا العسكرية بقيادة الجنرال موهان قادرة على بناء علاقات وثيقة مع نظرائهم العراقيين".

وفي بيان صادر عن رئاسة مجلس الوزراء العراقي، نقلا عن رئيس الوزراء نوري المالكي الذي أكد فيه حرص حكومته على إقامة أفضل العلاقات مع بريطانيا، وفتح آفاق التعاون المشترك في المجالات كافة، مؤكداً أن المرحلة المقبلة ستشهد إنشاء مشاريع متعددة لإعادة إعمار البصرة وجميع المحافظات الأخرى، داعياً الحكومة البريطانية للمساهمة بنشاط في هذه المشاريع والمساعدة لدعم وتطوير الاقتصاد العراقي⁴⁶.

وظل براون ملتزماً بحرب العراق بعد استلامه منصب رئاسة الوزراء وصرح مؤيداً حرب العراق، وقال "نتعلم من الدروس، ومن الأخطاء التي ارتكبت في العراق". وكذلك ذكر براون في رسالة نشرت في 17 آذار 2008 أن المملكة المتحدة سوف تشكل لجنة تحقيقية للنظر في الحرب على العراق .

كما تم التوقيع على اتفاقية الشراكة بين جمهورية العراق والمملكة المتحدة بتاريخ 30 نيسان 2009، إذ وقع الاتفاقية عن الجانب العراقي رئيس الوزراء نوري المالكي وعن الجانب البريطاني رئيس الوزراء جوردن براون، وتم توقيع الاتفاقية على هامش مؤتمر الاستثمار في العراق، الذي عقد في لندن تحت شعار " الاستثمار في العراق: لندن 2009 "، الذي نظّمته وزارة التنمية البريطانية. وتعد هذه الاتفاقية ذات شراكة إستراتيجية، وتأسيساً على هذه الاتفاقية، تم التعاون الثنائي المثمر بين البلدين في قطاع الزراعة والمياه والأمن الغذائي، والتعليم، والطاقة، والصحة، والعلوم والتكنولوجيا⁴⁷.

وتم الإعلان عن تحقيق رسمي في حرب العراق بتاريخ 15 تموز 2009، إذ شكلت لجنة برئاسة السير جون تشيلكوت، ومستشاري المملكة، وسميت هذه اللجنة بلجنة تشيلكوت، وذلك للتحقيق بمشاركة بريطانيا في حرب العراق، للتحقق ما بين منتصف عام 2001 وتموز 2009. وهو يغطي المدة التي سبقت العمل العسكري لغرض التأسيس لمعرفة الطريقة التي تم بها اتخاذ قرار الحرب، وتحديد ما حدث والضمان بأخذ الدروس والعبر في حالات مماثلة في المستقبل، وانتهت أعمال اللجنة في 2 شباط 2011⁴⁸.

وفي سنة 2012 رفضت الحكومة البريطانية الكشف عن الوثائق التحقيقية للجنة تشيلكوت، التي تشير إلى محاضر واجتماعات مجلس الوزراء في الأيام التي سبقت غزو العراق في عام 2003. وفي الوقت نفسه نجحت وزارة الخارجية البريطانية بالحصول على قرار الحكم الذي يمنح الموافقة على كشف المحادثة التي جرت بين جورج دبليو بوش وتوني بليز قبل أيام من الغزو. وذكرت الحكومة

البريطانية أن الكشف عن اتصال هاتفي بين بوش وبلير قبل أيام من الغزو سوف يشكل تهديداً للعلاقات البريطانية الأمريكية، وتفصيل تحقيقات لجنة تشيلكوت كان من المقرر أن يعلن للجمهور عام 2014⁴⁹. أما بالنسبة للمعلومات التي تخص الولايات المتحدة الأمريكية في تحقيقات لجنة تشيلكوت بخصوص الإعلان عن التقرير النهائي، فجرت مفاوضات مكثفة وصعبة مع الولايات المتحدة الأمريكية حول نشر هذه الوثائق. أما بخصوص رأي جوردن براون بالحرب على العراق فقد ذكر أمام لجنة التحقيق الذي حضره في جلسة استغرقت أربع ساعات بأنه يعتقد أن الحرب كان لابد منها استناداً إلى المعلومات الاستخبارية التي قدمت للمخابرات البريطانية بأن العراق كان يشكل تهديداً⁵⁰.

3- العلاقات بين البلدين في عهد ديفيد كاميرون

استلم حزب المحافظين⁵¹ الحكم في بريطانيا منذ العام 2010، بعد أن شكل حكومة ائتلافية مع حزب الديمقراطيين الأحرار⁵²، وألقى وزير الخارجية البريطاني وليم هيغ خطاب سياسة المملكة المتحدة في مبنى وزارة الخارجية بعد مدة وجيزة من استلامه مسؤولية وزارة الخارجية البريطانية في أيار 2010، رسم فيه معالم رؤية جديدة للخارجية البريطانية ودورها في تعزيز مكانة بريطانيا الدولية وحماية مصالحها الاقتصادية والسياسية في العالم ورسم الخطوط العريضة للسياسة الخارجية للحكومة⁵³.

وقد شهدت العلاقات بين البلدين تطورات مهمة فبعد انتهاء العمليات العسكرية البريطانية في العراق في نيسان 2009، وانسحاب القوات البريطانية

المقاتلة مع نهاية تموز 2009 ، وبعد وصول حكومة ائتلافية جديدة في بريطانيا عام 2010 خلفا لحكومة حزب العمال السابقة، سعت الحكومة البريطانية إلى إقامة علاقات ثنائية قوية بمختلف المجالات مع العراق، مركزة على الروابط الثقافية والتعليمية والتجارية والتنموية، إذ تنظر الحكومة البريطانية إلى العراق الجديد على أنه حجر أساس للاستقرار في منطقة الخليج العربي.

وفي 22 ماي 2011 غادرت القوات البريطانية المتبقية في العراق كلها، وقد نقلت إلى الكويت بعد أن رفضت الحكومة العراقية طلب بريطانيا للبقاء في العراق وتمديد مهمتهم.

وعبرت الحكومة البريطانية عن رغبتها في دعم العراق على تطوير قدراته الذاتية كونه شريك أساسي في معالجة التحديات العالمية التي تواجه البلدين، المتمثلة بالقدرة على توفير الاستقرار والأمن والرخاء المستدام، وتعد الحكومة البريطانية أن استقرار العراق ونجاحه في ترسيخ الديمقراطية في الوقت الحاضر ذو أهمية كبيرة بالنسبة للمصالح البريطانية داخل المنطقة وخارجها، وترى الحكومة البريطانية بأن بإمكان العراق أن يمارس دوراً فاعلاً في حفظ التوازن الإقليمي، ولاسيما مع إيران، وذلك من خلال موقعه الجيوستراتيجي، وعلاقاته مع دول الجوار العربية، فضلاً عن الاحتياطي النفطي الهائل، وموارده البشرية⁵⁴.

وسعت المملكة المتحدة لتوسيع علاقتها مع العراق من خلال افتتاح المركز الجديد لتقديم طلبات التأشيرة البريطانية في بغداد بتاريخ 24 كانون الثاني 2013 من قبل وزير للتجارة والاستثمار البريطاني اللورد كرين رسمياً، وذلك بحضور وزير الخارجية العراقية هوشيار زيارى للمرة الأولى. وبذلك أصبح المواطن العراقي قادراً

على التقديم لطلب الحصول على تأشيرات المملكة المتحدة من بغداد. وفي تصريح أدلى به في حفل الافتتاح للورد كرين، قال: "لفترة طويلة جدا لم تكن بريطانيا قادرة على تقديم مجموعة من الخدمات للمواطنين العراقيين وذلك للحصول على تأشيرة السمة السياحية لزيارة المملكة المتحدة، وزيارة الأصدقاء والأقرباء في بريطانيا، وكان من الضروري أن يسافر المواطن العراقي إلى عمان أو أي مكان آخر للحصول على تأشيرة بريطانية، وهذه العملية كانت مضيعة للوقت ومكلفة، ولذلك قررت الحكومة البريطانية افتتاح مركز لاستلام المعاملات من العراق وتسهيل منح السمة". وفتحت قنصلية في أربيل في شهر آب 2013، كما وانتهد لورد كرين وزير التجارة والاستثمار هذه الزيارة وقام بزيارة مدينة البصرة والتقى بمجموعة من المسؤولين في البصرة، كما والتقى بمجموعة رجال الأعمال وذلك لتشجيع توسيع الأعمال التجارية بين العراق وبريطانيا. وتعهدت وزارة الخارجية البريطاني بفتح قنصلية جديدة في البصرة لاستقبال المعاملات للتأشيرة لاحقا⁵⁵.

أجرى وزير الخارجية فيليب هاموند خلال زيارته في 13 تشرين الأول 2014 لقاءات مع الساسة العراقيين في بغداد لبحث التهديد الذي يشكله إرهابيو داعش والرد الدولي على هذا التهديد. وصرح هاموند من بغداد قائلاً: "داعش جماعة إرهابية وحشية لا تمثل الشعب العراقي ولا الشرق الأوسط ولا الدين الإسلامي، والعنف الذي يرتكبه أعضاء هذه الجماعة لا يفرق بين الثقافات والدول والأديان التي يعتدي عليها، وإن لم نتصدى لهم الآن، فإننا سنواجه عصابات إرهابية مجرمة عازمة، كما أثبتت بأفعالها، على الاعتداء على كل من لا يتفق مع فكرها المعوج". وأضاف إن "الإجراءات التي اتخذتها المملكة المتحدة حتى الآن، بما

في ذلك الضربات الجوية والمهام الاستطلاعية التي تنفذها الطائرات، تبرهن على أن المملكة المتحدة سوف تؤدي دورها بالوقوف إلى جانب الشعب العراقي في كفاحه ضد داعش ، كما إننا نعمل مع السلطات العراقية لتنمية قدرتها في التصدي لداعش، حيث إننا: نقدم المعدات والتدريبات العسكرية لقوات الأمن الكردية، والدعم السياسي للحكومة العراقية الجديدة، ونقود الجهود الدبلوماسية في الأمم المتحدة لقطع مصادر تمويل داعش، ونقدم 23 مليون جنيه استرليني من المساعدات الإنسانية للمتضررين من وحشية داعش البربرية " 56 .

وأعلن وزير الدفاع البريطاني مايكل فالون (Michael Fallon) خلال زيارته إلى العراق في 5 تشرين الثاني 2014 بأن المملكة المتحدة تخطط لغرض إرسال مستشارين بريطانيين لمقرات القيادة العراقية في سياق توفير مزيد من التدريب للجيش العراقي ولمقاتلي البشمركة. وأجرى فالون خلال زيارته إلى العراق محادثات في بغداد مع رئيس الوزراء حيدر العبادي، ووزير الدفاع العراقي خالد العبيدي، ومستشار الأمن القومي فالح الفياض، وفي إقليم كردستان اجتمع برئيس الإقليم مسعود بارزاني، ورئيس حكومة الاقليم نيجيرفان بارزاني. كما زار فالون مدربين من القوات المسلحة البريطانية يديرون قوات البشمركة على استخدام الأسلحة الرشاشة الثقيلة التي أهدتها لهم المملكة المتحدة. وقد بحث الدعم المستمر الذي تقدمه المملكة المتحدة للجيش العراقي، بما في ذلك قوات البشمركة، كجزء من تحالف دولي واسع يركز على دحر داعش.

وأثناء زيارته للعراق، أكد وزير الدفاع البريطاني عزم المملكة المتحدة توفير تدريب للقوات العراقية على أجهزة كشف العبوات الناسفة المصنوعة محلياً، إلى

جانب المساهمة بإرسال مستشارين لمقرات القيادة لتكون جزءاً من الدعم الهادف لتعزيز قدرات القوات العراقية على التصدي لمقاتلي داعش. كما أعلن فالون بأن المملكة المتحدة سوف توسع عرض التدريب الحالي للأفراد ليشمل مهارات المشاة، كمهارة التصويب والإسعافات الأولية، إلى جانب تزويدهم بمزيد من المعدات. وأعلن أن المملكة المتحدة تستعد لزيادة عدد طائرات ريبير بدون طيار في المنطقة لتوفر للقوات العراقية مزيداً من المعلومات والمساعدة من خلال عمليات الاستطلاع دعماً للتحالف والمصالح الوطنية⁵⁷.

لقد خلق توسع داعش في العراق منذ عام 2014 أزمة إنسانية كبرى وأصبح 8.7 مليون شخص في حاجة للمساعدة الإنسانية، بما في ذلك ما يزيد على 3.2 مليون شخص الذين شردوا من منازلهم. وقد خصصت وزارة التنمية الدولية 79.500.000 جنيه استرليني للأزمة منذ حزيران عام 2014. وفي صيف عام 2014 استجابت بريطانيا للعدد المتزايد بسرعة من العراقيين الذين فروا من منازلهم خلال تخصيص 23 مليون جنيه استرليني في المساعدة الإنسانية الطارئة. هذه الأموال المقدمة الغذاء والمأوى والمياه والصرف الصحي والرعاية الطبية لآلاف من الأسر النازحة الضعيفة عبر العراق .

وفي كانون الأول عام 2014، مع اقتراب فصل الشتاء وانخفاض درجات الحرارة إلى ما دون الصفر، واصلت بريطانيا دعمها مع 16.5 مليون جنيه استرليني إضافية لتقديم المساعدات لعشرات الآلاف من الأسر، بما في ذلك توفير إمدادات الشتاء الأساسية . ومع تدهور الوضع الإنساني في عام 2015، أعلنت بريطانيا في 4 حزيران تمويلاً إضافياً قدره 20 مليون جنيه استرليني.

وخلال زيارة للعراق في أيلول 2015 أعلن وزير التنمية الدولية البريطاني ديزموند عن 20 مليون جنيه استرليني من الدعم وتوفير الرعاية الطبية والمياه النظيفة وخدمات الصرف الصحي المحسنة والمأوى والدعم النقدي وغيرها من الضروريات إلى النازحين العراقيين، وبذلك يكون إجمالي هذا الجهد الإنساني لوزارة التنمية الدولية الكلي في العراق 79.500.000 جنيه استرليني⁵⁸.

تم تعيين سفير جديد للعراق في لندن هو صالح التميمي الذي زار وزارة الخارجية البريطانية في 10 أيلول 2015 والتقى توباياس إلوود وزير شؤون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، والسيد نيل كرومبتون مدير عام دائرة شرق الأوسط وشمال أفريقيا، والسيد جون دين مسؤول ملف العراق في الخارجية البريطانية، ورحب توباياس إلوود بالسفير، وهنئه بمناسبة تسنمه مهام عمله سفيراً لجمهورية العراق لدى بريطانيا، وأكد على أن بريطانيا سوف تواصل دعمها للعراق في حربه ضد الإرهاب، كما ورحب بالإصلاحات الذي يقوم به رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي في الحكومة، وبين الوزير بأن له النية لزيارة العراق في المستقبل القريب.

عبر السفير عن شكره لجهود بريطانيا للمساعدات العسكرية والإنسانية التي تمنحها بريطانيا للعراق والعراقيين في حربها ضد كيان داعش الإرهابي، وطلب السفير من المملكة المتحدة تقديم المزيد من الدعم الإنساني والعسكري للحكومة العراقية في هذه المرحلة الحساسة. كما أشار السفير إلى تحديث ملف جديد في السفارة وهي ملف "الأمن والسلام النسوي" وأن هذا العمل يؤكد على حرص الحكومة العراقية للحفاظ على حقوق الإنسان وبالأخص النساء في حالات الصراع ومعالجة الضحايا من النساء في الحرب، ولاسيما ضحايا نساء الأيزيديات على يد تنظيم

داعش الإرهابي. ومن ثم تطرق السفير إلى تطلع السفارة لجهود وزارة الخارجية لتسهيل إجراءات سمة الدخول إلى بريطانيا للمواطنين، وهذا من شأنه دفع العلاقات في الجوانب كافة. وأكد الوزير بأنه سيتم التنسيق وسيدعم موقف السفارة والحكومة العراقية مع وزارة الداخلية لهذا الغرض⁵⁹.

وقدم السفير صالح التميمي في 14 تشرين الأول 2015 أوراق اعتماده إلى الملكة اليزابيث الثانية سفيراً فوق العادة لجمهورية العراق لدى المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية. ونقل السفير تحيات الرئيس فؤاد معصوم إلى الملكة وتمنياته للمملكة المتحدة بدوام التقدم والازدهار، وأبدت جلالة الملكة اليزابيث ترحيبها بالسفير متمنيةً للعراق تحقيق الاستقرار والتقدم والازدهار والنجاح للسفير في مهام عمله في المملكة المتحدة.

وبهذه المناسبة أقام السفير حفل استقبال حضره المارشال ألستر هاريسن والبارونة إيما نيكلسن المبعوث التجاري الخاص لرئيس الوزراء البريطاني إلى العراق، وعدد من موظفي وزارة الخارجية البريطانية، وعدد من رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين في المملكة المتحدة وممثلين عنهم. وقد القى السفير خلال الحفل كلمة أعرب فيها عن سعادته بلقاء الملكة وقال "إنه لشرف عظيم أن أقدم أوراق اعتمادني سفيراً لجمهورية العراق لدى المملكة المتحدة"، متمنياً أن يكون موفقاً في تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين من خلال العمل المشترك بين الجانبين.

كما أبدى السفير شكره للحكومة البريطانية والتحالف الدولي على دعمهما للقوات العراقية في حربها ضد تنظيم داعش الإرهابي، مؤكداً أهمية العمل معاً

للتخلص من هؤلاء الإرهابيين الذين يدعون الإسلام، والحقيقة أنهم لا دين لهم، وإن تخليص العراق من هذا التهديد الإرهابي وبمساعدة المجتمع الدولي سوف يمكن المجتمع العراقي أن يبدأ مرة أخرى في بناء فسيفسائه الحضارية الغنية بالثقافات وأخذ دوره في المجتمع الدولي". كما التقى المارشال اليستر هاريسون كلمة أكد فيها على العمق التاريخي للعراق ودوره في بناء الحضارة الانسانية والتطور في مجالات العلوم والرياضيات⁶⁰.

والتقى السفير صالح التميمي في 7 كانون الثاني 2016 وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية البريطانية توبياس إيلوود في مقر وزارة الخارجية البريطانية، وجرى خلال اللقاء التطرق إلى العلاقات الثنائية بين البلدين وتبادل وجهات النظر في المواضيع الراهنة على الساحتين العالمية والإقليمية.

وهناً وزير الدولة البريطاني توبياس إيلوود السفير على الإنتصار العسكري الكبير الذي حققته القوات العراقية ضد تنظيم داعش في إستعادة مدينة الرمادي، في حين أعرب السفير عن ثقته بقرب تحرير كامل أراضي العراق من سيطرة داعش بفضل الروح المعنوية العالية والخبرة الكبيرة التي إكتسبتها القوات العراقية في القتال ضد الإرهاب، شاكرًا المملكة المتحدة على مواقفها الداعمة للعراق في كافة المجالات، ولاسيما في محاربة داعش⁶¹.

وقام مستشار الأمن الوطني فالح الفياض بزيارة رسمية الى المملكة المتحدة إستمرت عدة أيام اختتمها في 15 آذار 2016 ، والتقى عدد من المسؤولين البريطانيين، وتباحث معهم في المواضيع ذات الإهتمام المشترك، مستعرضاً

الإنتصارات التي حققها العراق على تنظيم داعش الإرهابي ومشدداً على أهمية الدعم الذي تقدمه المملكة المتحدة للعراق⁶².

واستقبل رئيس الجمهورية فؤاد معصوم في 10 نيسان 2016 السفير البريطاني لدى العراق فرانك بيكر، وبحث معه تطورات الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية في المنطقة، فضلاً عن العلاقات الثنائية بين البلدين، وأكد معصوم على أهمية العلاقات التي تربط العراق والمملكة المتحدة، داعياً إلى "تمتينها والارتقاء بها على مختلف المستويات لما فيه مصلحة شعبي البلدين الصديقين .

ومن جهته أكد السفير بيكر على أهمية العلاقات الثنائية، مشيراً إلى أن "المملكة المتحدة تنظر باهتمام إلى العراق ومساعدته في تجاوز العقبات الأمنية والاقتصادية من خلال مواصلة الدعم العسكري والانساني، وتوسيع التعاون الثنائي البناء في مختلف المجالات"⁶³.

والتقى السفير صالح التميمي في 10 حزيران 2016 بمسؤولي الدائرة الدولية وقسم الهجرة في وزارة الداخلية البريطانية، حيث تم التطرق إلى المواضيع ذات العلاقة، ومنها مواصلة التنسيق المشترك والعمل الخاص بتقديم التسهيلات اللازمة لمنح سمات الدخول إلى العراقيين، وموضوع تبادل الخبرات المشتركة، وإعداد برامج تدريب خاصة لتأهيل الكوادر العراقية ذات العلاقة، فضلاً عن مناقشة ملفات استرداد المطلوبين العراقيين والحجز على اموالهم، وتم الاتفاق على إدامة التعاون في هذا المجال بما يساهم في خدمة مصالح البلدين الصديقين⁶⁴.

4- لجنة حرب العراق (تقرير لجنة تشيلكوت)

بعد تبوء غوردون براون زعامة حزب العمال ورئاسة الوزراء في عام 2007 عمد الحزب إلى تحميل قيادة توني بليز مسؤولية مشاركة بريطانيا بحرب العراق، وبدا ذلك واضحاً من تصريحات ومواقف غوردون براون الذي خلف توني بليز، وإستمر الحزب بذلك بعد خسارته للسلطة في عام 2010⁶⁵، وخلال المدة التي شهدت إنتخابات لرئاسة حزب العمال خلفاً لغوردون براون وظهر ذلك من خلال تصريحات المتنافسين الرئيسيين الأخوين ديفيد ميليباند وإد ميليباند اللذين أبعدا نفسيهما كلياً عن قرارات توني بليز بمشاركة بريطانيا في حرب العراق⁶⁶.

لقد قاد حزب العمال الحملة الهادفة إلى حشد الرأي العام المحلي في بريطانيا من أجل المشاركة في حرب العراق وإسقاط نظام صدام حسين. ويعتبر مراقبون أن زعيم حزب العمال آنذاك توني بليز⁶⁷ كان ولا يزال أحد أهم الدعاة من أجل الحرب والمساهمين فيها والمدافعين عن مسارها⁶⁸.

لذلك شكل رئيس الوزراء البريطاني الأسبق غوردون براون في عام 2009 لجنة تحقيق برئاسة السير جون تشيلكوت للتحقيق بالأسباب الحقيقية التي دفعت برئيس الوزراء الأسبق توني بليز للالتحاق بحملة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن لغزو العراق في عام 2003. وكان من المفترض أن تُنهي اللجنة عملها في غضون 12 شهراً، لكنها أخفقت في إصدار تقريرها خلال المدة المحددة، واستغرقت سبع سنوات، وإنفقت أكثر من 10 ملايين جنيه إسترليني. لذلك وصل الأمر إلى حد تهديد أسر جنود بريطانيين قتلوا في الغزو باللجوء إلى القضاء ما لم تنشر لجنة "تشيلكوت" نتائج تحقيقاتها التي تبتغي منها إلقاء الضوء على الحثيات

التي استند إليها بليز للمشاركة في الحرب التي قادتها الولايات المتحدة وقتل فيها 179 جندياً بريطانياً.

وكان بليز قد مثل أمام لجنة التحقيق البريطانية، ودافع بقوة عن القرار الذي اتخذته عام 2003 بإرسال أكثر من أربعين ألف جندي بريطاني للمشاركة في حرب العراق. وقال إن تقييم المخاطر التي كانت تفرضها "الدول المارقة" تعيّر بشكل جذري بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001 على الولايات المتحدة. وأضاف خلال شهادته أمام لجنة التحقيق البريطانية حول حرب العراق أنه "إذا لم تكن (هجمات) الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وقعت، لكان تقييمنا للموقف مختلف، لكن بعد 11 سبتمبر/أيلول تغير منظورنا ومنظور الأمريكيين بشكل جذري"⁶⁹.

أعلن السير جون تشيلكوت رئيس لجنة التحقيق بشأن حرب العراق تقريره في 6 تموز 2016⁷⁰، وعبر عن أمله في أن يساعد التقرير أسر البريطانيين الـ 179 الذين قتلوا بين عامي 2003 و2009 على الإجابة عن بعض الأسئلة التي ما زالت تؤرقهم. وقد حدد ما خلص إليه تقريره من نتائج بشأن ضلوع بريطانيا في حرب العراق عام 2003، فضلاً عن الدروس المستفادة منها. وغطى التقرير مدة عقد من الزمن تقريباً لقرارات الحكومة البريطانية السياسية بين عامي 2001 و2009. وتناول التقرير خلفية قرار مشاركة بريطانيا في الحرب، ومدى استعداد القوات على نحو مناسب، وكيف دار الصراع، وماهية الخطط في أعقاب الحرب، وهي مدة تفاقم خلالها العنف الطائفي، ويقع التقرير في 2,6 مليون كلمة.

- وحول سبب تأخر صدور التقرير قال تشيلكوت إن "المهمة كانت مضنية جداً"، وتضمن التقرير كما أعلنه تشيلكوت نقاط رئيسة عدة، أهمها⁷¹:
- 1- إن بريطانيا اختارت المشاركة في غزو العراق قبل استفاد كل الخيارات السلمية، ولم يكن العمل العسكري في ذلك الوقت ملاذاً أخيراً .
 - 2- ربما كان العمل العسكري ضرورياً في وقت لاحق، لكن في آذار 2003 لم يكن هناك أي تهديد وشيك من نظام صدام حسين، وكان من الممكن تهيئة استراتيجية احتواء فعالة، وكانت غالبية مجلس الأمن تدعم استمرار الأمم المتحدة في أعمال التفتيش والمراقبة.
 - 3- المعلومات الاستخباراتية " لم تقدم بما يقطع الشك باليقين" أن صدام حسين استمر في إنتاج أسلحة كيميائية وبيولوجية، واعتمدت السياسة بشأن العراق على أساس معلومات استخباراتية مغلوبة وغير دقيقة.
 - 4- كانت الملابس التي اتخذ فيها قرار بشرعية العمليات العسكرية البريطانية "غير مرضية" .
 - 5- إن الغزو بدأ في 20 آذار 2003 ، ولكن حتى 13 آذار لم يكن المحامي العام في ذلك الوقت لورد غولدسميث قد نصح بوجود أساس شرعي أمني للعمليات العسكرية. وباستثناء الرد على خطابه العاشر المؤرخ في 14 آذار، لا يوجد أي تسجيل رسمي لهذا القرار، ومازالت الخلفية الدقيقة لاتخاذ القرار غير واضحة.

6- قوضت الخطوات البريطانية سلطة مجلس الأمن، ويحدد ميثاق الأمم المتحدة مسؤولية الحفاظ على السلام والأمن ضمن أعمال مجلس الأمن. كما ادعت الحكومة البريطانية أنها تتحرك نيابة عن المجتمع الدولي "لتعزيز سلطة مجلس الأمن"، لكنها كانت تعلم أنه لا يوجد دعم كبير لخطواتها .

7- كان الوقت قصيراً "لتجهيز ثلاثة ألوية عسكرية" على نحو مناسب لنشرها في العراق، وبالنسبة لحجم المخاطر "لم تحدد بشكل مناسب ولم يكشف عنها" للوزراء، مما أسفر عن "نقص المعدات" .

8- خلال الحقبة بين 2003 و 2009، واجهت القوات البريطانية في العراق ثغرات في بعض مجالات القدرة الرئيسة، من بينها المركبات المدرعة والاستطلاع والمعلومات الاستخباراتية ودعم الطائرات المروحية. ولم يكن واضحاً بما يكفي من هو المسؤول، في أي إدارة داخل نطاق وزارة الدفاع، عن تحديد تلك الثغرات وتوضيحها.

9- كان ينبغي عدم التسامح بشأن التأخير في توفير مركبات الدوريات والتقاعس عن تلبية احتياجات القوات البريطانية فيما يتعلق بمعدات الاستطلاع والاستخبارات والمروحيات.

10- في 28 تموز 2002، أكد توني بلير رئيس الوزراء البريطاني للرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش إنه سيكون معه "مهما كان". لكنه أشار في الخطاب إلى أن التحالف الأمريكي للعمليات العسكرية يحتاج إلى تقدم في عملية السلام في الشرق

الأوسط، وسلطة الأمم المتحدة، وتغيير الرأي العام في بريطانيا وأوروبا وبين زعماء الدول العربية.

11- وعلى الرغم من التحذيرات الصريحة، استهانت الحكومة بعواقب الغزو، كما كانت الخطط والاستعدادات لعراق ما بعد صدام حسين "غير كافية تماماً"، فقد فشلت الحكومة في تحقيق الأهداف التي كانت وضعتها لنفسها في العراق، وقتل في الصراع 179 بريطاني، وتكبد الشعب العراقي خسائر فادحة.

12- حدد التقرير دروساً يستفاد منها، وخلص إلى أن بليز بالغ في تقدير حجم قدرته للتأثير على القرارات الأمريكية في العراق، كما أن علاقة بريطانيا مع الولايات المتحدة لا تتطلب دعماً غير مشروط.

13- وقال التقرير إنه من المهم إجراء مناقشات على مستوى الوزراء تشجع على النقاش الصريح والواعي وبطريقة تتسم بالتحدي، بغية ضمان تهيئة الأسلحة المدنية والعسكرية للحكومة على نحو مناسب، وذكر إنه لا بد في المستقبل من حساب جميع أوجه التدخل ومناقشتها بصراحة، كما لا بد من تطبيق القرارات تطبيقاً تاماً.

وأشار التقرير إلى الفشل الاستخباري الفضيع الذي وقعت به أجهزة الاستخبارات البريطانية، سواء بجمع المعلومات، أو تحليلها، أو تقديمها . وربما كان المجال المهم الأخير للجنة تشيلكوت هو فحص كيفية تقديم المعلومات الاستخبارية إلى العموم. إذ وصفت تقييمات استخبارية سرية في آذار 2002 المعلومات الاستخبارية عن الأسلحة العراقية بوصفها "مشتتة وغير مكتملة"، ومع ذلك رفعت في أيلول في ذلك الملف الشهير، الذي زعم رئيس الوزراء توني بليز لاحقاً أنه كان

"لا يقبل الشك"، مستنداً بشدة إلى خبراء لجنة الاستخبارات المشتركة ومصادقيتهم

72

ويرجع جزء من هذا التصلب إلى قدرة جهاز (MI-6) على إيجاد "مصادر جديدة" في صيف عام 2002، عندما كان الملف يُعد لتقدمه، ولكن قد يطال اللوم أيضاً العملية التي سمحت بضياح التحذيرات القانونية والشروط الضرورية في هذا الصدد، ويجعل تلك المعلومات الاستخبارية تصور بوصفها أقوى مما كانت عليه فعلياً، وأي نقد هنا قد يقع على لجنة الاستخبارات المشتركة ورئيسها لاحقاً السير جون سكارليت.

وأياً كان الحكم النهائي، فإن تجربة العراق ستكون إحدى التجارب التي ستلقي بظلالها طويلاً على العمل الاستخباري البريطاني، ويرى منتقدو الحرب على العراق أن الفشل في إعادة تقييم هذه الافتراضات بشأن العراق كان بسبب أن قطار الحرب كان قد انطلق من محطته، وأشاروا إلى أن المعلومات الاستخبارية كانت في النهاية مجرد ذريعة ووسيلة لإيجاد تبرير عام، وإقناع الناس لدعم القضية التي كانت قد قررت مسبقاً، وهذه القضية كانت تغيير النظام.⁷³

وقال السير جون تشيلكوت إنه يأمل بأن تقرير لجنته تضمن إن أي مغامرة عسكرية خارجية على هذا المستوى لن يتم الإقدام عليها دون إجراء المزيد من التحليل الدقيق والتقييم السياسي، ذلك أن "التحليل الدقيق ضروري قبل خوض الحرب". وأوضح تشيلكوت "توقعي الأكبر هو إنه لن يكون ممكناً في المستقبل

خوض مشروع عسكري أو حتى دبلوماسي على هذا المستوى وبهذه الخطورة دون إجراء تحليلات وتقييمات سياسية متأنية ودقيقة".

وكان بليز واحداً من أكثر من (100) شاهد أدلوا بشهاداتهم أمام لجنة تشيلكوت، إذ مثل أمامها مرتين، وقد دافع عن قراره إشراك القوات البريطانية في عملية غزو العراق، ولكنه "اعتذر" مع ذلك عما وصفه بالخلل الاستخباري حول امتلاك العراق لاسلحة دمار شامل وقدرته على استخدامها. كما اعترف رئيس الحكومة البريطانية الأسبق بحصول قصور في التخطيط لحقبة ما بعد الحرب، وفشل في استشراف سنوات العنف وسفك الدماء التي اعقبت قرار حل الجيش العراقي والمؤسسات الأمنية⁷⁴.

واحتوى التقرير على تفاصيل الوثائق الوزارية التي أزيلت عنها صفة السرية، وتقييمات استخبارية عن قدرات العراق التسليحية، ومراسلات خاصة بين توني بليز والرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش الابن تتعلق بالحرب على العراق وأسس التدخل العسكري.

وأفاد تقرير تشيلكوت عن الحرب في العراق بأن بريطانيا شاركت في الغزو دون استنفاد كل الخيارات الأخرى السلمية لنزع سلاح نظام صدام حسين، وقال السير جون تشيلكوت، رئيس لجنة التحقيق في حرب العراق أمام النواب والرأي العام البريطاني إن الغزو لم يكن "الحل الأخير".

وجاء في التقرير أن غزو العراق عام 2003 اعتمد على "معلومات استخباراتية مغلوبة وتقديرات غير دقيقة"، وأضاف التقرير أن توني بليز، رئيس

وزراء بريطانيا وقتها، استهان بتأثير الحرب على العراق والمنطقة برمتها، على الرغم من "التحذيرات الواضحة" التي أطلقت وقتها.

وعزز السير تشيلكوت انتقادات وردت في تقارير سابقة عن الحرب العراقية لاعتماد المعلومات الاستخباراتية بشأن أسلحة الدمار الشامل التي بجوزة صدام لتبرير الحرب، وانتقد خطاباً ألقاه توني بليز في أيلول 2002، حذر فيه من أن صدام يملك ترسانة من الأسلحة البيولوجية والكيميائية يمكنه أن يحركها خلال 45 دقيقة.

وقال إن "تقدير قدرات العراق في الخطاب وفي الملف الذي نشر في اليوم نفسه كان غير دقيق تماماً"، وقال بليز أمام النواب إنه قدر أن إمكانية حصول الجماعات الإرهابية على أسلحة دمار شامل كانت "خطراً حقيقياً ومحددًا على بريطانيا وأمنها القومي". ولكن بليز وصلته تحذيرات من أن التدخل العسكري قد تعزز تهديد تنظيم القاعدة على بريطانيا ومصالحها، ووصلته تحذيرات أيضاً، حسب السير تشيلكوت، من أن الغزو قد يؤدي إلى حصول جماعات إرهابية على أسلحة العراق وقدراته العسكرية.

وقال زعيم المعارضة، جيريمي كوربن، إن تقرير تشيلكوت كشف أن الحرب على العراق كانت "عدواناً عسكرياً، بمبررات مغلوبة"، وأن النزاع كان "غير قانوني"، وأضاف كوربن، الذي صوّت ضد الحرب في مجلس العموم وقتها، إنه على جميع النواب أن "يشعروا بالأسى" لما كشفه تقرير تشيلكوت من معلومات بخصوص غزو العراق .

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة التي قادت الغزو على العراق فقدت 4487 من جنودها في الحرب، بينما فقد الجيش البريطاني 179 جندياً في العراق، وتختلف الإحصائيات بشأن الضحايا العراقيين الذين يقدرون ما بين 90 ألف و600 ألف شخص، فإن التقرير لم يصدر حكماً يدين فيه بلير أو وزراء معه بانتهاك القانون الدولي، وقال السير تشيلكوت إن التقرير لا يصدر حكماً بشأن شرعية الحرب أو عدمها، وإن المشاركين في التحقيق لم يقسموا على إفادتهم، وإن نتائج تحقيقه ليس لها قوة القانون. ولكن السير تشيلكوت لم يتردد في انتقاد القرارات التي اتخذت من أجل حوض الحرب، وبعدها. ووصف حرب العرق بأنها تدخل تم "بطريقة سيئة جداً" ولا تزال تبعاته ماثلة إلى اليوم. ووجه انتقادات لاذعة للقادة العسكريين البريطانيين، الذين - حسب التقرير - "بالغوا في تقدير قوتهم"، وهو ما جعلهم يتخذون "قرارات غير صائبة"⁷⁵.

وقال السير جون أن التدخل العسكري ضد صدام حسين ربما كان ضرورياً، "في حد معين"، ولكن عندما انضمت بريطانيا إلى التحالف، بقيادة الولايات المتحدة، في آذار 2003، لم يكن الرئيس العراقي يشكل "خطراً محدقاً"، وكانت استراتيجية الاحتواء ممكنة، وأغلبية أعضاء مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة كانوا يدعمون استمرار عمليات التفتيش والمراقبة.

بدأت الرغبة في اتخاذ إجراءات ضد صدام تتعاظم في واشنطن مباشرة بعد تفجيرات 11 أيلول 2001 في الولايات المتحدة، التي أسفرت عن مقتل ثلاثة آلاف شخص. وقال إن بلير أكد للرئيس الأمريكي جورج بوش في عام 2002، أي عاماً قبل الغزو، إن بريطانيا ستكون معه "مهما كان"، وفق ما جاء في

مراسلات بين بوش وبلير، نشرت مع التقرير. وأخبر بلير بوش بأنه إذا أراد تحالفاً عسكرياً أوسع، عليه أن يحصل على دعم الأمم المتحدة، وأن يحدث تقدماً في مسار السلام بالشرق الأوسط، وأن يحدث "تحولاً" في الرأي العام.

وكشفت المراسلات أن بلير وبوش كان يتحدثان بصراحة عن إسقاط صدام عام 2001. ففي مراسلة مؤرخة في كانون الأول 2001، قال لبوش إن عمليتهما العسكرية في أفغانستان قد تساعد في تغيير الرأي العام لصالح غزو العراق. وقال: "علينا أن نعطي تغيير النظام إسمًا ملائماً يدعم موقفنا بشأن العراق".

وعندما أخفقت بريطانيا في استصدار قرار أممي يرخص بتدخل عسكري في آذار 2003، اتهم بلير وزير خارجيته جاك سترو فرنسا "بخلق العراقيل" في الأمم المتحدة، وقال إن بريطانيا تعمل مع المجتمع الدولي "لتعزيز سلطة مجلس الأمن"، ولكن السير تشيلكوت قال إن الذي حدث هو العكس، فباعتبار أن التدخل العسكري لم يحصل على الأغلبية، "نرى أن الحكومة البريطانية كانت في الواقع تقوض سلطة مجلس الأمن".

وركز التحقيق في أغلب أجزائه على التحضير لإدارة العراق في حقبة ما بعد الحرب، من قبل سلطة مؤقتة شكلها التحالف بقيادة الولايات المتحدة، ودرجة تسليح القوات البريطانية المشرفة على منطقة واسعة جنوبي العراق حول البصرة. وانتقد العديد من الشهود، بينهم وزراء سابقون وقادة عسكريون، وزارة الدفاع لأنها لم توفر الموارد والتجهيزات الضرورية، وتخلي بريطانيا عن مناطق أساسية للولايات المتحدة. وقال بلير للجنة التحقيق إن بريطانيا لم تكن لتتنبأ بالصعوبات التي

واجهتها قواتها في العراق بعد الغزو. ولكن التقرير يقول إن "مخاطر نزاع داخلي"، واضطرابات في المنطقة، ونشاط تنظيم القاعدة في العراق كانت كلها متوقعة قبل الغزو بوضوح"، وأضاف أن "التحضيرات لإدارة العراق بعد صدام كانت كلها غير ملائمة، فقد أخفقت الحكومة في تحقيق أهدافها"⁷⁶.

ثالثاً : العلاقات الاقتصادية بين العراق وبريطانيا

إن اقتصاد المملكة المتحدة اقتصاد دولي أكثر مما هو اقتصاد داخلي بالمقارنة مع الدول الأعضاء في مجموعة السبع (G7)، فضلاً عن أن رأس المال الدولي متداخل كثيراً مع اقتصاد بريطانيا، فالاقتصاد البريطاني يعتمد على الاستثمار الأجنبي بشكل مباشر، وهيمنة الشركات الأجنبية على قطاع الصناعة لدرجة قد تؤثر على سياسة الاقتصاد في المملكة المتحدة⁷⁷. لذلك أصبح من الواضح أن نرى الأبعاد الاقتصادية للسياسة الخارجية لحزب العمال تميزت بمتطلبين متناقضين، من جهة حكومة بلير حاولت أن تجلب طريقة جديدة سميت بـ "الطريق الثالث" للتفكير في قلب عملية صنع السياسات. كما مارس التكنقراط وأصحاب الشركات من القطاع الخاص دوراً فعالاً في رسم سياسة الخارجية لحزب العمال⁷⁸.

لقد أثرت الشركات الخاصة والمتوسطة الحجم دوراً أساسياً على مستوى الاستراتيجيات الاقتصادية في بريطانيا، إذ أصبح أغلبية ممثلي الشركات أعضاء في مجلس التجارة والاستثمار البريطاني، كما تشكل معظم هذه الشركات أعضاء بارزين في مؤسسة مشتركة مع وزارة التجارة والاستثمار ووزارة الخارجية البريطانية ووزارة

التجارة والصناعة (DTI) تهدف إلى التنسيق التجاري في بريطانيا وتشجيع الأنشطة وزيادة الاستثمار الداخلي والصادرات⁷⁹.

إن المملكة المتحدة ترى أن منح الشركات الخاصة أدوار رئيسة: ليس فقط لأنها تساهم في سلامة الاقتصاد الوطني، وإنما هم أيضا وكلاء ولهم مشاركة لغرس الليبرالية والقيم في الدول والمجتمعات غير الليبرالية⁸⁰. وكان لشركات القطاع الخاص تأثير ملموس في تشكيل سياسات الدولة، ولكنها ليست دائماً تأخذ بنظر الاعتبار، على سبيل المثال، فإن اثنتان من أكبر شركات النفط، وهما شركة شل وشركة بريتيش بتروليوم، حذروا مراراً وتكراراً الحكومة البريطانية بأن الحرب مع العراق سيكون له أثر سلبي على أعمالهم، ولكن هذا الحذر لم يكن لها تأثير مرئي على سياسة الحكومة⁸¹.

وتعد هيئة التجارة والاستثمار/ مكتب العراق هيئة تتكون من فريق صغير متخصص من المهنيين العاملين والناشطين مع شركائهم ونظرائهم في الهيئات المهنية الأخرى، ويعملون من أجل مساعدة الشركات العراقية والبريطانية للوصول إلى تجارة ناجحة في العراق والمملكة المتحدة، كما وتساعد الشركات البريطانية للتعرف على الفرص المتاحة لانجاز الأعمال التجارية في العراق، ودعمها للوصول إلى السوق. كما أنهم يعملون أيضا مع الحكومة العراقية لتحديد العقبات التي تحول دون ممارسة الأعمال التجارية في العراق ومحاولة التغلب عليها، بما في ذلك عن طريق مجلس التجارة الوزاري المشترك للعراق والمملكة المتحدة.

وقد أسست بريطانيا بوابة العراق التجارية، هي شركة أعمال تجارية ومقرها المملكة المتحدة، وأنشئت لتسهيل المعاملات ما بين الشركات من خلال تقديم التسهيلات للشركات العراقية للوصول إلى الشركات البريطانية الموثوق بها في السوق البريطاني، لاسيما في المجال الصناعي، وشركات الصادرات، فضلا عن التقرب من الشركات التي أنشئت لتعزيز إمكانات غير مستغلة إلى حد كبير للتعاون العراقي-البريطاني.

فضلاً عن ذلك، تتوفر للشركات البريطانية بوابة لاستكشاف فرص تجارية جديدة وتوسيع أسواقها دولياً. فبريطانيا ترى أن العراق لديه كل مكونات النجاح والإرادة الوطنية لتصبح واحدة من أغنى وأنجح الاقتصاديات نمواً في العالم. هذه الشركة تعمل مع الدولتين للتغلب على التحديات التي تقع أمام تشجيع ومشاركة أكبر عدد من رجال الأعمال البريطانية في الاقتصاد العراقي سريع النمو. وهذه الشركة التجارية تتكون حالياً من فريق صغير متخصص من المهنيين العاملين بنشاط في التجارة مع المهن الأخرى، ومعاً بإمكانهم مساعدة الشركات العراقية والبريطانية لتوجيههم نحو الطريق الصحيح إلى تجارة ناجحة بين العراق والمملكة المتحدة⁸².

وخلفية ثلاثة عقود من الصراع والعقوبات الدولية التي أدت إلى عرقلة تطور العراق اقتصادياً، بل أدت إلى إنهاكه اقتصادياً لذلك فكان يجب السعي حثيثاً لإيجاد السبل اللازمة لدعم هذا الاقتصاد.

لقد شهدت العلاقات العراقية البريطانية ومنذ 2003، تطوراً لافتاً في اهتمام الجهات البريطانية بالاستثمار في العراق، وقد عقدت عدة مؤتمرات

وملتقيات اقتصادية تناولت قضايا الاستثمار بشكل عام، وفي قطاع الطاقة بشكل خاص، وقد زارت بريطانيا وفود عراقية على مستوى رفيع برئاسة رئيس البرلمان العراقي أسامة النجيفي، وروز نوري شاويس نائب رئيس الوزراء العراقي، وضمت تلك الوفود مدراء عامين ومسؤولين في الوزارات والدوائر العراقية المختلفة، وقد قدمت الوفود العراقية صورة عن الوضع الاقتصادي والسياسي والأمني في العراق، فضلاً عن شرح لما تقدمه الحكومة العراقية من تسهيلات للمستثمرين الأجانب، وحازت تلك المؤتمرات على اهتمام الشركات البريطانية الكبرى والمتوسطة العاملة في العراق، أو التي تتطلع إلى فرص استثمارية فيه وقد شاركت بوفود من مدراء ومتخصصين في تلك المجالات.

لقد بدأت الشركات البريطانية بالعمل بشكل جيد للإفادة من الفرص الاستثمارية في العراق، نظراً للعلاقات التاريخية والثقافية الهامة التي توجد بين المملكة المتحدة والعراق، فضلاً عن السمعة الراسخة عن المملكة المتحدة لطريقة ممارستها للأعمال المعروفة بالجودة والنظافة.

وكان أهم حدث على المستوى الاقتصادي بين البلدين، زيارة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي الرسمية إلى بريطانيا في 30 نيسان 2009 ولقاءه نظيره البريطاني غوردون براون، ومن ثم التوجه إلى مؤتمر الاستثمار في العراق الذي انطلقت أعماله في اليوم نفسه في العاصمة البريطانية. ووقع المالكي اتفاق شراكة واسعة مع بريطانيا، هدف إلى فتح صفحة جديدة بين البلدين مع استعداد القوات البريطانية لإنهاء وجودها العسكري في البصرة، وغايتها تنظيم العلاقات بينهما، وتمهد لمرحلة جديدة من التعاون في قطاعات عدة. فضلاً عن ذلك فقد وقع وزير التجارة

العراقي عبد الفلاح السوداني اتفاقية اقتصادية منفصلة مع وزير الأعمال البريطاني اللورد بيتر ماندلسون .

وتعدّ زيارة المالكي إلى لندن تنويجاً إلى المسار الذي اتبعته بغداد ولندن في تطبيع العلاقات بين البلدين بعد حرب 2003 وجعل العلاقة بينهما على النهج الدبلوماسي التقليدي بين بلدين يتمتعان بعلاقات ثنائية.

وشارك رئيس الوزراء العراقي والوفد المرافق له بمؤتمر الاستثمار في العراق الذي نظّمته وزارة التنمية البريطانية، وترأس جلساته نائب رئيس الوزراء العراقي برهم صالح. وألقى المالكي خطاباً في المؤتمر الذي حمل عنوان "الاستثمار في العراق: لندن 2009" الذي شمل جلسات نقاش منها "الاستثمار في العراق" و"تطوير الخدمات المالية" و"الطاقة وخدمات الطاقة: الاستثمارات الحالية". وشارك في الجلسات وزراء وخبراء من العراق، على رأسهم وزير النفط حسين الشهرستاني ووزير الصناعة والمعادن فوزي حريري، فضلاً عن شخصيات بريطانية، منها وزير التنمية الدولية البريطاني دوغلاس الكساندر، وشملت لقاءات رئيس الوزراء العراقي في لندن لقاء ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في 1 أيار 2009⁸³.

وبلغت صادرات المملكة المتحدة إلى العراق في عام 2011 بمقدود 782 مليون جنيه إسترليني، والصادرات من السلع زادت بنسبة 40% عن سنة 2010، ولكن لا تزال هناك تحديات كبيرة لممارسة الأعمال التجارية في العراق، لوجود الفساد الإداري والبيروقراطية وانعدام الشفافية ونقص في عقود الاستثمارات كما في البنية التحتية والتي تصنف وضع العراق في السجلات العالمية بالسيئة. بينما

الحكومات العراقية والبريطانية تعملان معا لمعالجة عدد من العوائق الرئيسة أمام التجارة، ولا يزال العراق سوقاً صعبة للقيام بالأعمال، ولاسيما بالنسبة للمصدرين الذين هم عديمو الخبرة. ويعد الأمن أيضا أحد أهم العوائق الرئيسة أمام الشركات التي تتطلع للعمل في العراق، وتنصح وزارة الخارجية البريطانية الزوار لاستشارة شركات خاصة وظيفتها إعطاء نصائح حول السفر للعراق قبل السفر إليه، وينبغي على رجال الأعمال الزائرين إلى العراق أيضا التفكير في استخدام أجهزة أمنية خاصة عند التخطيط لرحلتهم.

حاولت الدولتان توطيد علاقتهما التجارية من خلال تشكيل اللجنة الوزارية العراقية البريطانية التي تم الاتفاق عليها في بغداد في شهر أيلول 2012، بحضور وزير الخارجية العراقي هوشيار زيباري ووزير الخارجية البريطانية وليم هيغ، وشكلت اللجنة الوزارية العراقية - البريطانية المشتركة، وعقد أول اجتماع لها في بغداد، وعقد الاجتماع الثاني للجنة الوزارية بتاريخ 25 تشرين الثاني 2013، في لانكستر هاوس التابع لوزارة الخارجية البريطانية في لندن. وترأس الاجتماع وزير الخارجية العراقي الذي رافقه وفد مكون من كل من وكلاء وزارات الخارجية والنفط والمالية والداخلية وممثلي الأمانة العامة لمجلس الوزراء والبنك المركزي العراقي ووزارة التجارة ومجلس رجال الأعمال العراقي وسفير العراق في المملكة المتحدة. وبحضور وزير الدولة لشؤون الخارجية البريطاني، وعضو في البرلمان البريطاني هيو روبرتسون ووزير التجارة والاستثمار لورد غرين، وممثلي الوزارات البريطانية المعنية وممثلي كبار الشركات البريطانية المصرفية وقطاع البنوك والدفاع والطاقة وممثلي رجال الأعمال البريطانيين والعراقيين. وخلال الاجتماع تم بحث أهم معوقات ومقترحات لتطوير عمل المجلس

الوزاري المشترك لتوطيد العلاقات الاقتصادية الثنائية، منها موضوع منح السمات، الضرائب، الدفاع، الرحلات الجوية المباشرة، نظام تسجيل الشركات في العراق، المناقصات والبنوك العراقية⁸⁴.

واصلت المملكة المتحدة تشجيع رجال الأعمال البريطانيين للعمل في العراق وذلك بالتنسيق مع مجلس الأعمال البريطاني العراقي، وذلك عن طريق زيارات متكررة إلى بغداد والبصرة وإقليم كردستان. وكذلك بدعم من الخارجية البريطانية لتنظيم مؤتمرات عدة في العراق ولندن خلال 2013، إذ زار (52) رجل أعمال بريطاني من كافة المجالات التربوية والصناعية والتجارية بغداد في شهر تشرين الثاني 2013، برئاسة ممثلين من وزارة التنمية الدولية وهيئة الاستثمار البريطاني والمجلس التجاري العراقي البريطاني. وتسعى بريطانيا إلى توطيد علاقاتها مع إقليم كردستان وتسعى إلى تشجيع المستثمرين العراقيين المغتربين في لندن والبريطانيين إلى العمل في إقليم كردستان، من خلال عقد مؤتمر التجارة في أربيل في شهر مايس 2013، وحضرته (50) شركة بريطانية بإشراف مكتب إقليم كردستان في لندن. كما وعقد مؤتمر تجاري في شهر حزيران 2013، في إقليم كردستان بإشراف مجلس الأعمال العراقي والبريطاني الذي حضره مائة من رجال الأعمال في بريطانيا .

كما زار اللورد كرين وزير التجارة والاستثمار البريطاني في شهر كانون الثاني 2013 محافظة البصرة، والتقى مع رئيس غرفة التجارة في البصرة والمسؤولين المحليين في المحافظة لإيجاد فرص عمل للاستثمار لرجال أعمال بريطانيين⁸⁵.

كما وشهدت العلاقات التجارية والاقتصادية بين المملكة المتحدة والعراق نمواً واضحاً انعكس إيجابياً على حركة التجارة بين البلدين، إذ بلغت قيمة واردات بريطانيا من العراق للمدة (كانون الثاني 2013 - كانون أول 2013) 3.617.256 جنيه إسترليني. بما يمثل زيادة قيمتها 32% من مجموع الكلي للواردات البريطانية من العراق، وهذه النسبة تشكل 23% في العام 2012، حسب إحصائيات وزارة التجارة البريطانية. وفي حين بلغت قيمة صادرات بريطانيا إلى العراق للمدة (كانون الثاني 2013 - كانون أول 2013) مبلغ 376.091.559 جنيه إسترليني.

وعلى الرغم من أن ليست جميع الأرقام في المجال الاقتصادي متوفرة، ولكن بإمكاننا أن نقدر القيمة التجارية بين المملكة المتحدة والعراق خلال مدة عشر سنوات (2013/2003)، من خلال تقارير السفارة العراقية في لندن⁸⁶، التي تشير إلى زيادة إجمالية قدرها نحو 190٪ منذ سنة 2003، والتي أشارت أيضاً إلى صادرات العراق إلى المملكة المتحدة، وتظهر الأرقام المتوفرة زيادة ملحوظة، من 145.455 جنيه إسترليني في عام 2003 إلى 3.617.256 جنيه إسترليني في عام 2013، وتضمنت المواد أنواع من المواد الخام.

أما الصادرات البريطانية إلى العراق فارتفعت إلى درجة عالية، وتتميز أكثر بالآليات والمكائن والمعدات، فضلاً عن المواد الغذائية، والسكائر، والمواد حيوانية، وهي تتمثل بنسبة زيادة قدرها 511٪ خلال السنوات من 2003-2013. وكانت أكثر صادرات المملكة المتحدة إلى العراق هي الآليات والمعدات للنقل.

وكان خلال سنة 2003 يتمثل فقط 42.360 جنيه إسترليني، وزادت هذه الكمية إلى 376.091.559 جنيه إسترليني خلال عام 2013⁸⁷.

وأكدت الحكومة الائتلافية الجديدة في بريطانيا على أهمية احترام سيادة العراق ووحدة أراضيه وعدم التدخل في شؤونه، وتقديم الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري لحكومة الوحدة الوطنية العراقية، والتي نشأت من جراء عملية ديمقراطية شارك بها غالبية الشعب العراقي، استناداً إلى تصريحات رئيس الوزراء ووزير الخارجية البريطانية. كما تساند بريطانيا العراق في شتى المحافل الدولية ليتمكن من تبوء المكانة والموقع المناسب له على المستويين الإقليمي والعالمي. ويأمل البريطانيون بتحسين الوضع الأمني في العراق، في سبيل زيادة التبادل التجاري وإقامة المشاريع الاقتصادية ذات المردود الاقتصادي الكبير، وتدين كافة أعمال الإرهاب الجارية في العراق وتعلن وقوفها مع العراق في الحرب ضد الإرهاب التي يقودها تنظيم القاعدة، والتي لا تميز بين دين أو قومية أو ثقافة. وتحت جميع الأطراف السياسية في العراق على المساهمة الجادة في العملية السياسية ونبد العنف والاعتراف بالعراق الجديد الذي يقوم على المبادئ الديمقراطية ويتخذ من الفيدرالية نظاماً للإدارة⁸⁸.

زار باقر جبر الزبيدي وزير النقل المملكة المتحدة لحضور مؤتمر يوم العراق الخامس بدعوة من البارونة إيما نيكلسون المبعوث التجاري الخاص لرئيس الوزراء البريطاني للعراق، للمدة 28 مايس - 2 حزيران 2015، القى الوزير كلمة دعا فيها الشركات البريطانية للاستثمار في العراق، لتلبية حاجات المواطن العراقي وكيفية بناء جميع القطاعات التي توفر الخدمات والبنى التحتية بأحدث التكنولوجيا المستخدمة لمواكبة التطور الحاصل في العالم مؤكداً على أهمية الموازنة وطرق

استثمارها، داعياً إلى الاستثمار في قطاع السكك الحديدية ليكون النقل عبر العراق منفذاً مهماً للعالم وربط دول الغرب مع دول الشرق، فضلاً عن اهتمام الوزارة بقطاع النقل الجوي وتطويره، وضرورة امتلاك العراق أسطول حديث وكبير من الطائرات.

وعلى هامش الزيارة زار الوفد شركة روليس رويز لصناعة محركات الطائرات في مدينة دربي البريطانية والتقى خلالها الفريق الفني للشركة والمسؤولين فيها، وقد تم توقيع مذكرة تفاهم في مجال محركات الطائرات وصيانتها. كما التقى الوزير والوفد المرافق له باللورد طارق أحمد وزير الدولة البرلماني لشؤون النقل ومكافحة التطرف بمكتبه في وزارة النقل البريطانية وبحضور عدد من المسؤولين في سلطة الطيران المدني، وتم خلال اللقاء مناقشة بعض المسائل الفنية التي تخص الطيران المدني⁸⁹.

وقدمت وزارة الخارجية البريطانية للوزارات والمؤسسات البريطانية الراغبة بالعمل مع العراق العديد من التوجيهات، أهمها⁹⁰:

- تشجيع الحكومة العراقية وحكومة إقليم كردستان لتمرير وتنفيذ التشريعات الجديدة على النفط والغاز وتقاسم العائدات.
- المساهمة في التنمية العراقية من رؤية إستراتيجية لقطاع الطاقة .
- تشجيع الحكومة العراقية للعب دور مسؤول في منظمة أوبك والمؤسسات الدولية للطاقة.

- العمل مع الاتحاد الأوروبي حول شراكة إستراتيجية مع العراق، بما في ذلك صادرات الغاز.
- دعم الشركات البريطانية في الفوز بعقود ذات قيمة عالية في العراق .
- تحسين عمليات الحصول على تأشيرة المملكة المتحدة في العراق .
- تشجيع الحكومة العراقية من أجل حل المشاكل التي تعرقل الأعمال، وتشجيع الاستثمار.
- دعم وزيادة نمو القطاع الخاص في العراق ، والذي يؤدي إلى خلق فرص العمل .
- بناء الشراكة الثقافية بين المملكة المتحدة والكليات والجامعات العراقية لدعم وتحسين التعلم وتطوير المهارات المهنية والأكاديمية والمهنية .
- تحسين وتوفير التعليم والتدريب في القطاع الحكومي .
- تشجيع المنح الدراسية الممولة من العراق إلى المملكة المتحدة.
- البحث عن خفض القيود على البنوك المؤهلة لإصدار خطابات الاعتماد .
- تشجيع سوق مفتوحة أمام البنوك الأجنبية ودعم جهود البنوك البريطانية للدخول والنمو.
- دعم وتطوير الخدمات المصرفية للأفراد لتقديم القروض الصغيرة إلى الشركات الخاصة والعامة.

ولكن ما زالت هنالك مجموعة من العقبات تحول دون تطوير العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين منها:

- الوضع الأمني .
- الحصول على سمات الدخول (الفيزا) من الجانبين ، وقد سعت وزارة الخارجية البريطانية إلى تسهيل إجراءات الحصول على سمات الدخول للمواطنين العراقيين وذلك بافتتاح مركز لإصدار التأشيرات في بغداد في نهاية عام 2012 ، وبالرغم من عقد اتفاقية للطيران المدني بين البلدين إلا انه لا توجد رحلات جوية مباشرة لحد الآن للأسباب الأمنية.
- الإجراءات الطويلة المتمثلة بالبيروقراطية في دوائر الدولة العراقية عند قياسها بالدول النامية الأخرى وحتى المجاورة للعراق
- ضعف قوانين الاستثمار في العراق⁹¹ .

رابعاً : العلاقات الثقافية العراقية البريطانية

تعدّ العلاقات الثقافية بين العراق وبريطانيا من أهم محاور العلاقة بين البلدين، وكان لها إرث تاريخي كبير بين البلدين، ومن أبرز العلاقات الثقافية بين العراق وبريطانيا كان تأسيس المجلس الثقافي البريطاني في العراق عام 1952، الذي يسعى إلى تعزيز العلاقات الثقافية بين العراق وبريطانيا وتوفير الفرص التعليمية للعراقيين. وقد أُغلق المكتب في عام 1999، ليعاود افتتاحه مرة ثانية في عام 2003 في بغداد، وفي عام 2008 في أربيل .

ولقد ركزت أعمال المجلس الثقافي البريطاني بشكل رئيس على تطوير التعليم منذ إعادة فتح مكاتبه في بغداد وأربيل، ومنذ ذلك الوقت ساعد المجلس الثقافي البريطاني أكثر من (30) جامعة وكلية ومدرسة عراقية في إقامة علاقات مع الجامعات والمدارس في المملكة المتحدة، وبالتالي مكّن العاملين في المجال التعليمي والطلاب من تبادل المعرفة والأفكار، كما أسس المجلس ستة مراكز لتكنولوجيا المعلومات في جامعات بغداد وأربيل والبصرة وبابل، وساهم في توفير المزيد من أجهزة الكمبيوتر والاتصال بشبكة الانترنت، وقدم المجلس كذلك برامج تدريبية لأكثر من (40) مشرفاً من كوادر وزارة التربية العراقية لإطلاعهم على آخر ما تم التوصل إليه من تطورات في مجال تدريس اللغة الإنجليزية⁹².

وبذل المجلس الثقافي البريطاني جهوداً مع المؤسسات الثقافية والتعليمية العراقية وعمل على إعادة ربط العراق بالمجتمع التعليمي الدولي، وتعزيزه بخبرات المملكة المتحدة في الميدان الثقافي والتعليمي، وكذلك تقديم المساعدات والخبرات المطلوبة لوضع حلول للتحديات التي يواجهها قطاع التعليم في العراق. وكان المجلس الثقافي البريطاني قد أطلق برنامج الشراكات التنموية في التعليم العالي في العراق (DeIPHE) من خلال فعاليتين تكلفتها بالنجاح في مدينتي بغداد وأربيل.

وفي أحدث مسعى لتطوير التعليم في العراق، ولاسيما ما يتعلق بتعليم اللغة الإنكليزية أشرف المجلس الثقافي البريطاني والسفارة الأمريكية في بغداد على عقد مؤتمر أطلقت بموجبه أول جمعية متخصصة في مجال التنمية المهنية والتواصل لمدرسي اللغة الإنجليزية⁹³.

إن المجلس الثقافي البريطاني في العراق يهتم ببناء العلاقات بين الأشخاص والمؤسسات في المملكة المتحدة والعراق من خلال أنشطة وبرامج تعزز الفهم الأفضل للغة الإنجليزية وكذلك التعاون في المجالات المختلفة في التعليم والفنون.

ويركز على تحسين جودة تدريس اللغة الإنجليزية حيث استكمل مؤخراً برامج تدريب مدراء التدريب لجميع مشرفي اللغة الإنجليزية في كردستان. كما يقوم ببث برامج إذاعية لتعلم اللغة الإنجليزية بحيث وصلت الى جمهور من المستمعين تعدى السبعين الفاً. كما يدعم أيضاً الشبكة المهنية لمعلمي اللغة الإنجليزية.

وأخذ عمله في إجراء امتحان "IELTS" بالنمو بسبب الطلب المتزايد عليه، فقد رفع أعداد المتقدمين للامتحان إلى ثلاثة أضعاف متمثلاً في (4500) امتحان في عام 2013 – 2014. وتتوفر هذه الامتحانات في كل من بغداد وأربيل، وأفتتح مركزاً جديداً في السليمانية⁹⁴.

وعمل المجلس من خلال تعاونه مع وزارتي التربية في كل من بغداد وأربيل على تحسين جودة التعليم في المدارس من خلال وضع معايير التعليم والتعلم والتطوير الذاتي للمدارس، ودعم مديري المدارس، وكذلك تطوير قدرات الموظفين. لقد تلقى المعلمون في أكثر من (4300) مدرسة تدريباً على القيادة في المدارس وعلى طرق التدريس الحديثة. ويقوم 900 من مدراء التدريب و(24) ألف معلم و(4100) مشرف في عموم العراق على تحسين جودة التعليم في (2700) مدرسة.

كما عمل المجلس بالتعاون مع كل من وزارات التربية، والعمل والشؤون الإجتماعية، وهيئة التعليم التقني على تحسين الجودة في قطاع التدريب والتعليم المهني، فقد تم وضع إستراتيجية للتعليم والتدريب المهني والتقني بالتعاون مع الوزارات الأخرى، وتطوير المعايير المهنية الخمسة من المهن ذات الأولوية، وقد صممت المناهج الجديدة وتم تجريبها في شبكة تتألف من (15) مركزاً للتمييز، فضلاً عن ذلك فالمجلس يعمل مع وزارة التعليم العالي على تحسين ضمان الجودة، والقيادة، وتدويل التعليم العالي.

وعن اهتمامات المجلس في مجالات الفنون فهو يدعم ومنذ عام 2009 الفرقة السمفونية الوطنية العراقية للشباب التي يراها البريطانيون أنها " أشجع فرقة سمفونية في العالم"، إذ قامت هذه الفرقة في عام 2012 بجولة فنية في المملكة المتحدة، وفي عام 2013 بجولة أخرى في فرنسا. وقد قدم المجلس لهم ورش عمل تدريبية ودروس موسيقية في مدينة أربيل بالتعاون مع الألمان لإعدادهم لعروض الأداء العالمية للسمفونية.

وقام المجلس بتنظيم مهرجان ثقافي سنوي في أربيل، ففي عام 2014 أقام المجلس المهرجان العالمي الأدبي الثالث الذي اختير له إسم "نينتي" إسماً للمهرجان لهذا العام، وقد كان هذا كله بالتعاون مع وزارة الثقافة، وجامعة صلاح الدين، والمجلس الأعلى لشؤون المرأة، ومنظمة آرت رول، ومنظمة ريل العراق، وركز المهرجان في ذلك العام على النساء الكاتبات⁹⁵.

فضلاً عن ذلك فقد أطلق رئيس الوزراء نوري المالكي (المبادرة التعليمية) في كانون الثاني 2009 برنامج لإصلاح نظام التعليم في الخارج، ويقوم مجموعة مميزة من الطلبة العراقيين بالدراسة سنوياً في بريطانيا⁹⁶.

وفي 29 نيسان 2009 تم الاعلان عن التوصل إلى اتفاق بين الحكومة العراقية والمجلس الثقافي البريطاني، الذي زاره المالكي في 30 نيسان. وبموجب الاتفاق، سيعمل المجلس الثقافي البريطاني مع الوزارات والدوائر المختصة بالتعليم في العراق. وخصصت بريطانيا 3 ملايين جنيه استرليني (4.4 مليون دولار) لدعم قطاع التعليم العالي العراقي. وأكد السفير البريطاني في بغداد كريستوفر برنتيس أن بريطانيا "حريصة على دعم مبادرة رئيس الوزراء للتعليم التي أطلقها في يناير (كانون الثاني)". ويذكر أن مبادرة رئيس الوزراء تشمل برنامجاً لإصلاح نظام التعليم العراقي، بما فيه المناهج الدراسية، فضلاً عن تزويد (10) آلاف منحة دراسية سنوياً لطلاب عراقيين في الخارج. وقد وصل اثنان من مستشاري رئيس الوزراء في مجال التعليم إلى بريطانيا في "مهمة تقصي الحقائق" بحسب المجلس الثقافي البريطاني. لتقديم مقترحاتهما، مع مسؤولين من المجلس الثقافي البريطاني، إلى المالكي. وتتطلع الجامعات البريطانية إلى إعلان العراق عن نسبة المنح التي ستتكفل بها الحكومة العراقية التي ستكون من نصيب بريطانيا. وقد زار الوفد العراقي جامعات أكستر ويونيفرستي كوليدج لندن وساوثايند للاطلاع على برامجها، كما جرى لقاء مع وزير التعليم العالي البريطاني ديفيد لامي. ويذكر أن هناك (585) طالباً عراقياً في جامعات بريطانية في العام 2009، مقارنة بـ (125) طالباً عراقياً عام 2003. وقال مدير المجلس الثقافي البريطاني في بغداد توني رايلي: "المملكة المتحدة والعراق

لطالما تمتعا بعلاقات تعليمية وثقوية، ومبادرة رئيس الوزراء التعليمية الجديدة تمنحنا فرصة تقوية هذه الروابط وتعميقها مع جيل جديد من الطلاب العراقيين المتعشقين لفرص التعليم والتواصل الدولي". وحظي التعليم باهتمام مميز في زيارة الوفد العراقي إلى بريطانيا في 2009، حيث من زار نائب رئيس الوزراء العراقي المكتبة الوطنية البريطانية. والتقى وزير الثقافي والإعلام والرياضة اندي برهام ورئيسة المكتبة البريطانية لين بريندلي. وقدمت المكتبة الوطنية البريطانية مجموعة من السجلات التاريخية إلى العراق، فقدمت حوالي (50) ألف سجل عن العراق بجوزة بريطانيا، ليكون بجوزة العراق أطول سجل وأكثر شمولية عن تاريخ العراق⁹⁷.

وافتح المركز الأنكلو عراقي للدراسات في لندن بتاريخ 23 كانون الثاني 2016، وشارك السفير العراقي صالح التميمي في الاحتفال، وألقى كلمة شكر فيها مدير وأعضاء مؤسسة الإمام الحكيم في لندن ومدير المركز ندم العبد الله لجهودهم في إفتتاح المركز الأنكلو عراقي للدراسات في هذه المرحلة المهمة من مسيرة العراق، وهو يشكل رافداً مهماً للباحثين والمهتمين بالتعمق في تاريخ دولة العراق والعلاقات العراقية - البريطانية. وأعرب السفير عن ثقته إن المركز سيكون منبراً مهماً للتبادل الثقافي بين العراق وبريطانيا وسيفتح آفاق جديدة للعلاقة بينهما بما يخدم تطور وإزدهار البلدين⁹⁸.

والتقى السفير العراقي في لندن صالح التميمي بتاريخ ١٧ أيار ٢٠١٦ بمجموعة من المتدربين العراقيين في مجال تنقيب الآثار الذين يتلقون برنامجاً تدريبياً بإشراف المتحف البريطاني، إذ يشرف المتحف المذكور على برنامج تدريبي طويل الأمد وعلى مراحل للمختصين العراقيين في مجال الآثار في العراق، وقد حضر اللقاء

خبراء الآثار المختصين في قسم الشرق الأوسط في المتحف البريطاني. وعبر السفير عن استعداد السفارة لتسهيل مهمة المتدرين وإبداء المساعدة الممكنة وفتح آفاق التعاون مع المتحف البريطاني، وأعرب الخبراء الآثاريين عن أملهم في تعزيز التعاون والتنسيق المشترك⁹⁹.

كما التقى السفير الدكتور صالح التميمي في 10 حزيران 2016 بالدكتور روجر ماثيوز استاذ علم الآثار المختص بآثار الشرق الاوسط والعراق والأستاذ في جامعة ريدنغ ومدير منظمة (Rashid) المختصة بالدراسات والبحوث المتعلقة بالحفاظ على تراث العراق، وتم التطرق إلى المواضيع ذات العلاقة ومنها دعم جهود العراق الرامية إلى إضافة الأهوار في جنوب العراق الى لائحة التراث العالمي لليونسكو وتوفير الحماية اللازمة لها، فضلاً عن بحث شؤون التعاون والتنسيق في مجال حماية وإسترداد الآثار العراقية المهربة، وتوفير فرص التدريب للطلبة والباحثين العراقيين في مجال الآثار¹⁰⁰.

الخاتمة :

للعراق وبريطانيا تاريخ مشترك منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وعلى الرغم من أن العراق استقل من دائرة النفوذ البريطاني بعد ثورة 14 تموز 1958، ولكنه لم يستقل من الإرث الذي ثبتت على أساسه الحدود المفروضة للعراق، التي أدت فيما بعد إلى كل التوترات الخارجية والمشاكل الداخلية، بسبب مجموعة من المشاكل الحدودية التي ظهرت وكأنها ألغاماً مصطنعة لتحقيق عدم الاستقرار السياسي لهذا البلد .

وتسعى الحكومتان العراقية والبريطانية إلى بناء أسس سليمة للعلاقات الثنائية بينهما، تسمح بالديمومة والاستمرار، وتقوم على الاحترام المتبادل بعد سنوات من الشك والريبة التي فرضتها سنوات العزلة التي عاشها العراق جراء الحصار الدولي .

وتشعر الحكومتان العراقية والبريطانية أن ساحة الالتقاء بينهما بدأت بالاتساع شيئاً فشيئاً مع التغييرات المتعاقبة التي مرت بالعراق بعد عام 2003 ، والتي ساعدت في بروز مصالح مشتركة لا يمكن إغفالها. وتتلخص هذه المصالح في ما يأتي :

1- الحرب على الإرهاب: ترى كل من الحكومة العراقية ونظيرتها البريطانية أن المنظمات الإرهابية كالقاعدة والتنظيمات المتشددة الأخرى تستهدف استقرار البلدين في نظامهما السياسي وبنيتها الاجتماعية المتنوعة عرقياً ودينياً، وبالتالي فإن الحكومة البريطانية تدعم العراق في معركته ضد الإرهاب، وترى أنه إذا فشلت القوات العراقية في هذه المعركة، فإن تنظيم القاعدة سيكسب مركز انطلاق يمكن أن يتحرك منه لنقل نشاطاته صوب الساحتين الإقليمية والعالمية، ويستطيع به تهديد مصالح القوى الغربية في العالم العربي.

2- الاستقرار في العراق: تشعر بريطانيا بوجود واجب أخلاقي وسياسي لدعم جهود الاستقرار في العراق، وهذا متأني من الدور الذي لعبته بريطانيا في الإطاحة بنظام صدام حسين عام 2003. وتبذل بريطانيا محاولات لتهيئة الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية الملائمة للحكومة العراقية لكي تفرض القانون وتوفر مستلزمات الأمن للمواطنين، إدراكاً منها أن استقرار العراق يعني استقرار منطقة

الشرق الأوسط، وعدم الاستقرار فيه سينعكس سلباً على كامل المنطقة، وقد يمتد بتأثيراته السلبية على العالم بأسره لما تصدره هذه المنطقة من النفط والغاز.

3- نشر الديمقراطية وثقافة حقوق الإنسان: تتضافر جهود الحكومتين البريطانية والعراقية من أجل دعم الديمقراطية الوليدة في العراق، وتطرح بريطانيا وجهة النظر القائلة بأن العراق يمكن أن يكون أنموذجاً للديمقراطية وقيم التسامح في المنطقة العربية، وأن تحركات البعض لوأد هذا الأنموذج إنما تصب في خانة الإبقاء على حالة التخلف السياسي الذي فرضته بعض الحكومات العربية على شعوبها منذ عقود .

4- المصالح الاقتصادية المشتركة: تهدف الحكومتان العراقية والبريطانية إلى زيادة التعاون التجاري والاقتصادي في المجالات كافة، إذ تنظر الحكومة البريطانية بجدية كبيرة إلى ما يمكن أن يتحقق من معدلات عالية من التبادل التجاري بين البلدين في المستقبل، من خلال نسج علاقات اقتصادية ناجحة وملمية للمتطلبات الاقتصادية لكلا البلدين .

وكانت أهم محطات العلاقات العراقية البريطانية بعد عام 2003 تتمثل في عدد من النقاط الرئيسة :

1- في 19 آذار 2003 شاركت بريطانيا بثاني أكبر قوة في حرب 2003، ب 46 ألف جندي تمركزوا في جنوب العراق . وفي أيار 2003 زار رئيس الوزراء البريطاني توني بليز البصرة وأكد دعم بلاده للعراق .

2- في حزيران 2006 نقل البريطانيون السلطات الأمنية للمرة الأولى إلى القوات العراقية، لتصبح محافظة المثنى الأولى التي تنتقل فيها السلطات إلى العراقيين .

3- في تموز 2006 قام رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بزيارته الأولى إلى لندن، وفي تشرين الأول 2007 قام غوردن براون بزيارته للمرة الأولى إلى العراق منذ توليه رئاسة الوزراء .

4- في كانون الأول 2007 تم نقل السلطات الأمنية في البصرة من القوات البريطانية إلى القوات العراقية . وفي 22 تموز 2008 أعلن رئيس الوزراء البريطاني غوردن براون "تغييراً جذرياً" في المهمة البريطانية في العراق استعداداً لمغادرة القوات البريطانية منها . وفي 17 كانون الأول 2008 تم إبرام اتفاقية عسكرية بين العراق وبريطانيا، لتنظيم بقاء القوات البريطانية في العراق، بعد انتهاء قرار الأمم المتحدة بإبقاء القوات المتعددة الجنسية هناك. وتم الإعلان عن سحب القوات القتالية البريطانية من العراق بحلول تموز 2009 .

5- في 1 كانون الثاني 2009 تم تسليم مطار البصرة، الذي كان القاعدة العسكرية للبريطانيين في العراق إلى السلطات العراقية. وفي 31 آذار 2009 تم تسليم قيادة القوات الأجنبية في البصرة من البريطانيين للقوات الأمريكية، وانسحبت القوات البريطانية بشكل كامل من العراق.

وقامت بريطانيا بتحقيق مهم عن حرب العراق أعلنت نتائجه في 6 تموز 2016، وقال السير جون تشيلكوت رئيس اللجنة إن التقرير لم يصدر حكماً بشأن شرعية الحرب أو عدمها، وإن المشاركين في التحقيق لم يقسموا على إفادتهم، وإن نتائج تحقيقه ليس لها قوة القانون، بيد إنه كان مهماً جداً في بيان عدم شرعية الحرب، وبطلان الذرائع التي ساقتها الولايات المتحدة في سبيل القيام بالغزو .

وفي المجال الاقتصادي سعت بريطانيا والعراق لتعزيز علاقتهما المشتركة، وزيادة حجم التبادل التجاري، وتطوير الاستثمار بينهما، وعلى الرغم من التطور الكبير في هذا المجال، إلا إنه يبقى دون طموح البلدين، لأسباب كثيرة، ويعد الأمن أحد أهم العوائق الرئيسة أمام الشركات التي تتطلع للعمل في العراق، فضلاً عن التحديات الكبيرة أمام ممارسة الأعمال التجارية في العراق، لوجود الفساد الإداري والبيروقراطية وانعدام الشفافية ونقص في عقود الاستثمارات كما في البنية التحتية والتي تصنف وضع العراق في السجلات العالمية بالسيئة .

أما في الجانب الثقافي فقد تركزت جهود البلدين في ثلاثة مجالات أساسية هي تعليم اللغة الإنجليزية من خلال المجلس الثقافي البريطاني، والبعثات الدراسية العراقية في الجامعات البريطانية، وفي مجال الآثار .

قائمة الهوامش :

¹ علاء جاسم محمد الحربي، العلاقات العراقية البريطانية 1945-1958، بيت الحكمة، بغداد، 2002، ص 7 .

² خليل ابراهيم العلاف، قصة التمثيل الدبلوماسي البريطاني في العراق، جريدة المدى (بغداد)، 10 نيسان 2016.

³ ستار جبار الجابري، العلاقات العراقية الفرنسية 1921-1956، مطبعة البينة، بيروت، 2009، ص 21؛ ينظر كذلك: صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي 1798-1810، مطبعة العاني، بغداد، 1979، ص 100 .

⁴ حول تفاصيل دور المستر ريج في العراق ينظر: كلوديس جيمس ريج، رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد - كردستان - إيران، ترجمة بهاء الدين نوري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008 .

- ⁵ حنا بطاطو ، الكتاب الأول العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني وحتى قيام الجمهورية ، ترجمة عفيف البزاز ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط 2 ، بيروت ، 1995 ، ص 272 .
- ⁶ علي الوردی ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج 1 ، الطبعة الأولى ، انتشارات المطبعة الحيدرية ، 1996 ، ص 241 .
- ⁷ داوود باشا والي بغداد (1816م-1831م) هو مملوك من كرج جورجيا اشتراه سليمان باشا وأولاه الرعاية والتعليم، عينه الوالي سليمان باشا خازندار بغداد في العام 1800م وترقى في المناصب فعين رئيساً للعسكر في العام 1814م . عين في العام 1816 واليا لبغداد بفرمان من السلطان العثماني وحظي زمنه بالكثير من الاستقرار ، فكان محبا للأدب وأهل العلم وسعى إلى إنشاء جيش قوي وكانت له نوايا لاستقلال العراق على غرار والي مصر محمد علي باشا ولكنه لم ينجح بعد أن جهز السلطان العثماني حملة لإسقاطه ومن ثم عاش مدة من حياته في الإستانة انتقل بعدها إلى المدينة المنورة وأنشأ هناك دار للتعليم ومات في المدينة في العام 1844م.
- ينظر : عبد العزيز سليمان نوار ، داوود باشا والي بغداد ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، دار الكتاب العربي ، 1968 .
- ⁸ علي الوردی ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 241 .
- ⁹ المصدر نفسه ، ص 242-243 .
- ¹⁰ عبد العزيز سليمان نوار ، المصدر السابق ، ص 322-323 .
- ¹¹ خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .
- ¹² المصدر نفسه .
- ¹³ حنا بطاطو ، المصدر السابق ، الكتاب الأول ، ص 279 ؛ ينظر : ستيفن هيمسلي لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط 6 ، مكتبة اليقظة العربية ، بغداد ، 1985 ، ص 366 .
- ¹⁴ جعفر عباس حميدي وآخرون ، تاريخ العراق المعاصر ، الموصل ، 1986 ، ص 33 .
- ¹⁵ خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .

- ¹⁶ عبد الرزاق الحسني ، تاريخ العراق السياسي الحديث ، ج 1 ، ط 7 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1989 ، ص 59-69 .
- ¹⁷ حول ثورة العشرين وأسبابها وتطوراتها ينظر : عبد الرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط 6 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1992 ؛ وميض جمال عمر نظمي ، ثورة العشرين الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية " الاستقلالية " في العراق ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 2 ، بغداد ، 1985 .
- ¹⁸ نقلا عن : خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .
- ¹⁹ المصدر نفسه .
- ²⁰ عقدت خلال عهده معاهدات جديدة بين بريطانيا والعراق كلها عززت الوجود البريطاني ومنها معاهدة 1924 ومعاهدة 1927 ومعاهدة 1930 . وبموجب معاهدة 1930 اعترفت بريطانيا في 30 حزيران 1930 بالعراق دولة مستقلة .
- ²¹ ينظر : أحمد رفيق البرقاوي ، العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا 1922-1932 ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1980 .
- ²² المصدر نفسه ، ص 132 .
- ²³ ينظر : خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .
- ²⁴ خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .
- ²⁵ حول دور الجيش في الحياة السياسية ينظر : محمد طربوش ، دور العسكر في السياسة ، ترجمة محمود أحمد عزت البياتي ، بيت الحكمة ، بغداد ، 2012 .
- ²⁶ حول ثورة مايس ينظر : وليد محمد سعيد الأعظمي انتفاضة رشيد عالي الكيلاني والحرب العراقية البريطانية 1941 ، دار واسط ، بغداد ، 1986 .
- ²⁷ خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .
- ²⁸ علاء جاسم محمد الحربي ، المصدر السابق ، ص 234-235 .
- ²⁹ نصير محمود شكر الجبوري ، السياسة الخارجية للجمهورية العراقية 1958-1963 دراسة في ضوء مقررات مجلس الوزراء ، دار ضفاف للطباعة والنشر ، بغداد ، 2012 ، ص 163 .

³⁰ خليل إبراهيم العلاف، المصدر السابق .

³¹ قحطان أحمد سليمان ، السياسة الخارجية العراقية من 14 تموز 1958 إلى 8 شباط 1963 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 2008 ، ص 374 .

³² خليل إبراهيم العلاف ، المصدر السابق .

³³ حزب العمال البريطاني هو حزب سياسي يحسب على يسار الوسط في بريطانيا. يرجع تاريخه إلى بدايات القرن العشرين، حين تكونت لجنة لتمثيل العمال في البرلمان. تطورت هيكلية هذا التيار في عام 1906 عندما تم انتخاب 26 نائباً ليمثلون العمال في البرلمان. وجد الحزب جذوره في تنظيمات سياسية واجتماعية خارج البرلمان حيث تشكلت قاعدته الجماهيرية من أتباع مجموعة من الحركات مثل حركة نقابات العمال، ومجموعة الجمعيات الاشتراكية، وحزب العمال المستقل، والجمعية الفابية، والاتحاد الماركسي الاشتراكي الديمقراطي . ويؤمن الحزب تقليدياً بالسياسات الاشتراكية مثل الملكية العامة للصناعات الحيوية، وتدخّل الحكومة في الاقتصاد، وإعادة توزيع الثروة عبر النظام الضريبي، وإعطاء مزيد من الحقوق للعمال والنقابات، ودعم فكرة تمويل الدولة لقطاعي الصحة والتعليم. بدأ الحزب في بداية التسعينيات من القرن العشرين في مراجعة أدبياته السياسية وإعادة النظر ببرنامجه السياسي، وأقر إجراء إصلاحات جوهرية في مسار الحزب وأهدافه والتحول إلى الليبرالية الجديدة أو ما أطلق عليها رئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير اسم (الطريق الثالث). ويتركز تأييد الحزب بين أبناء الطبقة العاملة وداخل النقابات العمالية والمدن الكبرى، لاسيما بين الأقليات العرقية والدينية مدعوماً ببرنامجه السياسي لتعزيز الحريات المدنية والثقافية ودعم حقوق المهاجرين الى بريطانيا . ينظر:

John Marshall , op. cit , p. 6 ; Party Finance , op. cit .

³⁴ Colin Hay, The political economy of New Labour (Manchester: Manchester University Press, 1999); John Gray, 'Blair's project in retrospect', International Affairs 80: 1, 2004, pp. 39-48 .

³⁵ عملية ثعلب الصحراء : ضربة عسكرية جوية قامت بها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا على العراق، واستمرت لمدة أربعة أيام خلال المدة 16-19 كانون الأول 1998، وجرت بسبب ما وصفته الدولتان بعدم تعاون العراق مع مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية الباحثين عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، تركز القصف على أهداف في بغداد، وتم إلحاق ضرر كبير بالبنى التحتية العراقية، وسقط خلال العملية عدد كبير من الضحايا العراقيين .

³⁶ تقرير تشاتهام هاوس (المركز الملكي للدراسات الإستراتيجية في لندن) ، سنة 2004، ص 499 .

³⁷ John Marshall: Membership of UK political parties, House of Commons, SN/SG/ 5125; 2009, p. 6; See also :

[www.parliament.uk/commons/lib/research/briefings/snsg-](http://www.parliament.uk/commons/lib/research/briefings/snsg-05125.pdf)

05125.pdf Access date: 5 Jan 2012 ; "Party Finance – The

Electoral Commission : Regulatory issues : Political parties :

Registers : Register of political parties".

Registers.electoralcommission.org.uk. Retrieved 2011-06-10 .

³⁸ تقرير تشاتهام هاوس (المركز الملكي للدراسات الإستراتيجية في لندن) ، سنة 2004، ص 580 .

³⁹ المصدر نفسه .

⁴⁰ Pual William, who is making foreign policy 2004, p.917 .

⁴¹ This new post has been criticized on the grounds that while it provides a fast track to the prime minister on security and intelligence matters it simultaneously encourages the bypassing of cabinet on these important issues: Review of intelligence, para. 607

⁴² تقرير تشاتهام هاوس المركز الملكي للدراسات الإستراتيجية في لندن ، سنة 2004 ، ص 48 .

⁴³ Review of intelligence, para. 427.

⁴⁴ Ibid 463.

⁴⁵ Brown, Gordon . Britania's Everyday Heroes, Mainstream Publishing, ISBN 978-1-84596-307-1, 2007 .

⁴⁶ هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي، 17 آذار 2008 .

⁴⁷ تقرير وزارة الخارجية العراقية دائرة التخطيط السياسي 2009.

⁴⁸ تم الاعلان رسمياً عن تقرير اللجنة في 6 تموز 2016، وسيتم الحديث لاحقاً عن الموضوع في هذا البحث .

⁴⁹ سوف نتطرق لاحقاً لنتائج تحقيقات هذه اللجنة .

⁵⁰ Siddique, Haroon (22 June 2009). "Public Iraq war inquiry 'essential', says chairman". London: The Guardian. Retrieved 24 November 2009.

⁵¹ حزب المحافظين : حزب سياسي يحسب على يمين الوسط ويعد أكبر الأحزاب البريطانية الممثلة في البرلمان البريطاني حالياً، وأكبرها من حيث عدد الأعضاء. وله دور مهم في المسار السياسي للمملكة المتحدة. ويدعم الحزب بقوة السوق الحر والاعتدال الاقتصادي، وافكارهم متشائمة وضد التحالف الأوروبي (Eurospectic). ورث حزب المحافظين حزب (التوري) والذي شغل الحياة السياسية في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، ومازال اسم (التوري) يطلق على أعضاء الحزب ومؤيديه. يطلق على الحزب أيضاً تسمية حزب المحافظين والاتحاديين حيث بدأت هذه التسمية مع الاندماج بين حزب الاتحاديين الليبراليين وحزب المحافظين في الحقبة ما بين 1886-1921 لدعم سياسة المحافظة على الوجود البريطاني في ايرلندا ومنع النزعات الاستقلالية التي كانت شائعة فيها

آنذاك. ويتخذ حزب المحافظين مساراً واضحاً للحفاظ على التقاليد البريطانية كما وينتهج سياسة لتقليص دور الدولة في الاقتصاد، وترشيح القطاع العام، وإقرار سياسة ضريبية تتمكن من دعم الميزانية ، الى جانب التشدد في مكافحة الجريمة ووضع ضوابط على الهجرة إلى بريطانيا. وكان حزب المحافظين قد عانى من ضعف القيادة بعد أفول نجم مارجريت تاتشر رئيس الوزراء الأسبق، مما تسبب في عدم تمكن الحزب من الفوز في أي انتخابات تشريعية منذ عام 1997 ، ولكن نجاح الحزب بانتخاب قيادات شابة جديدة مكنته من زيادة شعبيته بين البريطانيين، وقد تتوج ذلك بفوزه بالانتخابات العامة في أيار 2010. وترأس الحزب ديفيد كامبرون (David Cameron)، الذي ترأس حكومة إئتلافية شكلها الحزب الى جانب حزب الديمقراطيين الأحرار .

ينظر : الموقع الرسمي للبرلمان البريطاني (The Prime Minister Office)

<https://www.gov.uk/government/organisations/prime-ministers-office-10-downing-street>

⁵² حزب الديمقراطيين الأحرار: حزب ليبرالي تأسس عام 1988 من اندماج حزب الأحرار والحزب الديمقراطي الاشتراكي ، ويركز فكره على الحد من تدخل الدولة في الشؤون الخاصة للأفراد في بريطانيا وسائر دول العالم . ويؤيد بقوة التحول الديمقراطي للنظام السياسي، ويعزز القيم الليبرالية الحديثة، ويعارض فكرة "الدولة المربية" ، ويختلف الحزب عن بعض نظرائه من الليبراليين في العالم في قضية الليبرالية الاقتصادية حيث يفضل الحزب التزام الدولة بقيم العدالة الاجتماعية دون أن يمس هذا بالحرية الاقتصادية للأفراد ونظام السوق. ويتخذ موقفاً واضحاً من العلاقة مع أوروبا بدعمه للإندماج البريطاني مع مؤسسات الإتحاد الأوروبي والإلتحاق بمسار الوحدة السياسية والنقدية الأوروبية، ولكن الحزب ولضغوط إنتخابية ومن اجل مشاركته بالسلطة حاول إنتهاج سياسة مرنة في هذا المجال تمكن من خلالها من إقناع حزب المحافظين بالدخول معه بإئتلاف تمكن من خلاله من المشاركة في الحكومة البريطانية التي شكلها حزب المحافظين بعد الإنتخابات العامة التي شهدتها بريطانيا في أيار 2010. يرفض الحزب الحلول الانفرادية في السياسة البريطانية ويرى أن أهداف السياسة الخارجية يمكن أن

توضع موضع التنفيذ عبر العمل الجماعي وضمن مؤسسات المجتمع الدولي لاسيما الأمم المتحدة. ويتبنى الحزب قيم المحافظة على البيئة. ويلاحظ أن حزب الديمقراطيين الأحرار كان قد رفض الموقف البريطاني من حرب العراق وعدّ تلك الحرب انتهاكاً للقانون الدولي وخروجاً عن الشرعية الدولية ممثلة بالأمم المتحدة. ويعد الحزب ثالث أكبر حزب في بريطانيا وحصل الحزب على 57 مقعداً في البرلمان البريطاني في الانتخابات التي جرت في أيار 2010، ويرأس الحزب حالياً نيك كلك (Nick Clegg).

ينظر : الموقع الرسمي للبرلمان البريطاني (The Prime Minister Office)

<https://www.gov.uk/government/organisations/prime-ministers-office-10-downing-street>

⁵³ تصريح وليم هيبغ وزير الخارجية البريطانية بمناسبة استلامه المنصب في 2010 ينظر : الموقع الرسمي لوزارة الخارجية البريطانية.

<https://www.gov.uk/government/organisations/foreign-commonwealth-office>

⁵⁴ وزارة الخارجية ، التقرير السنوي للسفارة العراقية في لندن لعام 2012 .

⁵⁵ وزارة الخارجية ، التقرير السنوي للسفارة العراقية في لندن لعام 2013 .

⁵⁶ ينظر الموقع الرسمي للحكومة البريطانية على الرابط :

<https://www.gov.uk/government/news/foreign-secretary-visits-iraq-to-discuss-isil.ar>

⁵⁷ <https://www.gov.uk/government/news/uk-to-provide-further-support-to-forces-fighting-isil.ar>

⁵⁸ <https://www.gov.uk/government/world/organisations/dfid-ira>

⁵⁹ ينظر : موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=3510>

⁶⁰ ينظر : موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=3897>

⁶¹ ينظر : موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=4505>

⁶² ينظر : موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=5278>

⁶³ منشور على الرابط :

<http://www.alsumaria.tv/news/165275>

⁶⁴ ينظر : موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=6474>

⁶⁵ كان حزب العمال البريطاني قد شكل الحكومة البريطانية منذ عام 1997 وبقي يمثل الأغلبية في البرلمان البريطاني حتى الإنتخابات العامة التي شهدتها بريطانيا في شهر أيار 2010 حيث فاز حزب المحافظين بالعدد الأكبر من مقاعد البرلمان وشكل مع حزب الديمقراطيين الأحرار حكومة إئتلافية ليتحول حزب العمال الى المعارضة داخل البرلمان البريطاني.

⁶⁶ يتأسس الحزب حالياً اد ميليند الذي فاز بزعامة الحزب بعد انتخابات جرت داخل حزب العمال خاضها أمام أخيه ديفيد ميليند (الذي كان وزيراً للخارجية في آخر حكومة عمالية).

⁶⁷ بدى ذلك واضحاً في شهادتين قدمهما أمام لجنة التحقيق في حرب العراق (لجنة تشيلكوت) والتي شكلت للنظر في ظروف الحرب في العراق

⁶⁸ Duclos Alexander ,Influencing Tomorrow: Future Challenges for British Foreign Policy , p. 30 .

⁶⁹ ينظر : نواف التميمي، إصرار بريطاني على كشف دوافع بلير في غزو العراق ، منشور على الرابط

<https://www.alaraby.co.uk/politics/2015/8/21>

⁷⁰ للاطلاع على التقرير كاملا ينظر موقع حرب العراق التابع للحكومة البريطانية على الرابط :

<http://www.iraqinquiry.org.uk/the-report/>

⁷¹ ينظر الرابط :

http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2016/07/160706_chilcot_report_results_at_glance

⁷² ينظر الرابط :

http://www.bbc.com/arabic/worldnews/2016/07/160704_uk_chilcot_questions

⁷³ Ibid

⁷⁴ ينظر الرابط :

http://www.bbc.com/arabic/worldnews/2016/07/160705_iraq_chilcot_careful_analysis

⁷⁵ ينظر الرابط :

http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2016/07/160706_uk_iraq_chilcot_inquiry

⁷⁶ Ibid .

⁷⁷ This situation is not new. See Michael Clarke, British external policy-making in the 1990s (London:Macmillan, 1992), pp. 44–52.

⁷⁸ William Wallace, The foreign policy process in Britain, RIIA, London, 1975, p. 36 .

⁷⁹ Donna Lee, ‘The growing influence of business in UK diplomacy’, International Studies Perspectives 5:1,2004, pp. 50–54

⁸⁰ Shaun Breslin, ‘Beyond diplomacy? UK relations with China since 1997’, British Journal of Politics and International Relations 6: 3, 2004, pp. 409–25.

⁸¹ Anthony Sampson, Who runs this place? The anatomy of Britain in the 21st century, John Murray, London , 2004, p. 301.

⁸² وزارة التجارة والاستثمار البريطاني، مكتب العراق، إرشادات العمل مع العراق، سنة 2012، ص 30 .

⁸³ ينظر : مينا العربي ، المالكي يلتقي براون اليوم لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين بلديهما ، جريدة الشرق الأوسط ، 30 نيسان 2009 .

⁸⁴ تقرير السفارة العراقية في لندن تشرين الثاني 2013.

⁸⁵ المصدر نفسه .

⁸⁶ عن نسبة التبادل التجاري بين العراق والمملكة المتحدة ينظر : التقرير السنوي للسفارة العراقية في لندن لسنة 2013 .

⁸⁷ تجدر الإشارة إلى أن الأرقام لعام 2013 هي فقط حتى شهر تشرين الثاني 2013، حسب ما ورد في تقرير السفارة العراقية في لندن .

⁸⁸ تقرير حقوق الإنسان 2012 الصادر من وزارة الخارجية البريطانية لسنة 2012، ص 23 .
⁸⁹ ينظر : موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=2546>

⁹⁰ استناداً إلى تعليمات وزارة الخارجية البريطانية الملحق التجاري في العراق . ينظر : دائرة الإعلام لوزارة التجارة والاستثمار البريطانية .

⁹¹ تقرير السفارة العراقية في لندن إلى وزارة الخارجية في تشرين الثاني 2013.

⁹² تقرير القنصلية العراقية في مانشستر 2012.

⁹³ المصدر نفسه .

⁹⁴ ينظر موقع المجلس الثقافي البريطاني في بغداد على الرابط :

<https://iraq.britishcouncil.org/about/iraq>

⁹⁵ ينظر : المصدر نفسه .

⁹⁶ تقرير القنصلية العراقية في مانشستر 2012.

⁹⁷ ينظر : مينا العربي ، المالكي يلتقي براون اليوم لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين بلديهما ،

جريدة الشرق الأوسط ، 30 نيسان 2009 .

⁹⁸ ينظر موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=4717>

⁹⁹ ينظر موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=6147>

¹⁰⁰ ينظر موقع السفارة العراقية في لندن على الرابط :

<http://mofamission.gov.iq/ab/UKLondon&article=6473>

الآثار الاجتماعية للتوحيد من خلال مقارنة إسماعيل الفاروقي

د. عبد الجليل بن سالم / جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية /

قسنطينة

تلخيص:

يعد التوحيد لب الدين والحياة فلا شك أنه دعوة الأنبياء ورسالتهم الخالدة من عند الله عز وجل، التي دعت إلى تغيير واقع الحياة إلى الأحسن، لذلك كان خطاب الأنبياء يتدرج في توضيح معنى التوحيد من نبي إلى نبي حسب طبيعة كل قوم، ومدى استعداد فكرهم لقبول المعاني وجلاء المقاصد والآثار التي تنبع من مفهوم التوحيد، الذي يدعو إلى حمل أمانة الله في هذه الأرض، والمحافظة عليها وإعمال القراءتين للوصول إلى تحقيق معنى تكريم الإنسان ومنحه العقل الذي يكسبه أنماطا جديدة في واقع الحياة.

Abstract

The monotheism (*Tawhiid*) is considered a core of religion and life, that is why it is the eternal message of all prophets from Allah Almighty, the message which calls for change of life for the better. It is clear that the forms of speech delivered by the Prophets in clarifying the concept of monotheism (*Tawhiid*) were different and various, according to the nature of their people, their qualification and readiness to receive the comprehensive concept, meaning and effects of monotheism (*Tawhiid*), the (*Tawhiid*) that calls people to carry God's trust and fulfill the mission on this earth through the

continuous readying in order to achieve the human being honoring, and to use the mind which enables them to well understand monotheism (*Tawhiid*) and apply in it in real life.

مدخل:

تعاني مجتمعاتنا العربية والإسلامية من تجسيد مفهوم التوحيد، الذي كان عماد دعوة الأنبياء لمناهضة الفساد، والدعوة إلى تنظيم المجتمع عن طريق سن الشرائع وإشاعة النماذج الأخلاقية الرفيعة، لذلك جاءت دعوتهم منظمة لواقع الحياة ومغيرة للنفوس ومطلبة بتحقيق معنى العبودية لله وتحقيق آثار التوحيد الاجتماعية التي تتساوق مع كرامة الإنسان التي أرادها الله سبحانه لعباده، الأمر الذي استدعى كبار المصلحين والمفكرين مشرقا ومغربا العكوف على استجلاء الآثار الاجتماعية التي تسعى البشرية إلى تحقيق ذروة مقاصدها.

ويعد الفاروقي واحد من بين أبرز أساطين الفكر وخيرة العقول في القرن العشرين فقد ذاع صيته مشرقا ومغربا، بسبب جرأته الفكرية ومحاولته الإسهام في نقل الأمة الإسلامية من وضعها المأزوم إلى المأمول الذي يريده كل مسلم ينتمي إلى هذه الجغرافية الفسيحة ويمتلك أرومة الأصل والمصير، ومن خلال المقال سأجيب عن السؤال الرئيسي الآتي: كيف يسهم التوحيد في بناء المجتمع حسب المقاربة الفاروقية؟ ويندرج تحت هذا السؤال أسئلة فرعية مفادها:

أولا من هو المفكر الفلسطيني الفاروقي؟

ثانيا: ما هي أدوار التوحيد اجتماعيا؟

ثالثا: كيف تتجسد الآثار الاجتماعية للتوحيد؟

أولا: ترجمة موجزة من هو الفاروقي؟

ولد المفكر والباحث في الأديان الفلسطيني إسماعيل راجي الفاروقي بيافا في فلسطين (1921م) وقد درس في جامعات عريقة على غرار الجامعة الأمريكية ببيروت ثم حصل على الدكتوراه من جامعة إنديانا في عام 1952م، وله سجل حافل فقد وهبه الله عمرا عريضا مليئا بالإنجازات، وقد ساهم في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن عام 1981م وترأسه حتى وفاته سنة 1986م على يد اليهود، بيد أن حبر العالم أقوى من يد الغادر إذ شكل زادا على طريق العلم والحق. [1]

وقد ترك الفاروقي مؤلفات كتب الكثير منها باللغة الإنجليزية ومنها: [2]

- التوحيد ومقتضياته في الفكر والحياة.
- أطلس الحضارة الإسلامية بالتعاون مع زوجته لويس لمياء.
- الأطلس التاريخي لأديان العالم.
- الأخلاق المسيحية.
- الإسلام والديانات الأخرى.
- الديانات الآسيوية بالاشتراك.

ثانيا: الدور الاجتماعي للتوحيد

فقد تبين فاعلية هذا الأصل العقدي على نحو أفضل. فلو ساد التوحيد القويم بين الناس لانبسط آثاره الاجتماعية في كل شيء، ولو غاب لظهرت تبعات هذا الغياب واضحة في كل شيء، ولناخذ المجتمعات التي تلتحق بالتوحيد بألسنتها بينما هي منفصلة عنه عملياً، ونظر ما الذي تنزله بالبشرية من دواهٍ وخُطوب!

إنّ واقع المسلمين وهو يشهد غياب التوحيد عملياً ليس أفضل من واقع بقية المجتمعات؛ لهذا نشطت منهجيات حديثة من أول هذا القرن وحتى قبل ذلك أيضاً

راحت تدعو إلى استكناه المدلولات الاجتماعية للتوحيد في حياة المسلمين [3] ،
وكمؤشّرات سريعة نلحظ رسالة الأفغاني في "الردّ على الدهريين" التي جمع فيها
السيد جمال الدين الأفغاني (1254هـ . 1314هـ) المنطق الاجتماعي إلى جوار
المنطق الفلسفي. فقد تحدّث عن أنّ المادّية أو الدهرية تنتهي بالضرورة إلى "إفساد
الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان المدينة" [4].

وسعى الشيخ محمد عبده (1265 هـ، 1323 هـ) . في كتابه الشهير "رسالة
التوحيد" . أن يقرأ التوحيد توحيداً للمجتمع وأخوة بين أفراده في مقابل الشرك الذي
رأى فيه الفرقة والتمزّق الاجتماعي [5].

وعلى المنوال نفسه سار محمد إقبال (1873م . 1938م) في مناشدته المسلم
أن يتحرّى الروح الاجتماعية للتوحيد متمثلة في "المساواة والإتحاد والحرية" [6].
أمّا مالك بن نبي (1905م . 1973م) فهو يسجّل في نصّ نافذ، قوله: "إنّ
مشكلتنا ليست في أن «نبرهن» للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره
بوجوده ونملاً به نفسه باعتباره مصدراً" [7] ، وذلك في إشارة نقدية إلى غياب
التأثير النفسي والاجتماعي لمبدأ التوحيد الكلامي.

أمّا مع مطلع الثمانينيات فقد تصدى عدد من العلماء والمفكرين للحديث
بكثافة عن المدلولات الاجتماعية للتوحيد، ربما كان من المناسب أن نشير منها إلى
كتابات الشهيد محمد باقر الصدر (1980م) الذي كتب يقول نصاً: "إنّ أصول
الدين الخمسة التي تمثّل على الصعيد العقائدي جوهر الإسلام والمحتوى الأساسي
لرسالة السماء هي في نفس الوقت تمثّل بأوجهها الاجتماعية على صعيد الثورة
الاجتماعية التي قادها الأنبياء الصورة المتكاملة لأسس هذه الثورة" [8].

وعن التوحيد قال: " فالتوحيد يعني اجتماعياً أنّ المالك هو الله دون غيره من الآلهة المزيّفة" [9] وعلى هذا المنوال راح يتقصّى الآثار الاجتماعية للتوحيد. ويصور سيد قطب التلازم الوثيق بين التوحيد وطبيعة النظام الاجتماعي تلازماً لا ينفصل إذ يقول: "إن هناك ما هو أكثر من التلازم هناك الانبثاق الذاتي، فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود، ولمركز الإنسان ووظيفته، وغاية وجوده الإنساني، وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير هو نظام مصطنع لا يعيش، وإذا عاش فترة شقي به الإنسان ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما فهي ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية" [10] كما نجد مفكراً مبرزاً وهو فريد الأنصاري يقول عن فحوى قضية التوحيد "نرى أن قضية التوحيد والعبودية لله التي كانت هم الرسائل السماوية تاريخياً وكانت ميدان الصراع الحقيقي لما يترتب عليها من آثار على مستوى الفرد والمجتمع، والأمة والدولة أصبحت في مراحل الجمود، والتخلف، والتقليد، مجرد شعار يصعب تمييز الذي يرفعه كثيراً عن غيره الذي لا يؤمن به" [11] ويقول في سياق آخر عن شهادة لا إله إلا الله: "لذلك كان الناطق بما المدرك لأبعادها ومدلولاتها، تتغير مفاهيمه كما يتغير سلوكه وعلاقاته، ويعيش ثمراتها في النفس والمجتمع" [12].

ثالثاً: مدلول التوحيد وأثره الاجتماعي عند إسماعيل الفاروقي

إن التطور الفكري [13] ضرورة ملحة لا بد منه في تحديد واقع حياة الإنسان والإرتقاء به على الدوام حيث إن الأفعال الإنسانية يتحكم بسيرها ما استقر في نفوسها من مخزون فكري، وهو ما يعتبر المبدأ الأساس المفعّل لها، والضابط لتصرفاتها، وجعلها محكمة قدر الإمكان، ومحققة لغاياتها وأهدافها فكلما كانت المبادئ الفكرية راسخة وشاملة كلما كانت هي الأقدر على تطوير الحياة الإنسانية

ومواجهة مشكلاتها دون استمرار لآثارها السلبية أو الحد منها لأدنى مستوى ممكن ،وقد أكد هذه الحقيقة فيلسوف العلم والاجتماع لندبرغ قائلا: متطلبات الناس ورغباتهم تتغير بتبدل الظروف عبر الزمن ،أما قيمة المعرفة العلمية فتظل مستمدة من حيادها وتجربتها وثبوتها مهما كان القصد من استعمالها[14].

ومن الأنظمة الفكرية التي اعتنت بتنظيم شؤون الحياة كلها على اختلاف تغيراتها النظام الفكري الإسلامي والذي يعتبر علم التوحيد أحد أركانه الرئيسة ،فالتوحيد يحتوي على عقائد إيمانية يسهل على العقل والنفس معا تقبلها من غير إثارة إشكالات اتجاهها، فعلى سبيل المثال فإن التوحيد في الإسلام يقوم على فكرة الوحدانية ونفي التعدد في الإلوهية رفضا تاما ونفي كون الإله مادة من جنس مخلوقاته وهو ما افتقرت إليه أغلب العقائد الأخرى مما جعلها تواجه استشكالات مازالت تواجهها من غير أن يجد أصحابها حلولا مقنعة لها ،وعلماء المسلمين على مر الزمان قرروا عقائد علم التوحيد وفق إملاء متطلبات كل زمان وأهله من المسلمين وغير المسلمين، وتأثرت صياغته بالمدرسة التي ينتسب إليها العالم، وبالتالي أدى إلى ظهور علم التوحيد بصور ومناهج متعددة زادت من صعوبة تلقي علم التوحيد وصار علما جدليا داخل البيئة الفكرية الإسلامية أكثر منه مع خارجها، وأصبحت ترجمته في السلوك الأخلاقي لدى غالب المسلمين ضعيفة، مما دعت الحاجة إلى النظر في علم التوحيد برؤية جديدة تعيد الانتماء له إلى وضعة الأصلي، وهو مما ساهم في إثرائه المفكر إسماعيل الفاروقي - رحمه الله - من خلال كتاب التوحيد واختط فيه الفاروقي منهجا فريدا صاغ فيه المفهمة التوحيدية صياغة تجديدية ساجملها فيما يأتي:

أولاً: ربط الفكر العقدي بمضامين الحياة هو أمر جوهري لا عرضي، فالبحث العقدي في الفكر الإسلامي ولعقود طويلة كان ولا يزال يبحث في المسائل العقدية المتعلقة بالذات الإلهية كوجوده تعالى وصفاته وأفعاله وما يتعلق بالأنبياء والسمعيات دون البحث في آثارها ونتائجها على الفرد والمجتمع المسلم وغير المسلم [15] على اعتبار أن البحث في الآثار العقدية هو أمر عرضي لا جوهري عند علماء التوحيد أو علماء الكلام، ونجد بعض علماء الكلام من يعرفه بقوله [16]: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه"، وبالتمعن في هذا التعريف يتوصل إلى أن علم التوحيد والعقيدة، والكلام والفلسفة الإسلامية كلها تندرج في هذا التعريف، لما يجمعها جميعاً البحث في العقائد الدينية إثباتاً ودفاعاً على حد سواء.

وهنا لا يلتفت إلى موقف الآخر من قبول أو عدم قبول مسمى علم الكلام لهذا التعريف ولما حاول بعض علماء العقيدة ربط الموضوعات العقدية بمضامين الحياة جاء الربط عند بعضهم مقتصرًا على ما جاءت الشريعة به من إطلاق مسمى الإيمان على بعض الممارسات الأخلاقية، ويظهر ذلك واضحاً من عنونة مصنفاتهم بشعب الإيمان، كشعب الإيمان للبيهقي والحلي. ولما سبق، فإن بعض علماء التصوف أسندوا لأنفسهم تغطية جانب البحث في آثار العقيدة على السلوك الإنساني، وذلك بقصرهم ربط بعض المفاهيم العقدية في السلوك الأخلاقي الفردي، كربط مفهوم الإيمان بوجود الله تعالى والخوف منه باجتنب المعاصي والإقبال عليه [17].

لقد جاء دور إسماعيل الفاروقي في تطويره لعلم التوحيد بإظهاره العلاقة الشمولية بينه وبين أغلب مضامين الفكر والحياة [18] التي عرفتها البشرية، وخصص لذلك

مؤلفا أسماه (التوحيد مضامينه على الفكر والحياة)، وعلى سبيل المثال لا الحصر عنون الفاروقي الفصل الأول من الكتاب "التوحيد جوهر الخبرة الدينية" [19]، تناول الفاروقي فيه أثر الخلاف لمفهوم فكري عقدي بين الفلاسفة والمتكلمين وهو عملية الخلق الإلهي، وقد لمس فيه الفاروقي أثر المفهوم على واقع الحياة الإسلامية، من جملة ذلك أن الفاروقي رأى في قول الفلاسفة إن الله تعالى علة تامة للمعلولات (المخلوقات) يؤدي في النهاية إلى الشعور بالاستغناء عن الدور الإلهي في الكون، في حين رأى الفاروقي ما ارتآه المتكلمون من نفي كون الله علة تامة وأن الله تعالى فاعل في الكون بإرادته ضمن أسباب طبيعية داخلية في النظام الكوني عمل تعالى بنفسه على إيجادها، وأن الله تعالى يتدخل على الدوام في عملية الخلق كرقيب عليه ومصدر للتوازن فيه حتى لا يضطرب، وأن ما من سبب إلا ويعود لسبب وهكذا الأمر على الدوام إلى أن تنتهي سلسلة الأسباب إلى الله عزّ وجل، ويرى الفاروقي إن كل ذلك إذا ما تفاعل معه المسلم تفاعلا حقيقيا بمداومة الشعور به فإنه يحقق آثارا إيجابية في حياته، منها:

أولاً: إرضاء الشعور الديني لدى المسلمين، لكونه أكثر مطابقة للنصوص الشرعية وشعور المسلم بوجود مقيم وقيمة للمخلوقات لأنها متزنة وتعمل معا محققة غايات وجودها، فما من أمر إلهي أوجب الله تعالى فعله أو تركه فالمسلم يدرك أن تنفيذه يعمل على تحقيق الصواب المحافظ على الاتزان الكوني وبالتالي تجنيب المخلوقات ما يؤدي إلى إفسادها، فنحن إذن أمام أساس معياري يتمثل بالإرادة الإلهية النافذة في المخلوقات، للإنسان هنا دور عظيم في تفعيل هذا الأساس وقطف ثماره الإيجابية.

ثانياً: بارتباط سلسلة الأسباب بالمسبب الحقيقي لها يشعر المسلم أن المخلوقات تسعى في أفعالها نحو غاية واحدة (الله تعالى)، وهي أرقى الغايات نبلا وأعلاها قيمة وهذا بدوره يوجد صلة حقيقية بين الإنسان وخالقه.

ومن الأمثلة الأخرى التي اعتبر فيها الفاروقي مضامين الحياة من جوهر علم التوحيد جعله التوحيد الركيزة الأساسية لمبدأ النظام الاجتماعي ومن جملة أقواله في ذلك: "الإسلام فريد في بعده الاجتماعي بشكل مطلق بين كل ما عرفه العالم من أديان وحضارات" [20] وهو يرى أن الدليل على إثبات صحة هذه المقولة متحقق من خلال رؤية الإسلام للنظام الاجتماعي أنه "الغاية العليا للإسلام في الحياة الدنيا بزمانها ومكانها" [21]

إن إدراج الفاروقي أثر المفاهيم العقديّة في الدرس العقدي يعد إضافة نوعية لا بد منها في عصرنا الحاضر، فالعلوم لا ترقى للمصادقية الحقيقية إلا إذا كان لها تطبيقات واقعية، والفاروقي أثبت ذلك من خلال ربطه بين المفهوم العقدي لكلمة التوحيد وبين تطبيقاتها العملية.

ثالثاً: التجديد في الدرس العقدي.

التجديد الذي أظهره الفاروقي في درس علم التوحيد هو جعله يقوم على محور مركزي مكون من المفهوم العقدي وأثره الفعلي، "فالإنسان صاحب رسالة كونية لكونه خليفة أصيلاً لتطبيق الأمر التكليفي الإلهي في الأرض بوصفه الشق الأسمى من الإرادة الإلهية" [22] ولعل الفاروقي يدعونا هنا إلى تجديد طريقة التفكير في الدرس العقدي، فخلو الدرس العقدي لكثير من مباحثه من الأثر العملي جعله على الدوام منتقداً، فالذين ينتقدونه بعد دراستهم له لسان حالهم يقول: لا نجد في درس إثبات وجود الله تعالى، ولا في مبحث الصفات الإلهية وغيرها إلا المناقشات

النظرية بين مختلف الآراء، وكأن الباحثين لها عندهم قوة عقلية أفرغوها في هذه المناقشات، وهي بالتالي مظهر من مظاهر الترف الفكري، دائرته ضيقة ومحصورة فيما بينهم.

فالفاروقي في خطوته الأولى هذه التي شقها نحو التجديد نجد أن المنطلق الحديث يؤكد لها فهاهو أنطوان أرنولد يقول: " خواص الفكر قد تكون لها استعمالات منحصرة ومحدودة، لكن دقة العقل تفيد بوجه عام جميع تصرفاتنا في الحياة ومشاغلتها وفي سائر أنواع السلوك في هذه الحياة" [23].

رابعاً: الأخلاق تشخص الأفكار العقدية.

من الملاحظ على الفاروقي في كتابه التوحيد مضامين الفكر والحياة إصراره الحثيث على الربط بين المفاهيم العقدية لكلمة التوحيد وبين تجسيدها أخلاقياً من خلال الممارسات السلوكية للمسلم وإن كان مثل هذا الربط مسبقاً به لدى الصوفية إلا أن الفاروقي أضاف إليه إضافة نوعية فارقة ألا وهي أن الفكر العقدي حينما يتجسد في كل مضامين الحياة الفردية والاجتماعية على حد سواء يكون له تدخلاً مباشراً في تحديد السلوك الناجح في كل الممارسات الإنسانية التي ترسم الحضارة الإنسانية المثالية كغاية يسعى إليها البشر [24].

والفاروقي يرى في الاستخلاف الإلهي للإنسان التمثيل الحقيقي للحضارة الإنسانية المثالية وذلك لا يكون إلا بتجسيد قيم التوحيد الأخلاقية من قبل الإنسان، ويعبر عن ذلك بقوله: "فمبرر وجود الإنسان هو طاعة الله، وتنفيذ أمره، ويؤكد التوحيد أن جوهر هذه الغاية هو استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض، وبمقتضى الاستخلاف حمل الله تعالى الإنسان الأمانة وفحوى هذه الأمانة الإلهية هي الوفاء بالشق الأخلاقي من المشيئة الإلهية" [25].

إن "باوردي" بعد بحثه الفلسفي الاجتماعي العميق لحقيقة المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر يقرر أن منتجات العلم الحديث عاجزة عن تحقيق منظومة أخلاقية علمية تعتمد العقل وحده في معالجة منتجات الحياة المدنية الغربية الحديثة، فيقول معبرا عن ذلك: "إن المشكلة الخالدة الخاصة بين العقل والمعرفة-والتي تعد على الخصوص مشكلة عصرنا- يبدو أنها دخلت في طور جديد فالأزمة المعنوية التي تكافح فيها مدينتنا الغربية منذ ثلاثة قرون إنما هي أزمة خلقية، فإن المفكرين الأحرار يتفقون في يسر مع الدجماطيقية القديمة لكي يشككوا في إمكان بناء نظرية للسلوك عن طريق العقل وحده، ويعلمون ذلك بأن كل القواعد تعتبر خاضعة لشروط متغيرة بتغير الزمن والبيئة بل إنها في جوهرها تحكيمية خالصة، ولا سند لها إلا إرادة من يفرضها ومن يقبلها، وينجم عن هذا أننا نشعر جميعا أكثر من ذي قبل بالحاجة إلى سلطة ما وإلى قاعدة خارجية وإلى مبادئ بالضبط موضوعية". [26].

فالنتيجة التي توصل لها (باوردي) هي عينها التي ناضل من أجلها الفاروقي في كتابه: التوحيد ولو أردنا أن نأتي بمثال أكد فيه الفاروقي فكرة تجسيد الفكر العقدي أخلاقيا لكفانا تمثيله العلاقة بين التوحيد ومضمون الحياة الاقتصادي الإسلامي فمبدأ التوحيد حاضر بقوة فيه، حيث إن فكرة مشاركة الفقير للغني بماله من خلال ما يستحقه من زكاة وغيرها من الصدقات العامة فكرة مغايرة تماما لكل الأنظمة الاقتصادية الحديثة، فمشاركة الفقير للغني في هذه الأنظمة ملغية تماما إلا بدافع شخصي أحادي الجانب، في حين نجد أن دفع الزكاة لا يمكن أن يكون نابعا إلا من الإيمان المطلق عند المسلمين بالتوحيد، فالتوحيد هو الحافز الرئيس لمثل هذا السلوك الأخلاقي، خاصة وأن دافع الزكاة يعلم مسبقا أن دفعه للمال سيكون من

غير مقابل نفعي يلتزم به الفقير تجاه الغني فلا حافز لدى دافع الزكاة إلا إيمانه المطلق بالله تعالى واستحقاق رضاه والفوز بالجنة، وهي محفزات أخلاقية موضوعة مسبقا من قبل إله كامل الإلهية، فهي إذن أسمى من القيم الوضعية" [27] وقد دعا ذلك الفاروقي إلى أن يتبنى بقوة ما قاله محمد إقبال من أن "العمل الاقتصادي هو الآخر تعبير عن روحانية الإسلام" [28].

خامسا: إبراز المقاصدية العقدية السامية للأفكار.

فما من فكرة إلا ولها مقصد أو مقاصد ترجو تحقيقها، والاعتناء بأحدهما على حساب الآخر كعملة لها وجه واحد فقط، والله تعالى قرر هذه الحقيقة في القرآن الكريم بقوله: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [29] ، فالقول بمثابة الفكرة أو والفعل بمثابة المقصد والآية هنا عامة في أي قول وأي فعل ، إلا أن الممارسة الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي أشعرت كثيرا من المسلمين أن الآية خاصة فقط بالممارسة الفقهية والسلوك الأخلاقي دون غيرهما ، وهو ما أدى إلى استثناء الممارسة العقدية منها بالرغم من دخولها في سياق عموم الآية، وما يدل على هذا الدخول قول الله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) [30] ، ويؤكد قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قل آمنت بالله ثم استقم" [31] فالآية والحديث أوضحنا الفكرة وهي الإيمان ، وأوضحنا عقبيها على الفور المقصد الأسنى منها وهو الاستقامة المترجمة لمضمون الفكرة على أرض الواقع [32].

والفاروقي بإبرازه هذا النوع من المقاصد أمكنه تطوير صياغة الفكر العقدي الإسلامي، خاصة وأن حال الأمة الإسلامية في أيامنا هذه بأمس الحاجة لتفعيل

دور المقاصد العقديّة ، ولعل السبب الرئيس لتفعيل هذا الدور يرجع للعلاقة المتينة بين المقاصد العقديّة ووجود التربية الفعالة للفرد والمجتمع ، فكلما كانت المقاصد العقديّة سامية ومثالية كلما كانت التربية فعالة أكثر في نتائجها الخيري ويرى الفاروقي أيضا أن التوحيد لا يكون منتجا أهدافه إلا إذا كان مفعلا ضمن منظومة اجتماعية عاملة ، أطلق عليها (مأسسة الاجتماع الأمّي) ، وهو يرى أن هذه المؤسسة غير متحققة لغاية الآن في المجتمع المسلم ، وقد اقترح وسيلة تربوية ضمناها الفصل الثالث .

سادسا: توظيف الآراء العقديّة المختلفة.

وظف الفاروقي آراء عقديّة تخص أصحابها ممن ينتمون لبعض الفرق الإسلاميّة العقديّة والكلامية والفلسفية وجاء توظيفه لها بحسب ملائمة كل رأي مع المضمون الحياتي المناسب له إذ يجد القارئ لكتاب التوحيد تفعيل الفاروقي لآراء المتكلمين (الأشاعرة والمعتزلة) في مسألة الخلق وترجيحها على قول الفلاسفة الإسلاميين [33] ، ووجد كذلك توظيفه لرأي المعتزلة في أن الإرادة الإنسانيّة غير داخلية في قوله تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [34][35] ، ويوظف رأي محمد بن عبد الوهاب في إبطال التعلق بالخرافات والأساطير لمنافاتها للتوحيد [36] ، ويوافق الصوفيّة في أطروحتهم (الصوفيّة المجتمعية) [37] ويؤيد ما توصلت إليه الفلسفة الحديثة من انتفاء الحتمية بين الأسباب انطلاقا من نسبيّة أنشتاين [38] وهو في صنيعه هذا يحقق نوعا من التطور الفكري العقدي الذي طال انتظاره ، متخذا عدة سمات ، من أهمها :

- التحرر من القيود المذهبية، فإذا رأى صاحب الفكر رأيا عقديا أكثر ملائمة من غيره في فهم النص العقدي الشرعي فمعنى ذلك أن هذا الفهم هو الأقرب عنده لقناعة النفس البشرية به أكثر من غيره .
- تحقيق أقوى نتائج الرأي العقدي على أرض الواقع، فهذا هو المقصد الأسمى له، وهو يشعر المسلم بأثره المستمر على مجرى حياته اليومية بما يخصه كفرد مع ربه، ومجتمعه، ومحيطه، والطبيعي الزماني والمكاني.
- تخفيف حدة النزاعات الجدلية بين أصحاب الفكر العقدي المتخالفة، فحينما يرى أتباع المدارس العقدية المتخالفة كبار المفكرين المعاصرين يوظفون رأيا من هنا ورأيا من هناك في تطوير عجلة الحياة الإسلامية -لا تحت تأثير سلطة سياسية فإن تقبل الآخر يزداد شيئا فشيئا، وهو ما يجعل أيضا الفجوة والجفوة بينهم تتناقض شيئا فشيئا.

خاتمة:

سعى الفاروقي إلى إبراز الدور الاجتماعي للتوحيد ووضع تفسيرات جديدة تمكننا من السعي بمجتمعاتنا نحو التقدم العلمي والفكري، ومجددا في اللغة والطريقة والمنهج الذي سلكه علماء الكلام في الذب عن عقيدة الإسلام، مركزا على الجانب الاجتماعي الذي يمس كل أطراف المجتمع، الذي أسماه بالمجتمع الأممي الذي يتجه في خطه ومشاريعه إلى ما يخدم الأمة، وبالتالي إقصاء الفهوم السلبية مثل الانعزال والقطيعة مع غير المسلم، خاصة وأن المسلم يمتلك عقيدة صلبة تحتاج إلى تفعيل في واقع الحياة، ولن يتأتى ذلك إلا بفهم مدلول التوحيد اجتماعيا والإجابة عن تساؤلات العصر، دون إغفال للجانب الأخلاقي الذي يركز عليه التوحيد باعتبار أن عبادة الله وحده تمثل أعلى صورة أخلاقية بما يؤدي الإنسان مهمته التي أوكلت

إليه، وهي الاستخلاف والعمل من أجل المحافظة على صلاح الأرض وتعميرها بالنفع للإنسانية.

الهوامش:

- 1- هشام الطالب، مقدمة كتاب إسماعيل الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، [الرياض، مكتبة العبيكان، ط1، 1419هـ - 1998م]، 4،
- 2- المصدر نفسه 5
- 3- ينظر كمصدر مهم في رصد هذه التحولات: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، [بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، 1981م]، فصل التوحيد المحرر.
- 4- جمال الدين الأفغاني، رسالة الردّ على الدهريين، منشورة في كتاب: الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني، بقلم الشيخ محمد عبده، سلسلة كتاب الهلال، ص 33.
- 5- عطية سلمان أبو عاذرة، مشكلة الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي الحديث عند كل من الإمام محمد عبده ومحمد إقبال، [بيروت، دار الحداثة، 1985]، ص 113 وما بعدها.
- 6- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ، ترجمة: محمود عباس، ص 178.
- 7- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 55.
- 6- محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، [إيران، طبعة وزارة الإرشاد، دت]، ص 38.
- 7- المصدر السابق، ص 34.
- 8- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، [دار الشروق، ط12، 1413هـ-1992م]، ص 23.
- 9- فريد الأنصاري، [قطر، مجلة الأمة، العدد: 47، ط1، 1416هـ/ 1995م]، ص 26.
- 10- المصدر السابق، ص 26.
- 11- عيسى ربيع جوابرة، التطور الفكري العقدي الإسلامي المعاصر إسماعيل الفاروقي أنموذجاً، ورقة عمل لمؤتمر دولي علمي بعنوان إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي

المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع جامعة اليرموك وجامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 1432هـ-2011م ص1.

12- لنديج جورج، هل ينقذنا العلم، ث: أمين أحمد الشريف، [بيروت، نيويورك: دار البقطة العربية ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط 1963م]، ص 25.

13- وبصدد هذا الموضوع يقول المستشرق جوزيف شاخت موضحاً جمود الدراسات الإسلامية وخاصة ما يتعلق منها في علم الكلام: منذ أوائل القرن الحادي عشر فصاعداً نلاحظ ذلك الركود العام في الحياة الفكرية للمسلمين وكانت النماذج الكلاسيكية الكبيرة تقلد المرة تلو الأخرى، ولم تكن أحكام القيم السائدة توضع موضع التساؤل وجاءت نقطة تحول أخرى لا بالنسبة إلى علم الكلام فقط، بل بالنسبة للشريعة الإسلامية والأدب العربي عام 1517م وذلك عند احتلال العثمانيين لمصر ونتج عن ذلك إحياء جديد في هذين المضمارين لكن هذا أيضاً انتهى بصورة تدريجية إلى أن حدثت بداية جديدة في الأدب العربي خلال القرن الماضي وفي الشريعة الإسلامية عن طريق التشريع الحديث منذ العقد الثاني من القرن الحالي فصاعداً على أن هذه التطورات تقع خارج نطاق هذا المؤلف، ولم يتناول هذا الإحياء علم الكلام الإسلامي حتى الآن. انظر جوزيف شاخت، تراث الإسلام [الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد: 333-1998م]، 29، 1.

14- الإيجي عضد الدين، المواقف في علم الكلام، [بيروت، عالم الكتب، دت]، ص 7.

15- ينظر: أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، [بيروت، دار صادر، ط1، 1995م]، ج1، 372.

16- حصر الفاروقي مضامين الفكر والحياة في ثلاثة عشر مضموناً، من جملتها التوحيد وعلاقته بمبدأ التاريخ ومبدأ الأخلاق ومبدأ النظام الاجتماعي ومبدأ الأسرة ومبدأ النظام السياسي ومبدأ النظام الاقتصادي ومبدأ النظام الجمالي ومبدأ النظام العالمي. - ينظر: الفاروقي، التوحيد، ترجمة السيد عمر، ص 3.

17- المصدر نفسه، ص 33.

18- المصدر السابق، ص 158.

19- المصدر نفسه، ص 159.

20- المصدر نفسه، ص 40.

- 21- أرنولد أنطوان وآخرون، المنطق أو فن توجيه الفكر، ترجمة عبد القادر قنيني، [الدار البيضاء -بيروت: المركز الثقافي العربي، ط 2007م]، ص 9.
- 22- عيسى ربيح جوابرة، مقال التطور الفكري العقدي الإسلامي المعاصر، إسماعيل الفاروقي نموذجاً، مصدر سابق، ص 5-6.
- 23- الفاروقي، التوحيد، مصدر سابق، ص 119، باختصار .
- 24- الدجماطيقية القديمة: "كل فلسفة تقرر بعض الحقائق، وتعارض بذلك مع الربية " ينظر: لالاند أندريه، الموسوعة الفلسفية ترجمة: خليل أحمد خليل، [بيروت، باريس، مكتبة عويدات، ط2، 2001م]، ج1، ص 296.
- 25- بارودي، المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، دط ، ص 3.
- 26- ينظر: الفاروقي، التوحيد، ص 262.
- 27- اقتبس الفاروقي هذه العبارة من أحد كتب إقبال ، ينظر المصدر السابق، ص 259.
- 28- سورة الصف، 2-3.
- 29- سورة الصف، الآية 30 .
- 30- رواه الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، ت. مصطفى عبد القادر عطا، [بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م]، ج 4، ص 349.
- 31- عيسى ربيح جوابرة، التطور الفكري العقدي الإسلامي المعاصر إسماعيل الفاروقي نموذجاً ، مصدر سابق، ص8.
- 32- الفاروقي، التوحيد، مصدر سابق، ص 34.
- 33- سورة يس، الآية 82.
- 34- سورة البقرة، الآية 117.
- 35- المصدر السابق، ص 106.
- 36- المصدر السابق، ص 215.
- 37- المصدر السابق، ص 110.

نشاط المجلس الأمريكي لمفوضي الإرساليات الخارجية في الدولة العثمانية 1819-1909م.

The American Board of Commissioners for Foreign Missions Activities in the Ottoman State 1819-1909.

د. يوسف حسين يوسف عمر قسم التاريخ / جامعة الأقصى / غزة/فلسطين

الملخص:

كان المجلس الأمريكي لمفوضي الإرساليات الخارجية - الذي تأسس في بوسطن عام 1810م؛ ويُعد من أكبر المنظمات التبشيرية في الولايات المتحدة الأمريكية- ، قد قرر ممارسة النشاط التبشيري في الدولة العثمانية. وكان ليفي بارسونز وبليني فيسك أول مبشرين يصلان إلى سмирنا "أزمير" عام 1820م، ومنذ ذلك الوقت توسع عمل البعثات التبشيرية التابعة للمجلس الأمريكي، حيث قاموا ببناء المدارس والمستشفيات والكليات، وطباعة الكثير من الأناجيل والمنشورات الدينية، الأمر الذي دفع الدولة العثمانية إلى إعلان رفضها القيام بأي أنشطة تبشيرية تجاه المسلمين، لذلك ركز المبشرون الأمريكيون على ممارسة التبشير تجاه الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية وخصوصاً الأرمن، وذلك من أجل تحويلهم من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب البروتستانتي. ورغم اتخاذ الدولة العثمانية العديد من الإجراءات للحد من الأنشطة التبشيرية بشكل عام؛ إلا أن هذا النشاط كان يزداد يوماً بعد يوم، وذلك بسبب الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للولايات المتحدة، والتي كانت تهدد في بعض الأحيان باستخدام القوة العسكرية من أجل حماية نشاطات المجلس الأمريكي.

Abstract:

The American Board of Commissioners for Foreign Missions (ABCFM) was established in Boston in 1810. It was one of the largest missionary organizations which practised missionary activities in the Ottoman State.

Levi Parsons and Pliny Fisk were the first two missionaries arrived Smyrna (Izmir) in 1820.

At the time, missionary activities of the American Board were expanded where schools, hospitals, colleges were constructed, and Gospels as well as religious publications were printed. This prompted the Ottoman State to proclaim its refusal of carrying out any missionary activities towards moslems, Therefore, the American missionaries focused on practicing mission towards Christian citizens in the Ottoman State particularly Armenians for converting them from being orthodox to protestant.

The Ottoman State had taken several measures to limit missionary activities in general. However, missions were increasing day by day because of the privileges given by the ottoman State to the United States which for sometime threatened whith the use of military force for protecting the activities of the American Board.

المقدمة:

كانت العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة الأمريكية والدولة العثمانية تخضع لاعتبارات المحافظة على "مبدأ مونرو" Monroe Doctrine،

والتي تمنع الولايات المتحدة من التدخل في الشؤون الأوروبية والعكس، وهو الأمر الذي جرى تطبيقه أيضاً فيما يتعلق بعلاقات الولايات المتحدة مع جميع دول العالم⁽¹⁾، لكن الولايات المتحدة بعد استقلالها مباشرة وقّعت معاهدة الصداقة والتجارة مع فرنسا والتي أصبحت معياراً للمعاهدات الأمريكية اللاحقة مع الدول الأخرى⁽²⁾.

وتعود بداية العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية والدولة العثمانية إلى أواخر القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر، والتي بدأت من خلال علاقات تجارية بين البلدين، تطورت فيما بعد إلى إقامة علاقات سياسية، اتخذت أبعاداً دينية وثقافية⁽³⁾.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ظهرت كدولة مستقلة عام 1783م، حيث أعطت الأولوية للأنشطة التجارية في البحر الأبيض المتوسط، فعملت من أجل تصدير العديد من المنتجات، مثل الذرة والسمك المملح وغيرهما من البضائع، لذلك اضطرت إلى القيام بتوقيع اتفاقية مع الجزائر عام 1795م، كما أبرمت فيما بعد اتفاقيات مماثلة مع طرابلس وتونس⁽⁴⁾، وكثيراً ما كان المسافرون والتجار الأمريكيون يزورون الموانئ العثمانية، مثل سميرنا (أزمير) والإسكندرية وبيروت⁽⁵⁾، ورغم ذلك يمكن وصف العلاقات بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية في ذلك الوقت بأنها كانت علاقات "هي في الحد الأدنى"⁽⁶⁾.

تأسيس المجلس الأمريكي.

ازداد التنافس بين القوى الغربية خلال القرن التاسع عشر للسيطرة على الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية ضمن ما عُرف باسم المسألة الشرقية ومن خلال تصنيف الدولة العثمانية على أنها رجل أوروبا المريض، واتخذ هذا التدخل أشكالاً

سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية، كما عملت هذه القوى من أجل الحصول على حقوق وامتيازات مكتسبة للمنظمات والمؤسسات المسيحية الخاصة بها، بهدف إختراق إدارة الدولة العثمانية من جهة، وتغيير المؤسسات القانونية التي تُنظّم التعايش بين الناس، وإقامة مؤسسات دينية خاصة بالمسيحيين الخاضعين للدولة العثمانية. لذلك استفادت هذه المؤسسات كثيراً من النفوذ السياسي والامتيازات الجمة التي حصلت عليها القوى الأوروبية، من أجل الاهتمام بالمسائل الدينية وتوسيع نطاق الأنشطة التبشيرية داخل الأراضي العثمانية⁽⁷⁾.

ويرجع النشاط التبشيري الأمريكي البروتستانتي في الدولة العثمانية إلى تأسيس "المجلس الأمريكي لمفوضي الإرساليات الخارجية" American Board Of Commissioners For Foreign Missions (ABC FM) الذي تأسس في بوسطن Boston بولاية ماساتشوستس Massachusetts في يونيه عام 1810م، كمنظمة تبشيرية تسعى لنشر المبادئ المسيحية البروتستانتية وتعاليم الانجيل⁽⁸⁾، كما كانت تهدف إلى أن يترك الكتاب المقدس الرفوف المعجزة، وأن يُوضع الدين موضع التنفيذ في الحياة اليومية لأتباعه مرة أخرى⁽⁹⁾، ورغم ذلك فإن هناك اختلاف واضح بين المؤرخين حول أهداف المجلس الأمريكي، حيث يذكر البعض أن الهدف الأساسي كان "الإطاحة بالإسلام والمسلمين داخل الدولة العثمانية"⁽¹⁰⁾، إلا أن البعض الآخر يرى بأن الهدف كان التبشير لدى الهنود الحمر والأمريكيين الكاثوليك وتحويلهم للمذهب البروتستانتي⁽¹¹⁾، كما يرى آخرون بأن الهدف لم يكن تنصير الناس؛ بل تشجيعهم على تنمية قدراتهم الروحية الخاصة⁽¹²⁾. ومهما يكن من أمر الاختلاف في أهداف المجلس الأمريكي الذي بدأ عمله في

الولايات المتحدة؛ فإن دوره ونشاطه التبشيري تجاوز حدود الولايات المتحدة، إلى "التبشير في شتى أنحاء العالم"⁽¹³⁾.

وكان أول نشاط تبشيري للمجلس الأمريكي خارج الولايات المتحدة في بورما، ومع مرور الوقت وصل هذا النشاط إلى كلكتا بالهند⁽¹⁴⁾. وفي عام 1816م أرسل المجلس الأمريكي البعثات التبشيرية إلى سيلان، وبعد سنوات قليلة من ذلك تم إرسال بعثات أخرى إلى هاواي، وقبائل الهنود الحمر، والعديد من الأماكن في شتى أنحاء العالم⁽¹⁵⁾.

بداية نشاط المجلس الأمريكي في الدولة العثمانية.

قرر المجلس الأمريكي في 3 نوفمبر 1819م أن يبدأ برنامج عمله في الدولة العثمانية⁽¹⁶⁾، وفي عام 1920م بدأ المبشرون الأمريكيون بالتدفق إلى الدولة العثمانية⁽¹⁷⁾، حيث وصل إلى سميرنا (أزمير) كلاً من ليفي بارسونز Levi Parsons (1792-1822م) وبليني فيسك Pliny Fisk (1792-1825م)، وكانا أول مبشرين أمريكيين بروتستانتيين تابعين للمجلس الأمريكي يصلان إلى الدولة العثمانية، وكانت أزمير قد شكلت مكاناً مناسباً كي تكون محطة دائمة ومناسبة للعمل التبشيري، كونها منطقة تجارية مفتوحة، وذلك بناء على تعليمات مشددة من المقر الرئيسي للمجلس الأمريكي في بوسطن⁽¹⁸⁾. وفي 15 يناير 1820م كان بارسونز وفيسك قد أصبحا جاهزين للعمل من أجل القيام بالإجراءات التحضيرية اللازمة لافتتاح المحطة التبشيرية الأولى في أزمير⁽¹⁹⁾.

كان هدف الحملات التبشيرية التابعة للمجلس الأمريكي في الدولة العثمانية من وجهة نظر البعض هو بمثابة "العودة إلى أرض الميعاد المقدسة، في حملة صليبية غير مسلحة"⁽²⁰⁾، فالدولة العثمانية كانت بالنسبة لبارسونز وفيسك

والمبشرين الأمريكيين البروتستانت مكاناً "يشتمل تقريباً على كل أرضٍ ورد ذكرها في الكتاب المقدس"⁽²¹⁾، والتي تم فيها إنشاء الكنائس الأولى في المسيحية، والتي ولد وعاش بها العديد من الرُّسل والقديسين، لذلك قام بارسونز وفيسك بجولة تاريخية إلى المواقع الأثرية المسيحية في الأناضول، ثم عاد فيسك إلى أزمير، في حين واصل بارسونز رحلته حتى وصل إلى القدس عام 1821م، فكانت رحلته هذه هي التي جعلت منه أول مبشر أميركي بروتستانتي في القدس⁽²²⁾.

وكانت التعليمات التي صدرت من المجلس الأمريكي قد أقرت إقامة محطة دائمة في القدس، لذلك بذل بارسونز كل جهدٍ ممكن من أجل تحقيق هذه الغاية، إلا أن بارسونز سرعان ما قرر مغادرة القدس عائداً إلى أزمير حيث التزم شمله مع فيسك مرة أخرى عام 1822م، وذلك نظراً لعدم قدرته من الناحية الصحية، وبسبب اندلاع الثورة اليونانية، والتي كان لها تأثيراً كبيراً على الرعايا اليونانيين في القدس، وعدم وجود ترحيب ودي من السكان المحليين، ومن قبل الأرثوذكس والكنيسة الأرثوذكسية، لكن بارسونز وفيسك سرعان ما غادرا إلى الإسكندرية، حيث توفي بارسونز هناك، فكان أول مبشر أميركي بروتستانتي يتوفى في الدولة العثمانية، حيث شغل مكانه أحد المبشرين الجدد ويدعى جوناس كينج Jonas King (1792-1869م)⁽²³⁾.

كان نشاط المجلس الأمريكي يهدف إلى فتح باب التنصير ونشر البروتستانتية في الشرق من خلال النهوض بالكنائس الشرقية وتنشيطها، وهو الأمر الذي كان يُعد في حينه نوعاً من أنواع "أحلام اليقظة"⁽²⁴⁾، حيث قام المبشرون الأمريكيون البروتستانت التابعون للمجلس الأمريكي مع ممثلي الطوائف البروتستانتية بالعمل في البداية من أجل تنصير المسلمين باعتبارهم الكتلة البشرية

المهيمنة على الدولة العثمانية، لكن هذه المساعي سرعان ما فشلت بسبب التزام المسلمين الصارم بالمشاعر الدينية، وعندما بدأ المبشرون العمل من أجل تنصير اليهود وتحويلهم للمذهب البروتستانتي، ولكنهم فشلوا أيضاً في ذلك، نظراً لامتناعهم الصارم بقواعد دينهم⁽²⁵⁾، لذلك عملوا من أجل تحويل اليونانيين إلى المذهب البروتستانتي، لكن وعي اليونانيين الوطني حال دون نجاح المبشرين مرة أخرى⁽²⁶⁾.

اضطر المبشرون الأميركيون التابعون للمجلس الأمريكي إلى التعامل مع الحكومة العثمانية "الإسلامية"، التي رفضت منذ البداية السماح لهم بالعمل من أجل تنصير المسلمين، ولكنها سمحت لهم أو غضت الطرف عن قيامهم بالتبشير بين اليهود والمسيحيين الأرثوذكس والجماعات المسيحية الأخرى، لذلك قرر المبشرون التابعون للمجلس الأمريكي إغلاق باب التبشير أمام المسلمين نهائياً، وتركيز الجهود على تحويل المسيحيين للبروتستانتية، ورغم ذلك وجد المبشرون أن هؤلاء المسيحيين كانوا في بعض الأحيان يقاومون جهود البعثات الأمريكية لتحويلهم، حيث عرقل قادة الكنائس اليونانية والأرمنية العمل التبشيري، لأنهم كانوا يعتقدون أن ازدياد نفوذ المبشرين البروتستانت من شأنه أن يهدد سلطتهم وتماسك مجتمعاتهم⁽²⁷⁾.

لذلك كله كان من أهداف المجلس الأمريكي نشر المذهب البروتستانتي بين ما اعتبرتهم "الملحدين المسيحيين" أو أي من الديانات الأخرى، وهو ما يفسر إلى حد كبير نشاط المجلس الأمريكي داخل الدولة العثمانية تجاه المسيحيين فيها، حيث أمضت البعثات التبشيرية الأولى للمجلس الأمريكي عقداً من الزمان، وهي تتعرف على فئات المجتمع واللغات المحلية والعادات والتقاليد والقيم داخل الدولة العثمانية⁽²⁸⁾.

وكان تحقيق "حلم نشر المذهب البروتستانتي" في الدولة العثمانية هاماً للغاية بالنسبة للمجلس الأمريكي، لذلك ركّز منذ البداية على التعليم وإنشاء المدارس، حيث أقاموا أول مدرسة أمريكية تبشيرية بروتستانتية في الدولة العثمانية في 28 يولييه 1824م وهي مدرسة بيروت العربية المسيحية والتي أصبحت فيما بعد "الكلية البروتستانتية السورية"⁽²⁹⁾، كما بدأوا في إنشاء مؤسساتهم التبشيرية، مثل المدارس المختلفة والكنائس والمستشفيات ودور الأيتام⁽³⁰⁾، والتي توسع عملها بشكل كبير مع مرور الوقت، إلى أن ظهرت مشكلتين:

الأولى: كانت حول قدرة البعثات التبشيرية على شراء الأراضي، من أجل إقامة مؤسساتهم التبشيرية المقترحة، حيث لم يكن يُسمح للأجانب بشراء الأراضي والعقارات في الدولة العثمانية.

الثانية: صدور فرمان السلطاني "الإرادة السنية" *İrade-i Senniye* الذي فرض عقوبات على البعثات التبشيرية، ومنعها من بناء مؤسساتها، الأمر الذي كان يتطلب الحصول على "رخصة رسمية" *Ruhsat İtarsi* والتي من شأنها أن تسمح للمبشرين بإقامة الصروح والمنشآت، والقيام بالأعمال التبشيرية.

وكانت كلا المشكلتين ذات صلة واضحة فيما يتعلق بوضع الأجانب داخل الدولة العثمانية، لذلك قدم المبشرون احتجاجاتهم على هذه القوانين التي تحد من حريتهم في العمل، ورغم ذلك، فكثيراً ما كان المبشرون يقومون بتجاوز هذه القوانين وبشكل سافر⁽³¹⁾، حيث قاموا بشراء الأراضي من خلال وسطاء غير مسلمين، مثل اليونانيين والأرمن المقيمين في الدولة العثمانية، كما سجلوا هذه الأراضي والمؤسسات كالمدارس وغيرها تحت أسماء مواطنين ورعايا عثمانيين، بينما كان المالك الفعلي والمستخدم الحقيقي لهذه الأراضي والممتلكات هو المجلس الأمريكي، لكن

ومع إصدار الدولة العثمانية لقانون الأراضي عام 1864م، أصبح من حق أي مواطن من أي بلد أجنبي أن يمتلك الأراضي والعقارات داخل الدولة العثمانية، طالما أن الأجانب سيتصرفون وفقاً للقوانين والأنظمة العثمانية⁽³²⁾.

الاتفاق التجاري بين الدولة العثمانية والولايات المتحدة 1830م.

كان نشاط البعثات التبشيرية وخصوصاً تلك التابعة للمجلس الأمريكي في الدولة العثمانية تحظى في البداية بالاحترام والتسامح، باعتبارهم كانوا ضيوفاً على الدولة العثمانية، وربما يعود هذا الأمر في جزء منه إلى أن هذه البعثات كانت تحت رعاية وحماية السفير البريطاني وقناصله، بسبب عدم وجود علاقات سياسية ودبلوماسية رسمية بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية⁽³³⁾، حيث كان هناك حتى ذلك الوقت 9 مبشرين أمريكيين يعملون تحت رعاية وحماية السفارة البريطانية في إستانبول، حيث استفادوا جيداً من الامتيازات التي كان المواطنون البريطانيون يتمتعون بها خصوصاً بين عامي 1820-1830م، كما تعامل الباب العالي أيضاً دون أي تمييز بين المبشرين الأمريكيين والبريطانيين، باعتبارهم جميعاً أعضاء يعملون ضمن دائرة الكنائس البروتستانتية الناطقة باللغة الإنجليزية⁽³⁴⁾.

وكان ديفيد أوفلي David Offley (1779-1838م) قد تم تعيينه "كوكيل تجاري" في أزمير في وقت مبكر من عام 1811م⁽³⁵⁾، حيث أجرى مفاوضات مع الدولة العثمانية، تمكن خلالها من التوصل إلى معاهدة ثنائية معها في 10 مايو 1830م، وهي المعاهدة التي مثلت أساس العلاقات الأمريكية العثمانية حتى بداية الحرب العالمية الأولى، حيث حصل الأمريكيون على نفس الحقوق والامتيازات الممنوحة للدول الأوروبية في الدولة العثمانية، كما سمحت أيضاً للمبشرين الأمريكيين العاملين بإنشاء المزيد من البعثات والمدارس والمستشفيات

التبشيرية⁽³⁶⁾، كما منحت المعاهدة رسمياً امتيازات تجارية هامة للولايات المتحدة، مع وضعها كدولة الأولى بالرعاية، كما أعطت السفن الأمريكية الإذن لعبور البحر الأسود⁽³⁷⁾، وفي المقابل، ووفقاً لمادة منفصلة وسرية من المعاهدة، وعدت الولايات المتحدة بمساعدة العثمانيين من أجل بناء سفنهم الحربية، وتحقيقاً لهذه الغاية ستقوم الولايات المتحدة بتزويدهم بالأخشاب الأمريكية، وبعد سنة تقريباً تم التصديق على هذه المعاهدة من قبل الكونغرس الأميركي⁽³⁸⁾، وكان هذا الاتفاق قد أدى إلى تطور التجارة الأمريكية تدريجياً لتصبح عام 1876م التجارة الرابعة من حيث الحجم مع الدولة العثمانية⁽³⁹⁾، وفي 13 سبتمبر 1831م، وصل ديفيد بورتر David Porter (1831-1843م) كقائم بالأعمال الأميركي في إستانبول⁽⁴⁰⁾، وبذل بورتر كل جهده ممكن حتى وفاته عام 1843م من أجل تحسين العلاقات الدبلوماسية الموازية للمبشرين الأميركيين⁽⁴¹⁾.

نشاط المجلس الأمريكي تجاه الأرمن.

كان الأرمن في الدولة العثمانية يعيشون في ظروف مريحة للغاية من الناحية القانونية، حيث حصلوا على العديد من الحقوق والامتيازات الداخلية، مثل الإعفاء جزئياً من الخدمة العسكرية والضرائب، والحق في ممارسة التجارة، مما أدى إلى بروز دور هام لهم في الجيش، كما برزوا في العديد من الأعمال الإدارية والحرفية والزراعية، كما كان الأرمن قادرين على الخدمة في مناصب مختلفة في الدولة العثمانية، حتى أصبح يطلق عليهم لقب "الملة الصادقة" Millet-i Sadıka وذلك بسبب الخدمات الكثيرة التي كانوا يقدموها إلى الدولة العثمانية⁽⁴²⁾.

لذلك كان المبشرون الأمريكيون يعلمون أنهم لا يملكون لمسات سحرية من أجل تحقيق تأثيرات سريعة ومتوقعة على كل فئات المجتمع داخل الدولة العثمانية،

لكنهم على الأقل حاولوا بذل قصارى جهدهم للتعرف على المنطقة من أجل تسهيل هذه المهمة، لذلك يمكن القول بأن نشاط المبشرين الأمريكيين منذ اليوم الأول الذي نزلوا فيه أزمير وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان في الغالب يقتصر على الجوانب التحضيرية للعمل التبشيري دون تحقيق أي إنجاز هائل في هذا المجال، حيث كان المبشرون الأمريكيون قلقون إلى حد كبير بشأن الحصول على التدريب الكافي في هذا المجال ليكونوا على دراية بكل ما يتعلق بالدولة العثمانية من حيث الأرض وسكانها وثقافتهم والعادات والتقاليد كما تم ذكره سابقاً، ونتيجة لذلك ركّز هؤلاء على تعلم اللغات المحلية بقدر ما في استطاعتهم⁽⁴³⁾، مع الوعظ في القطاع الخاص، وتوزيع الأناجيل، وفي هذه المرحلة اقتصر عمل المبشرين الأمريكيين في الدولة العثمانية على المدن الكبرى مثل إستانبول وأزمير، وفي أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأ المبشرون ينشطون في المناطق الداخلية من الأناضول⁽⁴⁴⁾.

أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية عام 1829م بسبب تصاعد الثورة في اليونان، مما استدعى بالسفارات والقنصليات الأوروبية في إستانبول وغيرها من المدن كي تكون وصية على الأنشطة الأميركية التبشيرية، وبسبب عدم وجود قوة بحرية أميركية دائمة في البحر المتوسط؛ فقد قام المبشرون الأمريكيون الذين يخدمون في محطة بيروت التبشيرية بمغادرة المدينة مؤقتاً إلى محطة مالطا، ونتيجة لذلك نظم المبشرون مؤتمراً لمناقشة توسيع البعثة التبشيرية، وإعادة توزيع المحطات وفقاً للمستجدات الحاصلة، وكان القرب من الأراضي المقدسة شرطاً أساسياً لانتشار الأعمال التبشيرية المهمة⁽⁴⁵⁾، ونتيجة لذلك تم إرسال وليام بيرد William Bird إلى بيروت، ووليام جودل William Goodell (1792-1867م) إلى إستانبول لفتح محطة جديدة، كما تم إرسال إيلي سميث Eli Smith

(1801-1857م) وهاريسون جراي أوتيس دوايت Harrison Gray Otis Dwight (1803-1862م) عام 1829م للمحافظات الشرقية من الدولة العثمانية، حيث كان يقيم السكان الأرمن إلى حد كبير⁽⁴⁶⁾.

وبذلك يكون المجلس الأمريكي قرر رسمياً العمل في المناطق الشرقية التي يقطنها الأرمن، رغم أن نشاط واتصال المجلس الأمريكي كان منذ البداية وبشكل مباشر بالأرمن، حيث قام سميث ودوايت بجولتهما في ربيع عام 1830م في المناطق الأرمنية، وبعد مرور أكثر من عام عادا مع كم هائل من المعلومات الجديدة سواء فيما يتعلق بالأرمن أو النساطرة Nestorians⁽⁴⁷⁾.

وصف المبشرون البروتستانت العاملين في المجلس الأمريكي المسيحيين الأرمن بأنهم عرق متفوق على الأتراك المسلمين، ومن هذه الواجهة كان الأرمن طائفة مسيحية قديمة، سكنوا بلادهم في وقت مبكر، كما أن العامل الديني عند الأرمن كان أفضل، لأنهم كانوا مسيحيين يسكنون الأراضي التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، ومع ذلك، اعتبرت البعثات التبشيرية أن المسيحية الشرقية في أرمينيا قد ركبت، كما عانى أتباعها من "قرون من الاضطهاد والتعصب والجهل والقسوة على أيدي الأغلبية المسلمة"، وكان المبشرون يؤمنون في "تَعْنُ الدين" عند الأرمن، وأن ذلك كان بمثابة نقطة مهمة من أجل ممارسة العمل التبشيري في مناطقهم، وذلك من خلال تصوير المسيحية الشرقية بمظهر سلمي بحاجة للإنقاذ والاصلاح، وكان المبشرون يسعون لخلق مكانة لأنفسهم من خلال العمل مع السكان الأرمن، باعتبارهم سكاناً مسيحيين بالاسم فقط⁽⁴⁸⁾. كما كان المبشرون المسيحيون يعتقدون بأن الصراع الديني بين الاسلام والمسيحية أدى إلى قرون من الاضطهاد الاسلامي للمسيحيين الأرمن، الأمر الذي ساهم في ركود المسيحية في

الشرق، وأن الحالة المسيحية للأرمن مُعيبة، رغم أنهم ذهبوا إلى حد القول بأن "واحدًا من أعظم العقبات التي تحول دون انتصار المسلمين ... هو وجود المسيحيين الأصليين"، كما اعتبروا أن تحويل الأرمن للبروتستانتية سيكون مفتاح الفوز في حملة صليبية يقومون بها ضد الإسلام في جميع أنحاء الدولة العثمانية⁽⁴⁹⁾.

أدرك المبشرون في المجلس الأمريكي أن أساليبهم المتبعة مثل إدانة الأديان الأخرى، والوعظ بالكتاب المقدس، سيكون من شأنه أن ينقّر المجموعات التي ترغب في اعتناق المسيحية أو التحول للبروتستانتية، لذلك عمل المبشرون من أجل القيام باتصال وثيق مع السكان في الدولة العثمانية، حيث ترجموا الآداب المتعلقة بالكتاب المقدس إلى اللغة التركية والعربية واللغة الأرمنية - التركية، كما طبعوا ونشروا الآلاف من الأناجيل، وأكثر من 21 مليون صفحة من المواد الدينية، كما اهتموا برعاية البعثات الطبية، وأسسوا دور الأيتام، وقاموا بأعمال اجتماعية مفيدة للسكان، لكن ربما كان سعيهم الأكثر انتشاراً وتأثيراً هو في مجال التعليم. ففي عشرينيات القرن التاسع عشر افتتح المبشرون المدارس التبشيرية للأرمن واليهود، واليونانيين، والطلاب العرب، ولقد وسع المبشرون بعد ذلك الخدمات التعليمية وخصوصاً تعليم ما بعد المرحلة الابتدائية، كما افتتحوا مدارس للمكفوفين والمدارس المهنية، ومدارس للنساء⁽⁵⁰⁾.

بعد سنوات قليلة وتحديداً في عام 1833م، أصبحت أزمير في المركز الأول فيما يتعلق بالعمل التبشيري في غرب آسيا، على الرغم من أن المجلس الأميركي لم يعد منذ عام 1829م المنظمة التبشيرية الأمريكية الوحيدة العاملة في الأراضي العثمانية⁽⁵¹⁾، حيث كانت في الدولة العثمانية العديد من المنظمات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية العاملة، مثل جمعية الكتاب المقدس الأمريكية The

The American Bible Society، والاتحاد التبشيري المعمداني الأمريكي American Baptist Missionary Union، والأسقفية الأمريكية The American Episcopalians، واللجنة اليونانية لسيدات نيويورك The Ladies Greek Committee of New York، وجمعية أنثى من بوسطن The Female Society of Boston وغيرها من الجمعيات⁽⁵²⁾، ورغم ذلك لم تكن هذه الجمعيات والمؤسسات بحجم وقدرة المجلس الأمريكي، الذي كان الأكثر توسعاً وشمولاً وكفاءة ليس في الدولة العثمانية فحسب؛ وإنما على نطاق مساحات شاسعة في العالم⁽⁵³⁾.

المطبعة التبشيرية ونقلها للدولة العثمانية.

كان فيسك وبناء على قرارات المجلس الأمريكي قد قام بتأسيس المطبعة التبشيرية في مالطا عام 1822⁽⁵⁴⁾، ويمكن تفهم أهمية عمل هذه المطبعة بأنها قامت بمتابعة نشاط المجلس الأمريكي وأهدافه التبشيرية، مثل المواد والكتب التعليمية، وإنتاج المواد الدينية، وغيرها من المطبوعات الدراسية التي سيتم تدريسها في المدارس⁽⁵⁵⁾، لذلك وللنجاح في هذه المهمة فقد عملت من أجل نشر الكتب الدينية التبشيرية باللغات الإقليمية مثل اليونانية والأرمنية والعربية⁽⁵⁶⁾، ومنذ اللحظة التي قرر فيها المجلس الأمريكي القيام بالعمليات التبشيرية داخل الدولة العثمانية، تم نقل المطبعة من مالطا إلى أزمير، ثم نقلت عام 1834م إلى إستانبول وبشكل دائم⁽⁵⁷⁾، حيث ساهمت هذه المطبعة بالمزيد من عمليات الطباعة الجديدة في أزمير وإستانبول وبيروت وعنتيب⁽⁵⁸⁾، ويظهر حجم وأهمية هذا النشاط أنه وبحلول عام 1832م كانت مطابع المجلس الأمريكي قد طبعت 61 مليون صفحة بأحد عشر

لغة مختلفة⁽⁵⁹⁾، كما تم طبع ما يقرب من 8 مليون صفحة في أزمير وحدها عام 1840م، تلاها طباعة 14 مليون صفحة عام 1841م في المنطقة نفسها⁽⁶⁰⁾.

كما بدأت المطابع التابعة للمجلس الأمريكي تطبع الكتب المدرسية الخاصة بالمناهج الإيطالية والفرنسية والإنجليزية، جنباً إلى جنب مع طباعة الكتب باللغات المحلية بما في ذلك اللغة التركية واليونانية والعربية والأرمنية والعبرية والكردية⁽⁶¹⁾.

موقف الكنيسة الأرمنية من التبشير.

رغم توقيع الاتفاقية التجارية بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية منذ عام 1830م؛ إلا أن القنصليات الأمريكية لم تنتشر بعد في جميع أنحاء الدولة العثمانية، لذلك واصل المبشرون الأمريكيون سعيهم إلى إقامة علاقات وثيقة مع القنصليات البريطانية من أجل تأمين وجودهم في الأراضي العثمانية، خصوصاً وأن زيادة الأنشطة التبشيرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، أدى إلى ظهور العديد من المشاكل، وأصبح الموقف الرسمي من قبل الباب العالي تجاه المبشرين "أقل مرونة" مما كان عليه في السنوات السابقة⁽⁶²⁾، حيث بدأ رجال الدين الأرمن يشتكون من المبشرين الأمريكيين إلى الباب العالي وبطريك الأرمن في إستانبول ماثيوس Matteos (1844-1848م) متهمين المبشرين الأمريكيين بإجبار الأرمن على تغيير مذهبهم، رغم أن الأنشطة التبشيرية الأمريكية بين الأرمن في السنوات الأولى كانت تتم في "جو ودي"، وذلك بسبب الاستفادة العامة من الأنشطة التعليمية الأمريكية، لكن ومع زيادة عدد المتحولين الأرمن من الأرثوذكسية إلى البروتستانتية، غيّر رجال الدين الأرمن موقفهم. ففي عام 1839م كان هناك 800 أرمني تحولوا إلى البروتستانتية⁽⁶³⁾، لذلك ومن أجل منع المزيد من الأرمن من

تغيير مذهبهم الديني، دعا ماثيوس جميع الأرمن إلى قطع أي نوع من العلاقات مع المبشرين الأمريكيين، وهدد أولئك الذين كانوا على اتصال دافئ مع المبشرين الأمريكيين بالعزلة عن المجتمع الأرمني⁽⁶⁴⁾.

وفي شهر يونيه 1844م قام الأرمن في أرضروم وطرابزون وبورصة بتقديم طلبات إلى الباب العالي مطالبين بطرد المبشرين الأمريكيين من مدنها ومقاطعاتهم، وكان السبب الأساسي للشكوى لا يزال هو التبشير وتحويل الأرمن إلى البروتستانتية،⁽⁶⁵⁾ لذلك أرسل وزير الشؤون الخارجية رفعت باشا مذكرة إلى الولايات المتحدة يطالب فيها بسحب المبشرين الأمريكيين، ولكن المسؤول الأميركي جون ب. براون John P. Brown أكد أنه لا يستطيع حث المبشرين على مغادرة تلك المدن، إلا أن الباب العالي كان هذه المرة أكثر حسماً، حيث أصدرت السلطات العثمانية المحلية أوامرها بمنع تحول الأرمن إلى البروتستانتية في تلك المدن الثلاث، معتبراً أن الأمر غير قانوني⁽⁶⁶⁾.

وما بين عام 1844م وعام 1845م، ارتفع عدد المذكرات المتبادلة بين الباب العالي والولايات المتحدة، خصوصاً بعد تعيين دابني سميث كار Dabney Smith Carr (1843-1849م) وزيراً مقيماً للولايات المتحدة في إستانبول عام 1843م، حيث أرسل الأخير إلى وزارة الخارجية الأمريكية في عامي 1844م و1845م بأن الباب العالي لم يكن منزعجاً من البعد الإنساني للأنشطة التبشيرية؛ إلا أنها تعترض على أنشطة أخرى، ولخص كار الاعتراضات الأساسية الثلاثة للدولة العثمانية وهي:

أولاً: أن الحكومة العثمانية ضد التحول من مذهب إلى مذهب آخر بين رعاياها المسيحيين، وأنها ترى أن هذه الممارسة غير قانونية.

ثانياً: أن الباب العالي يخشى من زيادة عدد المتحولين للبروتستانتية، الأمر الذي من شأنه أن يسبب الفوضى الإدارية.

ثالثاً: قيام قنصل الولايات المتحدة بحماية الأرمن المتحولين للبروتستانتية، مما يشكل مصدر قلق عميق للباب العالي⁽⁶⁷⁾.

ومهما يكن من أمر؛ فقد طرد البطريرك الأرمني ماثيوس الأرمن البروتستانت من الكنيسة الأرمنية عام 1846م، كما كتب رسائل جديدة يشتكي فيها أنشطة المبشرين إلى الباب العالي، لذلك تقدم الباب العالي مجدداً إلى الوزير الأمريكي المقيم في إستانبول من أجل وقف أنشطة المبشرين بين الأرمن، لكن الباب العالي لم يتلق أي إجابة إيجابية لا من قبل الوزير الأمريكي، ولا من قبل المبشرين الأمريكيين⁽⁶⁸⁾.

كانت أنشطة المبشرين التابعين للمجلس الأمريكي واسعة النطاق، خصوصاً وأن حكومة الولايات المتحدة قامت بالاهتمام الشديد بهم، ففي عام 1841م أعلن وزير الخارجية الأمريكي دانيال وبستر Daniel Webster (1841-1843م) عن تعاطفه تجاه حماية البعثات البروتستانتية والمؤسسات التابعة لها في الدولة العثمانية، وكان ذلك الأمر سبب الكثير من الاستياء بين الأتراك، خصوصاً عندما ضغطت الولايات المتحدة من أجل الحصول على إعفاءات جديدة خاصة بها وبالمبشرين من الحكومة العثمانية⁽⁶⁹⁾، لذلك يمكن القول بأن الجهود التبشيرية الأمريكية في الأراضي العثمانية كانت دائماً تحتل مكاناً بارزاً في العلاقات الثنائية بين البلدين، بل أن واقع الأمر يدل على أن معظم الصراعات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ نشأت بسبب المبشرين والأنشطة التبشيرية وتوسعها تدريجياً في

الأراضي العثمانية⁽⁷⁰⁾، مما ألقى بضلاله على مسار العلاقات بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية بشكل واضح⁽⁷¹⁾.

الاعتراف العثماني بالملة البروتستانتية 1850م.

كان نظام الملية "الأمة" يمثل إشكالية بالنسبة للمبشرين، لأنه عندما وصل المبشرون الأوائل مثل ليفي وفيسك للعمل في المجال التبشيري لم يكن هناك اعتراف بالطائفة المسيحية البروتستانتية، وربما ذلك يعود بشكل أساسي إلى قلة أعدادهم في الدولة العثمانية، لذلك لم تعترف بهم الدولة العثمانية كأمة بروتستانتية، لكن الأمر تغير جذرياً بعد النجاح الكبير الذي حققه المبشرون البروتستانت التابعين للمجلس الأمريكي تجاه تحويل الكثير من الأرمن إلى المذهب البروتستانت⁽⁷²⁾.

ومهما يكن من أمر؛ كان بعض المبشرون البروتستانت يعتمدون على المواقف التي اكتسبتها دولهم والامتيازات التي حصلوا عليها في الدولة العثمانية، والتي استغلتها البعثات التبشيرية، وخصوصاً الأمريكية منها لحماية حقوقهم وامتيازاتهم التي حصلوا عليها، وأدى ذلك إلى القيام بأنشطة مشروعة ومُرخص بها على الأراضي العثمانية، والتي كان المبشرون الأمريكيون البروتستانت قد اكتسبوها منذ بداية العمل تحت رعاية وهيمنة الدبلوماسية البريطانية والتي قادها سفير بريطانيا في إستانبول اللورد ستراتفورد كاننج Stratford Canning (1841-1858م) الذي ضغط بقوة على الدولة العثمانية، وهو الأمر الذي تمخض عنه فرض الحماية البريطانية على المبشرين البروتستانت بمن فيهم المبشرين الأمريكيين، حيث بذل كاننج جهداً كبيراً من أجل تحسين الوضع القانوني ليس فقط من أجل المبشرين الأمريكيين البروتستانت؛ ولكن أيضاً للسكان الذين اعتنقوا البروتستانتية في الدولة العثمانية وفقاً للإرادة السلطانية الصادرة في 15 نوفمبر 1847م، وهو الأمر

الذي أدى أخيراً إلى إعلان الدولة العثمانية رسمياً اعترافها بالملة البروتستانتية عام 1850م⁽⁷³⁾، مما دفع المبشرون الاميركيون البروتستانت إلى إرسال رسالة إلى كاننج، أعربوا له فيها عن "خالص التهاني بنجاح جهوده نيابة عن الرعايا البروتستانت في الدولة العثمانية"⁽⁷⁴⁾.

ومهما يكن من أمر؛ كان يبدو أن الحقوق والامتيازات التي حصل عليها المبشرين التابعين للمجلس الأمريكي جعلتهم يشعرون بالقوة والمنعة داخل الدولة العثمانية، حيث شملت أنشطتهم التبشيرية تعزيز الهوية الأرمنية، والروح الوطنية والقومية، والتذكير بالمملكة الأرمنية القديمة وتاريخها⁽⁷⁵⁾، ورغم كل ما أثير عن تساهل السلطات العثمانية؛ إلا أن المدارس التبشيرية الأمريكية التابعة للمجلس الأمريكي كانت تخضع لمراقبة السلطات المحلية العثمانية في كل المقاطعات، وخصوصاً في المناطق الشرقية حيث يكثر الأرمن، وكانت السلطات المحلية قد أخبرت وزارة التربية والتعليم والجهات الحكومية بالأنشطة السلبية لهذه المدارس، لذلك كلفت الحكومة العثمانية العديد من المحققين للتحقق من أنشطة هذه البعثات والمدارس التي يعملون بها، وفي عام 1890م ركزت المراسلات والشكاوي التي تتوارد للحكومة العثمانية على الدور السلبي الشديد للمدارس التبشيرية، والتي كانت تحرض السكان الأرمن والمسيحيين عموماً على التمرد على الدولة العثمانية، الأمر الذي بدأ يمهد بشكل ما نحو قيام هؤلاء الشباب بصراع محتمل والثورة من أجل المطالبة بالاستقلال والانفصال نهائياً عن الدولة العثمانية⁽⁷⁶⁾.

تأسيس كلية روبرت.

كان المبشرون قد تمكنوا من افتتاح كلية أمريكية في بيروت عام 1866م تحت اسم كلية سوريا البروتستانتية - والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في

بيروت-، حيث كانت تقوم بالتدريس باللغة العربية⁽⁷⁷⁾، وعلى الرغم من وجود بعض الاعتراضات المحلية البسيطة على إنشاء هذه الكلية؛ إلا أن ذلك لم يحدث أي رد فعل في إستانبول، ومع ذلك، عندما حاول المبشر الكبير سايروس هاملين Cyrus Hamlin الذي حصل على مساهمة مالية سخية من رجل الأعمال والثري أمريكي كريستوفر ر. روبرت Christopher R. Robert من أجل تكثيف جهوده لبناء كلية أمريكية خارج المدرسة الانجيلية الصغيرة التي كانت تأسست في بيك Bebek قرب إستانبول منذ عام 1840م، إلا أن الباب العالي رفض إعطاء التصاريح اللازمة لفتح الكلية وتشيد المباني⁽⁷⁸⁾.

وكانت الدولة العثمانية تبدي حساسية مفرطة تجاه مسألة إنشاء كليات أجنبية على الأراضي العثمانية، وعلى الرغم من عدم ذكر أسباب رفض الدولة العثمانية رسمياً في أية مراسلات بين الدولة العثمانية والولايات المتحدة؛ إلا أنه يمكن استخلاص العديد من الأسباب وأهمها:

أولاً: استياء الباب العالي من محاولة افتتاح مثل هذه المؤسسة التعليمية الأجنبية، الأمر الذي من شأنه أن يُشجع القوى الأوروبية مثل فرنسا وروسيا على اتباع نفس السياسة، ومطالبتها بإنشاء كليات أجنبية أخرى، الأمر الذي من شأنه أن يوجد ساحة جديدة من الصراع بين الحكومة العثمانية والقوى العظمى.

ثانياً: كان الباب العالي يُبدي القلق الشديد إزاء الآثار "السلبية" لمناهج هذه المؤسسات على رعاياها من غير المسلمين، والتي تُدرّسهم بعضاً من القيم الغربية مثل الليبرالية والقومية، والتي من الممكن أن يكون لها تأثيرات "مدمرة" على الدولة العثمانية متعددة القوميات والجنسيات، لذلك رأت الحكومة العثمانية أن مثل هذه الأنشطة يجب أن تبقى بعيدة عن الرعايا العثمانيين⁽⁷⁹⁾.

ورغم ذلك، قام الوزير الأمريكي المقيم في إستانبول إدوارد جوي موريس Edward Joy Morris (1861-1870م)، بالعمل من أجل متابعة قضايا المبشرين الأمريكيين مع الباب العالي للوصول إلى نتائج إيجابية بشأن تأسيس الكلية الأمريكية في إستانبول، حيث سحب الباب العالي اعتراضه، ولكنه اعترض على مكان المدرسة، ليكون ذلك نقطة خلاف جديدة، حيث كان الباب العالي وخصوصاً وزير الشؤون الخارجية محمد أمين عالي باشا Mehmed Emin Aali Pasha (1867-1871م) ضد تشييد مبنى الكلية في منطقة الروملي حصاري Rumelihisarı، أي في الأرض التي تم شرائها من قبل المبشرين لهذا الغرض، حيث كانت هذه المنطقة مكتظة إلى حد كبير بالمسلمين، وتأسيس مثل هذه الكلية كان من المحتمل أن يسبب المزيد من المشاكل، في الوقت الذي كان في إستانبول العديد من المناطق مثل بيرا Pera وفنر Fener وسان استيفانو St. Stephanos، والتي يعيش فيها عدد كبير من غير المسلمين، رغم أن الباب العالي كان يرغب أيضاً بالحد من الكنائس والمحطات والمدارس التبشيرية حتى في تلك المناطق⁽⁸⁰⁾.

أصبح مكان بناء الكلية الأمريكية إستانبول خلال وقت قصير موضوعاً للمفاوضات الدبلوماسية الثنائية بين الدولتين، حيث قدّم زير الخارجية الأمريكي وليام ه. سيوارد William H. Seward (1861-1869م) مذكرة إلى الوزير العثماني المقيم في واشنطن بليك بيك Blaque Bey، في صيف عام 1868م طالباً منه إقناع الباب العالي بتخصيص العقارات السالفة الذكر في الروملي حصاري لبناء الكلية⁽⁸¹⁾، كما أصدرت الولايات المتحدة أوامرها إلى الأدميرال ديفيد فارغوت David Farragut (1810-1870م) قائد سرب

البحر الأبيض المتوسط بالانتقال إلى إستانبول على متن فرقاطة أمريكية من أجل الضغط لأقصى حد ممكن لصالح إصدار رخصة البناء للكلية في المكان المحدد سلفاً، وكان وصول الأدميرال فارحوت إلى إستانبول في شهر أغسطس 1868م، أدى إلى "نهاية سعيدة" بالنسبة للمبشرين الأمريكيين، حيث عجز الباب العالي عن المقاومة وجود الأدميرال فارحوت فسمح للمبشرين ببناء الكلية، والتي سميت باسم كلية روبرت Robert College، وذلك نسبة إلى المساهم الرئيسي فيها الثري الأمريكي كريستوفر ر. روبرت⁽⁸²⁾، والتي تُعد أول مؤسسة للتعليم العالي في الدولة العثمانية⁽⁸³⁾.

وكان إنشاء المجلس الأمريكي كلية روبرت بدعم الحكومة الأمريكية قد أعطى قوة دفع لمبادرات أخرى، فخلال الفترة ما بين 1871-1903م تم إنشاء سبع كليات أمريكية في جميع أنحاء الأراضي العثمانية مثل: كلية البنات الأمريكية American Girls' College في إستانبول⁽⁸⁴⁾، وكلية الفرات Euphrates College في هاربوت والمعروفة باسم "الكلية الأرمنية"، والكلية الأمريكية American College في مدينة فان، وكلية تركيا المركزية Central Turkey College في ماراش، وكلية سانت بول St. Paul College في طرسوس، وكلية الأناضول Anatolian College في مرزفون والكلية الدولية International College في أزمير⁽⁸⁵⁾.

ويمكن فهم النشاط التبشيري فيما يتعلق بالتعليم، بأنه كان يقع في أعلى أولويات العمل التبشيري، وأصبح الشاغل الأكثر طموحاً وصلابة على نطاق واسع من قبل المبشرين، فإلى جانب الكليات التي انتشرت في الدولة العثمانية، تم تأسيس أربع مدارس لاهوتية، ففي مدرسة مرزفون كان التدريس باللغة الأرمنية والتركية

واليونانية، وفي مدرسة هاربوت كانت التدريس باللغة الأرمنية والتركية، وفي مدرسة ماردين كان التدريس باللغة العربية، وفي مدرسة ماراش كان التدريس باللغة التركية، كما تم بناء 12 معهد ومدرسة الثانوية للبنات في شتى مقاطعات الدولة العثمانية، وكان عدد طلاب هذه المدارس جميعاً حوالي 800 طالب، وكان الدراسة التي تُدرّس هي باللغات الدارجة مثل الأرمنية والتركية والعربية جنباً إلى جنب مع اللغة الإنجليزية، وكان المجلس الأمريكي يهدف إلى جعل الطلاب يتدربون ليصبحوا دعاة تبشيريين من أجل نشر الإنجيل والبروتستانتية في مناطقهم داخل الدولة العثمانية، دون الهجرة في المستقبل إلى بلدان أخرى مثل الولايات المتحدة، الأمر الذي من شأنه أن يساعد أكثر على "إنشاء ملكوت الله على الأرض بقيادتها"⁽⁸⁶⁾.

ازدياد وتطور العمل التبشيري في الدولة العثمانية.

منذ أن بدأ المجلس الأمريكي العمل التبشيري داخل الدولة العثمانية قامت الأخيرة بمراقبة لصيقة لأنشطتهم، وهو الأمر الذي حدث كذلك مع المبشرين الفرنسيين والبريطانيين. فمنذ فبراير عام 1824م، أي بعد أربع سنوات تقريباً من وصول فيسك وبارسونز إلى أزمير، تم إلقاء القبض على بعض المبشرين في القدس حين قاموا بتوزيع الأناجيل والمنشورات الدينية الأخرى على السكان، وفي شهر يونيو من نفس العام أصدرت الدولة العثمانية مرسوماً يمنع توزيع الأناجيل والنشرات والكتب الدينية المسيحية⁽⁸⁷⁾، ولم يقتصر النهج العثماني نحو المبشرين في اتخاذ السلطات العثمانية القرارات فقط، وإنما تعادها إلى اتخاذ التدابير المانعة والعقابية. لكن إعلان السلطان عبد الحميد الأول (1839-1869م) تنظيمات خط شريف كلخانة Hatt-1 Şerif Gülhane عام 1839م، والتي أعلنت فيها الحرية

لجميع الرعايا العثمانيين بقطع النظر عن الدين أو العرق، كان أمراً من شأنه أن يزيد من الأنشطة التبشيرية البروتستانتية الأمريكية في الأراضي العثمانية⁽⁸⁸⁾.

وعندما قام السلطان عبد المجيد الأول بإعلان المرسوم الامبراطوري خط شريف همايون Hatt-1 Hümayun عام 1856م، تم الاعتراف رسمياً بأن رعايا الدولة العثمانية هم مواطنين عثمانيين "التبعية العثمانية"، حيث حافظ البروتستانت على حقوقهم كاملة كمواطنين في الدولة العثمانية⁽⁸⁹⁾، وسرعان ما استغل المبشرون البروتستانت هذين الفرمانين من أجل تنظيم وزيادة أنشطتهم الدينية والتعليمية بين السكان غير المسلمين في الدولة العثمانية⁽⁹⁰⁾.

وكانت الفترة من عام 1850م حتى تولي السلطان عبد الحميد الحكم (1876-1909م) تتميز بالنمو السريع للعمل التبشيري الأمريكي في المناطق الداخلية من الدولة العثمانية، ولم تعد تقتصر هذه الأنشطة على المدن الكبيرة مثل أزمير وإستانبول، حيث امتدت النشاطات التبشيرية لتغطي المحافظات البعيدة والمناطق المحيطة بها أيضاً⁽⁹¹⁾، والتي تفتقر إلى الخدمات الإنسانية والمتطلبات الحضارية⁽⁹²⁾.

وكان هذا التوسع في العمل التبشيري يتطلب تقسيم هذا المجال، ففي عام 1857م تم تقسيم أرمينيا من حيث العمل التبشيري إلى شمال وجنوب، وبعد ذلك بثلاث سنوات وفي الاجتماع السنوي للقسم الشمالي من أرمينيا، تم معالجة مسألة المناطق التي تغطيها الحملات التبشيرية في جانبي الدولة العثمانية لتشمل إلى جانب الجانب الآسيوي الأراضي الأوروبية من الدولة العثمانية، وهي منطقة البلقان وتراقيا، ولقد تم تقسيم الجانب الآسيوي من الدولة العثمانية إلى ثلاثة مناطق⁽⁹³⁾، وهي المنطقة الغربية والوسطى والشرقية، وتمتد من إستانبول في الغرب الى طرابزون في

منطقة البحر الأسود، ومن أزمير على ساحل بحر ايجه الى سيواس Sivas في الشرق، وقد غطت بعثة تركيا الغربية Western Turkey Mission أكبر مساحة من البعثات الثلاث الأخرى، بينما شملت البعثة الأرمنية الجنوبية السابقة والتي أصبح أسمها فيما بعد بعثة تركيا الوسطى، مدن أضنة وطرسوس ومرسين وأورفا وعنتيب وحلب، والمناطق الرئيسية في الشرق. أما بالنسبة لبعثة تركيا الشرقية فقد تم وضعها مع البعثة الأرمنية الشمالية وبقايا البعثات الآشورية والنسطورية في المواقع الرئيسية، وكان عملها من أرضروم في الشمال إلى هارپوت Harput في الغرب إلى فان Van وبيتليس Bitlis في الشرق، وديار بكر Diyarbakir وماردين Mardin في الجنوب، وقد بدأ المبشرون في عام 1860م في مسابقة الوقت من أجل توفير أي نقص في عدد المبشرين كي يكونوا قادرين على الحفاظ على العمل التبشيري بشكل متنامي⁽⁹⁴⁾.

قام المبشرون التابعون للمجلس الأمريكي بتأسيس العديد من المراكز والمحطات في تركيا العثمانية، والتي مارست العديد من الأنشطة، وهي إستانبول عام 1831م، وطرابزون Trabzon عام 1835م، أرضروم Erzurum عام 1839م، عنتيب Antep عام 1849م، والموصل 1850م، سيواس Sivas عام 1851م، وأضنة Adana عام 1852م، ومرزفون Merzifon عام 1852م، وأرا بكر Arabkir عام 1853م، وديار بكر عام 1853م، وقيسارية (تالاس) عام 1854م، وتوكات Tokat عام 1854م، وهارپوت Harput عام 1855م، وماراش Maraş 1855، وحلب عام 1855م⁽⁹⁵⁾، إلى جانب العديد من المناطق الهامة مثل إزنيق İznik (نيقوميديا) (Nicomedia) وبورصة Bursa وأزمير İzmir ومانيسا Manisa وبتليس

Bitlis، وغان Van وماردين Mardin والموصل وطرسوس وأورفا Urfa وأنطاكية Antaky وذلك سواء بالعمل المتواصل داخل مراكز هذه المدن أو داخل دائرتها التي تبلغ مئات الأميال، والتي تم التبشير بها بشكل منتظم من قبل المبشرين المدربين، فالمحطات الرئيسية للعمل الأربعة في شرق تركيا على سبيل المثال، كانت تتألف من 120 محطة غير مركزية، ومنها هاربوت التي اشتملت على 67 محطة وأنشأت 21 كنيسة⁽⁹⁶⁾.

وفي عام 1871 ركّز المجلس الأميركي أعماله على نحو متزايد في تركيا العثمانية "الأناضول"، واقتصر عمل المجلس وأنشطته في هذه المنطقة وحدها⁽⁹⁷⁾، وفي عام 1876م استطاع المجلس الأميركي من "تكوين" نفسه جيداً في البعثات التركية الثلاثة⁽⁹⁸⁾، وكان المجلس على قناعة بأنه ستتوفر له وللعاملين معه "فرصة ذهبية" لنشر "الحقيقة الإنجيلية" وتوصيلها للناس كافة⁽⁹⁹⁾، وفي العام نفسه أبرقت بعثة تركيا الغربية إلى مقر المجلس الأميركي في الولايات المتحدة تؤكد وعدها بالعمل والتعاون مع السكان غير المسلمين في الدولة العثمانية⁽¹⁰⁰⁾.

تركز عمل بعثات المجلس الأميركي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على التبشير بالمسيحية البروتستانتية والعمل الطبي والتعليم، واقتصر هذا النشاط إلى حد كبير على الأرمن، وخصوصاً في المقاطعات التي تقع في شمال الدولة العثمانية⁽¹⁰¹⁾، لذلك أكد المجلس الأميركي وجوده فعلياً وبشكل خاص في "ثلاث نقاط مهمة في شمال تركيا" وهي إستانبول وعنتيب وهاربوت⁽¹⁰²⁾.

ومهما يكن من أمر؛ كانت الأوضاع السيئة في الدولة العثمانية قد تسببت بشكل واضح في زيادة الأنشطة التبشيرية في الأناضول، حيث عمل المبشرون الأمريكيون من أجل إقامة علاقات أوثق مع الجميع من أجل تحسين الخدمات

الصحية العامة⁽¹⁰³⁾، بينما عمل البروتستانت الأرمن دون أي خوف أو وجل بعد قبول الدولة العثمانية لمجتمعهم والاعتراف بهم "كجملة"، حيث أصبح لديهم الفرصة للتحرك بحرية أكثر بكثير مما كان في السابق، في الوقت نفسه الذي زاد فيه الطلب على الالتحاق بالمدارس البروتستانتية⁽¹⁰⁴⁾، التي قام بها المجلس الأمريكي والتي عملت من أجل الاستفادة من الأوضاع التي تمر بها الدولة العثمانية من أجل تحقيق برامجها وتوسيع أعمالها⁽¹⁰⁵⁾، الأمر الذي رافقه زيادة في عدد المبشرين الأمريكيين الذين وصلوا إلى الأناضول، حيث خدم 41 مبشراً حتى عام 1836م في الدولة العثمانية، وما بين الأعوام 1836-1844م ارتفع هذا العدد ليصل إلى 54 مبشراً عُينوا في وظائف جديدة في بلاد الشام، ليصل عددهم في عام 1875م إلى 137 مبشر، بينما بلغ عدد المبشرين الأمريكيين عام 1890م 177 مبشر، وفي عام 1913م بلغ عدد المبشرين 209⁽¹⁰⁶⁾.

كان تدفق البعثات التبشيرية التابعة للمجلس الأمريكي إلى الدولة العثمانية يتم بالتوازي مع نمو أنشطتها الدينية والتعليمية، ففي الوقت الذي كانت فيه هناك فقط 7 كنائس و7 مدارس في عام 1850م تحت سيطرة المبشرين الأميركيين، ارتفع هذا العدد ليصل إلى 49 كنيسة و114 مدرسة في عام 1860م، و97 كنيسة و331 مدرسة في عام 1880م، و163 كنيسة و450 مدرسة في عام 1913م، وكان عدد الطلاب من الرعايا العثمانيين وخصوصاً الأرمن الذين التحقوا بتلك المدارس بلغ 13095 طالب حتى عام 1880م ليصل إلى 25992 طالب في عام 1913م⁽¹⁰⁷⁾.

السلطان عبد الحميد ونشاط المجلس الأمريكي.

كان المبشرون البروتستانت التابعين للمجلس الأمريكي قد أنشأوا لأنفسهم مقاماً كبيراً، وحققوا الكثير من النجاح في أعمالهم التبشيرية بسبب تحطم كل القوانين العثمانية التي تحد من نشاط المبشرين الأمريكيين، ونظام الامتيازات الذي كان سبباً في التدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية والخارجية، والفشل في التوفيق بين الاختلافات العرقية والدينية، بالإضافة إلى السلسلة الموجهة من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية، وحالة التفكك الإقليمي التي عانت منه الدولة العثمانية، أما في عهد السلطان عبد الحميد الذي تولى الحكم عام 1876م، واستمر حكمه لمدة 33 عاماً، فقد كان يتميز "بالتفرد" في الحكم والمراقبة الصارمة لكل ما يتعلق بشؤون الدولة، وإعطاء الأولوية القصوى للحفاظ على النسيج التقليدي للمجتمع في الدولة العثمانية، وكان طبيعياً أن تعمل الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد على لجم المبشرين الأمريكيين ومؤسساتهم التبشيرية العالمية، باعتبارها تهديداً مباشراً وموضوعياً يهدف إلى المس بصميم الإسلام والمجتمع والسكان في الدولة العثمانية، سواء كانوا مسلمين أو غير المسلمين⁽¹⁰⁸⁾، كما اعتقد السلطان عبد الحميد بأن التدخل الأجنبي والذي يشمل الأنشطة التبشيرية كان السبب في وجود حالة من التمرد والاضطرابات المتزايدة من قبل الرعايا العثمانيين غير المسلمين، لذلك قرر مراقبتهم مراقبة لصيقة وقطع وسائل الدعم الخارجي عن البعثات والأنشطة التبشيرية، جنباً إلى جنب مع بعض التدابير الأخرى، التي حظرت نقل الملكية ومنح تصاريح البناء الجديدة للمدارس التبشيرية. أما المدارس التي بنيت بالفعل؛ فقد وضع شروطاً تُنظم عملها وفق أنظمة جديدة، مثل قانون المدارس الجديد، والذي ينص على إيجاد معايير جديدة ومنها، حصول المدرس على شهادة معلم، وتوفّر منهج يتم الموافقة عليه مسبقاً من قبل السلطات المسؤولة في الدولة

العثمانية، مع إيجاد العديد من الصعوبات المادية، وبموجب هذا القانون الجديد؛ فإن بعض المدارس الأمريكية ستغلق أبوابها، لأن المعلمين فيها لا يمكنهم أن يحصلوا على الوثائق اللازمة التي تمكنهم من التدريس⁽¹⁰⁹⁾، ومن أجل لجم نشاط البعثات التبشيرية؛ فقد أصدر السلطان عبد الحميد في كثير من الأحيان المراسيم السلطانية من أجل إجراء التحقيقات حول الأنشطة التبشيرية في جميع أنحاء المقاطعات العثمانية، كما طلب من السلطات المحلية أن يقدموا تقاريرهم ونتائج تحقيقاتهم إلى قصر يلدز⁽¹¹⁰⁾.

وكانت القرارات والإجراءات التي اتخذها السلطان عبد الحميد تجاه نشاط البعثات والمدارس التبشيرية قد أثارت جدلاً كبيراً وساخناً بين المبشرين وممثليهم في المجلس الأمريكي وممثلي الولايات المتحدة في إستانبول من جهة مع السلطات العثمانية من جهة أخرى حول مسألة الحصول على الإذن الرسمي من الدولة العثمانية فيما يتعلق بهذه الأنشطة، ورغم ذلك واصل المبشرون الأمريكيون فتح مدارسهم دون شروط مسبقة من قبل الدولة العثمانية، كما حصلوا على التمتع بالإعفاء الضريبي لمدارسهم ومؤسساتهم التبشيرية، بالإضافة إلى العديد من الامتيازات الموسعة، كما سعوا أيضاً إلى موافقة وزارة التعليم العام العثماني على برامجها، خصوصاً فيما يتعلق بالدراسات ونصوص الكتب والشهادات أو شهادات معلميه، من أجل الحد من تدخل الوزارة في عمل مدارسهم⁽¹¹¹⁾.

وفي أوائل ديسمبر 1886م انعقد اجتماع هام بين وزير التعليم العام العثماني منيف باشا والقائم بأعمال البعثة الدبلوماسية الأمريكية بندلتون كينج Pendleton King وذلك من أجل تنظيم التعاون بين المدارس التبشيرية الأمريكية والسلطات المحلية، وعقب الاجتماع، وفي 28 ديسمبر 1886م

أرسل منيف باشا تعليمات جديدة إلى حكام الأقاليم يطلب منهم عدم التدخل في نشاط هذه المدارس بشرط تقديم هذه المدارس لبرامجها الدراسية، ونصوص الكتب المقررة، وشهادات معلمها للحكومة وفقاً للمادة 129 من قانون التعليم العام⁽¹¹²⁾.

وعندما انتشرت المذابح ضد الأرمن في مناطق أخرى مثل ميرزفون Merzifon وأماسيا Amasya وعتيب Antep وغيرها من المناطق⁽¹¹³⁾ كان كل ما يهم وزارة الخارجية الأمريكية وتيريل هو العمل على تأمين المبشرين والمواطنين الأمريكيين المقيمين في هذه المناطق، وخصوصاً المقيمين في المقاطعات الآسيوية من الدولة العثمانية⁽¹¹⁴⁾. وعندما أخبر تيريل أولني بأن جميع المبشرين والمواطنين الأمريكيين قد أصبحوا بأمان، أرسل أولني إلى تيريل يعبر عن سعادته بذلك، معتبراً أن مثل هذه الأخبار تثلج الصدور⁽¹¹⁵⁾.

وكان النفوذ التبشيري البروتستانتي الأمريكي خلال هذه الفترة وصل في الأراضي العثمانية إلى درجة أن القس جيمس ب. أنجيل James B. Angell (1897-1898م) - والذي كان مبشراً وعضواً في كنيسة الأبرشية - قد عُين في منصب المبعوث فوق العادة ووزيراً مفوضاً للولايات المتحدة في إستانبول عام 1897م، وهو المنصب الذي حافظ عليه لمدة عام واحد⁽¹¹⁶⁾، وكان هذا الأمر دليلاً واضحاً على كيفية كسب المبشرين لأشخاص مهمين في كل مكان في الدولة العثمانية، وحتى بعد عودته إلى الولايات المتحدة، كانت تصريحات القس أنجيل مصدر قلق كبير للسلطات العثمانية، التي كانت تُتابع عن كثب من قبل وزارة الشؤون الخارجية العثمانية⁽¹¹⁷⁾.

وفي عام 1898م وصلت أخبار للدولة العثمانية أن الأرمن المهاجرين والحاصلين على الجنسية الأمريكية يجتمعون في العديد من المدن الأمريكية، ويقومون بتدريبات عسكرية ويجمعون الأموال والتبرعات ويقومون بإرسالها إلى المدن العثمانية مثل هاربوت وموش وديار بكر، من أجل شراء السلاح والمتفجرات "الديناميت" من أجل القيام بالثورة ضد السلطات العثمانية. (118)

وبحلول مطلع القرن العشرين، وبعد ثمانية عقود من العمل الجاد آتت جهود المجلس الأمريكي أكلها، حيث وصلت أنشطة المؤسسات التبشيرية الأمريكية ذروتها مع ما يقرب من 300 مؤسسة متنوعة تتراوح ما بين المدارس والكليات التي احتلت مراكز مهيمنة، إلى جانب الكنائس والمستشفيات ودور الأيتام، وعندما عقدت المعاهدة العثمانية-الفرنسية عام 1901م، والتي اعترفت بالوضع القانوني للمدارس الفرنسية في الدولة العثمانية، كان لا بد من أن تحقق المؤسسات الخيرية والدينية والتبشيرية البروتستانتية الأمريكية في الدولة العثمانية نفس الشيء بالنظر إلى وضع الولايات المتحدة كدولة الأكثر تفضيلاً وفق المعاهدات السابقة، لذلك كان ينبغي أيضاً أن يتم منح المؤسسات التعليمية والخيرية والدينية الأمريكية نفس الوضع من خلال معاهدة ثنائية، وكان من شأن ذلك ليس فقط أن يمكّن المؤسسات الأمريكية من التمتع بنفس الإعفاءات والحصانات الممنوحة للمؤسسات الفرنسية؛ ولكن أيضاً كي يمهد الطريق لتصحيح خصائص هذه المؤسسات، والخاصة بثقة العامة من الشعوب العثمانية، الذين كانوا لا يثقون بهذه المؤسسات، لذلك قام المبشرون في الدولة العثمانية وزعمائهم وقادة المقر الرئيسي للمجلس الأمريكي في بوسطن، في كثير من الأحيان بتقديم إلتماسات إلى الممثلة الأمريكية في إستانبول تحثهم فيها على التواصل مع السلطات العثمانية وخصوصاً السلطان عبد الحميد الثاني ووزير

الشؤون الخارجية توفيق باشا، كما ناشدوا في كثير من الاحيان وزارة الخارجية والرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt (1901-1909م) وكبار أعضاء الكونجرس وأهل الخير ومحربي شبكة العمل التبشيري وقادته في الولايات المتحدة، كي يقوموا بالضغط على الحكومة الأمريكية من أجل عقد معاهدة مع الدولة العثمانية⁽¹¹⁹⁾، لضمان حماية المؤسسات التعليمية والدينية الأمريكية البالغة تكلفتها في الأراضي العثمانية ما يقرب من ستة ملايين ونصف دولار، ولقد أثمرت هذه الجهود بتوقيع اتفاقيات متتالية عام 1904م وعام 1907م بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية⁽¹²⁰⁾.

ووفقا للتقرير السنوي للمجلس الأمريكي، فإنه بحلول عام 1914م، كان هناك 151 من المبشرين الأمريكيين يعملون جنباً إلى جنب مع 1204 من المسيحيين العثمانيين، بينما تم بناء 137 كنيسة و9 مستشفيات و8 كليات و46 مدرسة ثانوية و369 مدرسة ابتدائية، مع التحاق 25199 طالب معظمهم من المسيحيين، مع وجود بعض الطلاب المسلمين بهذه المدارس⁽¹²¹⁾.

الخاتمة:

نجح المجلس الأمريكي في التأسيس لعمله بشكل كبير ومنذ وقت مبكر في الدولة العثمانية، وخصوصاً فيما يتعلق بنشاطه التبشيري تجاه تحويل الأرمن من المذهب الكاثوليكي إلى المذهب البروتستانتية، واستطاعت في نهاية الأمر أن يحصل على حق الاعتراف من الدولة العثمانية بـ"الملة البروتستانتية" عام 1850م، وعندما شعرت الدولة العثمانية بخطر النشاط التبشيري على وحدة الدولة العثمانية وتماسك مجتمعاتها، حاولت قدر الإمكان منع هذه الأنشطة أو على الأقل الحد منها؛ إلا أن الدولة العثمانية فشلت في هذا الأمر بسبب سياسة الامتيازات، والتهديد باستخدام

القوة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي كان دائماً يجبر الدولة العثمانية على التراجع، ورغم ذلك، استطاعت الدولة العثمانية النجاح في منع ووقف النشاط التبشيري للمجلس الأمريكي بين المسلمين بشكل كامل.



حواشي البحث.

(1) Bağçeci, Yahya. "Osmanlı Devleti'nde Amerikan Misyonerlerinin, Ermenilere Yönelik Eğitim Faaliyetleri", Turkish Studies, International Periodical For the Languages, Literature and History of Turkish or Turkic, Volume 3/4, Summer 2008, s. 172; Gordon, Leland G. American Relations with Turkey 1830-1930, An Economic Interpretation (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1932), p.7-12; Fendoğlu, Hasan Tahsin "Amerika Birleşik Devletlerinin Misyonerleri ve Osmanlı Devleti", Türkler, Cilt. XIV, Ankara: Yeni Türkiye Yayınları, 2002, s. 194; Akgün, Seçil. "Amerikalı Misyonerlerin Ermeni Meselesinde Rolü", Osmanlı Tarih Araştırma ve Uygulama Merkezi Dergisi (OTAM), Ankara Üniversitesi, sayı 3, 1992, s. 2.

- (2) Ümit, Devrim. "The American Protestant Missionary Network in Ottoman Turkey 1876-1914", International Journal of Humanities and Social Science, Vol. 4, No. 6, April 2014, p. 28; Bozan, Oktay. "XIX. Yüzyilin İkinci Yarisinda Mardin'de Amerikan Misyonerlerinin Faaliyetleri", e-Şarkiyat İlmi Araştırmalar Dergisi, Sayı: XII, Kasım 2014, s. 25; Gordon. American, p. 7-11; Fendoğlu. "Amerika", s. 194; Bağçeci. "Osmanlı", s. 173.
- (3) Hülügü, M. Metin. "Osmanlı'dan Cumhuriyet'e Misyoner, Ermeni, Terör ve Amerika Dörtgeninde Türkiye", İslâmî Araştırmalar, Nevşehir Üniversitesi, Fen-Edebiyat Fakültesi, Nevşehir, 2007, 20, 4, s. 429.
- (4) Güler, Yavuz. "Osmanlı Devleti Dönemi Türk- Amerikan İlişkileri 1795-1914", Gazi Üniversitesi Kırşehir Eğitim, Fakültesi Dergisi, Cilt. 6, Sayı 1, 2005, s. 230.
- (5) Erhan, Çağrı. "Ottoman Official Attitudes towards American Missionaries", The United States and the Middle East: Cultural Encounters, Yale University, 7-8 December 2000, The Turkish Yearbook, Vol. XXX, p. 192.
- (6) Shelton, Elizabeth W. Faith, Freedom, and Flag: The Influence of American Missionaries in Turkey on Foreign Affairs 1830-1880, Faculty of the School of Continuing Studies and of the Graduate School of Arts and Sciences, Degree of Doctor of Liberal Studies, Washington, D.C: Georgetown University, April 4, 2011, p. 42.
- (7) Maggiolini, Paolo. "The Modern Image of the Holy Land: Through the Manuscripts of some Christian Missionaries", Journal of Islamic Jerusalem, Summer, 2011, Vol. 11, p. 3.
- (8) Kantarcı, Şenol. Amerika Birleşik Devletleri'nde Ermeniler ve Ermeni Lobisi (İstanbul: Aktüel, 2004), s. 59-60; Günay, Nejla. "Amerikan Misyonerlerine Anadolu Halkının Tepkisi ve Bunun Osmanlı-Amerikan

- İlişkilerine Etkileri", Gazi Akademik Bakış, Cilt 1, Sayı 2, Yaz 2008, s. 119; Ümit. "The American", p. 18.
- (9) Ümit. "The American", p. 18.
- (10) Kocabaşoğlu, Uygur. Kendi Belgeleriyle Anadolu 'daki Amerika, Misyoner Okulları 19. Yüzyılda Osmanlı İmparatorluğu'ndaki Amerikan Misyoner Okulları (İstanbul: İmge Kitabevi, 2000), s.74; Doğan, Ayhan. "Maraş'ta Misyonerlik Faaliyetleri", XIX.Yüzyılın İkinci Yarısı ve XX.Yüzyılın Başlarında, Selçuk Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi, Sayı: 11, Konya, 2004, s. 636; Aydın, Mithat. "Amerikan Protestan Misyonerlerinin Ermeniler Arasındaki Faaliyetleri ve Bunun Osmanlı-Amerikan İlişkilerine Etkisi", Tarihinde Düzenlenen XV. Türk Tarih Kongresi'ne Sunulmuştur, s. 81; Erhan. "Ottoman", p.192.
- (11) Aydın. "Amerikan", s. 81; Erhan. "Ottoman", p.192.
- (12) Cacanaska, Ružica. "The Emergence and Development of Protestantism in Macedonia", Religion, State & Society, Vol. 29, No. 2, 2001 , p. 115.
- (13) Alan, Gülbadi - Bolat, Gökhan. "The American Board And The Ottoman Women's Education", History Studies, ABD ve Büyük Ortadoğu İlişkileri Özel Sayısı, Relationships of the USA and The Great Middle East, Special Issue 2011 , p. 106; Aydın. "Amerikan", s. 81; Erhan. "Ottoman", p.192.
- (14) Doğan, Mehmet Ali. American Board Of Commissioners For Foreign missions (ABC FM) and Nominal Christians: Elias Riggs 1810-1901, and American Missionary Activities in the Ottoman Empire, Doctor of Philosophy In Middle East Studies, History, Department of Languages and Literature, The University of Utah, May 2013, p. 28; Ümit. "The American", p. 23.
- (15) Doğan. American, p. 31.

(16) Morton, Daniel O. (ed.). *Memoir of Rev. Levi Parsons, First Missionary to Palestine from the United States* (Hartford: Cooke & Others, 1830), p.221–230; Ömer Turan, "Amerikan Misyonerlerinden E. Smith ve H.G.O. Dwight'a Göre 1830–1831 Yıllarında Ermeniler", *Ermeni Soykırımını İddiaları–Yanlış Hesap Talat'tan Dönünce*, der, Mustafa Çalık, Ankara, Cedit Neşriyat, 2006, s.194–195; Özcoşar, İbrahim. 19 Yüzyılda Mardin Süryanileri, Tarih Anabilim Dalı, Yakınçağ Tarihi Bilim Dalı, Doktora Tezi, Tezi Yöneten Doç. Dr. Ayhan Öztürk, Erciyes Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Nisan 2006, s. 283; Mutlu, Şamil. *Osmanlı Devleti'nde Misyoner Okulları* (İstanbul: Gökkuşbu Yayınları, 2005), s. 285–286; Ümit. "The American", p. 24; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 25.

(17) Kantarcı. *Amerika*, s. 59–60; Günay. "Amerikan", s. 119; Grabill, Joseph L. *Protestant Diplomacy and the Near East– Missionary Influence on American Policy 1810–1927* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1971), p. 33–34; Fratantuono, Ella M. *Self-Righteous Beneficence: American Diplomat and Missionary Perceptions of the Ottoman Empire 1908–1914*, Honors Thesis in, Department of History, Richmond: University of Richmond April, 2008, p. 21; Kantarcı. "Amerika", s.59–60; Alan – Bolat. "The American", p. 106; Aydın. "Amerikan", s. 81; Bozan, "XIX. Yüzyilin", s. 24;

(18) Bond, Alvan. *Memoir of the Rev. Pliny Fisk, Late Missionary to Palestine* (Boston: Crocker & Brewster, 1828), p. 106; Turan, Ömer. "Amerikan Misyonerlerinden E. Smith ve H.G.O. Dwight'a Göre 1830–1831, Yıllarında Ermeniler", *Ermeni Soykırımını İddiaları–Yanlış Hesap Talat'tan Dönünce*, der., Mustafa Çalık, Ankara, Cedit Neşriyat, 2006, s.194–195; Morton. *Memoir*, p. 221–30; Ümit. "The American", p. 24; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 25; Özcoşar. 19 Yüzyılda, s. 283; Mutlu. *Osmanlı*, s. 285–286.

- (19) Bond. Memoir, p. 106; Bağçeci. "Osmanlı", s. 172; Shelton. Faith, p. 61; Fratantuono. Self-Righteous, p. 21; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 24; Kantarcı. Amerika, s.59-60; Alan - Bolat. "The American", p. 106; Grabill. Protestant, p. 5.
- (20) Sezer, Ayten. Osmanlı'dan Cumhuriyet'e, Misyonerlerin Türkiye'deki Eğitim ve Öğretim Faaliyetleri, Hacettepe Üniversitesi, Edebiyat Fakültesi Dergisi, Osmanlı'dan Cumhuriyet'e, Misyonerlerin Türkiye'deki Eğitim ve Öğretim Faaliyetleri, Ankara, Ekim 1999, s. 173.
- (21) Strong, William. E. The Story of the American Board, An Account of the First Hundred Years of the American Board of Commissioners for Foreign Missions (Boston: Pilgrim Press, 1910), p. 80; Ümit. "The American", p. 25; Doğan. "Maraş'ta", s. 636-7.
- (22) Bond. Memoir, p. 141-2; Ümit. "The American", p. 25; Alan - Bolat. "The American", p.107; Shelton. Faith, p. 61.
- (23) Morton. Memoir, p. 180-2; Ümit. "The American", p. 25; Doğan. American, p. 38-9.
- (24) Kieser, Hans-Lukas. Doğu Vilayetleri'nde Misyonerlik, Etnik Kimlik ve Devlet 1839-1938 (İstanbul: İletişim Yayınları, 2005), s. 68; Özcoşar. 19 Yüzyılda, s. 283.
- (25) Strickland, William. P. History of the American Bible Society from its Organization to the Present Time (New York: Harper, 1850), p. 263-280; Erdoğan, Dilşen İnce. "XIX. Yüzyılda Ermeni İsyancılarının Çıkmasında Rol Oynayan Görünmeyen Tehlike: Misyonerler", Türk Yurdu, Cilt: 26, Sayı. 225, Mayıs 2006, s.69; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 24; Doğan. American, p. 32-4; Ümit. "The American", p. 28.
- (26) Erdoğan. "XIX. Yüzyılda", s. 69; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 24; Doğan. American, p. 32-4.
- (27) Grabill. Protestant, p. 12; Fratantuono . Self-Righteous, p. 21.

- (28) Kocabaşođlu, Uygur. "Dođu Sorunu, Tarihi Gelişmeler İçinde Türkiye'nin Sorunları Sempozyumu", Ankara, 8-9 Mart, (Dünü-Bugünü-Yarını), 2 Baskı, Ankara, Türk Tarih Kurumu Yayınları, 1995, s. 68; Grabill. Protestant, p. 5-8; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 24; Ümit. "The American", p. 26; Alan - Bolat. "The American", p. 107.
- (29) Özcoşar. 19 Yüzyilda, s. 283; Kocabaşođlu. Kendi, s. 35; Bađçeci. "Osmanli", s. 174; Alan - Bolat. "The American", p.107.
- (30) Sixty-Sixth Annual Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, Presented at the Meeting held at Hartford, Connecticut, October 3-6, 1876 (Boston: Riverside Press, 1876), p. 19-21; Öztürk, Ayhan. "Amerikan Board'un Kuruluşu, Teşkilatlanması ve Osmanli Devlet'nde Kurduđu Misyonlar", Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi, Sayı. 23, Y 1: 2007/2, s. 69; Ümit. "The American", p. 30; Özcoşar. 19 Yüzyilda, s. 283; Mutlu. Osmanlı, s. 285-286.
- (31) Faroqhi, Suraiya. The Ottoman Empire and the World Around It (New York: I. B. Tauris, 2004), p. 213-14; Ümit. "The American", p. 32.
- (32) Ümit. "The American", p. 32.
- (33) Prime, E.D.G. Forty Years in the Turkish Empire or Memoirs of Rev. William Goodell (New York: Robert Carter, 1877), p. 99; Erhan. "Ottoman", p. 194-5; Aydın. "Amerikan", s. 83.
- (34) Erhan. "Ottoman", p. 194-5; Aydın. "Amerikan", s. 83.
- (35) Gordon. American, p. 7-12; Ümit. "The American", p. 28; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 25; Fendođlu. "Amerika", s. 194; Bađçeci. "Osmanli", s. 173.
- (36) Daniel, Robert. American Philanthropy in the Near East 1820 -1960 (Athens: Ohio University Press, 1970), p. 41-70; Lippe, John M. Vander. "The Other Treaty of Lausanne: The American Republic and Official Debate on Turkish-American relations", The Turkish Yearbook, Vol. XXIII, 1993, p. 32; Ortaylı, İlber "Osmanlı İmparatorluğu'nda Amerikan

- Okulları Üzerine Bazı Gözlemler", Amme İdaresi Dergisi, sayı 14, 1981, s. 87; Karaş, Zeynep. Ermen terror Örgütü: Asala, Atılım Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü Uluslararası İlişkiler Anabilim Dalı, Yüksek Lisans Tezi, Tez Danışmanı Doç. Dr: Idris Bal, Ankara, 2007, s. 25; Günay. "Amerikan", s. 118; Gordon. American, p. 7-12; Ümit. "The American", p. 28; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 25; Fendoğlu. "Amerika", s. 194; Bağçeci. "Osmanlı", s. 173
- (37) Kurat, Akdes Nimet. Türkiye ile Amerika Birleşik Devletleri Arasındaki Münasebetlere Ait Arşiv Vesikalari (Ankara: Ankara Üniversitesi Basımevi, 1970), s. 287; Şimşir, Bilal N. "Ermeni Propagandasının Amerika Boyutu Üzerine", Tarih Boyunca Türklerin Ermeni Toplumu İle İlişkileri Sempozyumu, Ankara, Atatürk Üniversitesi Yay. 1985, s. 82; Ortaylı, "Osmanlı", s. 87; Günay. Amerikan, s. 118; Karaş. Ermen, s. 25; Ümit. "The American", p. 28; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 25-6.
- (38) Porter, Admiral David D. Memoir of Commodore David Porter of the United State Navy (Albany: J. Munsell, 1875), p. 399-405; Ümit. "The American", p. 28; Erhan. "Ottoman", p. 192.
- (39) Şimşir, Bilal N. "Ermeni", s. 82; Ortaylı, "Osmanlı", s. 87; Günay. Amerikan, s.118; Karaş. Ermen, s. 25.
- (40) Porter. Memoir, p. 399-405; Ümit. "The American", p. 28; Erhan. "Ottoman", p. 192.
- (41) Ümit. "The American", p. 28.
- (42) Karacakaya, Recep. Ermenilere Yönelik Ermeni Suikastleri (İstanbul: 47 Numara Yayıncılık, 2006), s.11; Karaş. Ermen, s. 3.
- (43) Ümit. "The American", p. 26. Alan - Bolat. "The American", p. 107; Grabill, Protestant, p. 8.
- (44) Ümit. "The American", p. 26.

- (45) The Missionary Herald, Containing the Proceedings at Large of the American Board of Commissioners for Foreign Missions (Boston: Crocker and Brewster, 1830), Vol. XXVI, p. 76-77; Doğan. Maraş'ta, s. 636; Ümit. "The American", p. 27.
- (46) Dwight, H.G.O. Christianity Revived in the East (New York: Baker and Scribner, 1850), p. 10-11; Dwight, H.G.O. Christianity in Turkey: A Narrative of the Protestant Reformation in the Armenian Church (London: James Nisbet, 1854), p. 31-3; Hopkins, J. Castell. The Sword of Islam or Suffering Armenia, Annals of Turkish Power and the Eastern Question (Brantford: The Bradley-Garretson, 1896), p. 403; Ümit. "The American", p. 27; Alan - Bolat. "The American", p.107;
- (47) Dwight. Christianity, p. 10-11; Erhan. "Ottoman", p. 192-3.
- (48) Fratantuono. Self-Righteous, p. 24.
- (49) Ibid, p. 25.
- (50) Grabill. Protestant, p. 20-3; Fratantuono . Self-Righteous, p. 22.
- (51) Öztürk. "Amerikan", s. 69.
- (52) Strickland. History, p. 74; Esenkal ,Ebru. Yabancı Ülkeler Tarafından Osmanlı Coğrafyasında Açılan Okullar, Danışman: Yrd. Doç. Dr. İbrahim Sezgin, Trakya Üniversitesi, Edirne, Sosyal Bilimler Enstitüsü, 2007, s. 114; Mutlu. Osmanlı, p. 287; Ümit. "The American", p. 28
- (53) Ümit. "The American", p. 27; Strickland. History, p. 47-8 ; Ümit. "The American", p. 28.
- (54) Erhan. "Ottoman", p. 192; Shelton. Faith, p. 62; Fendoğlu. "Amerika", s. 341; Doğan. American, p. 42-4; Aydın. "Amerikan", s. 83; Alan - Bolat. "The American", p.107.
- (55) Alan - Bolat. "The American", p.108.
- (56) Kocabaşoğlu. Kendi, p. 33; Erhan. "Ottoman", p. 192; Shelton. Faith, p. 62; Fendoğlu. "Amerika", s. 341; Doğan. American, p. 42-4.
- (57) Ümit. "The American", p. 27.

- (58) Alan – Bolat. "The American", p.108; Kocabaşođlu. Kendi, p. 88.
- (59) Dođan. American, p. 43.
- (60) Alan – Bolat. "The American", p.108; Kocabaşođlu. Kendi, p. 88.
- (61) Ümit. "The American", p. 27.
- (62) Erhan. "Ottoman", p. 195.
- (63) Prime. Forty, p. 132; Erhan. "Ottoman", p. 198; Erdođan. "XIX. Yüzyılda", s. 69; Günay. "Amerikan", s. 119.
- (64) Strong, The Story, p. 105; Grabill, Protestant, p.13; Erhan. "Ottoman", p. 198.
- (65) Trabzon Müşiri Hazretleri'ne, Hariciye Mektubî Kalemî (HR. MKT, 4/18). In: T.C., Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu: 85, Osmanlı Belgelerinde Ermeni–Amerikan İlişkileri 1839–1995, I, Ankara 2007. Erhan. "Ottoman", p. 198.
- (66) Erhan. "Ottoman", p. 198.
- (67) Ibid, p. 199.
- (68) Loc. Cit.
- (69) Grabill, Protestant, s.39; Aydın. "Amerikan", s. 82–3.
- (70) Erhan. "Ottoman", p. 192; Aydın. "Amerikan", s. 82–3.
- (71) Aydın. "Amerikan", s. 82–3.
- (72) Grabill. Protestant, p. 14; Fratantuono . Self-Righteous, p. 22.
- (73) Aydın. "Amerikan", s. 86; Erhan. "Ottoman", p. 200; Hopkins. The Sword, p. 402; Günay. "Amerikan", s. 120; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 26; Grabill. Protestant, p. 14; Fratantuono. Self-Righteous, p. 22; Ümit. "The American", p. 28.
- (74) Erhan. "Ottoman", p. 201; Dwight, Christianity Revived, p. 287.
- (75) Aydın. "Amerikan", s. 88–9.
- (76) Sadriazam ve Yâver-i Ekrem, Fî 13 Saban sene 1310 ve fî 18 Subat sene 1308 / 2 Mart 1893, Bâb-ı Âlî Evrak Odası Ayniyat Defterleri (BEO. AYN. D), 1632/s. 415 . In: T.C., Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel

- Müdürlüğü, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu: 85, Osmanlı Belgelerinde Ermeni-Amerikan İlişkileri 1839-1995, I, Ankara 2007 .Aydın. "Amerikan", s. 90; Karaş. Ermen, s. 11.
- (77) Grabill. Protestant, p. 24; Erhan. "Ottoman", p. 203.
- (78) Cacanoska. "The Emergence", 2001, p. 115; Hopkins. The Sword, p. 402; Erhan. "Ottoman", p. 203.
- (79) Erhan. "Ottoman", p. 203.
- (80) Ibid, p. 204.
- (81) Loc. Cit.
- (82) Grabill. Protestant, p. 20-3; Fratantuono . Self-Righteous, p. 22; Erhan. "Ottoman", p. 204.
- (83) Grabill. Protestant, p. 20-3; Fratantuono . Self-Righteous, p. 22.
- (84) Mr. Uhl to Mr. Terrell, Department of State, Washington, December 29, 1894, No. 296; Mr. Terrell to Mr. Gresham, Legation of the United State, Telegram, Constantinople, January 16, 1895, No. 396; Mr. Uhl to Mr. Terrell, Department of State, Washington, January 22, 1895, No. 319; Mr. Judson Smith to Mr. Gresham. The American Board of Commissioners for Foreign Missions, Boston, Mass. January 19, 1895; Mr. Terrell to Mr. Gresham, Legation of the United State, Telegram, Constantinople, April 27, 1895, No. 526; Mrs. Isabel F. Dodd to Mr. Terrell, Secretary of the Faculty, American College for Girls, Constantinople,
- (85) Grabill. Protestant, p. 26; Erhan. "Ottoman", p. 204-5; Öztürk. "Amerikan", s. 65.
- (86) Ümit. "The American", p. 34. Sezer. "Osmanlı'dan", s. 173-4. Shelton. Faith, p. 68.
- (87) The Missionary Herald for the Year of 1825 (Boston: Crocker and Brewster, 1825), Vol. XXI, p. 92; Ümit. "The American", p. 28.
- (88) Ümit. "The American", p. 28.

- (89) Ibid, p. 29.
- (90) Deringil, Selim. *The Well-Protected Domains: Ideology and the Legitimization of Power in the Empire 1876–1909* (London: I.B. Tauris, 1999), 115; Ümit. "The American", p. 29.
- (91) Akgün. "Amerikalı", s. 2; Ümit. "The American", p. 29.
- (92) Akgün. "Amerikalı", s. 6; Ümit. "The American", p. 29
- (93) Strong. *The Story*, p. 200; Ümit. "The American", p. 29.
- (94) Strong. *The Story*, p. 200; Öztürk. "Amerikan", s. 65–70; Ümit. "The American", p. 29; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 24.
- (95) Dalyan, Murat Gökhan. "Amerikan Misyonerlerinin Osmanlı Ermenilerinde Meydana Getirdiği Bölünme ve Çatışmalar: George B. Nutting–George H. White ve Adıyaman Ermenileri Örneği", *SDÜ Fen Edebiyat Fakültesi Sosyal Bilimler Dergisi*, Mayıs 2010, Sayı. 21 , s. 83; Ümit. "The American", p. 34. Erhan. "Ottoman", p. 201–2; Akgün. "Amerikalı", s. 5
- (96) Ümit. "The American", p. 34.
- (97) Ibid, p. 29.
- (98) *Annual Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1876*, p. 21–42; Ümit. "The American", p. 30.
- (99) *Annual Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1876*, p.12; Ümit. "The American", p. 30.
- (100) *Annual Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, XXXVI, 1876*; Ümit. "The American", p. 30.
- (101) *Annual Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1876*, p. 21; Ümit. "The American", p. 30.
- (102) *Annual Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1876*, p. 19; Ümit. "The American", p. 30.
- (103) Akgün. "Amerikalı", s. 3; Günay. "Amerikan", s. 119–20; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 26; Kocabaşoğlu, "Doğu", s.15.

- (104) Günay. "Amerikan", s. 120; Bozan. "XIX. Yüzyilin", s. 26; Kocabaşođlu. "Dođu", s.15.
- (105) Kocabaşođlu. Kendi, s. 15; Günay. "Amerikan", s. 120.
- (106) Erhan. "Ottoman", p. 194; Günay. "Amerikan", s. 120.
- (107) Grabill. Protestant, p. 17; Erhan. "Ottoman", p. 194; Bađceci. "Osmanli", s. 175.
- (108) Daniel. American, p. 114;Ümit. "The American", p. 33; Erhan. "Ottoman", p. 205.
- (109) Daniel. American, p. 114; Erhan. "Ottoman", p. 205; Ümit. "The American", p. 33.
- (110) Ümit. "The American", p. 34.
- (111) Ibid, p. 35.
- (112) Loc. Cit.
- (113) Mr. Terrell to Mr. Olney, Pera, November 17, 1895, Telegram.
- (114) Mr. Terrell to Mr. Olney, Legation of the United State, Constantinople, November 18, 1895, No. 680; Mr. Terrell to Tewfik Pasha, Legation of the United State, Constantinople, November 18, 1895, No. 99, Inclosure in No. 680; Bâb-ı Âlî, Tercüme Odası, Numara: 230, Tarih: 15 Tesrîn-i Sânî sene 1311, Hariciye Nezâreti Siyasî Kısım (HR. SYS) 2857/91. In: T.C., Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, Osmanli Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu: 85, Osmanli Belgelerinde Ermeni-Amerikan İlişkileri 1839-1995, I, Ankara 2007.
- (115) Mr. Olney to Mr. Terrell, Department of State, Washington, November 21, 1895 , No. 52.
- (116) Ibid, p. 36.
- (117) Ibid, p. 37.
- (118) Riâyetli hizmetkârımız, Ömer bin Mustafa, Fî 18 Tesrîn-i Sânî sene 1305 / 30 Kasım 1889, Hariciye Nezâreti Siyasî Kısım (HR. SYS), 2735/14. In: T.C., Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü,

Osmanli Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu: 85, Osmanli Belgelerinde Ermeni-Amerikan İlişkileri 1839-1995, I, Ankara 2007.

(119) Ümit. "The American", p. 37.

(120) Loc. Cit.

(121) Report of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1918, p. 170; Lippe. "The Other", p. 33.

الأضرحة بمدينة تلمسان . دراسة نموذجية .

د/ مطروح ام الخير / قسم الاثار القديمة /معهد العلوم الانسانية و الاجتماعية

/ بجامعة مرسلي عبد الله تيبازة.

د / دحماني صبرينة نعيمة / جامعة ابو بكر بلقايد تلمسان / قسم الاثار

/معهد العلوم الانسانية و الاجتماعية.

Abstract:

Humann intéressât since the préhistorique période, the construction of cimenteries, as I fond thème a variété of formats and Most notable, and graves cimenteries dubbed (analgésique), which Is about tables of stone Is made up of several rooms a height of between mètres and There mètres, also fond formes the other Is a caves carved in the rocks, and the Most important of those used in the caves "mezzanine-covered roof", are to Be fond in various formes to the Egyptiens, which was characterized by volumineux pyramide and Terrace, is quitte similaire to that fond in the civilisation of Mesopotamia.

Where it was built and huge private terraces of marble temples, which consists of three vehicle sections on top of each other, be square base underpinning the temple surrounded by columns strikethrough pyramid In the era Romans, it has found three types of shrines: the shrines in the form of cellars

underground, and the tombs of commemorative round surrounded Bbwaik its ribbed ceiling, and pyramidal tombs that have been made to Rome after its occupation of Egypt, as we find shrines in buildings Persian before Islam, had taken the forms in the form of towers, is a small circular room covered ceilings Msenmh, to the advantage of the Syrian shrines, especially in the period between the sixteenth and the fourth BC form cube that surmounted by a small pyramidal roof, and the spread of this type in all of Aleppo and Antioch to care about the rulers and the population in the Maghreb East great interest in building shrines on the graves of saints and scholars, mystics The rulers, however, most of these shrines today are unknown history do not know the history of construction and in some cases even their personal defunct.

تمهيد:

اهتم الإنسان منذ فترة ما قبل التاريخ بتشييد المدافن والقبور⁽¹⁾، إذ وجدت لها أشكال متنوعة ولعل أبرزها المدافن التي يطلق عليها اسم (مسكن)، وهي عبارة عن مناخذ حجرية تتكون من عدة غرف يبلغ ارتفاعها ما بين متر وثلاثة أمتار، كما وجدت أشكال أخرى عبارة عن مغارات منحوتة في الصخور، ومن أهمها ما استخدم في مغارات "الدهاليز المغطاة بسقف"⁽²⁾، لتوجد بأشكال مختلفة عند المصريين، حيث تميزت بالضخامة كالأهرامات والمصاطب⁽³⁾ ما يشبه إلى حد كبير ذلك الذي وجد في حضارة بلاد الرافدين.

حيث كانت تبني المعابد الضخمة وخاصة المصاطب من المرمر ، التي تتكون من ثلاثة أقسام مركبة فوق بعضها البعض ، تكون قاعدتها مربعة يقوم عليها معبد محاط بأعمدة يتوسطه شكل هرمي⁽⁴⁾ أما في العصر الرومان ، فقد وجدت ثلاثة أنواع من الأضرحة وهي : أضرحة على شكل أقبية تحت الأرض ، ومقابر تذكارية مستديرة محاطة ببوائك لها سقف مضع ، و الأضرحة الهرمية التي أدخلت إلى روما بعد احتلالها لمصر⁽⁵⁾ ، كما نجد الأضرحة في العمائر الفارسية قبل الإسلام ، قد اتخذت أشكالاً على هيئة أبراج ، عبارة عن غرف دائرية صغيرة مغطاة بسقوف مسننة ، لتمتاز الأضرحة السورية خاصة في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد بشكلها المكعب الذي يعلوه سقف هرمي صغير ، وينتشر هذا النوع في كل من حلب وإنطاكية⁽⁶⁾ ، كما تنتشر ظاهرة الأولياء الصالحين والأضرحة جغرافياً و تاريخياً في تراث المجتمعات الإسلامية ، كما نجد منطق قداستها المتميز في أقاليم المغرب العربي (تونس ، المغرب ، الجزائر) ، و هذا المنطق ذاته يظهر وظيفتها الدينية ، الثقافية و الاجتماعية .. في البيئة الاجتماعية الكلية لهذا المغرب و لكل إقليم منه . على هذا فكل وظيفة و ترتب على خصوصية الوالي الصالح في نسبه و بركته و كرامته و شرفه و في تخصصه و دوره في إقليمه في حياته و أثره بعد وفاته. و هذا ما يحدد نوع و طبيعة الطقوس و الممارسات الإعتقادية التي يقوم بها أفراد منطقة أو بيئة معينة اتجاه ضريحها المتواجد بإقليمها لقضاء حاجاتهم ، باعتبار أبعاد الظاهرة الدينية متعددة بحسب تركيبها و ما تصبوا إليه الابحاث السوسيو دينية في بناء علم اجتماع الدين ، المهم وضع الظاهرة في مرجعها الاجتماعي لأنها لا تعرف به حسب سياق الدكتور يوسف شلخت⁷.

و في بلاد المغرب الأوسط كان الاهتمام كبيراً ببناء الأضرحة على قبور الأولياء الصالحين والعلماء والمتصوفين والحكام إلا أن معظم هذه الأضرحة أصبحت اليوم مجهولة التاريخ (لا يعرف تاريخ تشييدها وفي بعض الأحيان حتى الشخصية المقبورة بها)⁽⁸⁾.

يجمع بنا القول أن الطرق الصوفية عرفت انتشاراً واسعاً فضلاً عن كثرة المباني المخصصة لها من مدارس وأضرحة ، ففي المدن والأرياف عاش هؤلاء يبتون أفكارهم ويلقنون عقائدهم مؤثرين العزلة والعبادة ، فإذا ذاع صيت أحد ، أسس مدرسة أو مركزاً يستقبل فيه الزوار والأتباع ويعلمهم مبادئ الدين .
والجدير بالملاحظة أن تقسيم هذه الأضرحة اتخذ الشكل التقليدي المعروف ، وهو مربع تعلوه قبة نصف دائرية ، فتحت بواجهاته الأربعة فتحات معقودة، وقد أستعمل هذا النوع من التخطيط لأول مرة في بالرمو (Palermo) بصقلية⁽⁹⁾،
ليعم استعماله بشكل كبير في جنوب المغرب الأوسط عامة و بتلمسان خاصة .

أولاً : تعريف الولي الصالح او المرابط .

قبل الخوض في تعريف الاضرحة و اوليائها الصالحين ، لا بد من تعريف مرادف صاحب الضريح و هو كلمة الولي الصالح او المرابط . إذاً هو الرجل المؤمن التقي المواظب على الطاعات المتقيد بأوامر الله و نواهيه العارف بالله لقوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} ،¹⁰ و الولي على العموم القريب من الله و أصل هذه الكلمة فعل ولي ، و معناه النصير و هو احد أسماء الله الحسنى { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }¹¹ ، و الولي ايضاً هو الصالح

، و الطاهر ، و الصديق ، حيث يرى المتصوفة¹² ، { و اصل التصوف هو العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الاعتراض عن زخرف الدنيا و زيتتها ، و الإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، و اختصت هذه النوعية من العبادة بالصوفية ابتداء من القرن الثاني بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم } . و الزهد أن الولي هو العارف بالله الذي تصدر عنه كرامات¹³ ، و الأولياء مراتب ، إلى أن يصلوا إلى المرتبة العظمى ، مرتبة الأقطاب و يري المتصوفة أنه لا يخلوا عصر من ولي سواء كان ظاهراً أو خفياً .

ثانياً : تعريف الضريح و نشأته .

مصطلح الضريح اطلق على المكان الذي يوارى فيه جسد الانسان ، و له عدة تسميات منها :

1. القبر : هو مدفن الانسان و الجمع قبور يقبره دفنه و اقبره و جعل له قبراً.¹⁴
2. المدفن : هو مكان دفن الانسان و الدفن هو " الستر و المواراة ، دفنه يدفنه دفناً ، و أدفنه فاندفن و تدفن فهو مدفون و دفين و دفن الميت واره هذا الاصل ثم قال دفن سره ؛ أي كتفه و الدفينة الشيء تدفنه "¹⁵.
3. التربة : تعني المقبرة و ترب الميت ؛ أي صار تراباً.¹⁶
4. الجنن : جن الشيء يجنه ستره و كل شيء ستر عنك فقد جن عنك ، و الجنن بالفتح القبر لستره الميت و الجنن ايضاً الكفن ، لذلك و أجنه كفنه و الجنين المقبور و يقال للقبر الجنن و يجمع على اجنان .¹⁷

5. **الجدث** : هو القبر و الجمع أجداث ، و في الحديث (نبؤوهم أجداثهم ؛ أي نزلهم قبورهم ، و قد قالوا : جدف الفاء بدل الثاء لأنهم قد أجمعوا في أجداث و لم يقولوا أجداف).¹⁸

6. **اللحد** : و الجمع ألحاد و لحود ، و هو شق يعمل في جانب القبر فيميل عن وسط القبر إلى جانبه بحيث يسع الميت ، فيوضع فيه و يطبق عليه اللبن ، و سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية و أصل الإلحاد الميل و العدول عن الشيء و من ثم قيل للمائل عن الدين الملحد .¹⁹

7. **الضريح** : و هو شق في وسط القبر ، و قيل القبر كله و قيل هو قبر بلا لحد ز سمي ضريحاً لأنه يشق في الأرض شقاً .²⁰

و تدل معظم الاحاديث النبوية الشريفة على استحباب اللحد و انه أولى من الضريح ، و الى ذلك ذهب الأكثر كما قال النووي ، و حكى في شرح مسلم إجماع العلماء على جواز اللحد و شق ووجه ذلك أن (النبي صلى الله عليه و سلم) ، قرر من كان يضرح و لم يمنعه .²¹

ومن المعروف أنه لحد الرسول (صلى الله عليه و سلم) ، كما امر سعد بن ابي وقاص أن يلحد له لحداً و ينصب عليه اللبن كما صنع بالرسول (صلى الله عليه و سلم) .²²

كما أطلقت الوثائق على المدفن الذي يعلوه قبة اسم القبة ، أو القبة المدفن²³ ، و قد شاع مصطلح المقبرة و التربة رمزا للضريح ، اما القبر فهو آخر مثوى للإنسان البسيط و العادي .²⁴

و الضريح معلم توفرت فيه سمات العظمة و الهيبة ، و بقي ترمي اليه موجات القبول و الرفض بسبب النزعات الدينية و الاتجاهات المذهبية ، و لا يكاد يخلو أي ضريح من القبة ، و القبة اختلفن حولها الآراء ، فمنهم من ذهب الى انها ترمز إلى صورة متطورة للخيمة التي يستخدمها البدو ، و في بلاد المشرق إلى الباري عز و جل ، أي ملك السموات الارض .²⁵

و ذكر فريق آخر الى ان وجود القبة التي تبني فوق الضريح ، سواء فارسية أو إسلامية ، ترمز إلى السماء .

تتمركز الاضرحة في الريف و يتزايد عددها كلما تقدمنا نحو الغرب ، كما نجدها في الجوار المباشر لأبواب المدينة ، و في المقابر خاصة ، حيث يدفن الرجل الصالح من أجل ضمان بركة هذا الباب ، فالوالي هو نوع من العبقرية الحامية للمكان المعين ، كم نجد في بعض الاحيان مقابر امام أو خلف أو بجوار الضريح من اجل التبرك ، و المرتفعات ايضا تعد من الاماكن الملائمة لدفن الصالحين .

كما نجد في الكثير من الاحيان اضرحة في جوار المباشر للمسجد اين يدفن الزهاد و العلماء و بالقرب من المصليات التي كانوا يترددون عليها خلال حياتهم ، و الامثلة كثيرة من هذا النوع خاصة في مدينة تلمسان .

1. ضريح سيدي بومدين

سيدي ابي مدين شعيب بن الحسين الانصاري الأندلسي المعروف باسم أبي مدين ، و هو من اعيان مشايخ المغرب ، ولد بإشبيلية بالأندلس حوالي سنة (520 هـ / 1126م) في أواخر عهد المرابطين و بدء عهد الموحدين²⁶

يقع ضريح سيدي أبي مدين ضمن النسيج العمراني لقرية العباد التي تقع جنوب شرقي مدينة تلمسان .

لقد تم انشائه بأمر من السلطان محمد الناصر ابن السلطان الموحيدي ، في اوائل القرن السادس الهجري ²⁷ ، و كان هذا السلطان أول من شيّد الضريح ، فكان ذلك قاعدة لمن أتى بعده ،، في الإبداع و التزيين ، فقد عمل السلطان يغمراسن ابن زيان على تزيين هذا الضريح ، كما امر بدفن السلطان الموحيدي السعيد بمقبرة سيدي أبي مدين و ذلك تكريماً لروح السلطان ²⁸.

يحتل ضريح سيدي أبي مدين ، مكانة كبيرة في عمارة تلمسان ، تم تصنيفه سنة 1900م ، و يعتبر من أهم معالمها الهامة ، و قد ارتبط تاريخه ارتباطاً وثيقاً بتاريخ تلمسان إذ ظل ضريحه مكاناً ماثوراً عند الأجيال التي تعاقبت عبر الزمن على تلمسان. ²⁹

فهو مقصد الزوار من كل مكان ، من مؤرخين و رحالة و مسافرين ، و كل من كتب حول إفريقيا الشمالية ، فأبن بطوطة العائد من رحلته من المشرق عام 750هـ مر بتلمسان ، و كانت زيارته الاولى إلى ضريح سيدي أبي مدين ³⁰ ، كما وصفه ابو محمد العبدري ، الذي توقف بتلمسان قادما من المغرب في رحلته الى البقاع المقدسة ، في كتابه الرحلة المغربية " أجلّ و أكثر الأضرحة تبجيلا الموجودة ، ضريح العابد أبي مدين ، وحيد عصره " ³¹.

و يصفه سيد احمد السقال بقوله : " و قبر أبي مدين بالعباد معهود ، مشهور و حرض للزائرين ، رأيت من قبور الأولياء ، فما رأيت أنور من قبره ، و لا أشرق و لا أظهر من سره و ليس الخبر كالعيان " ³².

و ذكر المقرئ بقوله: " و قد زرته و دعوت الله تعالى عنده، بما أرجو قبوله " ³³.

1.1. الوصف المعماري

يتكون الضريح من غرفة تضم مرقد الولي الصالح ، و من ساحة امامية (مخطط رقم 01).

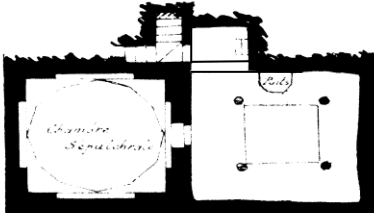
نلج الى الضريح بواسطة باب صغير معقود بعقد حذوي ، يبلغ طوله 88 ، 1م و عرضه 86 سنتم ، يحيط به إطار من البلاطات (صورة رقم : 01) ، و اسفل الشرعة مباشرة نجد وجود زخرفة عبارة عن بائكة ، ذات عقود مفصصة تركز على أعمدة صغيرة ، و يعلوا الظلة من الخارج سقف هرمي الشكل مكسو بالقرميد الأخضر.

ثم ندخل الى الضريح بواسطة سلم يتكون من تسعة درجات يؤدي الى صحن ذو مخطط قريب من المربع يبلغ طوله 40 ، 5 م، و هو يعد بمثابة قاعة انتظار للزوار قبل الدخول الى الضريح ، و يحيط بالصحن من الجهات الاربعه رواق يرتكز على اعمدة تعلوه تيجان من الرخام ، و حسب الشريط الكتابي المنقوش على احدى تيجانها ، انها استقدمت من قصر النصر الذي بناه أبو الحسن بالمنصورة ، هذه التيجان بها القطعة العلوية مزينة (حسب ثلاث نماذج مختلفة) بشكل مربع يبرز قليلا ، و مكسوة في قاعدتها بمراوح نجيلية مقسمة ، تربطها إلى أزواج رابطة متوسطة و قطعة اسطوانية وحوها لفائف في القمة ، من بينها اثنان يحملان شريطين كتابيين ، و منحنيات هذه الاشرطة متمددة ، و لا تستمر على مختلف الواجهات من اجل تشكيل دائرة واحدة ، و ثلاثة من هذه التيجان تحمل لفائف حلزونية " تاج الزاوية الجنوبية " ، و تعلو هذه الاعمدة عقود نصف دائرية.

كما نجد في الجهة الجنوبية الغربية بئر مشكل من الخام الاصفر في حالة رديئة نظرا لعدم المحافظة عليه ، و الى جانبه وجود شواهد قبور من الرخام عليها زخارف هندسية .

اما غرفة الضريح توضح لنا نماذج من تناسق الاشكال و الابداع في النحت ، زيادة على كونها غرفة مرقد الولي الصالح أبي مدين . (صورة رقم 02).

اما القبة التي تغطي هذا الضريح قبة نصف كروية ، قطرها 30 ، 4 م و ترتكز على 12 لوحة مزينة 24 عقدا نصف دائري ، منها تنطلق سلسلة تشبيكات هندسية تنتهي بنجمة ذات 24 رأساً تحمل المركز . و هي ميزة من مميزات الزخرفة في الفترة المرينية ، و التفرعات النباتية التي تكون زخرفة القبة تحدد 24 أنصاف مغازل تتسع ثم تضيق ، و هي محلات بزخرفة نباتية ترتكز على 24 عقدا حذوياً مزين بغصينات و مراوح نخيلية .³⁴ (صورة رقم 03).



مخطط رقم 01



صورة رقم 01



صورة رقم 02



صورة رقم 03

2. ضريح سيدي الداودي :

ضريح مصنف في القائمة المرجعية لسنة 1318هـ/ 1900م، ليصنف على مستوى الولاية في 19 رمضان 1387هـ/ 20 ديسمبر 1967م، حيث صدر ذلك في الجريدة الرسمية رقم 07، بتاريخ 23 جانفي 1986م/ 1387هـ، وهو يسمى عند السكان المحليين بقبة سيدي الداودي⁽³⁵⁾، نسبة إلى سيدي الداودي أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي التلمساني احد فقهاء المالكية، انتقل من طرابلس إلى تلمسان ليعيش فيها إلى غاية سنة 402هـ⁽³⁶⁾، لتوافيه المنية بها، وقد كان محدثا ناقدا وفقهيا بارعا، حيث يعد من الأوائل في شرح صحيح البخاري من خلال كتابه النصيحة⁽³⁷⁾.

1.2. الموقع: يقع الضريح بالزاوية الشمالية الشرقية من مدينة تلمسان، بحي سيدي الداودي بناحية اغادير يحيط به من الجهة الجنوبية الغربية مجموعة من قبور بأحجام مختلفة (صغيرة وكبيرة) وهو يمتد على مساحة مربعة (3مX3م)، واجهته الرئيسية غربية، يتوسطها مدخل مستطيل تصل قياساته إلى حوالي (2 x 90 م)، تزينه عضادة خشبية، محاط بإطار داخله عقد مفصص تعلوه ظلّة مغطاة بالقرميد الأخضر، و على يمينه ويساره فتحتان مربعتا الشكل مسيحتان بالحديد (تستعملان حاليا كأماكن لوضع الشموع)، وتعلو الهيكل الخارجي قبة مضلعة ترتكز على رقبة مربعة قليلة الارتفاع.

2.2. الوصف المعماري:

الضريح أحادي التخطيط، إذ يتكون من مدخل يفضي مباشرة إلى قاعة مربعة الشكل مقاساتها (3 x 3.09 م)، تتوسطها قبة مركزية مضلعة مرتكزة على أربعة أعمدة اثنان منها مدججتان في الجدار الشمالي، مشطورتان من

جهتين واثنان تتوسطان القاعة ، وسقف الضريح مقبب الشكل ، أما عن أرضية فهي مبلطة بالآجر ، ويخلو الضريح من أي قبر لولي صالح أو رجل دين ، وهو خالي من التنميق الزخرفي ، كما نجد مبنية بالحجارة المطلية بالمني والجير ، الأعمدة بالآجر ، اما المعدن ستخدم في سياج النوافذ والباب ، كما استخدم القرميد في الضلّة ، وفيما يخص حالة حفظه فإننا نجد في حالة حسنة كونه شهد ترميمات حديثة من طرف مديرية الثقافة .

فمن خلال دراستنا لمخطط الضريح وهندسته المعمارية ، نستشف انه يعود للفترة العثمانية وهذا ما توحى إليه القبة المركزية ، التي نجدها تميز كل العمائر العثمانية أضرحة كانت أو حمامات أو مساجد لكن ما يجعلنا نقف حائرين هنا هو السنة التي توفي فيها الولي الصالح التي تعود للفترة العثمانية ، إذ نجدها متباعدتان ، فهل كان مجرد قبر في المكان إلى أن جاء العثمانيون وأقاموا عليه ضريحاً بقبة ؟ ويبقى الغموض مطروحا هنا إلى أن ينال قسطا من دراسات أخرى في المستقبل في اطار حفظ و ترميم المعالم الاثرية .

إلى جانب (طبيعة المبنى)، فهناك من يرى انه مسجد و من يرى انه ضريح في حين أن المصادر التي تناولت الحديث عنه تقول دائما ضريح أو قبة ، أمثال (M.E Lorrail و G.Marçais Brosslerd)، الذي يذكر في حديثه عن رحلته إلى تلمسان ، أنه رأى باب تحمل اسم سيدي الداودي حيث يقول " ...هناك ضريح صغير جميل وهو أبيض كالثلج وإلى جانبه قبة تحمل نفس الاسم قبة سيدي الداودي هذا الذي كان شيخ المدينة ليخلفه بعد ذلك سيدي بومدين ..."⁽³⁸⁾ وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن القبة التي تبعد عنه ببضعة أمتار بالتحديد في الجهة الجنوبية الشرقية منه هي التي يقصدها في كلامه عندما أشار إلى أنها

لسيدي الداودي ، إذ بنيت بنفس التخطيط الذي شيدت به قبة بنت السلطان. (صورة رقم 04).



صور رقم : 04توضح الواجهة الرئيسية لضريح

3. ضريح سيدي وهاب:

هو واحد من بين الأضرحة التي توجد في مقبرة سيدي يعقوب ، مصنف في القائمة المرجعية لسنة 1318هـ / 1900م، حيث صنف على مستوى الولاية بتاريخ 20 ديسمبر 1967 م، ليرد ذلك في الجريدة الرسمية رقم 07 الصادر في 23 جانفي 1968 م.

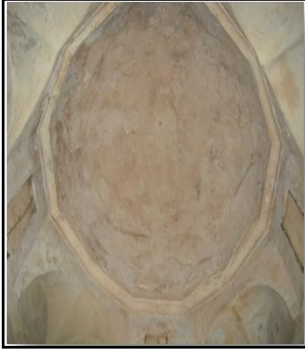
اطلق عليه اسم الوالي سيدي وهب من طرف السكان ، وهو يقع شمال غرب المدينة ، بالضبط شمال مسجد سيدي يعقوب ، واجهته الرئيسية شرقية ، يحده شرقا ضريح سيدي يعقوب ومباني سكنية من الجهات الأخرى ، وهو يعد من أقدم المباني الجنائزية التي شيدت بالمدينة ، حيث ينسب للشيخ سيدي وهب بن المنبه الذي وطأه أقدامه⁽³⁹⁾ الأرض التلمسانية بعد عقبة بن نافع ، توفي بتلمسان وشيد له ضريح بالشمال الغربي من المدينة عند الباب المنسوب إليه⁽⁴⁰⁾.

كما يروي (Lorral في كتابه Le Toure de Mond) عن هذا الضريح أنه عندما قام برحلته إلى تلمسان مر على ضريح سيدي وهب فكان عبارة عن أطلال⁽⁴¹⁾ (مجموعة من الحجارة المتراسة فوق بعضا البعض ، وهنا نتساءل كيف كان الضريح قبل اندثاره وعلى أي أساس تم إعادة بناءه وفي أي فترة كان ذلك ؟

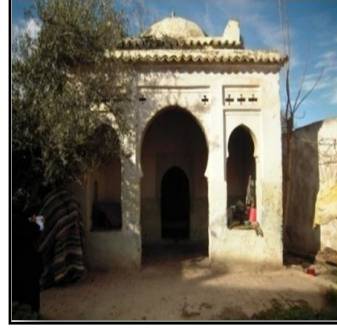
1.3. الوصف المعماري:

يتكون الضريح من قاعة مربعة الشكل (صورة رقم :05)، تعلوها قبة و بتقدمها رواق ، ويتوسط واجهة الضريح مدخل معقود بعقد منكسر ، كما تحف بالمدخل نافذتان مستطيلتان بدون إطار أو ساكف ، ليلي المدخل رواق مستطيل ذو سقف خشبي ، أين يتخلله في الوسط مدخل ذو عقد نصف دائري (الباب الحديدي) يفضي إلى قاعة الضريح ذات الشكل مربع ، تعلوها قبة مضلعة بإثنتي عشرة ضلعا⁽¹²⁾ (صورة رقم :06)، تشبه قبة سيدي العباد ، وترتكز مباشرة على جدران القاعة ، تلك التي تتخللها مشكاة مستطيلة لوضع الشموع ، ويتوسط القاعة قبر للولي الصالح سيدي وهب.

الضريح خالي من الزخرفة ، ما عدى تلك الأشكال التي تتوج الواجهة والتي تعلو العقود متخذة شكل علامة زائد + ، وهو مبني بالأجر ، أما عن حالة حفظه فنجد في حالة تحتاج للصيانة الدورية على الرغم من انه مشغول من طرف عجوز (التي تتخذة كمأوى لها).



صورة رقم : 06 توضح القبة
الداخلية للضريح



صورة رقم 05: توضح الواجهة الجنوبية

4. ضريح سيدي يعقوب التفريسي :

ضريح مصنف في القائمة المرجعية لسنة (1318هـ / 1900م)، حيث كان ذلك رسمياً في 20 ديسمبر 1967م ، الصادر في الجريدة الرسمية رقم 07 ، بتاريخ 23 جانفي 1968م ، وقد منح اسم سيدي يعقوب لأربعة أضرحة بالمدينة⁽⁴²⁾ ، حيث نجده يطلق على مبنى مربع الشكل ترتفع فوقه قبة مضلعة ، تبعد عن المبنى الثاني الذي يحمل نفس الاسم (ضريح سيدي يعقوب) وهو مبنى مكشوف ، وثالث هو القبر الذي يحتويه حمام مولاي يعقوب ليقى المبنى الرابع مجهول المكان الى حين تظهره الحفريات التي تبرمجها وزارة الثقافة ، سمي بضريح سيدي يعقوب نسبة إلى الولي الصالح الزاهد في الدنيا (يعقوب التفريسي) المقرئ للإنس والجن ، توفي بتلمسان وقبره رضي الله عنه بباب وهب بن منبه معروف بحجاب الدعوة رحمه الله⁽⁴³⁾ ، وما لدينا كمعلومات عن تاريخه هو انه يعود للفترة الزبانية ، ليقى تاريخ تشييده مجهولا الى يومنا هذا .

1.4. التخطيط : يتربع الضريح على مساحة مستطيلة له أربعة واجهات ،

الرئيسية غربية جنوبية و يقابله من الجهة الشرقية قبة بنت السلطان ، ومن الجهة

الجنوبية سور قليل الارتفاع الذي تفتح به حنية محراب موجهة نحو الجنوب كليا (آثار مصلى قديم)، يفصله والمنازل المجاورة له، ويقابله من الجهة الغربية ضريح سيدي وهب.

2.4. الوصف المعماري : الضريح أحادي التخطيط، يتكون من أربعة جدران ، يصل طول الواحد منه إلى حوالي 2م، مشكلا بذلك قاعة مربعة الشكل مقاساتها (1.99 م x 1.89 م) يتوسطها قبر بشاهدين وعلى يمين القبر شجرة ، الضريح خالي من الزخارف و النقائش ، وهو يحتاج الى للصيانة الدورية ، إذ أضحي مقصدا للمنحرفين . (صورة رقم : 07).



صورة رقم 07 : توضح سيدي يعقوب التفريسي

5. ضريح سيدي الحلوي (ابو عبد الله الشوذي) :

يقع ضريح سيدي الحلوي الشوذي شمال شرق مدينة تلمسان فوق هضبة ترتفع عن الجامع بحوالي 100م ، صنف في نفس التاريخ الذي صنف فيه المسجد ، في 20 ديسمبر 1967م ، وقد صدر ذلك في الجريدة الرسمية رقم 07 ، بتاريخ : 23 جانفي 1968م ، بني الضريح مباشرة بعد مقتل الولي الصالح ، سنة ()

705هـ / 1305م) ، وهو يعد من بين الأضرحة التي تشيد عند بوابات المدن لحمايتها ، فهذا الضريح وجد في هذا المكان لحراسة باب الزاوية⁽⁴⁴⁾، واجهته الرئيسية الجهة الشمالية ، تحتضن باب يبلغ 85 سنتم مطلي باللون الأخضر الداكن يعلوه عقد نصف دائري ، يحيط به من الجهة الشرقية سور حديث يفصله عن الطريق المؤدي شرقا إلى وسط المدينة وغربا إلى السجن ومناطق أخرى ، أما من الجهة الجنوبية فممر حديث لاختصار الطريق من أجل الوصول إلى المحطة القريبة منه .

1.5. الوصف المعماري:

الضريح أحادي التخطيط ، يتربع على مساحة مستطيلة الشكل مقاساته (3.70 x 2.05م) واجهاته الأربعة مزدانة بالبلاطات الخزفية (فسيفساء ذات أطباق نجمية) ، كما يتوج سقفه القرميد الأخضر الحديث ، ويفتح بابه الحديدي بالواجهة الشمالية ، يفضي إلى قاعة المدفن ذات الشكل المنتظم (قبر سيدي الحلوي) ، تتخلل جدرانها ثلاثة كوات ، الأولى بجدار القبلة يبلغ عرضها 55 سنتم و عمقها 35 سنتم والثانية بالجدار الجنوبي الغربي يبلغ عرضها 45 سنتم و عمقها 32 سنتم ، أما الثالثة فتوجد بالجدار الشمالي يبلغ عرضها 25 سنتم و عمقها 35 سنتم .

يتميز ضريح سيدي الحلوي بخاصية تميزه عن غيره من الأضرحة ، حيث يحتوي على محراب مصلع يقع بيسار المدخل ، و تزينه فتحة يبلغ عرضها 88 سنتم ، يعلوها عقد حذوي يتوجه عمودان مدحجان بالجدار ، كما يبرز نحو الخارج بحوالي 45 سنتم ، و يحيط بفتحة محرابه زخارف كتابية ، لم يبق منها سوى كلمتين، (بم وكلمة الله) ، هذا إلى جانب الزخرفة الهندسية التي تتمثل في الأطباق النجمية التي

تتوسطها وريادات ، ويعلو قاعة الدفن سقف خشبي ، يتوسطها قبر مغطى بصندوق خشبي.

اما بالنسبة لحالة حفظه فهو في حالة حسنة على الرغم من الترميمات الحديثة التي شهدتها سنة 2003 م تلك التي ساهمت في اخفاء بصته الأصلية ، لتضفي عليه صبغة جديدة. (صورة رقم 08).



صورة رقم 08: ضريح سيدي الحلوى

6. ضريح سيدي ابي الحسن الراشدي:

تم تصنيف هذا الضريح على مستوى الولاية بتاريخ 20 ديسمبر 1967 م ، و صدر بالجريدة الرسمية رقم 07 بتاريخ 23 جانفي 1968 م ، وحسب الذاكرة الجماعية ينسب إلى الشيخ سيدي لحسن بن مخلوف الراشدي ، الذي توفي سنة 1453 م ، واحتمال كبير انه يعود لفترة السلطان أبو العباس أحمد.

يقع الضريح خارج المدينة على بعد 200 م ، إذ يحتل الزاوية الشمالية الشرقية ، خارج الأسوار التي كانت تحد المدينة ، يحيط به من الجهة الشرقية مسجد

سيدي بلحسن الراشدي ومن الجهة الغربية مباني سكنية ، واجهته الرئيسية تتصدر الجهة الغربية.

1.6. الوصف المعماري:

يتكون المعلم من ممر مستطيل يتم الولوج إليه من خلال مدخل معقود بعقد حدوي ، ليفتح به باب خشبي يفضي إلى قاعة الضريح ذات مخطط مربع الشكل مقاساته (2مx2م)، (صورة رقم : 09) تحتوي في زاويتها الشمالية هيكل خشبي على شكل سرير ، جزء منه يغطيه القماش الأخضر والجزء الآخر مكشوف ، إلى جانب قبر يتوسط قاعة الضريح ذو شاهدين حجريين ، كما نجد بجداره الجنوبي نافذة خشبية وبالجدار الشرقي كوة ، و تعلو المساحة المربعة سقف خشبي مزدان برسومات هندسية ذات ألوان مختلفة ، تناوبت بين الأصفر والأزرق والبرتقالي والأبيض ، وما يلاحظ عن الضريح انه يقع في منحدر أي في مكان منخفض عما يجاوره ، فهل هذا راجع إلى إعادة تهيئة المكان؟، ام ارتفاع في سطح الأرضيات المحيطة به ، أم أن هذا الانخفاض راجع إلى أمر آخر؟، وهو اليوم في حالة حفظ جد سيئة ، يحتاج للترميم و الصيانة الدورية.



صور رقم: 09 :
ضريح سيدى بلحسن، و السقف الخشبى، الذى بعثله

7. ضريح سيدى الحباك:

تم تصنيفه سنة (1418 هـ/1994م)، حسب الجريدة الرسمية رقم 07 الصادرة بتاريخ 23 جانفي 1968م، تدل تسميته على أنه مرقد لصاحبه الحباك الذي كان يقطن بالمنزل المقابل له، هو الشيخ أبو محمد عبدون بن محمد الحباك، فقيه حاجب لأمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان⁽⁴⁵⁾، كان ذا رأي سديد وله بالبلد خلف من نمط التجار الأخيار، رحمة الله عليه وبرد ضريحه⁽⁴⁶⁾، عاش بتلمسان وتوفي بها كما ذكر الونشريسي سنة (867هـ / 1462م)،⁽⁴⁷⁾.

1.7. الموقع :

يقع الضريح في زقاق جد ضيقة بنهاية شارع باب علي، يحده من الجهة الشرقية منزل الحباك حيث يفصلهما الزقاق، ليحده من الجهات المتبقية منازل سكنية أخرى.

2.7. الوصف المعماري:

يتكون المعلم من الفناء مكشوف و قبة الضريح ، تشغل غرفة الدفن (الحباك) والساحة التي تتقدمه ، مخططها ذا شكل مربع طول ضلعه خمسة أمتار ، بحيث يقع المدخل الحالي في أقصى الجانب الشرقي ، إذ تتصدره المساحة المكشوفة ، التي نجد بها قبرين بالجهة الشمالية على يمين المدخل الرئيسي ، القبر الاول لابن الحباك والثاني مجهول ذلك لعدم وجود كتابة على الشاهد ، يعلو الجدار الشرقي للضريح لوحة تذكارية تحمل بعض المعلومات الخاصة بسيدي الحباك ، كما نجد بالجدار نفسه باب يؤدي إلى غرفة دفن سيدي الحباك، وهي غرفة مربعة الشكل تتخلل جدرانها الأربعة كوات على طول الجدار معقودة بعقود نصف دائرية فتحت فيها حنيات مربعة صغيرة الحجم ، و تعلوا غرفة الدفن قبة مضلعة مكونة من اثني عشرة ضلعا خالية من الزخارف (صورة رقم: 10)، ويؤمن منطقة انتقالها حنايا ركنية.

اما بالنسبة لحالة الحفظ فالضريح في حالة متقدمة من التدهور ، فالصحن تغطيه الأعشاب والنباتات حتى تكاد تخفي القبور الموجودة في زاويته الشرقية ، ناهيك عن الفضاء الداخلي (غرفة الدفن) (صورة رقم: 11) التي تكاد تسقط بعض أجزائها بسبب تآكل السطح ، إذ أصبح اليوم عرضة للأضرار الناتجة عن الطبيعة ناهيك عن الاضرار الناتجة عن العوامل البشرية .



صورة رقم : 11 القبة

صورة رقم : 10 ضريح سيدي الحباك .

8. ضريح سيدي ساعد :

ينسب الضريح لأحد علماء وحكماء مدينة تلمسان في العصر الوسيط ، هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ساعد الأنصاري الأندلسي توفي بالقاهرة سنة (901هـ/1496م) ، حيث يعتبر ضريحه مكان لإقامة و تلقين مختلف العلوم . (48)

1.8. الموقع :

يقع الضريح داخل النسيج العمراني الذي يتوسط المدينة ، بدرج سيدي ساعد (مخطط رقم 02) ،
(صورة رقم 12)، شارع الاستقلال ، يحده من الجهة الشمالية والغربية وحتى الشرقية مباني سكنية ، ومن الجنوب وكالة القرض الشعبي الجزائري ، وهو وقف تسييره وزارة الشؤون الدينية ، على الرغم من أنه غير مصنف ، وذلك بسبب ارتباطه بمباني سكنية .

2.8. الوصف المعماري:

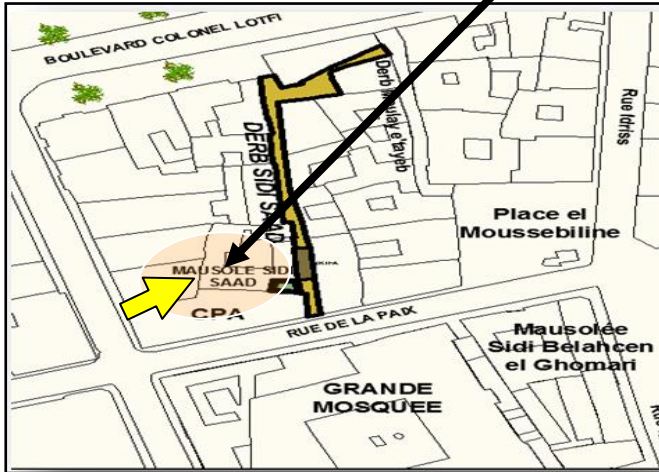
يتمد المعلم طوليا على مساحة مربعة تقريبا تبلغ حوالي 61 م² ، تتكون من غرفة المقدم . و خلفها توجد ساحة صغيرة مكشوفة تضم القبر ، ومن بين مواد البناء التي تدخل في تركيبه ، نجد الآجر والخشب والمعدن.

اما حالة الحفظ حسنة لكن رغم ذلك فانه يحتاج للصيانة الدورية ، إذ أن الرطوبة تكاد تقضي على المواد الرابطة للمادة الأصلية .



صور رقم : 12 موقع ضريح سيدي ساعد من

درب سيدي ساعد



مخطط رقم : 01 :

موقع ضريح سيدي ساعد من النسيج العمراني

9. ضريح سيدي بلحسن الغوماري:

يقع الضريح بدرج سبع أقواس ، على مستوى درب سيدي بن لحسن (ساحة الأمير عبد القادر) يقابل الجامع الكبير من الجهة الشمالية الغربية ، كما تحيط به من كل الجهات مباني سكنية، صنف وطنيا سنة (1322هـ / 1904م) ، وعلى مستوى ولاية تلمسان في 20 ديسمبر 1967م، صدر بالجريدة الرسمية رقم 07 ، 23 جانفي 1968 م .

1.9. الوصف المعمارية:

الضريح مربع الشكل (2مx1.86م)، تتضمن مساحته المربعة شاهدين حجريين غير واضحة الكتابة ، يزين جهته الشرقية عقد منكسر يربط بين الجدار الشمالي والجنوبي ، وبالجدار الشرقي نافذة مؤثثة بإطار خشبي و بيسارها باب حديدي تزينه ظلل حديثة تعلوها نقيشة رخامية ، هذا الضريح بسيط في تكوينه الإنشائي ، وهو اليوم في حالة تستدعي التدخل لصيانتته وحمايته من الانهيار و الاندثار (صورة رقم :13).

ملاحظات: الضريح حسب السيد محمد باغلي⁽⁴⁹⁾، يعود لسيدي بلحسن

الغوماري ، وذلك استنادا على المعلومات الشفوية المستوحاة من الجيل القديم حيث يذكر أن هناك وصية لأبي الحسن الغوماري ، كانت مودعة بمكان عمله في مركز المدينة بالقرب من الجامع الكبير ، هذا المكان المعروف بمكان الاستزاق وكان رفيقه في ذلك سيدي محمد الفروي مع مجموعة من الرجال الآخرين الذين يقومون بزيارة الدويرة التي يعمل بها الحسن الغوماري والتي بجانبها المكان الخاص بمعلمه الذي يعود أصله الى مدينة ندرومة (أحد دوائر تلمسان غربا) أين كان يقيم الحسن الغوماري ليتنقل للتعلم بتلمسان وللعبادة... هذه الشخصية من أولياء الله الصالحين

المنقطعين لعبادته...⁽⁵⁰⁾ توفي بتلمسان ثاني عشر شوال سنة ثمانمائة وسبعة وأربعين ودفن بخلوته شرقي الجامع الأعظم منها أخذ عنه سيدي أحمد زروق⁽⁵¹⁾.



صورة رقم: 13 توضح مرقد و مدخل ضريح سيدي بلحسن

10. ضريح لالة ستي:

يقع الضريح فوق هضبة تعطي سهل مدينة تلمسان يصل علوها الى حوالي 600 م ، و مجال الرؤية على بعد 200 م من كل الجهات ، و مساحة هذا الضريح 5681م² ، (صورة رقم :14) و اسم لالة ستي يعود الى احدى النساء الصالحات ، تم انشاء ضريح لها في اعلى المدينة تكريما للخدمات الجليلة التي كانت تقدمها لأهالي المنطقة . فهي اصغر بنات الشيخ عبد القادر الجيلاني قدمت من العراق و استقرت بتلمسان خلال القرنين (6 - 7 هـ / 12 - 13 م) ، نسجت حولها حكايات شعبية عديدة ، دفنت بالهضبة التي كانت تتعبد فيها و التي حملت اسمها فيما بعد (لالة ستي) ، يقصدها الزوار من كل صوب ، فهي تشكل معلما تاريخيا و آثريا ووقف تحت تسيير وزارة الشؤون الدينية ، تم تقديمه من اجل التصنيف وطنيا في شهر افريل 2011م.

1.10. الوصف المعمارية:

يتكون المعلم من قاعة صغيرة مربعة الشكل تحتضن الضريح ، و مصلى مزين بمحراب و على غرفة صغيرة خاصة بالزوار.



صورة رقم : 14 الضريح قبل الترميم



الضريح من الداخل

الخاتمة:

تعددت الأضرحة بمدينة تلمسان وتنوعت ، فمنها البسيطة في تكوينها(من جزء واحد قاعة الدفن فقط) ومنها المركبة (تحتوي قاعة الدفن المقبية والصحن) ، بغض النظر عن تلك التي ضاعت واندرت معالمها ، ولم يبق منها إلا تلك الاشارات العرضية من خلال كتابات المستشرقين خاصة مثال على ذلك (Brosselard) الذي ذكر انه كانت مجموعة من الأضرحة وشواهد القبور بالعباد اغلبها لم يتم العثور عليها ، هذا إلى جانب بعض شواهد القبور الرخامية ، التي يقول أنها تعود للفترة العثمانية ، كما أننا نجد فقر أخرى ترد فيها أن الجهة الشمالية

الغربية من المدينة كانت تحوي على عدد كبير من الأضرحة و قبور الشخصيات المتصوفة. (52). و يبدو ان شواهد القبور التي إكتشفت اثناء حفرة قصر المشور (2009-2010م) و التي استعملها المحتل الفرنسي كتغطية لمواسير المياه القذرة انما جلبت من اماكن الاضرحة . (صورة رقم : 15).

و من هنا يتبين لنا أن الاضرحة لعبت دورا هاما في التركيبة النفسية و الاجتماعية لمجتمعاتنا ، فالضريح ليس فقط بمعلمه ، بل بما يمثله من رمز مقدس.

53



صورة رقم : 15
شواهد القبور التي تم العثور عليها اثناء حفرة

كما يمكن القول أن الخلفية التاريخية و الدنية كان لها دور فعال في صقل شخصية المؤسسين ، التي ظهرت من خلال الفنون التي خلفوها ، كما يبدو واضحاً تأثرهم ببيئات مختلفة ، و انعكست على الاضرحة ، ثراء و زخرفة ، و إما زهداً و بساطة ، لقد كان يغمراسن ابن زيان مؤسس الدولة الزيانية يجب الفنون و يشجع على العمارة ، و لكنه كان لا يزال متشبعاً بالبيئة البدوية و التيارات الدينية ، و نظراً لقرب عهده بالعهد الموحي ، لذلك نجد بعض الاضرحة بسيطة في عناصرها المعمارية ، مثل ضريح سيدي مرزوق ، و ضريح سيدي الحلوي

الذي اسسه السلطان ابو زيان عثمان بن يغمراسن ، لأن في عهد هذا الأخير عاشت تلمسان الكثير من الصراعات ، و كان الفن يخطو خطوات بطيئة . فلم تظهر قوة الفن الزياني إلا مع السلطان أبو حمو موسي الثاني ، مؤسس ضريح سيدي ابراهيم المصمودي الذي شيّد بعد الرحيل النهائي للمرينين من تلمسان ، ورجع ابو حمو موسي الثاني الى ملك أجداده ، و الذي بدى نسخة مصغرة عن ضريح سيدي أبي مدين ، فهو يشبهه في المخطط و العناصر المعمارية . و من اشهر الاضرحة بتلمسان هو ضريح سيدي أبي مدين الذي ظهرت به بصمات المرينين ، و كانت اجمله بصمة أبي الحسن المريني ، الذي جعل منه تحفة معمارية لا نظير لها .

الهوامش:

1. إن تقديس القبور والاحتفاء بالاماكن الجنائزية ، يشكل ظاهرة دينية تتشابه فيها كل الامم من القدم الى يومنا هذا ، في المجتمعات ، ينظر : Jacques Bersani, Encyclopédie des Religions, Universalis France S.A. , 2002, p : 646.
- 2 . عبد الجواد أحمد توفيق، تاريخ العمارة في الفنون الاسلامية ، ج3، المطبعة الحديثة :، القاهرة ، 2014م ، ص 74 .
3. المرجع نفسه، ص:105.
- 4 . La grande encyclopédie, Mausolé, T.23. paris s.d. p431.
5. عبد الجواد أحمد توفيق :المرجع السابق، ص: 32 .
- 6 . كمال الدين سامع ،العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1982 ، ص: 97 .
- 7 . يوسف شلخت ، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية ، اليهودية ، النصرانية ، الاسلام)، دار الفارابي ، الطبعة الاولى ، لبنان ، 2003. ص 60.

8. Marçais (G), L'architecteur musulmane d'occident, Tunisie, Alger, Maroc, Espagne ,Sicile, art et Mztiens graphique , paris, 1954 , p :300.
9. Cauvet (C.) ; Les Marabouts, petits monuments Funéraires et Votifs du nord de l'Afrique, Revue Africaine, N° 24, paris, 1923, pp :22-23.
10. القرآن الكريم ، سورة يونس الاية 62-63.
11. القرآن الكريم، سورة البقرة الاية 257.
12. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، تحقيق و دراسة أحمد الرغبي ، شركة دار الارقم ابن أبي الأرقم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ص 518.
13. الحريري راشد محمد فتحي ، كرامات الاولياء ، مجلة الفيصل ، العدد 211، دار الفيصل الثقافية ، المملكة العربية السعودية ، 1994.
14. أبي الحين علي بن اسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي (المتوفى سنة 458هـ/1065م) ، المخصص - الطبعة الاولى ، بولاق ، 1318هـ/1900م، الجزء 6 ، ص 131.
15. ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) ، 711خ/1311م، لسان العرب ، سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، ج 17 ، ص 11-12.
16. احمد بن محمد بن علي الفيومي (المتوفى 770هـ/ 1368 م)، المصباح المنيري غريب الشرح الكبير، مجلد 1، المكتبة العلمية ، بيروت ، 2010 م ، ج 1 ، ص 35.
17. محمد حمزة اسماعيل الحداد، قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، 1986م، ص 159-168.
18. ابن السيده المرسي (ابو الحسن علي بن إسماعيل الاندلسي المعروف) المتوفى سنة 458هـ/ 1065م، المخصص ، الطبعة الاولى بولاق 1318هـ/1900م ، ج 6، ص 132.

19. الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، المجلد الاول ، ج 2 ، بيروت (د.ت.) ص 115. – ابن قدامة ، (موفق الدين ابي محمد) المتوفى 620هـ/ 1223م ، المغني و الشرح الكبير ، ج 2 بيروت ، 1972م ، ص 379.
20. صحيح البخاري ، المجلد الاول ، ج 2 ، ص 115.
21. الشوكاني (محمد بن علي) ، تاريخ 125هـ/ 1834م ، نيل الاوطار من اسرار منتقى الأخبار ، ج 3 ، بة لاق ، 1297هـ/ 1879م ، ص 319-320.
22. العسقلاني ، كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام في علم الحديث ، القاهرة ، 1330هـ/ 1911م ، ص 95.
23. عبد اللطيف ابراهيم ، نضان جديدان من وثيقة الامير صرغتمش ، مجلة كلية الآداب ، المجلد 27 ، ج 1* 2 ، 1965م ، مطبعة جامعة القاهرة ، 1969 ، ص 162-163.
24. محمد السعيدي ، ظاهرة زيارة الأولياء و الأضرحة في منطقة تلمسان و أبعادها الإجتماعية و النفسية ، مطبوعات الكراسات وهران ، 1995م ، ص 40.
25. محمد سعيدي ، المرجع السابق ، ص 40.
26. BARGES (L'abbé), vie de célèbre Marabout sidi – Abou – Médiénne, autrement vie Bou-Médiénne , paris Larousse Librairie, p01.
27. محمد رمضان شاوش باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1985 ، ص 288.
28. Brosselard (ch), les inscriptions arabes de Tlemcen, revue africaine 3 année N° 14 novembre 1858 n°04, 1859, p 89.
29. William et George Marçais, Les Monuments Arabes de Tlemcen, ancienne librairie thorine et fils, Paris, p 230.
30. BROSSELARD(CH) op,cit, p84.
31. Ibid., p84.85 .

- 32 . سيد احمد السقّال الولي الصالح أبي مدين ، منشورات سقال 10 ، نّح إدريس ، تلمسان ، 1993، ص 23-24.
- احمد بن محمد المقرّي التلمساني ، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، دار صادر ، بيروت ، 33المجلد السابع ، ص 142.
34. Rachid Bourouiba , l'art religieux musulman en Algérie, société national d'édition et de diffusion , 2^{em} édition , Alger 1983, p279.
35. Brosselard (ch), op,cit, p :6.
- 36 . يحيى بن خلدون ، يحيى زكرياء ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر، 1980، و 2007، ص: 158.
- 37 . محمد بن معمر، مركز تلمسان الثقافي من أجادير الإدريسية إلى تاغرارت المرابطية، حولية المؤرخ، ع3-4، يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين، 2005، 107.
- 38 . M.E. Lorrail, Le Toure De Monde , Tlemcen 1875 , Source Gallica bnf.fr, Bibliothèque Numirique de France, p : 316.
39. William et George Marçais, Les Monuments Arabes, p : 337.
- 40 . يحيى بن خلدون ، المصدر السابق، ص: 117.
41. M.E. Lorrail, op, cit, p :316 -318 .
42. ibid , p : 318.
- 43 . ابن مريم (ابي عبد الله محمد بن محمد ابن احمد) البستان في ذكر الاولياء و العلماء بتلمسان ، مدرسة الاداب العليا بالجزائر ، مطبعة الثعلبية ، 1226هـ/م1908م، المصدر السابق، ص: 292.
- 44 . فائزة مهتاري، أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري دراسة تاريخية ومعمارية من خلال بعض النماذج ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفنون الشعبية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان، 2005-2006، ص: 123.

- 45 . التلمساني ابن مريم، البستان في ذكرة الأولياء والعلماء في تلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986. ، ص: 219.
- 46 . يحيى بن خلدون ، المصدر السابق ، ص : 125-205.
- 47 . المصدر نفسه،ص: 107،108.
- 48 . ابن مريم ، المصدر السابق ، ص: 53 .
- 48 . مقابلة مع السيد محمد باغلي، يوم : 12ماي 2011.
- 49 . ابن مريم، المصدر السابق، ص: 31
- 50 . المصدر نفسه، ص: 38
- 51 . Brosselard (Ch) , n°4, 1859, Op Cit, p :90, 166.
52. محمد سعيدي ، المرجع السابق ، ص 05.

قائمة المصادر والمراجع

اولا : المصادر

1. ابن قدامة ، (موفق الدين ابي محمد) المتوفى 620هـ/1223م ، المغني و الشرح الكبير ، ج 2 بيروت ، 1972م.
2. ابن السيدة المرسلني (ابو الحسن اسماعيل الأندلسي) (المتوفى سنة 458هـ/1065م) ، المخصص - الطبعة الاولى ، الجزء 6، بولاق ، 1318هـ/1900م .
3. ابن خلدون ، يحيى زكرياء ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقدم وتحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، 1980، 2007 م.
4. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، تحقيق و دراسة أحمد الزغيبي ، شركة دار الارقم ابن أبي الأرقم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان (د-ت).
5. ابن مريم (ابي عبد الله محمد بن محمد ابن احمد) البستان في ذكر الاولياء و العلماء بتلمسان ، مدرسة الاداب العليا بالجزائر ، مطبعة الثعالبية ، 1908م.
6. ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) ، لسان العرب ، سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، ج 17.

7. البخاري (الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل) ، صحيح البخاري ، المجلد الاول ، ج 2 ، بيروت (د.ت.).
8. الشوكاني (محمد بن علي) ، تاريخ 125هـ/ 1834م ، نيل الاوطار من اسرار منتقى الأخبار ، ج 3 ، بة لاق ، 1297هـ/ 1879م .
9. الفيومي (احمد بن محمد بن علي) المتوفى 770هـ/ 1368 م)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، مجلد واحد ، المكتبة العلمية ، بيروت ، 2010م.
10. المقري احمد بن محمد التلمساني ، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، دار صادر ، بيروت ، المجلد السابع، 1408هـ/ 1988م.

ثانياً: المراجع باللغة العربية

11. توفيق أحمد عبد الجواد ، تاريخ العمارة في الفنون الاسلامية ، ج3 ، المطبعة الحديثة :، القاهرة ، 2014م .
12. الحريري راشد محمد فتحي ، كرامات الاولياء ، مجلة الفيصل ، العدد 211 ، دار الفيصل الثقافية ، المملكة العربية السعودية ، 1994.
14. سيد احمد السقال الولي الصالح أبي مدين ، منشورات سقال 10 ، نصح إدريس ، تلمسان ، 1993.
15. عبد اللطيف ابراهيم ، نضان جديدان من وثيقة الامير صرغتمش ، مجلة كلية الآداب ، المجلد 27 ، ج 1 ، 1965م، مطبعة جامعة القاهرة ، 1969.
16. العسقلاني ، كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام في علم الحديث ، القاهرة ، 1330هـ/ 1911م.
17. كمال الدين سامح ، العمارة في صدر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1982م.
18. محمد السعيد ، ظاهرة زيارة الأولياء و الأضرحة في منطقة تلمسان و أبعادها الإجتماعية و النفسية ، مطبوعات الكراسات وهران ، 1995م .

19. محمد بن معمر ، مركز تلمسان الثقافي من أجادير الإدريسية إلى تاغررات المرابطية ، حولية المؤرخ ، عدد 3-4 ، يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين ، 2005 م.
20. محمد حمزة اسماعيل الحداد ، قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، 1986م.
21. محمد رمضان شاوش باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1985 م.
22. مطروح ام الخير ، كمال مداد ، مفتاح نور الدين : جرد المعالم الاثرية بمدينة تلمسان الغير مصنفة و اعداد دفاتر من اجل التصنيف ، 2011 م .
23. مقابلة مع السيد محمد باغلي، يوم : 12 ماي 2011م.
24. يوسف شلخت ، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية ، اليهودية ، النصرانية ، الاسلام)، دار الفارابي ، الطبعة الاولى ، لبنان ، 2003 م .
25. *Brosselard (ch), les inscriptions arabes de Tlemcen, revue africaine 3 année N° 14 novembre 1858 n°04, 1859.*
26. *BARGES (L'abbé), vie de célèbre Marabout sidi – Abou – Médienne, autrement vie Bou-Médienne , paris Larousse Librairie.*
27. *Cauvet (C.) ; Les Marabouts, petits monuments Funéraires et Votifs du nord de l'Afrique, Revue Africaine, N° 24, paris, 1923.*
28. *Jacques Bersani, Encyclopédie des Religions, Universalis France S.A. , 2002.*
29. *La grande encyclopédie, Mausolé, T.23. paris s.d.*
- 30 . *M.E. Lorrail, Le Toure De Monde , Tlemcen 1875 , Source Gallica bnf.fr, Bibliothèque Numirique de France.*

-
31. *Marçais (G), L'architecteur musulmane d'occident, Tunisie, Alger, Maroc, Espagne, Sicile, art et Mztiers graphique, paris, 1954.*
 32. *Rachid Bourouiba, l'art religieux musulman en Algérie, société national d'édition et de diffusion, 2^{em} édition, Alger 1983.*
 33. *William et George Marçais, Les Monuments Arabes de Tlemcen, ancienne librairie thorine et fils, Paris.*

عجز الميزانية في الدولة العثمانية: الأسباب والحلول

Budget Deficit in Ottoman Empire: Causes and Solutions

أ.د/ قاسم محمد الحموري/ قسم الاقتصاد/ كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية/

جامعة اليرموك/الاردن

أ/معاذ محمد عابدين/ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/قسم الاقتصاد

والمصارف الإسلامية جامعة اليرموك/ الاردن.

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان العجز المالي الذي عانت منه الميزانية العثمانية، من حيث أسباب هذا العجز، والطرق التي لجأت إليها الدولة لتغطيته. ومن أجل ذلك تطرقت إلى بيان ماهية الميزانية التي كانت تقوم بإعدادها الدولة العثمانية، وعددت أهم بنود تلك الميزانية في جانب الإيرادات والنفقات، ثم تكلمت عن عجز الميزانية وبداية ظهوره في الدولة العثمانية، ثم بينت أهم الأسباب التي أحدثت هذا العجز، والوسائل التي حاولت الدولة من خلالها تخفيف العجز. وتكمن أهمية الدراسة في كونها تتعرض لواحدة من أهم المشكلات التي تؤرق السلطات المالية في أي دولة، وهي مشكلة زيادة النفقات على الواردات التي سميت بـ(عجز الميزانية)، إضافة إلى تعلقها بتاريخ دولة كانت الشريعة الإسلامية مصدر دستورها وقوانينها، مما يفيد الباحثين في الاقتصاد الإسلامي وتاريخه في تلمس معالم هذه المشكلة في نظام إسلامي.

ABSTRACT

This study aims to shed light on the budget deficit which the Ottoman Empire suffered from: its causes and what the state did to cover it. To achieve this, the study defines the Ottoman Budget, and shows its categories in both sides: revenues and expenditures. Moreover, it talks about budget deficit in Ottoman Empire, when it first appeared on and when it became chronic, then it explains the reasons behind that, and shows the ways the state used to reduce the deficit.

The importance of this study comes from discussing one of the most important problems that a fiscal authority faces, which is the budget deficit, besides dealing with one of the greatest islamic states in the history, which is the Ottoman Empire.

المقدمة

كانت الدولة العثمانية بداية أمرها إمارة تابعة للسلاجقة في الشمال الغربي للأناضول، ثم استقلت عنها بعد الاجتياح المغولي للمشرق الإسلامي (698هـ/1299م) وأخذت بالتوسع شرقاً وغرباً حتى شمل حكمها الأناضول والبلقان (شرق أوروبا) والعراق والشام وأجزاء واسعة من الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، ثم أخذت منذ أواخر القرن السابع عشر (1110هـ/1699م) تفقد أراضيها شيئاً فشيئاً حتى انحلت بعد الحرب العالمية الأولى وقامت على ما بقي من أراضيها الجمهورية التركية عام (1342هـ/1923م). وقد أنشأ العثمانيون لضبط شؤون دولتهم المالية الواسعة نظاماً معقداً، كان من أهم وظائفه تسجيل إيرادات الدولة ونفقاتها وقيدهما في دفاتر مخصوصة أطلق عليها المؤرخون العثمانيون اسم (الميزانية).

وهذه الدراسة تهدف إلى بيان العجز المالي الذي عانت منه هذه الميزانية، من حيث أسباب هذا العجز، والطرق التي لجأت الدولة إليها لتغطيته.

وتكمن أهمية الدراسة في كونها تتعرض لواحدة من أهم المشكلات التي تؤرق السلطات المالية في أي دولة، وهي مشكلة زيادة النفقات على الواردات التي سميت بـ(عجز الميزانية)، إضافة إلى تعلقها بتاريخ دولة كانت الشريعة الإسلامية مصدر دستورها وقوانينها، مما يفيد الباحثين في الاقتصاد الإسلامي وتاريخه في تلمس معالم هذه المشكلة في نظام إسلامي.

1- الميزانية العثمانية وبنودها:

1-1 تعريف الميزانية العثمانية:

تطلق الميزانية (Budget) في علم المالية على: «التقدير التفصيلي للإيرادات والنفقات العامة لفترة مقبلة من الزمن غالبًا ما تكون سنة»، فالميزانية هي تقدير لأمر لم يتحقق بعد، أما "بيان الإيرادات والنفقات العامة التي حصلت بالفعل في فترة سابقة من الزمن» فيسمى الحساب الختامي⁽¹⁾.

لم يكن لدى الدولة العثمانية ميزانية بالمعنى المتقدم إلا أواخر القرن التاسع عشر، وما سماه المؤرخون العثمانيون (ميزانية) هو في الحقيقة حساب ختامي للإيرادات والنفقات التي تحققت بالفعل في مدة سابقة. ولكن هذا لا يعني أن عملية تقدير الإيرادات والنفقات كانت عشوائية قبل ذلك، فقد كانت الدولة تسترشد بالتنظيمات المالية الموجودة في البلدان قبل فتحها، إضافة إلى قيامها بعملية مسح موارد تلك البلاد بعد فتحها، وإحصاء المكلفين بالضرائب، فيما يعرف بعملية (التحرير)، وتجعل الأرقام المتحصلة في هذه العملية مرجعًا تعتمده في

السنوات القادمة، وتكرر هذه العملية كل ثلاثين سنة، أو عند تولي سلطان جديد للعرش، أو حدوث تغيرات ملحوظة في أعداد السكان ومصادر الدخل⁽²⁾.

1-2 بنود الميزانية العثمانية:

لم تكن تظهر جميع الإيرادات والنفقات العامة في الميزانية العثمانية، وإنما كان يظهر فيها ما يدخل خزينة الدولة وما يخرج منها فقط، أو ما يفترض أنه دخلها وخرج منها وهو ما يجبي ويصرف باسمها في الولايات (المحسوب)، أما إيرادات الإقطاعات التي يتصرف فيها التيماريون ونفقاتها فلا تظهر في الميزانية فهي (دخل ومصروف متكافئ)، وكذلك الموارد المخصصة لتمويل الأوقاف العامة⁽³⁾.

1-2-1 أهم الإيرادات العامة:

1- الجزية: وهي ضريبة سنوية نقدية تفرض على رعايا الدولة العثمانية غير المسلمين، مع إعفاء الأطفال والنساء والعاجزين والرهبان، وقد ألغيت (الجزية) بموجب منشور الإصلاحات الصادر عام (1272هـ/1856م) واستبدلت بها ضريبة (البدل العسكري)، التي يدفعها غير المسلمين لقاء إعفائهم من الخدمة العسكرية⁽⁴⁾. وقد شكلت الجزية مصدرًا مهمًا لإيرادات خزينة الدولة، حيث تراوحت نسبتها بين (23% - 48%) من الإيراد الكلي للخزينة⁽⁵⁾.

2- العوارض الديوانية: هي الضرائب التي تفرضها الدولة في أوقات الطوارئ والأزمات، كالحروب والكوارث الطبيعية، وسميت (عوارض) لأنها كانت تفرض لسبب عارض أي طارئ غير اعتيادي، ولكنها أصبحت مع تزايد نفقات الحروب في القرن السابع عشر ضرائب اعتيادية تؤخذ سنويًا، وألغيت هذه الضرائب في القرن التاسع عشر في حقبة التنظيمات⁽⁶⁾. وقد تنوعت أشكال (العوارض) ما بين

الأعيان والخدمات والنقود، ولم يكن يسجل في الميزانية إلا الضريبة النقدية، أما الضريبة العينية والخدمات فلا، لذلك فإن أرقام الميزانية لا تمثل إلا جزءًا من القيمة الفعلية لهذه الضريبة. وقد شكلت ضريبة العوارض ما يقارب (9-20%) من الإيراد الكلي للخزينة المركزية⁽⁷⁾.

3- المقاطعة: وهي تطلق على أي مصدر للدخل مملوك للدولة، وسميت مقاطعة لأنها تمثل جزءًا (قطعة) من موارد الدولة، حيث كانت الدولة العثمانية تقسم مواردها إلى قطع وأجزاء سمي كل جزء (مقاطعة). ومن أمثلة المقاطعة: الأراضي الزراعية والمناجم ودور الضرب ومشغل الحرير المملوكة للدولة، ومعظم الضرائب والرسوم المفروضة على الأنشطة الزراعية والحرفية والتجارية⁽⁸⁾. وقد شكلت إيرادات المقاطعات نحو (24-57%) من إجمالي إيراد الخزينة المركزية⁽⁹⁾.

1-2-2 أهم الإيرادات العامة:

شكلت الواجب (أو العُلوفات) الجزء الأكبر من نفقات الخزينة العثمانية، حيث تراوحت بين (45-70%) من مجموع النفقات⁽¹⁰⁾. والعُلوفات هي: الأجور والرواتب التي تدفعها الخزينة نقدًا. لفيالق القوات المسلحة المركزية (المقاي). قولو (Kapikulu)، وقوات الأسطول العثماني، ولرجال الدولة والمسؤولين الإداريين، وللعاملين في القصر السلطاني من خدم وطباخين وحرفيين وغيرهم. كانت العُلوفات تدفع لمستحقيها كل ثلاثة شهور قمرية (أي على 4 أقساط سنويًا). وقد شكلت العُلوفات الجزء الأكبر من نفقات الخزينة⁽¹¹⁾.

2- عجز الميزانية في الدولة العثمانية:

عجز الميزانية (Budget Deficit) هو زيادة النفقات العامة على الإيرادات العامة العادية، وقد اختلفت أنظار الاقتصاديين في تقويمه تبعاً لعدة اعتبارات⁽¹²⁾، ومهما يكن من أمر ذلك الاختلاف فإن الذي يهم هنا نظرة الدولة العثمانية إليه، التي كانت تراه فيه علّة خطيرة تصيب الميزانية، فالميزانية السليمة في نظرها هي تلك التي تحقق فائضاً⁽¹³⁾. كان حدوث العجز في الميزانية العثمانية أمراً نادراً حتى أواخر القرن السادس عشر، وإذا حدث فإنه يكون عجزاً طفيفاً⁽¹⁴⁾، وفي عهد مراد الثالث وتحديدًا سنة (1000هـ/1592م) ظهر لأول مرة عجز حاد في الميزانية، ثم أصبح بعد ذلك سمة عامة للميزانيات العثمانية حتى انهيار الدولة⁽¹⁵⁾.

2-1 أسباب العجز في الميزانية العثمانية:

يحصل العجز في الميزانية بسبب تراجع في الإيرادات أو زيادة في النفقات، وقد عانت الخزينة العثمانية من كلا الأمرين منذ أواخر القرن السادس عشر، على النحو التالي:

1- خروج كثير من البلاد عن السيطرة العثمانية منذ القرن السابع عشر، إما بسبب حرب خاسرة مع عدو خارجي كالنمسا وروسيا، أو بسبب حركة تمرد داخلية تنتهي بالانفصال عن الدولة كما حدث مع معظم الدويلات في منطقة البلقان، وهذا الأمر أدى إلى ضياع كثير من الموارد، فتلك البلاد كانت من أخصب المناطق الزراعية في الدولة العثمانية، وإيرادتها الضريبية كانت كبيرة جداً، إضافة إلى غناها بمناجم الذهب والفضة اللازمين لسك العملات، والمعادن الأخرى اللازمة لأجل صناعة الأسلحة والمدافع كالحديد والنحاس⁽¹⁶⁾.

2- تبدل طرق التجارة منذ القرن السادس عشر نتيجة الكشوف الجغرافية الأوروبية، مثل اكتشاف القارة الأميركية، ورأس الرجاء الصالح، ضيع على الدولة العثمانية مبالغ ضخمة من الرسوم الجمركية التي كانت تأخذها مقابل مرور البضائع التجارية عبر أراضيها⁽¹⁷⁾.

3- فساد نظام (الالتزام) في جباية الضرائب ضيع على الدولة كثيراً من إيراداتها، حيث أُرهِقت مصادر الدخل بالرسوم الضرائب، على وجه دفع كثيراً من الفلاحين إلى ترك أراضيهم والهرب من القرى إلى المدن، فدَوَّتْ مصادِرُ الدخل وتراجعت مساحات الأراضي المزروعة، وانخفضت تبعاً لذلك حصيلة الضرائب. ولم يفلح تطبيق نظام (المالكانه) في القرن الثامن عشر في تلافي هذه المشكلة، بل زاد من هدر الموارد حين تحايل أصحاب المالكانات بشتى السبل لمنع رجوع المالكانه إلى الدولة بعد وفاتهم، مثل وقفها وقفاً ذريّاً على أنفسهم ثم أولادهم من بعدهم، أو القيام ببيعها قبل الوفاة إلى الورثة. وقد قدرت نسبة ما تحصل عليه الدولة من مواردها في القرن الثامن عشر بثلاث العوائد التي يفترض أن تحصل عليها⁽¹⁸⁾.

4- الإصلاحات التي شرعت الدولة العثمانية أواخر القرن الثامن عشر بإجرائها في مختلف مؤسسات الدولة العسكرية والإدارية والمالية والقضائية والتعليمية، تضمنت هذه الإصلاحات إعادة هيكلة المؤسسات القديمة، وإنشاء جيش نظامي حديث، واستقدام الخبراء والمستشارين الأجانب، وتدريب الموظفين على الأساليب الجديدة، وإنشاء المباني والأجهزة اللازمة لتنفيذ الإصلاحات، ودفع رواتب الموظفين العاملين في تلك المؤسسات. وغير ذلك.. وقد شكلت نفقات الإصلاح عبئاً ثقيلاً على الخزينة المركزية حيث زادت مصروفاتها بنحو 300%، وكان للإصلاح العسكري

النصيب الأكبر من هذه النفقات خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ حيث شكل نصف نفقات الخزينة تقريباً⁽¹⁹⁾.

5- النفقات العسكرية الباهظة التي تحملتها الخزينة العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر، وتشمل رواتب الجيش النظامي، وإعداد الحملات العسكرية وتموينها بالذخائر والطعام ونقلها إلى جبهات القتال، والصناعات العسكرية مثل صناعة المدافع والبنادق والسفن، والنفقات الدفاعية مثل إنشاء القلاع والحصون على الحدود، والتعويضات والغرامات الحربية في حال الخسارة⁽²⁰⁾.

لم تكن الحروب أمراً جديداً على الدولة العثمانية، إلا أن حروب هذه الحقبة اختلفت عن السابق بثلاثة أمور. أساسية: طولها وتتابعها بعد أن كانت موسمية قصيرة تنتهي بمعركة حاسمة، وانتهاء كثير منها لغير صالح الدولة العثمانية بعد أن كانت تنتهي بنصر مظفر، وتعاضم دور الخزينة المركزية في الإنفاق العسكري بعد أن كان معظمه ملقى على كاهل أصحاب الإقطاع العسكريين (التيمار)⁽²¹⁾.

كان الجيش العثماني قبل القرن السادس عشر يتشكل في معظمه من الفرق العسكرية غير النظامية التي تشارك وقت الحرب فقط، وهم فرسان الأقاليم (السباهية Sipahi). ومن يتبعهم من المقاتلين (الجليلو Cebeli). وهؤلاء تكاليفهم لا تتحملها الخزينة المركزية وإنما أصحاب الإقطاعات (الزعامة والتيمار)، ولكن بعد ذلك - نتيجة تغير طرق القتال وشيوع استخدام البنادق والمدافع - زاد الاعتماد على الجيش النظامي، وبالأخص فرقة مشاة الانكشارية المسلحين بالبنادق، وهؤلاء نفقاتهم تتحملها الخزينة المركزية، وهي تشمل: العلوفات (الرواتب)، والملبس، والمؤونة خلال الحملة العسكرية، وعلاوات اعتلاء العرش (بخشيش الجلوس cülus bahşişi)⁽²²⁾.

اضطرت الدولة العثمانية إلى القتال على أكثر من جبهة في وقت واحد، وأحياناً ضد حلف من الدول الأوروبية، فقد جهزت عشرات الحملات العسكرية منذ أواخر القرن السادس عشر لقتال الصفويين والهابسبورغ والروس، كما وقعت عدة مواجهات بينها وبين فرنسا، وشاركت في الحرب العالمية الأولى ضد قوات التحالف⁽²³⁾. وقد عانت الدولة العثمانية من الخسارة في كثير من مواجهاتها خصوصاً ضد روسيا، وألزمت بدفع غرامات حربية باهظة لها، ففي معاهدة (قينارجة الصغرى Küçük Kaynarca) سنة (1774م) ألزمت بدفع (7.5 مليون) قرش خلال ثلاث سنوات، ثم في معاهدة (أدرنة Edirne) سنة (1829م) اشترط عليها أن تدفع (400 مليون) قرش وهو مبلغ يعادل ضعف إيرادات الدولة السنوية، ثم في سنة (1878م) فرض على الدولة العثمانية بموجب قرارات (مؤتمر برلين) أن تدفع لروسيا (800 مليون) فرنك فرنسي، بمعدل (35 مليون) قرش سنوياً، وقد استمرت هذه الغرامة الحربية عبئاً على الخزينة العثمانية حتى عام (1909م)⁽²⁴⁾.

6- السنة المالية المزدوجة التي كانت تستعملها الدولة العثمانية في ميزانيتها؛ حيث كانت الإيرادات تجبي وفق السنة الشمسية (التي تبدأ بـ 21 آذار)، بينما تخرج النفقات وفق السنة القمرية (التي تبدأ بالمحرم)، ومعلوم أن السنة القمرية تقل عن السنة الشمسية بـ (11) يوماً، فظهر نتيجة لهذا التفاوت الزمني بين الإيرادات والنفقات سنة إضافية من النفقات كل (32) سنة، تسمى هذا السنة الكبيسة (سويش Siviş) أي السنة الضائعة التي يُقَدَّر عدم وجودها، فكل (33) سنة من النفقات يقابلها (32) سنة من الإيرادات. ولما كانت رواتب الجند (وهي القسم الأكبر من الميزانية) تدفع على أربعة أقساط كل سنة، فقد كانت الدولة تدفع لهم

قسماً زائداً في نهاية كل ثمانية سنين، وأربع أقساط زائدة كل (32) سنة. وقد سببت هذه السنة الزائدة أزمات مالية دورية للخزينة العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر⁽²⁵⁾.

المطلب الثاني: أساليب تغطية العجز في الميزانية العثمانية:

اتخذت الدولة العثمانية عدة وسائل لتغطية العجز في ميزانيتها، لكنها لم تستطع حل هذه المشكلة بشكل تام، وإن تمكنت من تخفيف حدة العجز أحياناً. ومن تلك الأساليب ما يلي:

1- القيام بفتوحات جديدة والاستيلاء على موارد البلاد المفتوحة، فقد خفف فتح بلاد الشام ومصر في عهد السلطان سليم الأول من الضائقة المالية التي كانت تعانيها الدولة، وكذلك فتح بغداد عام (1637م)، ومن ذلك أيضاً حملة فيينا الثانية (1683م) لكنها انتهت بهزيمة العثمانيين، وضاعفت من حدة الأزمة المالية، وأثبتت عدم جدوى الاعتماد على السياسة التوسعية لحل المشاكل المالية⁽²⁶⁾.

2- مصادرة أموال رجال الدولة وقادة الجند، حيث كانت خزينة الدولة تضع يدها على تركاتهم (سميت المخلفات) بعد موتهم، خصوصاً النقود والجواهر؛ ذلك أن معظم هؤلاء هم مماليك للدولة (قابي قولو) ولكنهم ارتقوا في المراتب العسكرية والإدارية، ومن المقرر في الشريعة أن العبد وما يجوز من أموال ملك لسيده وهو في هذه الحالة الدولة، فهذه العملية في الحقيقة ليست مصادرة وإنما سميت كذلك بحسب صورتها. لكن عملية المصادرة تعدت هؤلاء المماليك إلى الرعايا الأحرار، حيث كانت تصادر أموالهم عقوبة لهم عند ارتكاب بعض الجرائم، وكانت في كثير منها ظلماً وعدواناً. ومن أمثلة المصادرة: مصادرة أموال الصدر الأعظم (قرة

مصطفى باشا) الذي أعدم بعد فشل حملة فيينا الثانية (1683م) التي بلغت حوالي 225 مليون آقجه، ومصادرة أموال شيخ الإسلام (فيض الله أفندي) الذي قتله الانكشارية في تمردهم عام (1703م) التي بلغت حوالي 50 مليون آقجه⁽²⁷⁾.

3- تأخير دفع رواتب الجند وعلوفاتهم، وقد كانت تدفع على أربعة أقساط كل سنة، كل ثلاثة شهور. قمرية قسط: محرم صفر ربيع الأول. (مصر)، ربيع الثاني جمادى الأولى. جمادى الثانية (رجح)، رجب شعبان رمضان (رشن)، شوال ذو القعدة ذو الحجة (لذذ)، كما كانت الدولة تدفع لهم قسطاً زائداً في نهاية كل ثمانية سنين، بسبب الفرق بين سنة الإيراد وسنة المصروف. كانت الدولة تماطل الجند في دفع علوفاتهم، لحين حصول الإيرادات، وقد تصل الرواتب المتأخرة إلى قسطين وثلاثة وأحياناً إلى أربعة أقساط، وعندها كان الجند يشورون ويتمردون ويفسدون في الأرض⁽²⁸⁾.

4- الزيادة في مقادير بعض الضرائب؛ فمثلاً كانت تؤخذ زيادة في الجزية تحت اسم (زيادة الجلوس)، وقد تُحصّل بعض الضرائب قبل أوانها، أو تؤخذ مرتين في السنة الواحدة. كما استحدثت الدولة ضرائب إضافية تحت مسميات عدة هي ضرائب (العوارض) بأنواعها المختلفة: (بدل النزول)، و(آقجه العوارض)، و(إمدادية سفرية)، و(إمدادية حضرية)، و(إعانة جهادية)، وغير ذلك⁽²⁹⁾.

5- تحويل جزء من عوائد الأوقاف السلطانية⁽³⁰⁾ إلى خزينة الدولة، فقد جرت العادة أن تحول الفوائض السنوية في ميزانية كثير من هذه الأوقاف إلى الخزينة، كما لجأت الدولة أحياناً إلى استقطاع مبالغ كبيرة من عوائد تلك الأوقاف لتمويل الحملات العسكرية، ومثال ذلك: طلب الخزينة المركزية من العديد من تلك الأوقاف، أثناء الحرب مع الحلف المقدس (84-1699م)، أن تقوم بتحويل المبالغ

المخصصة لسداد رواتب موظفي الوقف إلى خزينة الدولة لأجل تمويل نفقات الحرب⁽³¹⁾.

6- زيادة حصة الخزينة المركزية من الضرائب، وذلك باستخدام طرق الجباية التي تحول حصيلة الضرائب إلى الخزينة بدل الإقطاعي؛ فمذ القرن السادس عشر أخذت الدولة تحل أسلوب (الالتزام) في جباية الضرائب محل (الإقطاع)، ثم شاع نظام (المالكانه) في القرن الثامن عشر، ثم في القرن التاسع عشر حاولت الدولة تعميم أسلوب (الأمانة) في تحصيل أموال الدولة⁽³²⁾.

7- اللجوء إلى غش العملة المعدنية (Debasement)؛ أي تخفيض محتواها من الذهب أو الفضة، فتتخفف القيمة الحقيقية (Intrinsic Value) للعملة مع ثبات قيمتها الاسمية (Face Value)، ويصبح بإمكان الدولة سك مقدار أكبر من النقود من كمية المعدن نفسها، وتسديد التزاماتها المعروفة بالقيمة الاسمية للعملة، كرواتب الجند والإداريين، وأثمان المؤن المسعرة من قبل الدولة⁽³³⁾. وقد لجأت الدولة العثمانية إلى هذه الطريقة في ثلاث حقب متباعدة: خلال (1444-1481م) حيث انخفضت الفضة في (الآقجه akçe) بنسبة 30%، وخلال (1585-1650م) انخفضت بنسبة 44%، و(1788-1840م) انخفضت الفضة في (القرش gurûş) بنسبة 85%، ويلاحظ أن هذه الحقب كانت ملامى بالحروب، وبالإصلاحات الهيكلية، وهي تتطلب تمويلًا ضخمًا كما تقدم⁽³⁴⁾.. وقد تسبب غش العملة رغم توفيره تمويلًا كبيرًا للخزينة، بحدوث موجات تضخمية كبيرة، كما شجع عمليات التزوير، وتسبب باضطرابات واسعة قام بها الجند احتجاجًا على انخفاض قيمة رواتبهم⁽³⁵⁾.

8- الاقتراض الداخلي: وقد اتخذ عدة صور؛ كالاقتراض من كبار الصرّافين والتجار ورجال الدولة ومن الأوقاف، وهذا القرض قد يكون قرضًا عاديًا طواعية، وقد يكون قسريًا كأن تصدر الدولة أموال أحد رجال الدولة وتعطيه سندات بقيمتها، أو تأمره بتحمل جزء من التكاليف العسكرية مقابل منحه إذنًا بجمالية بعض الضرائب، أو تأخذ جزءًا من عائد الوقف مقابل سندات بذلك⁽³⁶⁾. وبرز صيرافة إسطنبول - وكان معظمهم من اليهود والأرمن واليونان - في إقراض الحكومة العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر، وشكلوا نقابة مقرها ضاحية (غلطة Galata) في العاصمة إسطنبول، فصاروا ينسبون إليها (مصرفيو غلطة Galata bankers)، وفي القرن التاسع عشر أنشأوا العديد من المصارف التي قامت بدور الوسيط المالي للحكومة في الأسواق المالية الأوروبية، كما لجأت إليهم الحكومة لإقراضها أثناء الحرب مع روسيا (1878م) بعد فشلها في الحصول على قرض خارجي⁽³⁷⁾.

ومن صور الاقتراض الداخلي أيضًا: أخذ قرض من الخزينة الداخلية (السلطانية)، فقد جرت العادة أن تقوم الخزينة السلطانية بإقراض خزينة الدولة في أوقات العجز المالي، على نحو يشبه عمل البنوك المركزية في عصرنا الحاضر، وقد أدى توالي عمليات الاقتراض من الخزينة الداخلية أواخر القرن السابع عشر مع عدم رد هذه القروض إلى نفاذ هذه الخزينة⁽³⁸⁾، فاستحدثت الدولة بسبب ضغوط الحرب المالية عام (1106هـ / 1695م) نظام (المالكانه) حيث قامت بإجارة موارد الدخل المملوكة لها (المقاطعة) مدى الحياة، لمن يعرض أعلى مبلغ مقابلها، وأخذت منه (معجلة) تساوي ضعفين إلى عشرة أضعاف الدخل السنوي للمقاطعة، فكأنها استدانته منه هذا المبلغ مقابل تخويله حق استغلال (المقاطعة) وأخذ الفائض من إيراداتها، وقد استطاعت الدولة خلال ثمانين عامًا من تطبيق هذا النظام أن تضاعف

إيراداتها أربعة عشر ضعفًا (1400%)، رغم ما داخل هذا النظام من الفساد الإداري والمالي⁽³⁹⁾. ولما دخلت هذا النظام أسباب الفساد لجأت الدولة عام (1189هـ/1775م) إلى نظام (الأسهام Esham) حيث تقوم بواسطة موظفيها بإدارة مصادر الدخل، وتقدر صافي الربح السنوي ثم تقسمه على أسهم، وتعرضها للبيع بخمسة أو ستة أضعاف القيمة، مقابل ضمان حصول المشتري على قيمة السهم سنويًا مدى الحياة، وهذه الأسهم هي في الحقيقة سندات حكومية ربوية؛ حيث تستدين الدولة ثمن الأسهم ثم ترده على أقساط سنوية مدى حياة حامل السهم، وهذه الأقساط بعد حوالي (5-6) سنوات تتجاوز في قيمتها مقدار الدين (ثمن الأسهم). ومثال ذلك ما فعلته الحكومة في مقاطعة جمارك التبغ في إسطنبول، فقد قدرت صافي ربحها المتوقع بـ(400 ألف) قرش سنويًا، ثم قسمته على (160) سهمًا، قيمة كل سهم (2500) قرش؛ أي يخول حامله الحصول على هذا المبلغ سنويًا، ويبيع كل سهم بخمسة أضعاف قيمته (12500) قرش، بحصيلة كلية تساوي مليوني قرش⁽⁴⁰⁾.

أتاح نظام (الأسهام) لفئة واسعة من الناس المشاركة في شراء الأسهم؛ حيث كان بإمكان ذوي الدخل المتدنية من الرعية شراء السهم خلافًا للمالكه التي تتطلب رؤوس أموال ضخمة لدفع بدل الحصول عليها وتشغيلها، كما كان بإمكان غير المسلمين أيضًا المشاركة في هذا النظام⁽⁴¹⁾. وقد قلل نظام (الأسهام) من تكلفة الحصول على المال؛ ففي نظام (المالكه) كان نحو ثلاثة أرباع إيرادات المقاطعات يذهب إلى أصحاب المالكات وتحصل الدولة على الربع فقط، فتكون كلفة حصولها على الأموال عبر نظام المالكه تساوي (75%)، وبفضل نظام الأسهم الذي تتولى الدولة فيه إدارة مقاطعات الدخل وتنميتها تمكنت الدولة من تقليل هذه

النسبة إلى (10-20%)⁽⁴²⁾. وكذلك تمكنت الدولة عن طريق (الأسهام) من زيادة حجم إيرادات الخزينة، فقد ولد خلال عشر سنوات من تطبيقه حوالي (11.5 مليون) قرش، شكلت أكثر من نصف الإيرادات الكلية، ومكنت الدولة من تسديد ثلث الغرامة الحربية لروسيا⁽⁴³⁾. إلا أن تداول هذه الأسهم من يد إلى أخرى حال دون رجوعها مرة أخرى إلى الدولة بعد وفاة المشتري الأول، ولم تفلح الوسائل التي اتبعتها الدولة لمواجهة ذلك كاستيفاء (رسم قصر اليد) بقيمة (10%) من ثمن السهم) عند بيع السهم من شخص لآخر، ونتيجة لذلك تجاوزت مدفوعات (الأسهام) العوائد التي تحصلها الدولة من بيعها، وأصبحت تشكل عبئًا على الخزينة، وبذلك لم يحقق نظام الأسهم الهدف المرجو منه بشكل تام⁽⁴⁴⁾.

9- إصدار عملة ورقية عرفت باسم (القوائم) في المدة (55-1277هـ/40-1862م)، وهي أول عملة ورقية تصدرها الدولة العثمانية، فمع عدم وجود كميات كافية من الفضة لسك نقود جديدة، وترك أسلوب خفض عيار المسكة (Debasement) لتوليد كميات إضافية من النقود، لجأت الدولة إلى إصدار نقود ورقية بفائدة محددة، سميت في البداية (قوائم الأسهم sehim kaimesi) ثم (قائمة معتبرة نقدية kaime-i mutebere-i nakdiye) أو (القوائم) اختصارًا، ويمكن إجمال خصائص هذه (القوائم) بأنها: نقود ورقية نائبة غير إلزامية وغير مغطاة وغير قابلة للتحويل، وهي في نفس الوقت سندات حكومية تدر على حاملها فائدة ثابتة. وهذه النقود فريدة من نوعها؛ فقد استخدمت أداة للاقتراض الداخلي إضافة لوظيفتها النقدية، بل قد ينازع في كونها نقدًا على الحقيقة؛ ذلك أن قبولها لم يكن إلزاميًا، بل إنها في الأقاليم والولايات الأخرى غير العاصمة (إسطنبول) لم تكن مقبولة على الإطلاق⁽⁴⁵⁾.

يمكن تقسيم المدة التي ظهرت فيها (القوائم) إلى مرحلتين: الأولى (40-1852م)، حيث أصدرت الدولة على دفعات أكثر من (50 مليون) قرشاً من القوائم، لم تكن تحمل أرقاماً متسلسلة لذلك لا يعرف عددها على وجه التحديد، صدرت هذه القوائم بفئات تتراوح بين (50 - 10.000) قرشاً، وكانت الإصدارات الأولى بفائدة (12.5%)، انخفضت في الإصدارات بعد (1844م) إلى (6%) سنوياً، مع تعهد الدولة برد قيمتها الاسمية بعد (8-10) سنوات. وهذه المدة تميزت بالاستقرار النسبي في قيمة النقود؛ لأن أعداد (القوائم) في محيط التداول كانت قليلة نسبياً. أما المرحلة الثانية (53-1862م)، فقد صدرت فيها (قوائم) بفئات صغيرة جداً. (10-20) قرشاً، من غير فائدة، وشهدت توسعاً كبيراً في إصدار القوائم بسبب حرب القرم وما سببته من عجز مالي كبير، حيث بلغت كمية القوائم في الأسواق (1250 مليون) قرشاً، وقد سبب ذلك اضطراباً في قيمة الوحدة النقدية، وأصبحت القوائم تتداول بأقل من قيمتها الاسمية (بنصف القيمة وربعها)، الأمر الذي دفع الحكومة إلى سحب القوائم من الأسواق عام (1862م) بالاستعانة بقرض خارجي عن طريق البنك السلطاني العثماني.⁽⁴⁶⁾ كما لجأت الحكومة مرة أخرى إلى إصدار (القوائم) أثناء الحرب مع روسيا (1878م)، لمواجهة تكاليف الحرب الباهظة، فأصدرت القوائم بفئات متنوعة (1-500) قرشاً، ودفعت بها رواتب الجنود والموظفين، وقبلت أداء الضرائب بها، إلا الكميات الكبيرة التي طرحت (1600 مليون) قرشاً سببت انخفاضاً حاداً في قيمة (القوائم)، وأصبحت تتداول بأقل من ربع قيمتها، فاضطرت الحكومة إلى سحبها بعد ذلك بثلاث سنوات (1880م)⁽⁴⁷⁾.

10- الاقتراض الخارجي: ولم تلجأ الدولة العثمانية إليه إلا بعد فشل جميع الطرق السابقة في معالجة عجز الميزانية؛ لتخوفها من تدخل الدولة الأوروبية المقرضة في شؤونها، إضافة إلى فتاوى شيخ الإسلام المحرمة لمثل هذه القروض الربوية⁽⁴⁸⁾. بدأ تفكير الدولة العثمانية بطلب قرض خارجي مع تصاعد تكاليف الحرب مع روسيا عقب احتلالها القرم (1783م)، واتجهت في البداية إلى طلب قرض من المغرب الدولة المسلمة ثم من بريطانيا، ولكنها لم تصل إلى اتفاق مع أي منهما، ولم يتم القرض، ثم تجددت محاولاتها مع الإنجليز عام (1799م) عقب احتلال فرنسا لمصر، وعقب معاهدة (بلطه ليماني Baltalimanı) التجارية (1838م)، ولكن محاولاتها باءت بالفشل مرة أخرى؛ بسبب اضطراب وضعها المالي، وتدني موقعها الائتماني، وارتفاع خطورة إقراضها⁽⁴⁹⁾. وفي عام (1852م) تمكن ممثلو الحكومة العثمانية دون الحصول على موافقة السلطان، من إبرام عقد مع شركتين بريطانية وفرنسية للحصول على (50 مليون) فرنك فرنسي لمدة 27 سنة، وتم تسليم الدفعة الأولى من هذا القرض إلى وكيل الحكومة العثمانية في لندن، إلا أن السلطان قام بإبطال هذا العقد، مما كلف الدولة إرجاع الدفعة المستلمة ودفع تعويض (2.2 مليون) فرنك⁽⁵⁰⁾.

وبعد عدة محاولات فاشلة تمكنت الحكومة العثمانية عام (1854م) من الحصول على أول قرض خارجي من خلال طرح سندات طويلة الأجل في الأسواق المالية الأوروبية، لتبدأ بذلك حقبة القروض الخارجية التي استمرت إلى قبيل الحرب العالمية الأولى (1914م)⁽⁵¹⁾، ويمكن تقسيم هذه الحقبة إلى ثلاث مراحل: الأولى (1854-1875م)، حيث استطاعت خلالها الحكومة العثمانية الحصول على 15 قرصاً من المؤسسات المالية الأوروبية، بكفالة فرنسا وبريطانيا مع رهن عدد من

موارد الدولة الهامة كالعائدات السنوية لمصر وجمارك بعض المعابر التجارية. وقد بلغت القيمة الاسمية لمجموع سندات القروض (217 مليون) جنيه استرليني، بمعدل فائدة اسمية (5.6%)، إلا أن ارتفاع درجة الخطر في هذه القروض اقتطع نصف هذه القيمة تقريباً على شكل خصوم إصدار وعمولات سمسة، ولم تتسلم الدولة العثمانية إلا (110 مليون) جنيه استرليني فقط. وبسبب الضغوط المالية المتزايدة أعلنت الحكومة العثمانية عام (1292هـ/1875م). توقفها جزئياً عن سداد الديون، فيما عرف ب(قرار رمضان)، الذي نص على أن الأقساط المخصصة لسداد الدين (Coupons) خلال الخمسة السنوات القادمة، سوف يدفع نصفها فقط نقدًا، أما النصف الآخر فسوف يدفع على شكل سندات بفائدة (5%)، ثم لم تلبث الحكومة العثمانية بعد نصف سنة أن أعلنت توقفها الكامل عن السداد (1293هـ/1876م)⁽⁵²⁾.

والمرحلة الثانية (1876-1881) هي مدة توقف الدولة العثمانية عن سداد ديونها، وقد سبب هذا القرار أزمة مالية في الأسواق المالية الأوروبية، وفقدت الثقة بالسندات العثمانية، كما قوبل باستياء شديد من بعض المفكرين العثمانيين الذين رأوا فيه تقويضاً لتحالف العثماني-الأوروبي. ضد روسيا. وقد حاولت الحكومة العثمانية في هذه المرحلة بسبب تزايد نفقات الحرب مع روسيا الحصول على قرض خارجي، رغم انخفاض مصداقيتها المالية في السوق المالية الأوروبية، فقامت بطرح سندات بخصم (48%) من قيمتها الاسمية (5 ملايين) جنيه استرليني، وبفائدة اسمية (5%). سنويًا، ورغم هذه الشروط القاسية لم يقبل أحد على شراء هذه السندات، فقام البنك السلطاني العثماني بشرائها عام (1877م). وقد استمرت أثناء هذه الحقبة المفاوضات بين الحكومة العثمانية وحملة السندات من أجل تسوية

الديون، وتمخضت أخيراً عام (1881م) عن إنشاء هيئة (إدارة الديون العمومية) (53).

وفي المرحلة الثالثة (1881-1914م). استأنفت الدولة العثمانية بعد مفاوضات طويلة ومضنية دفع ديونها بعد تخفيضها وإعادة جدولتها.. ففي عام (1299هـ/1881م) أعلنت الحكومة العثمانية في (قرار المحرّم) - نسبة إلى الشهر الذي صدر فيه - إنشاء (إدارة الديون العمومية)، وأسندت إليها مهمة تسوية كافة الديون الداخلية والخارجية. كانت هذه الإدارة تعمل باستقلالية دون أي تدخل من الحكومة العثمانية، تحت إشراف مجلس يتكون من سبعة أعضاء يمثلون الدائنين المحليين والأجانب. وقد خصصت الدولة نحو ثلث إيراداتها العامة لأجل تسوية ديونها، وحولت إلى (إدارة الديون) مسؤولية جباية هذه الإيرادات وسداد أقساط الديون منها، وأهم هذه الإيرادات: الرسوم الستة (رسوم امتياز استخراج الملح، وصناعة التبغ، والمشروبات الكحولية، وصيد السمك، والطوابع، والحرير)، وجزية (بلغاريا) و(الروملي الشرقية) للدولة العثمانية، وغير ذلك (54).

وقد تم أثناء المفاوضات مع الدائنين تخفيض الدين العام (أصل القرض مع فوائده) بنسبة (58%) من (253 مليون) جنيه استرليني إلى (106 مليون) جنيه بفائدة (1%) سنوياً، يتم سداده من إيرادات الموارد المحوّلة إلى (إدارة الديون)، حيث خصص لدفع الفوائد (80%) من الإيرادات المتحصلة، و(20%) الباقية لا-استرداد السندات- التي قسمت إلى- أربعة مجموعات- بحسب الأولوية في الاسترداد (55).

أظهرت هيئة (إدارة الديون) كفاءةً عالية في الإشراف على موارد الدخل وجباية إيراداتها، وانتظاماً في سداد أقساط الدين، مما زاد الثقة في السندات العثمانية،

ورفع التصنيف الائتماني للدولة العثمانية، ومكنها من الاقتراض بشروط أفضل من السابق؛ فخلال (1882-1914م) حصلت الحكومة العثمانية على 25 قرصاً من الأسواق المالية الأوروبية بمعدل فائدة اسمية (4%)، بلغت القيمة الاسمية لهذه القروض (151 مليون) جنيه استرليني، تسلمت منها الدولة (133 مليون) جنيه تقريباً. بينما اقتطع الباقي (12% من القيمة الاسمية). على شكل خصوم إصدار⁽⁵⁶⁾.

وبذلك يكون مجموع ما اقترضه الدولة العثمانية من الخارج خلال (1854-1914م) حوالي (370 مليون) جنيه، بقي منه عند اندلاع الحرب العالمية الأولى (143 مليون) جنيه. أرغمت ظروف الحرب الدولة العثمانية على تعليق عمل (إدارة الديون) وعدم دفع أقساط الديون إلا تلك المستحقة لحليفها ألمانيا، وبعد هزيمتها في الحرب استأنفت الدولة العثمانية دفع ديونها إلى الدول المنتصرة مع إعفائها من نصيب ألمانيا والمجر من تلك الديون، ولكنها لم تلبث أن توقفت عن السداد عام (1923م) مطالبة بتحمل الدول التي استقلت بعد الحرب جزءاً من هذه الديون، ولم ترجع إلى السداد إلا بعد انحلال الدولة العثمانية ونشوء الجمهورية التركية. بلغ الدين العام العثماني عند انحلال الدولة حوالي (118 مليون) جنيه استرليني، قبلت تركيا تحمل (65%) منه، أي حوالي (77 مليون) جنيه، ووزع الباقي على الدول المستقلة عن الدولة العثمانية⁽⁵⁷⁾.

الخاتمة

حرصت الدولة العثمانية على إبقاء خزينتها عامرة بالأموال؛ إدراكاً منها بأهمية ذلك في استقرار الملك وحفظ السلطنة؛ فلا ملك إلا بالرجال، ولا رجال إلا بالمال،

ومن أجل ذلك تنوعت الضرائب والرسوم التي فرضتها الدولة على الرعية، وشملت كافة النشاطات الاقتصادية الزراعية والحرفية والتجارية. ورغم وفرة موارد الدولة العثمانية فإنه لم يكن يصل منها إلى الخزينة المركزية إلا الثلث تقريباً، وذلك بسبب أسلوب الإدارة اللامركزية الذي كان متبعاً؛ حيث يعطى صاحب الإقطاع (التيماري) والإداريون المحليون حق جباية العوائد وصرفها محلياً، مع التزامهم بإرسال مبلغ مقطوع سنوياً إلى العاصمة. كما اهتمت الإدارة العثمانية بالرقابة المالية على موظفي الدولة وجباة الضرائب، وأنشأت لذلك عدة أقلام (دوائر مالية) تقوم بتسجيل الإيرادات والمصروفات (الدخل والخرج بالتعبير العثماني) وتقييدها في العديد من السجلات والدفاتر، من أبرز هذه الدفاتر تلك التي تقيّد الأموال النقدية المحولة إلى الخزينة المركزية والخارجة منها، وهي التي أطلق عليها المؤرخون (الميزانية العثمانية).

وقد بينت الدراسة أن أهم الموارد التي كانت تحول للخزينة المركزية هي: الجزية التي تؤخذ من رعايا الدولة غير المسلمين، والعوارض الديونية التي كانت تجبي نقداً فقط، دون تلك التي تجبي عيناً أو يطلب فيها تقديم خدمات بدنية للدولة، وكذلك الموارد المملوكة للدولة (المقاطعات) التي كانت تدار بطريق الالتزام أو الأمانة. كما أظهرت أن أهم مصروفات الخزينة كانت: مواجب الجنود وموظفي الدولة، ونفقات القصر السلطاني وتأمين السلاح والعتاد للجيش، ومخصصات سداد ديون الدولة التي زادت بشكل كبير في القرن التاسع عشر.

كما بينت الدراسة أن الميزانية العثمانية لم تشهد حالات حادة من العجز حتى أواخر القرن السادس عشر، حيث أصبح العجز بعدها سمة عامة للميزانيات العثمانية حتى انحلال الدولة، وكانت تكمن وراء هذا الأمر عدة أسباب من أهمها:

فقدان كثير من البلاد الغنية بالموارد الاقتصادية نتيجة الحروب الخاسرة، وفساد أنظمة جباية الموارد وتعدد الوسطاء الماليين بين الدولة ومصادر دخلها، والنفقات الباهظة لعملية الإصلاح التي بدأت أواخر القرن الثامن عشر، والتكاليف العسكرية المتزايدة اللازمة لإعداد الحملات وتموينها، وكذلك الغرامات الحربية التي تحملتها الدولة.

وأشارت الدراسة إلى عدة أساليب لجأت إليها الدولة العثمانية لتغطية عجز ميزانيتها، منها: مصادرة أموال رجال الدولة، وتأخير دفع الرواتب للجند والموظفين، والزيادة في مقادير الضرائب واستحداث أنواع جديدة تحت اسم (العوارض)، والقيام بعدة إصلاحات في نظام جباية الضرائب بحيث تزيد الحصص التي تحصل عليها الخزينة المركزية كتعميم نظام الالتزام على حساب الإقطاع، ومن ذلك أيضاً خفض عيار السكة (Debasement)، وإصدار عملة ورقية غير مغطاة سميت (القوائم)، وكذلك الاقتراض الداخلي من الصرافين وكبار التجار إما قرضاً مباشراً أو من خلال نظام (المالكانه) و(الأسهام)، وأخيراً الاقتراض الخارجي من الأسواق المالية الأوروبية، حيث بلغ مجموع ما استقرضته الدولة من الخارج خلال (1854-1914م) حوالي (350 مليون) جنيه استرليني.

الهوامش:

- (1) مراد، محمد حلمي، مالية الدولة، مطبعة نضضة مصر، القاهرة، 1964م، ص272.
- (2) إنجليك، خليل، الدولة العثمانية: الاقتصاد والمجتمع (1300-1600)، في: إنجليك وكواترت، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ترجمة: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007م، 132/1، 219-220؛ ساحلي أوغلو، خليل، مالية الدولة العثمانية في عهد تأسيسها، في: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، إرسبكا، إستانبول، 2000م، ص253.

- (3) ساحلي أوغلو، خليل، ميزانيات الشام في القرن السادس عشر، في: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، إرسبكا، إستانبول، 2000م، ص20-21.
- (4) Masters, B. "Jizya," In: Ágoston, & Masters, (eds.), *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, New York: Facts on File, p. 303.
- (5) Özvar, E. "Budgets", In: *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, p. 97.
- (6) Turgay, Uner, "Iâne-i cihâdiyye: A Multi-Ethnic, Multi-Religious Contribution to Ottoman War Effort," in: *Studia Islamica*, No. 86, 1986, pp. 115-118.
- (7) Özvar, E. "Budgets", *op. cit.*, p. 97.
- (8) Cakır, Baki, "mukataa," In *Encyclopedia of Ottoman Empire*, p. 396; Darling, LT. Revenue-raising and legitimacy, Leiden: EJ Brill, p. 123.
- (9) Özvar, E. "Budgets", *op. cit.*, p. 97.
- (10) Özvar, E. "Budgets", p. 97.
- (11) ساحلي أوغلو، مصدر سابق، ص268، إنجليك، مصدر سابق، 156/1؛ Özvar, E. "Budgets", p. 97.
- (12) انظر: مراد، مالية الدولة، ص298؛ الخصاصنة، محمد، المالية العامة: النظرية والتطبيق، دار المناهج، الأردن، ط1، 1434هـ/2014م، ص170؛ Baumol, W. & Blinder, A. Macroeconomics: Principles and policy, Cengage Learning, Ohio, USA, 11th ed., 2009, p.303.
- (13) إنجليك، مصدر سابق، 141/1.
- (14) غب، هاميلتون، وبون، هارولد، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: أحمد إيش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط1، 1434هـ/2012م، 37/2.
- (15) Cezar, Yavuz. "From financial crisis to the structural change: The case of the Ottoman empire in the eighteenth century," in: *Oriente modern*, Vol. 79, No. 1, 1999, p.49; Özvar, E. "Budgets", *op. cit.*, p. 98.

- (16) ساحلي أوغلو، مالية الدولة العثمانية، ص 281؛ كواترت، دونالد، عصر الإصلاحات 1812-1914، في: إنالجيك وكواترت (محرران)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، 498/2-500.
- (17) Serim, Nilgün, “The Causes of the Financial Crisis,” in: *Çanakkale Onsekiz Mart Üniversitesi Yönetim Bilimleri Dergisi*, vol. 10, No. 20, 2012, p. 184.
- (18) ماك غوان، بروس، عصر الأعيان (1699-1812م)، في: إنالجيك وكواترت (محرران)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، 433/2؛ Çizakça, A comparative evolution of business partnerships, p. 165-167, Pamuk, “The evolution of financial institutions,” p.17.
- (19) Pamuk, Sevket, “The evolution of institutions of state finance in the Ottoman Empire, 1500-1800,” in: *XIV International Economic History Congress*, Helsinki, 2006, P. 23.
- (20) Finkel, Caroline, “The Costs of Ottoman Warfare and Defence,” in: Bryer & Ursinus (eds.) *Byzantinische Forschungen XVI*, Amsterdam, 1991, pp. 94-95; Murphey, Rhoads, Ottoman Warfare 1500-1700, UCL Press, London, UK, 1999, pp. 50-103.
- (21) ساحلي أوغلو، مالية الدولة العثمانية، ص 272؛ Finkel, “The Costs of Ottoman Warfare,” p. 92-93; Ágoston, Gábor, “Warfare,” in: *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, p. 593-4.
- (22) Inalcik, Halil, “Military and fiscal transformation of the Ottoman Empire, 1600-1700,” In *Archivum Ottomanicum VI*, Germany, 1980, p. 311; Ágoston, Gábor, “Ottoman warfare in Europe 1453-1826,” In: Black, J. (ed.), *European Warfare 1453-1815*, Macmillan Education, UK, 1999, p. 122; Finkel (1991), *Ibid.*, p. 93-94 .
- (23) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، دار النفائس، بيروت، ط3، 1434هـ/2013م، ص 306-314، Aksan, Virginia, “War and Peace,” in: Faroqhi, S. 450-446، 552-541، (ed.) *History of Turkey vol. 3, The Later Ottoman Empire, 1603-1839*, Cambridge Univ. Press, UK, 2006, pp. 85-87; Ágoston, “Ottoman warfare”, pp. 139-142.

- (24) Shaw & Shaw, History of The Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge Univ. Press, UK, 1976-77, 1/267, 2/32, 191, 223, 303.
- (25) ساحلي أوغلو، خليل، سنو الازدلاف أو أزمات الامبراطورية العثمانية المالية، تعريب: عبد الجليل التميمي، في: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، إرسیکا، إسطنبول، 2000م، ص91-106.
- (26) ساحلي أوغلو، سنو الازدلاف، ص104، 109، 113، 117.
- (27) Elitaş, C. *et al.*, Accounting Method Used by Ottomans, Ministry of Finance, Ankara: Turkey, 2008, p. 420.
- (28) ساحلي أوغلو، سنو الازدلاف، ص95، 104-105.
- (29) ساحلي أوغلو، مالية الدولة العثمانية، ص273؛ Elitaş, C. *et al.* (2008), *op. cit.*, p. 417.
- (30) هي ما يقفه السلطان ورجال الدولة من أموال بيت المال على المصالح العامة. [الزرقا، أحكام الأوقاف، ص98]
- (31) Orbay, Kayhan, “Ottoman Central Administration and War Finance, Late 17th Century”, in: *XIV International Economic History Congress*, Helsinki, 2006, pp. 12-18.
- (32) أورطايبي، النظم الإدارية في عهد التنظيمات، 326/1؛ Elitaş, C. *et al.* (2008), *op. cit.*, p. 418; Pamuk, (2004) “The evolution of financial institutions”, p.18
- (33) Elitaş, C. *et al.* (2008), *Ibid.*, p. 421; Pamuk, Şevket, “money and monetary system”, in: *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, p. 393.
- (34) باموك، شوكت، النقود في الإمبراطورية العثمانية، في: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، Pamuk, “money and monetary system”, p. 393؛ 772، 758، 746، 742/2.
- (35) Elitaş, C. *et al.* (2008), *op. cit.*, p. 421; Orbay, (2006), *op. cit.*, p. 9 .
- (36) إنجليك، مصدر سابق، 169/1؛ باموك، التاريخ المالي، ص166؛ Orbay, (2006), *op. cit.*, p.20.
- (37) Tunçsiper, Bedriye, *et al.*, “Ottoman Empire’s Debt Management in 19th Century & Role of the Galata Bankers (1838-1881)”, *The Balkan Countries 1st International Conference on Accounting and Auditing*, Edirne, Turkey, 2007, pp. 4-10.
- (38) ساحلي أوغلو، سنو الازدلاف، ص114-118.

- (39) Darling, Linda, “Public finances: the role of the Ottoman centre”, in: Faroqhi, S. (ed.) *History of Turkey vol. 3*, Cambridge Univ. Press, UK, 2006, pp. 126-129; Çizakça, Murat, “Evolution of Domestic Borrowing in the Ottoman Empire”, in: Cottrell, P. (ed.), *East meets west: banking, commerce, and investment in the Ottoman Empire*, Ashgate Publishing, UK, 2008, pp. 3-8..
- (40) Çizakça, A Comparative Evolution of Business Partnerships, pp. 179-183.
- (41) باموك، التاريخ المالي، ص347؛ Darling, (2006). *op. cit.*, p. 130.
- (42) Çizakça, Murat, *Islamic Capitalism and Finance*, Edward Elgar Publishing, London, 2011, p.71.
- (43) Darling, (2006), *op. cit.*, p.130; Çizakça, Murat, “Risk Sharing and Risk Shifting: an Historical Perspective”, *Borsa Istanbul Review*, vol. 14, No. 4, 2014, p. 193 .
- (44) كوتوك أوغلو، البنية الاقتصادية في الدولة العثمانية، 653/1؛ Çizakça, (2008), *op. cit.*, pp. 6-8; Cezar, (1999), *op. cit.*, p. 53-54
- (45) كوتوك أوغلو، البنية الاقتصادية، 653/1؛ Davison, Roderic H. “The First Ottoman Experiment with Paper Money”, in: *Essays in Ottoman and Turkish history, 1774-1923*, University of Texas Press, Texas, USA, 1990, pp. 61-64
- (46) باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، ص379؛ Davison, (1990), *Ibid.*, pp. 61-68
- (47) باموك، التاريخ المالي ، ص380.
- (48) Birdal, Murat, *The Political Economy of Ottoman Public Debt*, IB Tauris, London, 2010, p. 25; Bildirici, Melike, *et al.*, “An Empirical Analysis of Debt Policies .. in the Ottoman Empire”, *Applied Econometrics and International Development*, Vol.8, No.2, 2008, p. 83.
- (49) كوتوك أوغلو، مصدر سابق، 655/1.

- (50) Al, Hüseyin, “Debt and Public Debt Administration”, *Ency. of Ottoman Empire*, p. 180.
- (51) Bildirici, *et al.*, (2008), *op. cit.*, p. 84.
- (52) Bridal, (2010), *op. cit.*, pp. 26–29; Al, Hüseyin, (2009), *op. cit.*, p.181; *Ozekicioglu, Seda*, “First Borrowing Period at Ottoman Empire”, *Business and Economic Horizons*, Vol.3, No.3, 2010, p. 33–36.
- (53) Wynne, William H, State Insolvency and Foreign Bondholders, New Haven, Yale University Press, 1951, vol. 2, pp. 417–433; Bridal, (2010), *Ibid.*, pp. 41–43; Eldem, (2005), “Ottoman financial integration with Europe”, pp. 440–442.
- (54) ضاهر، يوسف أفندي، المالية العثمانية، مجلة المشرق، بيروت، السنة 5، العدد 13، 1902م، ص598–602.
Wynne, (1951), *Ibid.*, pp. 435–444
- (55) Wynne, (1951), *Ibid.*, pp. 444–454; Bridal, (2010), *Ibid.*, pp. 52–57.
- (56) Bridal, (2010), *Ibid.*, pp. 85–92.
- (57) Al, Hüseyin, “Debt and Public Debt Administration”, p. 180; Moore, Lyndon & Kaluzny, Jakun, “Regime change and debt default: the case of Russia, Austro–Hungary, and the Ottoman empire following World War One”, *Explorations in Economic History*, 42 (2), 2005, p.255.

ملاحح عن تقلبات قيمة النقود بالأندلس في القرنين 5 و 6 الهجريين

(11-12م) وتأثيراتها الإقتصادية و الاجتماعية.

د. مراد تجنانت / كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة علي لونيبي/

البليدة

الملخص:

تعد ظاهرة تَقَلُّب قيمة النقود في العصور الوسطى خاصة ما ارتبط بوزنها ونسبة الذهب في الدينار والفضة في الدراهم من أهم المؤثرات على النشاط المصرفي خاصة الإقتصادي عامة . ترتبط هذه التقلبات بالأطراف الفاعلة في الدولة و المجتمع كالحاكم و دور الضرب و الصرافون دون أن نغفل الدور السلبي المزورين. لقد أفرزت حالات تَعْيِير قيمة الصرف و التعدد النقدي مشاكل على صعيد المعاملات الاقتصادية و الاجتماعية حاول الفقهاء معالجها. غير أن مظاهر تذبذب قيمة العملة و ما ارتبط بها من آفات بقيت تسائر الحياة الاقتصادية على الأقل في الفترة المدروسة.

Abstract:

Fluctuations in the value of currencies in the Middle Ages were, above all, a phenomenon associated with their weights and the proportion of the precious metals in the different coins: gold in the dinar and silver in the dirham. This will surely influence currency and economic activities. These fluctuations are largely related to the decisions of the State, the minting

houses, and currency exchanger. Without neglect the harmful role of counterfeiters....

The instability of the currencies values and their diversities in the économic operations had caused many disturbances which the doctors in Malikite jurisprudence had tryed to solve. However, these manifestations and their negatives consequences endured at the rhythm of economic life, at least during the period studied.

إذا كانت للمسكوك قيمة توثيقية تاريخية باعتبارها إحدى شارات الحكم وصورة لهوية الدولة و المجتمع ومؤشر على قوة أو ضعف السلطان. فهي في نفس الوقت إحدى العناصر الأساسية في حركية النشاط الاقتصادي. كما أنها وسيلة للحصول على المنافع و أداة للوساطة في المبادلات و تقويم السلع و تسوية المدفوعات العاجلة و الآجلة¹. زيادة على ذلك تُعدُّ عند أهل الاقتصاد إحدى المؤشرات التي يُقاس بها صحة الوضع الاقتصادي.

تشكل فهرس النقود مصدرا أساسيا للبحث في قيمة الصرف من خلال أوزان النقود و تركيبها المعدنية و من أهمها ما جمعه محافظ المكتبة الوطنية الفرنسية هنري لافوا (Henri Lavoix) في فهرسه عن النقود الإسلامية الموجودة بالمكتبة الوطنية الفرنسية وكتاب رونالد ميسي (Ronald Messier) عن النقود في كتابه عن الإقتصاد و المجتمع الإسلامي. أما ما تعلق بتأثيرات ذلك على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية وطرق معالجتها و التعامل بها فإن كتب الفقه و النوازل المالكية حملت معلومات غنية وغزيرة . سَيُعتمد خاصة على كتابي قاضي

الجماعة بقرطبة محمد بن رشد الجد (ت 520 هـ/1126م): المسائل التي أجاب فيها عما كان يصله من أسئلة ، وكتاب البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل وهي المسائل المستخرجة من أسمعة تلامذة الإمام مالك بن أنس . كما تم الرجوع الى بعض فتوى الفقيه القاضي عيسى بن سهل (ت 486 هـ/1093م) في كتابه ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام و قطر من سير الحكام، وبعض ما ورد في كتاب المحلى لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي القرطبي (ت 456 هـ/1064) الذي حملت إجهاداته كثير من القضايا الاقتصادية. ثم مؤلفات متاخرة عن الفترة المدروسة أهمها الكتاب الموسوعي لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914 هـ/1508م) المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس و المغرب. يضاف إليها كتب الحسبة التي تضمنت معلومات عن كيفيات الغش والحيل وطرق محاربتها وقمعها ، في مقدمتها كتاب ثلاث رسائل في الحسبة خاصة ما سجله المحتسب محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي (ت سنة 527 هـ/1132م) و ابن عبد الرؤوف المحتسب بقرطبة، (ت 424 هـ/1032) و قريب من كتب الحسبة كتاب الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، لصاحبه أبي الحسن علي بن يوسف الحكيم ضابط دار السكة بفاس (القرن 7 هـ/13م) . الذي فصل خبايا سَكِّ العملة و نُظْمَ إدارة دور الضرب وطرق متابعة عملية سك النقود واكتشاف النقود المزورة.

تكاد تنعدم الأخبار عن تقلبات الصرف في المصادر التاريخية التقليدية مع ندرة المعلومات عن الاسباب الاقتصادية لسكها بأوزان و معايير المختلفة وكذا أثرها على الإقتصاد. لهذا سيتم في هذا السياق تسليط الضوء على ظاهرة تَقَلُّب قيمة النقود

ما ارتبط خاصة بوزنها ونسبة الذهب في الدنانير والفضة في الدراهم، ومدى تأثير ذلك على الوضع الاقتصادي والاجتماعي. فالتحول في القيمة ظاهرة الملازمة للنشاط المصرفي لا يكادُ ينفك عنه. يتم لهذا الغرض اختيار عينة من الممارسات النقدية بالأندلس في القرنين الخامس و السادس الهجريين (11-12م) كنموذج لفهم طبيعة النشاط النقدي في البلاد الإسلامية قبل تبلور علم الاقتصاد بمفهومه الحديث². هذه الفترة من تاريخ الأندلس عرفت التوترات السياسية وأمنية واشتداد الحروب الخارجية مع الممالك النصرانية منذ انهيار الدولة الأموية و طيلة حكم أمراء الطوائف ثم حكم المرابطين.

سَيُوجَهُ البَحْثُ لدراسة مظهرين أساسيين مؤثرين في تقلب قيمة العملة وعمليات الصرف³ هما الوزن والتركيبية المعدنية. مع بعض جوانب معالجة هذه التقلبات وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية

أولاً. أمثلة عن أوزان النقود و تركيباتها المعدنية بالأندلس في القرن الخامس و السادس الهجريين.

قدرت قيمة الدينار عند الفقهاء بالإجماع باثنتين و سبعين حبة من الشعير الوسط أو نحو 4.25 غ. أما الدرهم من الفضة فقدر ب50 حبة من الشعير أو 10/7 من الدينار أو 2.975 غ. وهي القيم المرجعية للنقود الإسلامية لما اضطرت أوزانها و تركيبتها في الدول المتعاقبة⁴. يقول ابن خلدون في مسألة اختلاف النقود و تباينها وزنا و عيار بعد أن شخص الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مقدارهما ((...و من بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة

المقدار الشرعي في الدينار و الدرهم و اختلفت في كل الأقطار و الآفاق و رجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنياً كما كان في الصدر الأول و صار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسب التي بينها و بين مقاديرها الشرعية))⁵.

سجل محافظ المكتبة الوطنية الفرنسية هنري لافوا (Henry Lavoix) في فهرسه عن النقود الإسلامية نماذج كثيرة لنقود مختلفة الأوزان و المعادن المكونة لها في القرنين الهجريين (11-12م) نستشهد ببعضها لإبراز هذا التذبذب و التنوع النقدي.

مما ضُرب سنة 406 هـ/1015م بعد سقوط الدولة العامرية سنة 399هـ/1008م وأثناء الحرب الأهلية بالأندلس ، دراهم تراوحت أوزانها ما بين 2.70 غ و 4.60 غ⁶، منها درهم فضي مغلف بالذهب سنة 400هـ/1009م بوزن 3.20 غ⁷. ودينار ذهبي خفيف الوزن بلغ 0.60 غ بقرطبة في عهد الخليفة الأموي المستكفي بالله (414-416 هـ/1024-1025م)⁸.

و سك بنو حمود في فترة حكم الطوائف دنائير جزءها الأكبر فضة بوزن 1 غ⁹ وأخرى خليط من ذهب وفضة ب 4.30 غ¹⁰. أما الدراهم الفضية كانت بأوزان متعددة منها ما ارتفع إلى 3.34 غ¹¹ بينما نزل أخرى إلى 1.97 غ¹²، أو بعضها من فضة رديئة بوزن 1.65 أو نحاس بلغ وزن بعضها 786 غ بغرناطة سنة 445هـ/1053م. بينما نزلت بملقة سنة 446هـ/1054م إلى 1.55 غ . هذا ما يبين التدهور الكبير لقيمة النقود خلال هذه الفترة المتأزمة¹³.

وانخفضت بعض دنانير الأمير المعتضد بن عباد الى 3.03 غ ، بينما ارتفعت أخرى الى 4.20 غ¹⁴ ونزلت بعض دنانير أبنة المعتمد الى 1.04 غ وارتفعت أخرى الى 4.20 غ¹⁵ . أما بغرناطة في دولة بني زيري كانت أوزان أجزاء الدنانير خليط من ذهب وفضة مابين 0.75 غ و1.74 غ¹⁶ . وبلنسية في دولة مبارك و مظفر العامريين ضربت دنانير ذهبية بوزن 1 غ ونقود نحاسية مابين 1.95 غ و 5.88 غ ونقود فضية مابين 1.22 و 3.37 غ¹⁷ .

تباينت دراهم إمارة بني ذي النون بطليطلة مابين 0.75 غ و 4.75 غ¹⁸ . ودراهم بني هود بسرقسطة بأوزان من 2.98 غ الى 6.52 غ . أحسنها مصنوع من فضة رديئة إن لم تكن نحاسا¹⁹ . كما ضرب الأمير يحيى المنصور بالله بن الألفس بيطليوس (460-473هـ/1068-1080) دراهم فضية منها ما كان بزينة 3.10 غ و 2.09 غ²⁰ . هكذا نلاحظ التعدد النقدي في هذه الفترة وكثرة دور الضرب بعدد الإمارات ورداءتها على العموم باستثناء نقود بني عباد التي كانت وأجود نسبيا من باقي نقود الإمارات الطوائف.

استمرت ظاهرة تعدد دور الضرب في الفترة المرابطية إلا أن أوزان النقود بقيت متقاربة مقارنة بفترة الإمارات الطوائف. فمما ضرب سنة 497هـ/1104م دينار بإشبيلية كانت زنته 4 غ وآخر بلنسية ب4.15 غ²¹ ، ودينار بقرطبة بزنة 4.04 غ ثم 3.93 غ²² . كما تواصل تعدد أوزان النقود ودور الضرب في الامرات الانفصالية بعد انهيار قوة المرابطين كدنانير عبد الله بن عياض بمرسية ودنانير محمد بن سعيد بن مردنيش بمرسية و دنانير أبي عبد الله المقتفي لأمر الله العباسي بمرسية²³ .

عن تباين التركيبة المعدنية للنقود يقدم لنا الباحث رونالد ميسي (Ronald Messier) نماذج عن ذلك تعود للفترة المرابطية. ففي قرطبة سنة 492هـ/1092م ضُرب الدينانير بنسبة 91.4% من الذهب، وفي دانيا سنة 497هـ/1103م ب 93.8%، وإشبيلية في نفس السنة ب 88%، و مرسية 92.3%. و نزل دينار بلنسية سنة 507هـ/1113م إلى 79.5% و 18.8% من الفضة. وأوضح مثال على تدهور جودة العملة النقود المرابطية في عهد الأمير علي بن يوسف (500- 539هـ/1106-1146م) دينار ألمرية سنة 504هـ/1110م ب 59.3% من الذهب و 38.8% من الفضة و 1.9 من النحاس²⁴.

تبيّن على الأقل في الفترة قيد الدراسة أن دور الضرب كانت تتوزع في أغلب الحواضر الأندلسية في فترة ملوك الطوائف و في العهد المرابطي مما أثر على الوضع النقدي فتعددت النقود ذات القيم المتباينة في أوزانها و تركيبتها المعدنية. كما أنها أشرّت للوضع الإقتصادي بين الرخاء والتدهور.

ثالثاً. عوامل تقلب قيمة النقود.

يأتي في مقدمة الأطراف الفاعلة في النشاط النقدي الحاكم و دور الضرب و من يقصدها لتحويل الذهب و الفضة و الحلي إلى دنانير و دراهم، و الصرافون و المتعاملون معهم، دون أن نغفل عن المزورين الذين يمارسون هذه النشاطات في نطاق غير رسمي.

تقوم دور الضرب بسك النقود بأمر من السلطان. وفيها تضبط قيمها ارتفاعاً أو انخفاضاً بالتصرف في أوزانها و نسبة تركيبها المعدنية . من الأمثلة على ذلك أن حاكم بلنسية ضرب زمن الفقيه المالكي سليمان بن خلف الباجي (403-474هـ/1012-1081م) دراهم بلغت ستة دنانير بممثقال ثم نقلت بعد مدة الى سكة أخرى كان صرفها ثلاثة دنانير للمثقال²⁵. و جاء في إحدى مسائل ابن رشد أن صرف الدينار كان بستة عشر درهماً، ثم زاد إلى أن بلغ عشرين درهماً بدينار²⁶.

تقوم الدول عند الضرورة بتخفيض قيمة النقود أو ما نسميه في وقتنا تعويم العملة الى درجة قد تصل الى الغش. خاصة لما تتراجع مدخرات الذهب والفضة بسبب تزايد النفقات المرتبطة عادة بتقوية الجيش ونفقات الجند خاصة في فترات الحروب والنشاط العمراني وسنوات قلة الإنتاج الزراعي تضطر الدولة الى استيراد الغذاء و نفقات الترف التي تزيد في آخر الدولة. يضاف الى ذلك دفع الإتاوات الباهضة التي كانت تفرضها الدول المتغلبة. يُرجى من هذا الإجراء توفير السيولة النقدية في الأسواق و وتفادي العجز المالي و تجنب الإسراف في فرض الضرائب و المكوس التي هي من أهم مصادر إيرادات الخزينة إذ الإكثار منها عادة ما كان يُظهرُ الدولة في نظر المجتمع المسؤولية عن تردي الوضع الاقتصادي مما قد يؤدي الى توترات اجتماعية²⁷. وفي هذا السياق أورد الونشريسي سؤالاً ورد على قاضي الجماعة بقرطبة ابن الحاج الشهيد (ت 529هـ/1134م) عن تسديد ثمن ثوب بقيسارية الشقاقين في كل ثمانية دراهم درهماً نحاسياً و غيرها برضا البائع ، و كان ذلك بأمر السلطان أو تواطؤ جميع الناس²⁸.

رغم ما كان يصدره السلطان من أوامر بقطع النقود القديمة و إجراء أخرى جديدة²⁹. كقطع سكة ابن جهور بقرطبة و إدخال سكة ابن عباد مكانها³⁰. فإن هذا الإجراء لم يكن يُعمَل به بالصرامة اللازمة التي تمنع التعدد النقدي في البلد الواحد. فقد سجلت كتب النوازل اختلاط نقود ذات قيم مختلفة في الأسواق و المعاملات كالطبية بالردية³¹ أو المقصوصة و المقطوعة بالوازنة في زمن واحد³². وسبب ذلك فوضى في سوق الصرف ومشاكل في مختلف المعاملات.

كانت ظاهرتي الغش في النقود و فوضى الصرف تستفحلان بسبب تعدد دور الضرب. و قد عمتا بلاد الأندلس في فترة ملوك الطوائف و جزء من العهد المرابطي مابعد عهد الأمير يوسف بن تاشفين حتى جعلت قاضي الجماعة بقرطبة ابن رشد الجد يصرح بما يوحى بالعجز في تغيير هذا الواقع فيقول ((فأما اليوم فإن الذهب يُعش، و قد صار لكل مكان سكة تضرب))³³.

يضاف الى ضرب النقود المغشوشة في أوزنها أو نسب الذهب و الفضة فيها قص بعض أجزائها³⁴ و التعامل بالنقود المسوحة التي زالت أغلب ملامحها نتيجة كثرة التداول. فالتعامل بها غشا إذا ضُمَّت الى النقود الوازنة و تم وتم التداول بها عدداً.

كما سبق الإشارة إليه فإن تعدد دور الضرب و وقيام بعضها بتعويم قيمة العملة تصل في بعض الحالات الى درجة الغش قد وفر المناخ لقيام بعض الأشخاص بنفس العمل مثل الصرافين من المسلمين و أهل الذمة من اليهود الذين يبيح لهم أحبارهم غش من هو من غير ملتهم³⁵. فإذا دخل هؤلاء ميدان الصرف

في الذهب و الفضة و دور الضرب كان ذلك عاملا إضافيا لاشتغال كل أنواع التزوير. لهذا يحذر المحتسب ابن عبد الرؤوف من اشتغال أهل الذمة وضعاف المسلمين بالمصارفة ناهيك عن التقرب من دور الضرب. يقول في ذلك ((و أصل الأثمان الذهب والفضة ومرجعها الى أهل الصرف في الغالب، فمن النظر في ذلك أن لا يستعمل فيها ذميا ولا متهما في كسبه))³⁶ .

رابعا. أمثلة عن المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية الناجمة عن تنوع و اختلاف قيمة النقود في الزمان و المكان.

ندرك تأثيرات تَعْيِير قيمة النقود ، من خلال المسائل الواردة في كتب النوازل نُورِدُ بعضها على سبيل الاستشهاد. مما طرح على الفقهاء في هذا المجال، أن النقود الناقصة والوازنة تُدْفَعُ مختلطة عند عقد صفقات البيع مما ينشأ الخلافات بين المتعاملين والشركاء³⁷. كسؤال التجار مثلا عن بيع دواب لهم بدراهم مختلفة الوزن اقتسموا ثمنها عددا بغير وزن . فجعل بعضهم يرى في ذلك غبنا حيث لا تتساوى أعداد النقود المُقْتَسَمَة في القيمة³⁸. أو سؤال عن عدم اتفاق متعاقدين في كيفية التعويض حال رد بضاعة بعد مدة من الزمن، هل يكون بالنقود الجيدة التي تمت بها الصفقة أم بالردية الحاضرة عند إعادة البضاعة؟³⁹. كما سألوا عن البيع بالمثلث العبادي والاقْتِضَاء (دفع الدين) بالمثلث المرابطي، وكان الأول أدنى في عياره و وزنه من الثاني⁴⁰، و تصريف الدينار المرابطي بالعبادي (أي بالوزن)⁴¹، و منح قرض بالدينار الناقص ثم التسديد بالدينار القائم أي الكامل⁴².

من المسائل المفصلة تُعَيَّر قيمة صرف الدينار بالدرهم بين يوم عقد صفقة بدين ويوم اقتضائه، فجاء في مسائل ابن رشد أن بيعت السلعة بمثقال ذهب أحال المشتري مكانها اثني عشر درهما و كان الصرف فيها يومئذ أربعة عشر درهما بمثقال. ثم فقد المثقال يوم التسديد درهما ونصف درهم ، فبينما رأى المشتري أن يدفع نصف درهم فقط ، أو يسترجع الأثني عشر درهما التي أحال بتا البائع ، ويعطي مكانها مثقالا، رأى البائع أنه أخذ من المشتري أثني عشر درهما بمثقال ناقصة بعشر حبات بقيت في ذمته⁴³. من المسائل كذلك تُعَيَّر النقود بعد عقود الكراء جاء في ذلك أن رجلا من مدينة المرية أكرى دارا مشاهرة فحالت تلك السكة الى سكة أحسن من التي وقع العقد بها، فوقع الخلاف بعد مدة حول العملة التي يتم بها التسديد⁴⁴.

كما وردت على الفقهاء أسئلة كثيرة تخص حالات الغش و التحايل في عمليات تسديد ثمن الصفقات ، كالدفع بالدنانير المخالطة للفضة⁴⁵ أو دس دراهم نحاسية مع دراهم فضية ، أو مراطلة النقود الوازنة بالنقود الناقصة⁴⁶ ، أو الخلط بين الكبيرة و الصغيرة⁴⁷. أو تسديد الديون وقت استبدال النقود بنقود جديدة⁴⁸.

ومن الأسئلة الواردة على الفقهاء الاضطرار الى التعامل بالنقود الزيوف لما يعم بلواها الأسواق، سواء كانت بعلم ورضا المتعاملين أو بجهل أحدهما⁴⁹. أما في قضايا الزكاة فمن الإشكالات المطروحة تحديد النصاب عند تغير قيمة المسكوكات أو اختلاطها⁵⁰.

استفحلت ظاهرة الغش في المصارفة بسبب التعدد النقدي واختلاف قيم النقود واختلاطها، فيُخسِرُ بعض الصرافين الموازين ، كأن يزنوا بحب الشعير أو الخروب فيها أطراف إبر إن قبضوا لأنفسهم. و إن وزنوا لغيرهم استعملوا التي لا إبر فيها⁵¹. و استعمل آخرون ميزانا به في القاع حصى يأخذ به ويميزان آخر دون حصى يعطي به⁵². و تخصص بعضهم بأخذ النقود المغشوشة، لما وجدوه فيها من فوائد وأرباح هم أدري بجباياها المشبوهة لم يبين المصدر هل كان الصراف يعيد بيع هذه النقود المغشوشة أم يقوم بعملية استرجاعها وتخليص سوق العملة منها⁵³.

لقد أثرت هذه السلوكات على دقة العمليات المصرفية و التجارية⁵⁴ كتقارير المعاوضات والعقود والتبرعات وأسعار المستهلكات وعلى استقامة واستقرار نصاب الزكاة⁵⁵ مما أدى حتما الى كثرة الخلافات و الخصومات في المجتمع يعكس صداها ما كان يرد على الفقهاء من مسائل. كما تأثرت أرزاق الناس حين يجد بعضهم في أمواله نقودا مزيفة بعد فوات الوقت⁵⁶.

يجب التنبه أن المصادر فقيرة بالمعلومات التي تبين العلاقة بين قيم النقود و الأسعار ، غير أن النوازل الفقهية سجلت لنا أمثلة واقعية عن العلاقة بين العنصرين واعتمادا على القاعدة الاقتصادية التي مفادها أن الأسعار تتحرك في العادة عكس اتجاه تحركات قيمة النقود. فإذا هبطت قيمة النقود غلت الأسعار وإذا صعدت انخفضت . فإن هذه العلاقة العكسية بين تحرك قيمة النقود و وضعية الأسعار هي إحدى الأسباب الرئيسية لحدوث الغلاء على الأقل في الفترة المدروسة من التاريخ

الاقتصادي للغرب الإسلامي، الى جانب الأسباب التقليدية التي أشارت إليها المصادر التقليدية كتراجع الإنتاج لأسباب متنوعة طبيعية وبشرية.

خامسا. معالجة مشاكل العملة عند الفقهاء .

اجتهد الفقهاء في حل القضايا التي أفرزتها تقلبات الصرف وعمليات الغش واستمرار التعامل بالنقود المقطوعة والناقصة . كما عمل الفقهاء على رفع الغبن الاقتصادي و الاجتماعي الذي أوجده هذا الواقع النقدي المتقلب.

ففي اقتضاء الديون مثلا يؤكد ابن رشد على وجوب الأداء بنفس العملة التي عقدت بها الصفقة ابتداء في حال اختلاف قيمة النقود بين يوم عقد الصفقة و يوم الدفع⁵⁷ . بينما أفتى قبله الفقيه أبو عمر بن عبد البر الأندلسي (368-463هـ/1071-1078م)⁵⁸ أن يكون الدفع بالعملة المتأخرة دون التي تم بها العقد⁵⁹ . أما المحدث الفقيه قاضي قرطبة محمد بن عتاب (ت 462هـ/1069م) فقد أفتى بأن يرجع في ذلك الى قيمة السكة المقطوعة من الذهب ، ويأخذ صاحب الدين قيمتها ذهباً⁶⁰ . و في مسألة إكتراء دار مشاهرة ، كل شهر ببلغ ، حالت السكة الى سكة أحسن من التي وقع العقد عليها. و سَكَّتَا الطرفان مدَّة بعد حدوث تحول العملة. ثم طلب صاحب الدار بالعملة الجديدة ، قضى الفقيه القاضي أبو الأصبح عيسى بن سهل (ت 486هـ/1093م) على أن على الكاري الدفع من السكة المتعامل بها يوم العقد ثم لهما فسخ العقد و التعاقد على السكة الجديدة⁶¹. أما إدخال النقود الضعيفة الى الأمصار التي تجري فيها سكة واحدة فقد ذهب الفقهاء الى أنه غشا ممنوع . هذا لحماية العملة الجيدة من

التدهور وحفاظا على الاستقرار النقدي في البلد⁶². غير أن تحقيق ذلك في الواقع بقي مرهون بمدى قوة السلطان، بينما أفتى قاضي قرطبة ابن عتاب لما سأله فقهاء أريولة قرب ألقنت عن البيوع والأنكحة المنعقدة بالذهب المرابطة إشتراط التصريح بدار الضرب للتحقق من القيمة⁶³.

من المعاملات التي لم يجزها قاضي الجماعة ابن رشد اقتسام الشركاء بغير علم نقودا فيها الوازن والناقص فيما باعوه، وعدد ذلك غررا لا يجل لأن المتحصل عليه من الدراهم لكل فرد من الشركاء مختلف القيمة. كما لم يجز أن تباع بها السلع على ما فيها من وازنٍ وناقصٍ⁶⁴. غير أنه أورد أقوال من خالفوه في الفتوى، كمن يجيز مراطلة دنانير بدنانير من عين واحدة فإذا رجح الميزان، يضاف الى الناقصة تبراً، و من أجاز المراطلة بين الدنانير متفاضلة القيمة مطلقاً⁶⁵. مستدلين بقول الإمام مالك الذي كان يجيز مبادلة الدينار الناقص بالوازن. غير أن آخرين قالوا أن شيخ المذهب جوزّه فيما خفف مثل الدينار والدينارين والثلاثة فيدفع الناقص ويؤخذ الوازن دون كفة ولا مراطلة وتفصيلات القاضي ابن رشد في المسألة طويلة لاختلاف إجابات الفقهاء بين مبيح ومانع⁶⁶. وإن تساوت النقود في القيمة أفتى أن تباع عدداً، وإن اختلف وزنها فلا تباع عدداً بل وزناً لأن بيعها عدداً غر مضر بأحد الطرفين المتعاملين⁶⁷. حتى البلدان التي كانت تجيز جميع السكك المتفاضل بعضها عن بعض أفتى قاضي الجماعة بأن الصفقات تتم بسكة واحدة يتفق عليها المتعاملان. وعلى المشتري أن يُبينَ السكة التي يبتاع بها. فإن لم يفعل كان البيع فاسداً درءاً للخلاف ومنعاً لهضم الحقوق⁶⁸.

لما كانت النقود الأندلسية ضعيفة مقارنة بمشيلاتها المرابطية أفنى القاضي ابن رشد بأن الزكاة لا تجب في النقود التي كان فيها الذهب مشوبا بنحاس أو غيره حتى يصل وزنها عشرون مثقالا من الذهب الخالص⁶⁹. هذه الآراء المتعددة المتباينة تُبَيِّنُ صعوبة ما كان يواجهه المجتمع في باب التعامل بالنقود حين تختلط السليمة بالمغشوشة أو الناقصة بالوازنة.

أجاز قاضي الجماعة ابن رشد التعامل بالدينار المنقوص نقصانا يسيرا ذكرا في فتواه مقدار خروبة ذهبا أي ما مقداره في اصطلاح الصاغة نحو 0.194 غ.⁷⁰ ويشترط في ذلك أن يكون من عين الدينار القائم مخافة أن يكون عين الناقص أفضل من عين القائم منعا للربا ورضا الغريم⁷¹. وأجاز قطع الزائد على الوزن الرسمي للدنانير⁷². أما قطع الدنانير القائمة المتعامل بها عددا بغير وزن فقد عده القاضي فسادا في الأرض و غشا⁷³. بينما أجاز الدخول بالنقود المقطوعة الى البلدة التي تجوز فيها مع الكراهة مخافة أن تنقل الى بلدة لا تجيز ذلك⁷⁴.

في حال انتشار النقود الضعيفة التي تنهار قيمتها الى مستوى الغش و صار التعامل بها أمرا واقعا توافق عليه الناس ، قال فقهاء المالكية بجواز التعامل بها عن مضض إذا عمت⁷⁵. وأجازوا لجوء دور السكة الى إضافة معادن ذات قيم رديئة الى دراهم الفضة و دنانير الذهب في بعض المناطق التي انتشر التعامل فيها بهذه النقود على نطاق واسع حتى صار أمرا واقعا لا يمكن تجنبه⁷⁶. وسار الفقيه الظاهري ابن حزم في نفس المنحى متحججا بالخوف من إتلاف أموال الناس واستحالة منعها

كما حذر الفقهاء من الممارسات المشبوهة للصيارفة الذين يستبحون الربا و الغش في الصرف. فأخذ القاضي ابن رشد بقول السلف من فقهاء المالكية على أنه يُكره للرجل أن يعمل بالصرف لأن الربا فيه كثير والتخلص منه عسير لا يسلم من العمل به إلا أن يَتَّقِيَ الله و يتحفظ فيه⁷⁸. وذكر بنهي فقهاء المالكية أن يتولى أهل الكتاب الصيرفة لما يترتب عنه من ممارسات ربوية وضرر بعامة الناس الجاهلين عادة بقضايا النقود والصرف⁷⁹. وقد أضاف إليهم المحتسب ابن عبد الرؤوف المتهم في كسبه من المسلمين⁸⁰. كما وضع شروطا لممارسة مهنة الصيرفة بأن يمتنع الصراف عن العمل بالربا و ألا يُجْري في البلد إلا سكة البلد وحدها لأن تعددها داعية الى فساد النقد⁸¹. ولضبط نشاط دور ضرب السكة يوصي علي بن يوسف الحكيم ناضر دار السكة نقلا عن الفقيه الظاهري ابن حزم أن يأمر الحاكم ألا يجري في دور الضرب في المعاملات الى الذهب والفضة الخالصتين، و أن يكون عمالها عاملين بكل ما يضبط أمورها. وأن يقوم ناضرها بمراقبة كل سكة منقوشة فيميز محضها من غشها قبل صرفها الى أصحابها⁸². وقدم علي بن يوسف بعض الطرق المستعملة لكشف النقود المغشوشة⁸³.

إذا نظرنا الى الواقع فإن من المسلمين المتعاطين لعمليات الغش و أهل الكتاب من اليهود خاصة بقوا يعملون في في الميدان النقدي، باعتبارهم جزء من المجتمع . يقول علي بن يوسف الحكيم (القرن7هـ/13م) في هذا الصدد أن أهل الذمة إنفردوا بحرفة الصياغة والأحجار النفيسة . ثم احتاجوا لشراء الذهب والفضة فدخلوا ميدان الصرف مع من لا خلاق له من المسلمين و دور الضرب و أن أحبارهم أباحوا لهم غش غير اليهود بقولهم ((اعلموا أن أبا القاسم نبيُّ العرب قال لأمته من

غشنا فليس منا فإن غششتهم فلستم منهم، و إن لم تغشوا فأنتم منهم))⁸⁴. كما تواصلت كل الأعمال المشبوهة في المعاملات النقدية. كما ظهر استحالة التخلص من التزوير والنقود الناقصة و مختلف المعاملات المصرفية المشبوهة في المجال النقدي . بدليل تكرار أسئلتها على الفقهاء في عهود مختلفة واعترافهم بصعوبة التحكم في هذه الظواهر .

يجب أن نلاحظ أن تعدد فتاوى الفقهاء في ظل غياب مدونة قانونية موحدة ملزمة فتح المجال للمتعاملين لاختيار ما يناسبهم من الفتاوى. وإن شجع هذا التعدد حرية النشاط النقدي فإنه وسع هامش المناورة لا أصحاب النشاطات النقدية المشبوهة تدهور العملة فتقع انعكاسات إنخفاض قيمة العملة على المجتمع

إستنتاج

ظهر في الأخير أن كثرة دور الضرب خلال حكم الطوائف و العهد المرابطي كانت عاملا رئيسيا في تقلب قيمة النقود من حيث الوزن و التركيبة المعدنية وتعددتها في البلد الواحد يضاف إلى ذلك تدخل السلطان في تحديد قيمها و أعمال ضرب النقود المغشوشة. لقد انعكس هذا الواقع على الأسعار و أنتج مشاكل عديدة بين المتعاملين حاول الفقهاء معالجتها رغم أن سلطتهم كانت تبدو غير كافية لوقف تقلبات الصرف مع ملاحظة أن تعدد مصادر الفتوى و اختلاف المجتهدين وسع هامش المناورة للمتعاملين. فالظواهر السلبية في الميدان النقدي بقيت سارية في الاقتصاد. و بقيت مظاهر تذبذب قيمة العملة و آفات الواقع النقدي تسير الحياة الاقتصادية على الأقل في الفترة المدروسة.

- 1 - شوقي أحمد دنيا : تقلبات القوة الشرائية للنقود وأثر ذلك على الائتمان الاقتصادي والاجتماعي : تحليل فقهي واقتصادي ، مجلة المسلم المعاصر، مجلة دورية محكمة بيروت لبنان العدد 41 تاريخ الإطلاع 2016/09/10، سا 06:12،
http://almuslimamuaser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=269:taklobat-el-kowa.
- 2 - إهتمت الدراسات الغربية بهذا المجال فتناولت قضايا الأزمات النقدية و تقلبات العملة في العصر القديم و العصر الوسيط قبل ظهور علم الاقتصاد نذكر منها
 Glyn Davies :A History of Money: From Ancient Times to the Present 2rd Edition from University of Wales Press. University of WalesPress. Cardiff . Wales UK . 2002.
 و Joseph R. Peden: Inflation and the Fall of the Roman Empire | Mises Institute، Austrian economics, freedom, and peace Auburn, Alabama 36832-4501 USA. transcript of Professor Joseph R. Peden at the Seminar on Money and Government in Houston, Texas USA 27/10/1984 . <https://mises.org/library/inflation-and-fall-roman-empire> تاريخ الإطلاع 2016/09/26 .15:44.
- 3 - يُقصدُ بالصرْف كما تشير إليه كتب النوازل عملية تبادل الدينار بالدراهم أو أجزاء الدينار أو تبادل الدراهم بأجزائه أو تبادل الدينار المتفاضلة .
- 4 - وهبة الزحيلي : الفقه الإسلامي و أدلته الشامل للأدلة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقق الأحاديث النبوية وتخریجها، ط2، دار الفكر دمشق سورية 1405هـ/1985م. ، ج 1 ص 144، 145 . ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (732-808هـ/1332-1406م) : ديوان المتبدل و الخبر في تاريخ ملوك العرب و العجم و البربر و من عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاتة و سهيل زكار، دار الفكر بيروت لبنان ، 1421هـ/2000م ، ج 1 ص 326.
- 5 - ابن خلدون ، نفس المصدر ، ج 1 ص 326.
- 6- Henri Lavoix .catalogue des monnaies musulmanes de la bibliotheque nationale. Espagne et Afrique. Paris imprimerie nationale . volume2 Espagne Afrique 1891 . p.96...
- 7 - ibid. p .97.
- 8 -ibid. p100..
- 9 - ibid. p .110.
- 10 - ibid .p115.
- 11 - ibid. p. 107.
- 12 - ibid.p 118.
- 13 - ibid.p125.
- 14 - ibid.p.134.136.137 .
- 15- ibid.p139 ،140.
- 16 - ibid.p 147 . 148.
- 17 - ibid. p.162 .158.163 .
- 18 - ibid.p151.152.
- 19 -ibid.p165...

- 20 - ibid.p 143.145
- 21- ibid. p 209.210 .
- 22- ibid. p. 212.213.
- 23- ibid. p. 276...
- 24- Ronald Messier . نفس الظاهرة تلاحظ على نقود المرابطين في مدن بلاد المغرب كمراكش و فاس و أغمات وتلمسان
- journal of the économic and social history of the orient.vol 17. E.J Brill leiden .part1 . march 1974. p45.46.47.
- 25 - الونشريسي أحمد بن يحيى (ت 914هـ / 1508م): المعيار العرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب ، تحقيق جماعة من الفقهاء تحت إشراف د. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1401هـ/1981م . ج6 ص 164.
- 26- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد: (450-520هـ/1058-1126م): مسائل ابن رشد، تحقيق محمد الحبيب التحكاني، ط 2، دار الجليل بيروت و دار الأفاق الجديدة المغرب، 1414هـ/1993. ج 2ص1043.
- 27 - يركز ابن خلدون على لجوء الحكام الى الضرائب و المكوس لحل مشكلة العجز المالي . ابن خلدون، المصدر السابق. ج 1 ص 281.
- 28 - الونشريسي ،المصدر السابق ، ج 6 ص 165.
- 29 - ابن رشد ،المصدر السابق، مج 1 ص 472 ، 473.
- 30 - الونشريسي ، المصدر السابق، ج 6 ص 163.
- 31- علي بن يوسف الحكيم أبو الحسن الكومي المديوني (القرن 7هـ/13م) : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد، مج 6 العدد 1-2، 1378هـ/1958م، ص 156.
- 32 - الونشريسي ، المصدر السابق، ج 6 ص 104، 105.
- 33 - نفس المصدر ، ج 6 ص 443.
- 34 - نفس المصدر ، ج 6 ص 104، 105.
- 35 - علي بن يوسف الحكيم ، المصدر السابق ص 176، 177، 178.
- 36- ابن عبد الرؤوف، ليفي بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة و المحتسب ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية القاهرة 1955 . ص 84.
- 37- ابن رشد: البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تخ محمد حجي وآخرون، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي ، الإسلامي، بيروت - لبنان، 1408 هـ - 1988 م ، ج 6 ص 479، 480.
- 38 - الونشريسي المصدر السابق، ج 6 ص 275 ، 276 .
- 39- ابن رشد ، البيان، ج 7 ص 307.
- 40 - ابن رشد المسائل، ج 2 ص 818 و الونشريسي، المصدر السابق، ج 6 ص 193، 194.
- 41 - الونشريسي ، المصدر السابق، ج 6 ص 192.
- 42 - نفس المصدر، ج 6 ص 300.
- 43 - ابن رشد ، المسائل ، ج 2 ص 826.
- 44- ابن سهل أبو الأصيب عيسى (ت 486هـ/1093م) :ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام و قطر من سير الحكام، تحقيق يحيى مراد ، ط 1، دار الحديث القاهرة جمهورية مصر العربية 1428هـ/2007م.
- ص 317، 318 .

- 45 - الونشريسي ، المصدر السابق ، ج6 ص 213.
- 46 - نفس المصدر ، ج 6 ص 107.
- 47 - علي بن يوسف الحكيم ، المصدر السابق، ص 165.
- 48- ابن رشد، المسائل ، المصدر السابق ، مج 1 ص 472 ، 473.
- 49 - ابن رشد ، البيان و التحصيل ، ج7 ص 19 ، 21 .
- 50- ابن رشد ، المسائل، مج 2 ص 214.
- 51 - ابن عبدون ، ثلاث رسائل في أدب الحسبة، ص 58 و ابن يوسف الحكيم ، المصدر السابق ، ص 63.
- 52- البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت841هـ/ 1438م) جامع مسائل الأحكام بما نزل من القضايا بالمفتين و الحكام ، تحقيق د محمد حبيب الهيلة ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 2002 . ج 3 ص 152 .
- 53 - ابن رشد ، البيان والتحصيل ج 6 ص 458 ، 459.
- 54 - ابن رشد ، المصدر السابق ، ج 7 ص 12 ، 13.
- 55- هذا ما استخلصه علي بن يوسف الحكيم صاحب دار السكة بفاس علي بن يوسف الحكيم ، المصدر السابق ، ص 176.
- 56 - ابن رشد، البيان المصدر السابق ، ج 6 ص 457.
- 57- يرى الباحث الاقتصادي شوقي دنيا أن فتوى عدم الاعتداد بالتغير في قيمة النقود لا يحقق مبدأ العدالة ويحقق الضرر بأحد المتعاملين إذ يحصل أحدهما على قيمة مالية مغايرة تماما زيادة أو نقصانا لما كانت عليه عند العقد . أنظر ابن رشد ، المسائل، مج 1 ص 472 ، 473 و شوقي أحمد دنيا ، المرجع السابق .
- 58 - الفقيه أبو عمر بن عبد البر الأندلسي (368-463هـ/978-1071م) من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بখানেة. يقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة. ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها. وولي قضاء لشبونة وشترتين. وتوفي بشاطبة.
- 59- الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 6 ص 164.
- 60- نفس المصدر، ج 6 ص 163.
- 61- ابن سهل ، المصدر السابق ، ص 317.
- 62- نفس المصدر، ج 6 ص 129 ، 130 و ابن عبد الرؤوف المختب ، المصدر السابق، ص 85.
- 63 - الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 6 ص 270.
- 64- ابن رشد ، البيان و التحصيل، ج 6 ص 479 ، 480.
- 65- نفس المصدر، ج 7 ص 28 ، 29.
- 66- ابن رشد ، المسائل ، ج 1 ص 501 ، 502 ، 503.
- 67 - ابن رشد البيان و التحصيل ، ج 7 ص 60.
- 68 - نفس المصدر ، ج 7 ، ص 319 ، 320.
- 69- ابن رشد المسائل ، ج 2 ص 214.
- 70 - مجلة البحوث الإسلامية ، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية ، من ذي القعدة الى صفر 1420هـ/2000م. ج 39 ص 299.
- 71- ابن رشد، البيان و التحصيل ، ج 6 ص 483.
- 72 - نفس المصدر، ج 6 ص 465.

- 73- نفس المصدر، ج6 ص 474،475.
- 74 - نفس المصدر، ج6 ص 447، 465.
- 75 - البرزلي المصدر السابق، ج 3 ص 153 فما بعدها .
- 76- الونشريس ، المصدر السابق، ج6 ص 129 ، 130 و ابن عبد الرؤوف المحتسب ، المصدر السابق، ص 85.
- 77 - ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي (ت 456هـ /1064): المجلد، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط1، طبعة النهضة القاهرة مصر 1347هـ/ 1928. ج 7 ص 280.
- 78 - ابن رشد ، المصدر السابق، ج 17 ص 158، 159.
- 79 - نفس المصدر ،ج17 ص 614، 615 .
- 80 - بن عبد الرؤوف ، ثلاث رسائل في الحسبة ، ص 84.
- 81 - ابن عبدون، نفس المصدر، ص 58
- 82- علي بن يوسف الحكيم ، المصدر السابق ص 48،50.
- 83 - نفس المصدر ، ص 41 فما بعدها .
- 84 - نفس المصدر ص 176، 177 ، 178.

العلاقات الجزائرية_التركية : بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة.

أ. رزايقية حنان/ جامعة الجزائر 03 / الجزائر

الملخص:

الغرض من هذه الورقة هو دراسة العلاقات الجزائرية- التركية من خلال الإشارة إلى عدد من الجوانب التي تؤكد هذه العلاقات:

أولاً: أن طبيعة العلاقات التي تم تطويرها بين الجزائر والإمبراطورية العثمانية كانت إحدى أهم المراحل في التاريخ الجزائري .

ثانياً: أن هذه الورقة تحاول أيضاً أن تلقي الضوء على طبيعة العلاقات بين البلدين خلال الاستعمار الفرنسي للجزائر. حيث كانت العلاقات بين البلدين منعقدة تقريبا، هذه الأخيرة التي كان موقفها غير واضح تجاه الاحتلال الفرنسي.

ثالثاً: البحث في العلاقات الجزائرية- التركية في الفترة الراهنة.

Subject

The purpose of this paper is to study the Algerian-Turkish relationships with special reference to a number of aspects that underline such relationships:

Firstly, the nature of relationships that were developed between Algeria and the Ottoman Empire have marked one of the most important era in Algeria's history;

Secondly, the paper will also try to throw the light on the nature of relationships between the two countries during the French colonization of Algeria; relations between the two

countries were almost inexistent and the Ottoman Empire hardly expressed its stand with regard to French colonial policies in Algeria.

Thirdly Search Algerian-Turkish relations in the current period

مقدمة:

مرت الدولة الجزائرية كغيرها من دول العالم، بالعديد من الفترات والمراحل التاريخية الحافلة بالأحداث المثيرة للاهتمام ، والتي يعتبر التواجد العثماني فيها من بين أهم هذه المراحل ، هذا التواجد الذي لم يكن نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة ضد الأهالي، على غرار ما حدث في الشام أو مصر أو العراق، ولكن كان بناء على طلب الدولة والسكان لإنقاذهم من خطر الزحف الصليبي الاستعماري الأوروبي وخاصة بعد الهجوم الإسباني، وبالتالي هذه الوضعية جعلت الوجود العثماني في الجزائر يتميز بطبيعة خاصة، تختلف عن وجودها في بقية الدول الأخرى ، إلا أن هذه الرابطة الجزائرية العثمانية تلاشت بمجيء الاستعمار الفرنسي، لتعود هذه العلاقة من جديد في الفترة الراهنة وفقاً لمعطيات وعوامل تحركها مصالح البلدين، بناء على ما تقدم سيتم معالجة إشكالية رئيسية في هذا الموضوع تم صياغتها في التساؤل المركزي التالي:

إلى أي مدى يمكن اعتبار الرابط التاريخي عامل مهم لتوجيه العلاقات الجزائرية التركية في الفترة الراهنة؟

طبيعة التواجد العثماني في الجزائر وموقف السلطنة من احتلال فرنسا للجزائر.

I. السياق التاريخي للتواجد العثماني في الجزائر وأسبابه:

I. الأوضاع الجزائرية قبيل فترة الحكم العثماني:

تميزت الفترة السابقة لوصول العثمانيين للجزائر بقيام الدولة الزيانية (1235-1554م)، التي تنسب إلى زيان بن ثابت والد يغمراسن⁽¹⁾، هذه الدولة التي كانت عاصمتها تلمسان دخلت في صراعات وحروب متواصلة، تارة مع المرينيين، وتارة مع الحفصيين، كما عانت من الصراعات و الانشقاقات الداخلية بين القادة الزيانيين أنفسهم من أجل الحصول على السلطة، وكانت نتيجة هذه الأوضاع تحالف بعض القادة المحليين مع الإسبان ضد الدولة الزيانية. في هذا الوقت تمكن الإسبان من الاستيلاء على غرناطة بالأندلس سنة (1492م)، وفي نفس الفترة تم تقسيم دول المغرب بين الدول الأوروبية، حيث تمكنت البرتغال من التوسع في المغرب، وإيطاليا في تونس، وإسبانيا في الجزائر⁽²⁾. ففي سنة 1505م قامت إسبانيا بإرسال حملة إلى ميناء المرسى الكبير في غرب الجزائر فاستولت عليه في العاشر من سبتمبر 1505م، واتسع نطاق الحملة الإسبانية سنة 1509م، ليستولوا على بجاية بعد سقوط وهران، ، وهكذا مع بداية القرن السادس عشر بدأ الصراع المغربي مع

الدولة الإسبانية⁽³⁾ ، هذا ما دفع بسكان شمال إفريقيا عامة وسكان الجزائر خاصة، للالتجاء إلى السلطان العثماني "السلطان سليم الأول" برسالة استنجاد . فاستجابت الدولة لاستغاثاتهم. ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالي إفريقيا نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالي البلاد، أو تدخل مباشر من الحكومة العثمانية على غرار ما حدث في الشام أو مصر أو العراق⁽⁴⁾.

II. التواجد العثماني في الجزائر "قدوم الأخوين عروج وخير الدين برباروس":

استنجد الجزائريون بالإخوة الأتراك عروج وخير الدين نظرا للروابط الدينية المشتركة، ولكون الأخوين بحارين ماهرين اشتغلا بالقرصنة ضد المسيحيين واكتسبا خبرة كبيرة في هذا الميدان، لهذا استنجد بهم الحاكم الحفصي لبحاية لطرده الإسبان، وقد لبي عروج وأخوه خير الدين النداء والتحقا ببجاية عام 1512م، و فور وصول الأخوين عملا على طرد الإسبان، وفي عام 1516م استنجد سكان العاصمة بهما بما في ذلك حاكمها سالم التومبي الثعالبي⁽⁵⁾ ، وفي ذلك الوقت كان عروج متواجدا في جيجل التي بويع أميرا عليها عام 1513م، فتوجه إلى الجزائر العاصمة لكنه لم يتمكن من طرد الإسبان منها، وقام بقتل حاكمها سالم التومبي الثعالبي ليعلم نفسه سلطانا عليها، واستولى الأخوان فيما بعد على مدن المدية ومليانة وتنس ودلس، وبعد انتصار الأخوين على الإسبان في الجزائر (نوفمبر 1516)، توجه عروج إلى

تلمسان سنة 1517م فدخلها دون مقاومة ، إلا أن القوات الإسبانية عاودت الهجوم على تلمسان واستطاعت حينها قتل عروج وجنوده عام 1518م⁽⁶⁾.
ليقوم خير الدين بعدها بالاستعانة بالدولة العثمانية رسمياً، وقد وصلت مساعدة السلطنة قبل وصول القوات الإسبانية إلى السواحل الجزائرية⁽⁷⁾ ، وقد جاء دعم السلطنة تلبية لطلب خير الدين وسكان الجزائر الذين وجهوا رسالة استغاثة إلى السلطان سليم الأول عام 1519 ، لمواجهة الغزو الإسباني بعد استيلاء السلطان سليم على مصر، وذلك في مقابل ضم الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية وإقرار سيادة السلطان عليها⁽⁸⁾. وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية رسمياً، ودعم السلطان هذا القرار بقرارات تنفيذية، فأرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وحوالي 2000 من الجنود الإنكشارية للقضاء على الإسبان، كان هذا الدعم ضروري للقضاء على الإسبان وتحقيق الأمن والاستقرار الداخلي والخارجي في المنطقة، وبذلك كانت الجزائر أول إقليم في شمال إفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية⁽⁹⁾.

مراحل الحكم العثماني في الجزائر (1518م- 1830م):

وتتمثل هذه المراحل فيما يلي:

1. عصر البايات⁽¹⁰⁾ "أمير الأمراء" (1514-1587م):

مثلت هذه الفترة أزهى مراحل الحكم العثماني في الجزائر، فقد عرفت البلاد الازدهار والرقى في مختلف الجوانب التعليمية، والاقتصادية، والعمرائية وهذا راجع إلى

التعاون بين فئة "الرياس"⁽¹¹⁾ في القيادة وأبناء المنطقة، كما ساهم مهاجرو الأندلس في تنمية البلاد وازدهارها بفضل خبرتهم ومهارتهم التي وظفوها في ترقية المهن والبناء العمراني، وتقوية الاقتصاد الجزائري. كما تميزت هذه الفترة التي دامت 70 سنة بسيطرة رياس البحر أو جنود البحرية على السلطة، وكان قرار تعيين الحاكم يأتي من طرف السلطان العثماني، كما عرفت الحياة السياسية نوعا من الاستقرار والتحالف ضد العدو الإسباني⁽¹²⁾.

2. حكم الباشوات⁽¹³⁾ الثلاثين (1586-1659م):

جاء هذا الأسلوب في الحكم نتيجة خوف الباب العالي من استقلال الجزائر عن السلطنة العثمانية، لهذا قرر الباب العالي بتركيا أن ينصب على الجزائر باشا يعين لمدة ثلاث سنوات، وأول باشا عين على الجزائر هو دالي أحمد سنة 1586م، هذا الأخير الذي كثرت في عهده الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية (إسبانيا، صقلية وكورسيكا، ونابولي)، لقتل أثناء المعركة التي خاضها جيشه ضد المتمردين الليبيين. فخلفه خضر باشا الذي قمع ثورة المقراني لسبب هجومه على الثكنات العسكرية التركية، إلا أنه تم سجنه من قبل السلطة العثمانية بسبب وشاية اليولداش (هم القوة البرية التركية كان سكان الجزائر يكرهونهم لتصرفهم الغليظ) بنهبه لأموال الخزينة، ليخلفه شعبان باشا ثم مصطفى باشا... إلخ⁽¹⁴⁾.

لقد كان تعيين الباشا لمدة قصيرة مقدر بثلاث سنوات عامل مهم في تعزيز حلقة البحث عن الثروة والنهب ومحاولة تحقيق أكثر ربح في هذه الفترة، هذا ما

جعل من مقومات السلطة تتلاشى لتبقى مجرد مظاهر وشكليات تتمثل في القصر والحرس الخاص، أما السلطة الحقيقية فقد انتقلت من الباشا إلى الديوان بعدما كان هذا الأخير لا يملك إلا رأيا استشاريا أصبح هو المرجع في تسيير شؤون الدولة⁽¹⁵⁾.

3. حكم الأغوات⁽¹⁶⁾ (1659 - 1671م):

حظي حكم الباشوات على سخط السكان وغضبهم، هذا ما دفع بالدولة العثمانية إلى تبديله بحكم الأغوات، فاستغل اليولداش هذه المناسبة لتقلد مناصب الحكم ولم تستطع فرقة الرياس البحرية التصدي لمخططهم بسبب ضعفها الناتج عن هلاك أغلب أسطولهم في معركة البندقية، فقرر قادة اليولداش إعطاء السلطة التنفيذية لأحد أعضائهم، وأطلقوا عليه تسمية الآغا، وكانت مدة حكمه لا تتجاوز ثلاثة أشهر. أما السلطة التشريعية فقد تم إسنادها إلى الديوان، وقد أثبت هذا الحكم فشله منذ البداية كسابقه، حتى أنه يعتبر أسوأ منه حيث كان مآل كل الأغوات القتل بسبب الفتنة التي كانت سائدة، وفي هذه الفترة برز الصراع الفرنسي الإنجليزي حول السيطرة على شمال إفريقيا⁽¹⁷⁾.

4. حكم الدايات (1671-1830م):

في هذا الحكم أصبح الحاكم الذي أطلق عليه تسمية الدايا⁽¹⁸⁾ يعين في منصبه مدى الحياة، على عكس الأنظمة السابقة، حيث يتم تعيينه بناء على اقتراح من الديوان العالي، وتعيين رسمي من طرف السلطان العثماني. كما أنه في ظل هذا الحكم أصبحت الجزائر أكثر استقلالاً عن الإمبراطورية العثمانية، فالدايا ينتخب

من طرف الديوان العالي(المجلس) كما سبق الذكر هذا الأخير الذي يعتبر السلطة التشريعية في الجزائر، ليتم تثبيت اختيار الديوان العالي للحاكم عبر إصدار مرسوم "فرمان" من طرف السلطان العثماني ليقضي بالتعيين الرسمي لهذا المنتخب، ومنه فالدولة العثمانية كانت سلطتها شكلية على الجزائر في هذه الفترة تمثلت في الاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب كتقديم المساعدة العسكرية للسلطنة في حالة تعرضها لاعتداء خارجي كما حدث بالنسبة لمعركة نافرين سنة 1827م⁽¹⁹⁾.

II. التنظيم السياسي والإداري للجزائر في العهد العثماني:

قسمت الجزائر في ظل الحكم العثماني إلى ديوانين: الديوان⁽²⁰⁾ الخاص وهو مجلس الدولة، والديوان العام وهو المجلس العمومي، فالديوان الخاص الذي هو المجلس التنفيذي للدولة يتأسسه الداى صاحب الحكم المطلق ويساعده في مهامه خمس موظفين سامين من الأتراك بمثابة وزراء (والمتمثلين في: الخزناجي وهو نائب الداى المكلف بالخزينة العمومية، وآغا الصبايحية وهو القائد العام للجيش، ووكيل الخرج وهو المسئول عن الورشات التي تبنى فيها السفن وتموين الأسطول بالأسلحة وصيانة الموانئ البحرية والحربية وتحسينها فهو بمثابة وزير البحرية، وخوجة الخيل مكلف بالجباية والمرافق العامة التابعة للدولة، وبيت المالحى الذي يسهر على تسيير بيت المال والعقود والموارث)، ثم تأتي مرتبة الكتاب المتكونة من أربعة أعضاء يرأسهم الباشكاتب يتولون مهام إدارية متنوعة مثل تحرير الرسائل وغيرها، بالإضافة إلى شيخ

الإسلام المكلف بالعدل والشؤون الدينية، ووكيل الخرج المكلف بالمتونة الغذائية للسكان، كذلك هناك رجال الأمن وقائد الفحص المكلف بتحصيل الضرائب، في حين أن الديوان العام الذي يمثل المجلس التشريعي يتكون من الموظفين السامين الأتراك⁽²¹⁾.

أما فيما يتعلق بالتنظيم الإداري فقد تم تقسيم الجزائر إلى أربعة مقاطعات إدارية وهي كالتالي⁽²²⁾:

1. دار السلطان:

توجد هذه المقاطعة الإدارية في الجزائر العاصمة ونواحيها، حيث تمتد من مدينة دلس في الشرق إلى مدينة شرشال غربا، أما في الجنوب فيحدها البايليك التيطري، كما أن مقر نائب السلطان العثماني يقع في هذه المقاطعة.

2. بايليك⁽²³⁾ الشرق:

وعاصمتها قسنطينة وتمتد هذه المقاطعة من الحدود التونسية شرقا إلى غاية بلاد القبائل الكبرى في الغرب، أما من الشمال فيحدها البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء.

3. بايليك الغرب:

تمتد هذه المقاطعة الإدارية من الحدود المغربية غربا إلى غاية بايليك التيطري شرقا، أما في الجنوب فتحدها الصحراء ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، كما أن هذه المقاطعة شهدت تغيرا في مقر عاصمتها ، فبعد أن كانت مازونا هي

العاصمة إلى غاية عام 1710م، انتقلت العاصمة إلى مدينة معسكر، ثم صارت وهران هي العاصمة بعد مغادرة الإسبان منها عام 1792م.

4. بايليك التيطري(الوسط):

وتعتبر أصغر المقاطعات الإدارية، كانت عاصمتها المدية، تتوسط سهل المتيجة والصحراء من الشمال إلى الجنوب.

III. الحياة الاقتصادية والاجتماعية الجزائرية في ظل الحكم العثماني:

فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي فكانت الوضعية لا بأس بها في الجزائر إبان هذه المرحلة، فعلى الرغم من أن الصناعة لم تكن متطورة بالمقارنة مع الدول الأوروبية المجاورة، إلا أنها كانت تعرف معظم الصناعات التي تعرفها أوروبا مثل صناعة النسيج والأحذية والدباغة والسروج ومواد السفن والسلاح والبارود.. الخ ، هذا بالإضافة إلى صيد السمك، وأغلب هذه صناعات كانت تسد حاجيات السكان بالإضافة إلى تصدير الفائض، أما المبادلات التجارية مع الخارج فقد كانت تجرى مع كل من تونس والمغرب بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية⁽²⁴⁾ ، وكانت الصناعة المحلية منظمة تنظيماً دقيقاً بحيث كان الحرفيين منخرطين في نقابات حسب التخصص، كما لعبت الهجرة الأندلسية دوراً مهماً في تحريك النمو الاقتصادي من خلال إدخال العديد من الحرف المتطورة في مختلف الميادين العمرانية، والفلاحية، والصناعية، أما سكان الريف فيمثلون أغلبية السكان ويشغلون في الفلاحة من تربية المواشي وزراعة الأراضي الخصبة بمختلف المنتجات خاصة القمح والشعير⁽²⁵⁾

أما الحياة الاجتماعية⁽²⁶⁾ فقد كان المجتمع الجزائري في العهد العثماني مقسم إلى عدة طبقات وطوائف كل حسب الأصول والجهات التي ينتمي إليها. حيث كان الأتراك يمثلون الطبقة الحاكمة التي تسند إليها أهم المسؤوليات وتتمتع بكل الصلاحيات والامتيازات لممارسة السلطة، والكراغلة (أب تركي وأم جزائرية)، وهناك أهل المخزن من القبائل الحليفة الذين يملكون أراضي خصبة، وهناك القادمون من وادي ميزاب بالإضافة إلى السود المتحررون الذين كانوا يحترفون الموسيقى وفنون البناء... إلخ⁽²⁷⁾

IV. الحياة الثقافية والدينية:

تميزت هذه المرحلة بسيادة الإسلام الذي كان رابطا متينا محكما بين مختلف أصناف السكان، وكان يعمل على صهر السكان ليشعروا بالانتماء إلى أمة واحدة ، أما فيما يتعلق بالمحتوى الحضاري لهذه الفترة فقد شهد العديد من الفرنسيين في فترة الاحتلال بأن الأمية كانت منعدمة تقريبا في الجزائر، فكل السكان كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وباعتبار الأتراك لم يكونوا يعتنون بالثقافة مثل الحرب فإن هذا يدل على أن هذا الرقي والازدهار نابع من الجزائريون أنفسهم⁽²⁸⁾. إلا أن مكانة الجزائر تراجعت فيما بعد لتقع تحت وطأة الاستعمار وينتهي بذلك التواجد العثماني.

العلاقات الجزائرية في الفترة العثمانية:

• على المستوى المغربي: كانت العلاقات المغربية متوترة، فكانت الجزائر تعتبر تونس إقليما تابعا لها، أما تونس فتفرض ذلك، في مقابل ذلك فإن

تونس كانت لها أطماع في قسنطينة، أما المغرب فكان لها هي الأخرى أطماع قديمة في تلمسان، وهو ما دفعها لإقامة مؤامرات وتحالفات كثيرة بين البلدان المغاربية من أبرزها زحف تونس وليبيا من تونس إلى قسنطينة عام 1702م، وكذا زحف المغرب نحو تلمسان، وكانت أحيانا تلجأ لتحالف مع الدول الأوروبية ضد الجزائر.

- **على المستوى الأوروبي:** كانت الجزائر لاسيما في عهد البايلربايات تتمتع بمكانة مرموقة، إذ أن الدول الأوروبية كانت تقدم لها الهدايا وتدفع لها الضرائب في أوقات الضعف وتبادر بحملاتها العسكرية في أوقات القوة، أما الأسباب فقد كانت العلاقة معها متوترة بسبب هجوماتها وحملاتها الصليبية التي كان يقوم بها على السواحل الجزائرية، والتي منيت أغلبها بالهزيمة، أم فيما يتعلق بعلاقة الجزائر بفرنسا في هذه الفترة فقد كانت جيدة حيث منحتها امتيازات تجارية هامة، وسمحت لها بإنشاء مؤسسات في عناية والقالة والقل لصيد المرجان وتصدير الحبوب إلى أوروبا مقابل دفع ضريبة للحكومة الجزائرية، كما أن الجزائر اعترفت بالجمهورية الفرنسية بعدما قامت الثورة الفرنسية سنة 1789م، وكانت تقرض فرنسا أموالاً طائلة ولم يبدأ التوتر بين البلدين إلا بمجيء نابليون بونابرت للحكم وبداية الأطماع الاستعمارية⁽²⁹⁾.

أما فيما يتعلق بعلاقة الجزائر بالولايات المتحدة الأمريكية فالجزائر أول دولة اعترفت بالو.م.أ كدولة مستقلة كاملة السيادة والحقوق، وقد طبعت العلاقة معها بنوع من التعاون تارة والتوتر تارة أخرى وذلك بسبب مشكلة مرور السفن الأمريكية عبر البحر الأبيض المتوسط

الاحتلال الفرنسي للجزائر:

أ. انهيار الأسطول الجزائري:

لقد مارست الجزائر هيمنتها على البحر الأبيض المتوسط بفضل أسطولها البحري الذي ساعدها في فرض الضرائب على السفن التي كانت تعبر البحر الأبيض المتوسط مقابل تقديم الحماية لها ، هذه الوضعية التي دفعت الدول الأوروبية لتفكير في وضع حد لهذه السيطرة فتحالفت ضدها ، ففي عام 1816 نجحت إنجلترا بضرب الأسطول الجزائري وحطمت جزء منه⁽³⁰⁾ ، وبعد هذه الضربة الموجعة للأسطول الجزائري، قام السلطان العثماني "محمود الثاني" سنة 1820م بطلب المساعدة من الأسطول الجزائري لمواجهة الثوار اليونانيون وحلفائهم الأوروبيين، فلبت الجزائر النداء، وفي سنة 1827 عاودت الدولة العثمانية طلب المساعدة من الأسطول الجزائري لتعزيز أسطولها لمواجهة التحالف المسيحي (إنجلترا ، وروسيا، وفرنسا) في معركة نفارين البحرية 20 أكتوبر 1827م التي أسفرت عن تحطيم معظم قوات الأسطول العثماني الذي نجح منه حوالي ثلاثين باخرة من بينها عشر بواخر جزائرية، وبهذا خسرت كلا الدولتين أسطولهما في هذه المعركة⁽³¹⁾.

ب. وقائع الاحتلال الفرنسي للجزائر:

كانت فرنسا تسعى لاحتلال الجزائر منذ خروج إسبانيا نهائياً من وهران 1792م، وقد تجسدت هذه المطامع أكثر مع تولي نابليون بونابرت الحكم الذي كان يتوعد بخوض الحرب ضد الجزائر إثر احتجاز الجزائر سفينتين فرنسيتين، وكذا من أجل تحرير الأسرى الإيطاليون والكورسكيين المعتقلين من طرف الحكومة الجزائرية، فبعث بجواسيس ومن بينهم الضابط بوتان boutin سنة 1808م من أجل تحقيق مخططها الاستعماري، إلا أن انشغال نابليون في مواجهة الثورة الإسبانية وخوض حملته ضد روسيا حالت دون تنفيذ مخططه في الجزائر⁽³²⁾، كما طرحت مسألة الجزائر في مناقشات مؤتمر فيينا الذي عقد سنة 1814-1815م بعد مرحلة الحروب الثورة الفرنسية، والذي تم فيه طرح مسألة تأسيس الرابطة البحرية من طرف بريطانيا تكون مهمتها إعطاء الأوامر للقناصل المعتمدين في الجزائر، إلا أن المشروع لم يلقى رضا الحاضرين نظراً لتناقض المصالح الأوروبية، لكن بريطانيا ورغم فشلها في تمرير مشروعها فإنها أرسلت حملة عسكرية بقيادة اللورد اكسموث لضرب الجزائر العاصمة في 27 أوت 1816م، ثم جاء مؤتمر اكس لاشبيل 1819م الذي اتفقت فيه الأمم المسيحية على ضرورة إبعاد القوة العسكرية الجزائرية ووضع حد لسيطرتها على البحر الأبيض المتوسط، حيث وافقت 30 دولة أوروبية على فكرة القضاء على الجزائر وأسندت المهمة إلى فرنسا وإنجلترا⁽³³⁾، وفي عام 1830م نفذت فرنسا نواياها تجاه الجزائر بدعوى منع تعدي قراصنة البحر المسلمين على

مراكبها التجارية لكن في حقيقة الأمر كانت تبحث عن مركز حربي لها بشمال إفريقيا حتى لا تكون إنكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط، فكانت حادثة المروحة ذريعة مناسبة لها، هذه الحادثة التي تعود وقائعها إلى الخلاف الواقع بين الحكومة الفرنسية والباي حسين بسبب بعض الديون الجزائرية على الحكومة الفرنسية⁽³⁴⁾، وتتلخص قضية هذا الدين (ثمن القمح) في المؤامرة التي كان طرفيها التاجرين اليهوديين في الجزائر بوخريص (المدعو بكري) وبوشناق من جهة والوزير الفرنسي تاليران والقنصل الفرنسي في الجزائر ديفال من جهة ثانية، حيث تعهد بوخريص وبوشناق بإعطاء نصيبا من الديون إلى الوزير والقنصل في حال نجاحهم في إقناع الحكومة الفرنسية على تسديدها، وبالفعل استطاع كل من تاليران وديفال في إقناع الحكومة الفرنسية التي دفعت عدة أقساط إلى شركة بوشناق وبوخريص دون أن تدفع شيئا إلى الخزينة الجزائرية، وأبقت جزءا من هذه الديون تحت الرهن في حالة ما إذا كان هناك أشخاص أو شركات لهم دين على بوشناق وباكري، وقد اتضحت للداي المؤامرة وعرف أن طرفها القنصل ديفال⁽³⁵⁾، وفي 03 أبريل 1827م حضر القنصل الفرنسي ديفال لتهنئة الداى بعيد الفطر في القلعة الداخلية بحضور جميع أعضاء الديوان، فكان استقبال الداى له غير بشوش وبعد الحفل، سأل الداى القنصل الفرنسي عن سبب عدم رد الحكومة الفرنسية عن رسائله العديدة بخصوص الدين، فرد عليه القنصل بسوء أدب واستهزاء، فقال له:

" إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم"⁽³⁶⁾

هذا الرد أغضب الداوي و دفع به لضرب دوفال بمروحة ، فانسحب على الفور من المجلس مهددا بتبليغ حكومته بكل شيء ، استحسنت فرنسا تصرف ديغال، وكلفته بتحذير الجزائر و طلبت من الداوي تقديم الاعتذار ودفع التعويضات لها عن هذه الإهانة في مدة أقصاها 24 ساعة، انتهت مدة الإنذار ولم يستجيب الداوي لهذه الشروط ، وأمام هذا الرفض أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر، ففرضت عليها حصار طويل دام ثلاث سنوات عانت منه فرنسا والجزائر على حد سواء⁽³⁷⁾، وفي جوان عام 1830م نزلت القوات الفرنسية المكونة من 37000 جندي في سواحل سيدي فرج (الذي كان يبعد 23 كيلومتر غربي الجزائر)، وقد كانت المقاومة عنيفة حيث فقدت فرنسا إثر هذه المعركة 400 شخص، في حين استشهد 10 آلاف من الجيش الجزائري (الأترك) ليتم بعد ذلك توقيع وثيقة الاستسلام مع الداوي حسين⁽³⁸⁾.

ويرجع سبب سقوط الجزائر بهذه السهولة في أيدي الفرنسيين يوم 05 جويلية 1830م إلى إنفراد الداوي بالحكم واعتماده على جيش صغير متكون من جنود أترك، في حين تم استبعاد أبناء الجزائر من السلطة وكل ما يتعلق بها من مسؤولية الجيش والدفاع عن الوطن⁽³⁹⁾ ، وقد غادر الأترك الجزائر نهائيا بناء على طلب فرنسا، حيث كانت البداية بمغادرة الداوي حسين الأراضي الجزائرية إلى نولي بناءاً على اختياره الشخصي، بعد ذلك جاء دور الأترك الآخرين الذين تم ترحيلهم يوم

11 جويلية 1830م، عبر السفن الفرنسية التي قامت بحمل الأتراك إلى آسيا الصغرى (أنظوليا)⁽⁴⁰⁾.

III. موقف الإمبراطورية العثمانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر (المشكلة الجزائرية في السياسة الخارجية العثمانية):

لقد عملت الدولة العثمانية على الضغط على عاملها الداوي حسين في الجزائر من أجل التساهل مع فرنسا وتلبية شروطها فيما يتعلق بتقديم الاعتذار والتعويضات المطلوبة، فأرسلت الدولة العثمانية مندوبا إلى الجزائر يطلب منه قبول الشروط الفرنسية وتسوية الخلاف القائم بين الدولتين، غير أن مهمة هذا المندوب لم تكتمل بسبب خطف السفن الفرنسية للمركب التي كان هذا المندوب على متنها ولم تطلق سراحها إلا بعد إتمام فرنسا لمهمتها باحتلال الجزائر⁽⁴¹⁾، وهذا يدل على النوايا الفرنسية بعدم الموافقة على التسوية السلمية وأن شروطها ما هي إلا حجة مكتملة لحادثة المروحة لإضفاء الشرعية على حملتها ضد الجزائر، فبرفض الداوي للتسوية تكون قد كسبت تأييداً داخليا وخارجيا لمشروعها الاستعماري.

حاولت الدولة العثمانية استرجاع الجزائر بالطرق الدبلوماسية، وبذلت مساع مكثفة لدى بريطانيا والنمسا وروسيا وفرنسا مؤكدة حقها في بقاء هذا الإقليم تحت سيطرتها انطلاقا من أن السيادة العثمانية عليه معترف بها من قبل المجموعة الدولية، وأن الجزائريين هم رعايا السلطان، كما حاولت استخدام القوة بعد فشل اتصالاتها

الدبلوماسية لاسترجاع الجزائر إلا أنها تراجعت عن ذلك بسبب عدم تمكنها من شن حرب على فرنسا لضعف أسطولها وجيشها⁽⁴²⁾.

لقد كانت الدولة العثمانية تعتبر الجزائر مقاطعة مستقلة لحد أنها كانت ترفض التدخل في شؤونها وكأنها ليست تابعة لها حتى مع علمها بالحملة الفرنسية، ولكن بعد استيلاء فرنسا على الجزائر، أدركت تركيا خطأها بتخليها عن حقها السياسي دون مقابل، وبدأت في إرسال السفراء والبعثات الدبلوماسية⁽⁴³⁾ لفرنسا ودول أوروبا من أجل استرجاع المنطقة، وقد تم تكليف مصطفى رشيد باشا (سفير تركيا لدى فرنسا) لبدء المفاوضات مع الحكومة الفرنسية من أجل سحب قواتها من الجزائر⁽⁴⁴⁾.

• واقع العلاقات الجزائرية التركية في الفترة الراهنة وفرص تطورها في

المستقبل:

تتسم العلاقات التركية-الجزائرية في الفترة الراهنة، بالتعاون في مختلف المجالات خاصة المجال الاقتصادي، حيث أن تركيا تسعى لاسترجاع دورها في القارة الإفريقية كما كان في الماضي، بعد انفصال طويل عن العالم العربي والإسلامي خلال الفترة الاستعمارية التي اجتاحت هذه المنطقة، وحتى بعد الاستقلال، وذلك بسبب السياسة الخارجية التركية في تلك الفترة المعادية للقضايا العربية والإسلامية، حيث كانت تعتبر نفسها دولة أوروبية ساعياً منها لقبول الاتحاد الأوروبي لعضويتها، ولكن برفض هذا الأخير لهذا المطلب، وكذا حدوث الكثير من التحولات في المنطقة

العربية والإسلامية، تتيح لتركيا لعب دوراً استراتيجياً، لذلك عملت تركيا على استرجاع رابطتها التاريخية مع هذه المنطقة فالمصلحة التركية تحتم عليها التوجه نحو أفريقيا عامة والجزائر على وجه الخصوص باعتبارها بوابة إفريقيا، وبذلك أصبح الطرفين يعملان على تعزيز علاقتهما الاقتصادية والسياسية لتحقيق مصالح مشتركة، فالجزائر تبحث من خلال تعزيز علاقتها مع تركيا لتعزيز موقعها الاقتصادي في الساحة الدولية، أما تركيا فهي تسعى للسيطرة على السوق في شمال إفريقيا واسترجاع مكانتها في المنطقة، فتركيا تهدف في المقام الأول من هذه العلاقة إلى الاستفادة من الثروات التي تتمتع بها الجزائر والتي يأتي النفط في مقدمتها.

إن العلاقات الجزائرية التركية تحكمها الروابط والمصالح الاقتصادية فقط، في ظل تراجع الرابطة السياسية والتي تسعى أغلب الدول الأوروبية وخاصة فرنسا إلى منعها لضمان مصالحها في المنطقة، لذلك يعمل البلدين على تعزيز علاقتهما السياسية وهو ما أكدته زيارة الوزير الأول التركي رجب طيب أردوغان جوان 2013 للجزائر التي كانت زيارة ذات طابع اقتصادي وأبعاد سياسية⁽⁴⁵⁾، فتركيا تعمل على تكثيف التعاون البيني وخلق أسواق مشتركة تحفز قوى الإنتاج، كما أنها تعمل على حل المشكلات الأمنية التي تعيق ازدهار المنطقة، فهي تبحث عن السلام في المنطقة من أجل التوسع التجاري وكذا للعب دور الفاعل الإقليمي في المنطقة حيث تستثمر بسخاء، ومن ثم تأتي أهمية الزيارات المتتالية بين قادة البلدين من ذلك زيارة الوزير الأول التركي كما سبق الذكر⁽⁴⁶⁾، فمن الناحية الاقتصادية تعتبر تركيا ثالث أكبر

شريك تجاري للجزائر خارج أوروبا، في حين أن الجزائر هي الشريك الإفريقي الأول بالنسبة لتركيا، حيث يبلغ حجم التبادل التجاري بين الجزائر وتركيا، حاليا 5 مليار دولار، كما يبلغ حجم الاستثمارات التركية في الجزائر 7 مليار دولار، فأكثر من 200 شركة تنشط في الجزائر لاسيما في قطاعات التجارة والبناء و"الصناعة"، وقد بلغت صادرات تركيا إلى الجزائر 2 مليار دولار في عام 2013 و2014 وتسعى تركيا في هذا الإطار لإقامة منطقة تبادل حر مع الجزائر من أجل دفع العلاقات التجارية الثنائية بين الطرفين، في حين أن الصادرات الجزائرية لتركيا تقدر ب 3 مليار دولار، وتشكل على وجه الخصوص من المحروقات (وتستورد تركيا نحو 4 ملايين متر مكعب من الغاز المسال سنويًا من الجزائر منذ عام 1988) والمواد الكيميائية والمواد الأولية لقطاع النسيج⁽⁴⁷⁾.

وفي الشق السياسي فالعلاقات بين البلدين تربطهما التوازنات الجيوالاستراتيجية المبنية على المصالح المشتركة فهي علاقات يغذيها الاقتصاد وتربطها شرايين الاتفاقيات⁽⁴⁸⁾، فتركيا تنظر إلى الجزائر كبوابة جديدة لإفريقيا لاعتبارين الأول هو تنامي دور الدبلوماسية الجزائرية التي تكاد تنهي الأزمة في مالي وتعمل على تقريب بين الخصوم في ليبيا، كما أنها تعي بأن الجزائر تتمسك على الدوام بمبادئها القائمة على عدم التدخل في الشأن الداخلي للدول فيما تحاول تركيا التطلع إلى أداء سياسي جديد تمليه مرحلة ما بعد موجة الحراك في العالم العربي يبقى أن تركيا والجزائر تحاولان تحقيق مصالح متقاطعة منها دعم تركيا لمساعي الجزائر إلى

الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية والاستفادة من الطفرة الاقتصادية في تركيا، فالطرفان يدركان لأهمية تعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مستقبلاً انطلاقاً من الروابط التاريخية، لاسيما في ظل التحديات التي يواجهها البلدان وفق رؤية مشتركة⁽⁴⁹⁾.

خاتمة:

عموماً لقد تم التوصل من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات التي تلخص طبيعة العلاقات التركية- الجزائرية من جانبها التاريخي في مختلف تفاصيله والتي تم صياغتها في النقاط التالية:

- لم تكن علاقة الدولة العثمانية بالدولة الجزائرية علاقة السيد بالعبد أي علاقة استعمارية مبنية على سيطرة وهيمنة، وهذا بسبب الظروف التي أوجدت الدولة العثمانية في الجزائر بدرجة كبيرة، فالاهتمام العثماني لم يكن منصب على ضم هذه المناطق البعيدة عنها بقدر ما كان تركيزها على منطقة الشرق الأوسط التي كانت تعتبرها منطقة نفوذ مهمة بالنسبة لها فخاضت الحروب مع هذه الدول لضمها لها كما حدث مع سوريا والعراق، في حين اختلف الأمر مع الجزائر التي كانت بالنسبة للدولة العثمانية حليف إستراتيجي أكثر منها مستعمرة أو مقاطعة تابعة لها.

- طبع التواجد العثماني بالجزائر بمميزات إيجابية وأخرى سلبية، فالإيجابية تتمثل في إكسابها أسطول قوي مكنها من بسط سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط

والاستفادة من مختلف الغنائم المتأتية من الغزوات والضرائب المفروضة على السفن في مقابل توفير الحماية لها، كما أنها أكسبتها هيبة دولية خاصة بعد القضاء على الإسبان مما جعل الدول الأوروبية تتخوف من مهاجمتها إلى غاية ضعفها الذي فتح المجال أمام الأطماع الفرنسية، أما فيما يتعلق بالجوانب السلبية فتتمثل في تركيز الأتراك على القوة العسكرية وإهمال الجوانب الأخرى، وهو ما انعكس بالسلب على مختلف المجالات الأخرى خاصة المجال الاجتماعي وما تعلق بتحقيق الانسجام والوحدة المعنوية مثلما حققت الوحدة الترابية، هذا بالإضافة إلى عدم قدرة العثمانيين على الاندماج في المجتمع الجزائري بسبب التوجس والخوف من استقلال الدولة الجزائرية عن الدولة العثمانية، كذلك عمل الأتراك في ظل تواجدهم في الجزائر على احتكار السلطة ومختلف المناصب الإدارية والسياسية فيما بينهم وعدم السماح لأبناء الوطن من الوصول إلى هذه المناصب، ونفس الشيء ينطبق على التوظيف في المناصب العسكرية التي كانت حكراً على الأتراك الأمر الذي حال دون تكوين جيش كبير وقوي، خاصة القوة البرية، فالقوة العسكرية كانت مقتصرة على القوة البحرية على حساب القوة البرية.

- اقتصار القوة الجزائرية العسكرية على القوة البحرية المتكونة من الجنود الأتراك سهل من مهمة الاحتلال الفرنسي للجزائر، هذا الأخير الذي لم يجد مقاومة حقيقية تذكر لعدم وجود جيش برية منظم يقف في وجه هذا العدوان.

● يتضح مما سبق تردد الدولة العثمانية فيما يتعلق بقضية الاحتلال الفرنسي للجزائر، فهي لم تتخذ موقف واضح وصريح بشأنه، كما أنها لم تعر التهديدات الفرنسية بغزو الجزائر أهمية، و لم تقدم مساعدة فعلية لهذه الأخيرة بعد وقوع العدوان، وعلى الرغم من جهودها الدبلوماسية لحل الأزمة فهي لم تكن مثمرة لعدة أسباب: أهمها زمن هذه المفاوضات والتي جاءت في وقت متأخر(بعد الاحتلال وليس أثناء حدوث الاضطراب بين الدولتين والتجهيز الفرنسي للحملة ضد الجزائر)، كما أنها لم تستطع الضغط بشكل فعلي على الحكومة الفرنسية لخوفها من الإضرار بعلاقتها مع الدولة فرنسية خاصة أنها كانت تهدد بمساندة الحاكم المصري.

● العلاقات الجزائرية التركية الراهنة تحكمها مصالح البلدين، فتركيا حاليا تسعى لتتصالح مع ذاتها الحضارية الإسلامية، فهي تعترف بماضيها العثماني متعدد الثقافات والأعراق، وبالتالي تعمل على إقامة علاقات متوازنة مع الشرق الإسلامي، ومنه تحقيق التوازن الحضاري بين إرث الماضي ومعطيات الحاضر، الذي يستدعي من تركيا تحقيق مصالحة تاريخية مع محيطها العربي والإسلامي والأفريقي وإقامة شراكة إستراتيجية مع دول شمال إفريقيا وبخاصة الجزائر، هذه الأخيرة التي أصبحت تربطها بها في الوقت الراهن علاقات اقتصادية هامة ذات أبعاد سياسية.

- تشهد العلاقات التركية الجزائرية تطوراً إيجابياً يخدم مصالح الطرفين، وهو الأمر الذي يجعل من مستقبل هذه العلاقة سوف يشهد مزيداً من الترابط، وهو أمر لا تسعى خلفه تركيا فحسب، وإنما الجزائر أيضاً لأن في هذه العلاقة مصلحة مشتركة لطرفين في مختلف المجالات

الهوامش:

- 1- يغمراس هو أول ملك للدولة الزيانية سنة (1235م).
- 2- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر: من البداية ولغاية 1962، الطبعة الأولى، (بيروت: دار العرب الإسلامي، 1997)، ص 47.
- 3- محمد مورو، بعد 500 عام من سقوط الأندلس 1492م-1992م الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم، (القاهرة: المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، 1992)، ص 17.
- 4- إسماعيل أحمد ياغى، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الثانية، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1998)، ص 238.
- 5- لقد دبر سالم التومي رفقة بعض الأعيان مؤامرة ضد الأتراك بسبب سوء معاملة الجنود الأتراك للجزائريين، فتفطن لها عروج وقضى على هذه المؤامرة بقتل التومي بيده في حمام منزله وأعلن نفسه سلطاناً على مدينة الجزائر.
- 6- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، الطبعة الأولى، (الجزائر: دار ربحانة للنشر والتوزيع، 2002)، ص 90.
- 7- مبارك بن محمد الهلالي الميلى، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، الجزء الثالث، (الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، 1964)، ص 51.
- 8- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق، 1993)، ص 93.
- 9- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، الطبعة الأولى، (دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2001)، ص 354-357.
- 10- الباي هو بمثابة نائب الرئيس، فهو يقوم بأعماله في الإقليم الذي يشرف عليه نيابة عن الداى الذي هو رئيس الدولة، وهو يعتبر من كبار موظفي الدولة.

- 11- طبقة الرياس هم رجال البحر، أي قادة السفن البحرية.
- 12- عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 57-58.
- 13- الباشا أصلها في التركية مأخوذة من كلمة "باش" والتي تعني رأس أو طرف أو قمة أو زعيم، البداية، المبدأ، إلخ... وتوضع قبل الصنعة أو الوظيفة مثل باشكاتب، والباشا هو لقب فخري رسمي تقتضيه مكانة الشخص في المجتمع يرتبط بالمدينين والعسكريين على حد سواء. أنظر مصطفى بركات، المرجع سابق، ص 80.
- 14- عمورة عمار، المرجع السابق، ص 97.
- 15- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص 138-139.
- 16- الأغا في اللغة التركية مأخوذة من المصدر "أعق" ومعناه الكبر وتقدم السن، وتطلق تسمية الأغا في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، ورئيس العسكر، وعلى الخادم الخصى الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. لمزيد من التفصيل أنظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) 1517-1924م، القاهرة: دار غرب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، ص 173.
- 17- عمورة عمار، المرجع السابق، ص 99.
- 18- الداوي هو رئيس الدولة (الحاكم الأعلى) وهو القائد العام للجيش في البلاد، وهو المسؤول الأول عن سياسة الدولة.
- 19- عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 60.
- 20- الديوان كلمة فارسية استعملت في العهد العثماني وتعني سجل أو دفتر، وهو بمثابة مجلس الوزراء في يومنا هذا ويضم شخصيات المقربة للرئيس، فهو بمثابة المساعد الأمين لرئيس الدولة.
- 21- المرجع نفسه، ص 104.
- 22- عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 63.
- 23- مقاطعة، عمالة.
- 24- المرجع نفسه، ص 314.
- 25- عمورة عمار، مرجع سابق، ص 106.
- 26- لقد احتفظت الجزائر في العهد العثماني، بالتقسيم الاجتماعي ذاته الذي كان سائدا خلال الفترات التاريخية التي سبقت هذا العهد، فالأتراك اكتفوا بوضع تقسيما إداريا مرنا، حقق الوحدة الترابية للجزائر (الحدود التي وجدتها فرنسا هي نفسها التي كانت إبان العهد العثماني) دون تحقيق الوحدة المعنوية، هذا ما دفع بالمؤرخين الغربيين للقول بأنه لم يكن هناك وجود للأمة الجزائرية في العهد التركي بسبب عدم الانسجام الاجتماعي ووجود أصناف اجتماعية مختلفة من عروش وقبائل، هذه الأمة حسب رأيهم لم تظهر إلا بعد الاحتلال الفرنسي.
- 27- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص 316.

- 28- المرجع نفسه، ص ص317-318.
- 29- عمورة عمار، المرجع السابق، ص 113.
- 30- نينل ألكسندر وفنا دولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية: في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، (الإسكندرية: المجلس الأعلى للثقافة، 1999)، ص 39.
- 31- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص 320.
- 32- عمورة عمار، مرجع سابق، ص 112.
- 33- بن قايد عمر، محاضرات في تاريخ الجزائر، تم تصفح الموقع على الساعة 20:00 يوم 2015/3/5 على elearn.univ-ouargla.dz/2013.../document.php?
- 34- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الأولى، (بيروت: دار النفائس، 1981)، ص 447.
- 35- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص 271.
- 36- حمدان بن عثمان خوجة، المراة، ترجمة: محمد العربي الزبيري، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1975)، ص 142.
- 37- عزيز سامح التز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، الطبعة الأولى، ترجمة: محمود علي عامر، (بيروت: دار النهضة العربية، 1989)، ص ص 631 632.
- 38- فائقة محمد حمزة عبد الصمد بحري، "أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا" (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى السعودية، 1989م)، ص 115.
- 39- عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 90.
- 40- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء الأول، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م)، ص 20.
- 41- محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص 447.
- 42- إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص 242.
- 43- ولايد من الإشارة إلى أنه من العوامل التي دفعت بالدولة العثمانية استئناف المفاوضات مع فرنسا بخصوص القضية الجزائرية عام 1834م هو العرضة التي رفعها حمدان أفندي -السكرتير السابق لباي الجزائر - للسلطان محمد الثاني في 18 يوليو سنة 1833م، يشكو فيها ما يعانيه الشعب الجزائري من الاحتلال ويطلب مساعدته ، فبدأ مصطفى رشيد رسميا مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية في ديسمبر عام 1834م بناء على أمر السلطان، فدارت المفاوضات مع وزير الخارجية الفرنسي الأدميرال دي ريني. وقدم له السفير التركي مذكرة حكومته بشأن القضية لكنه رفضها بسبب عزم فرنسا على عدم ترك الجزائر، وبعد جهود كثيرة لهذا السفير سواء مع فرنسا أو

بريطانيا والنمسا وروسيا وغيرها من الدول التي عقد عليها الأمل في حل هذه المشكلة إلا أن جهوده باءت بالفشل في نهاية المطاف.

44- نينل ألكسندر وفنا دولينا، مرجع سابق، ص ص 39-140.

45- سليم قلاله، مصلحة الجزائر اليوم تكمن في تقوية علاقتها مع تركيا، جريد المقام، تم تصفح الموقع يوم 2015/03/28 على الساعة 14:30 على الرابط التالي:

<http://www.elmakam.com/?p=2076>

46- العلاقات الجزائرية التركية... التاريخ والجغرافيا، تم تصفح الموقع يوم 2015/3/28 على الساعة 16:20 على الرابط التالي:

<http://elraaed.com/ara/sahebrai/>

47- باحثون جزائريون يرشحون العلاقات الجزائرية التركية للتطور مستقبلا، تم تصفح الموقع يوم 2015/3/28 على الساعة 22:00 على الرابط التالي:

<http://almagharibia.tv/>

48- معاهدات واتفاقيات الصداقة والتعاون والتشاور المبرمة سنتي 2006 و 2008 التي تحذف لإعادة صياغة أرضية جديدة للانطلاق نحو أداءات سياسية أكثر تطابقا.

49- زيارة اردغان للجزائر- الإذاعة الجزائرية، تم تصفح الموقع يوم 2015/03/29 على الساعة 21:00 على الرابط التالي:

www.radioalgerie.dz/news/ar/article/.../20059.html

معبد الجهني والبدايات التاريخية لعلم الكلام الاسلامي

أ. عبد الحميد العابد/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمة

لخضر/ الوادي

الملخص:

. تنطلق الدراسة من النظر الى علم الكلام الإسلامي بوصفه خطابا أيديولوجيا ولد من رحم الأحداث التاريخية التي شهدتها الأمة الإسلامية في القرن الأول الهجري. فجرى التطرق الى عدة مباحث أهمها:

. الارتباط الجدلي بين علم الكلام بوصفه نشاطا نظريا في قضايا العقيدة الإسلامية والواقع التاريخي الذي عاشته الأمة الإسلامية

. المضمون التاريخي لفكرة القدر ورهاناتها السياسية والدوافع التي جعلت مفكري ذلك العصر يختلفون حولها بين مؤيد ورافض.

. الصمت الذي اتخذته المصادر التاريخية حيال شخصية معبد بن خالد الجهني الذي يعتبر المؤسس الأول لمباحث علم الكلام؛ بحيث لا نكاد نعثر على المعلومات الضرورية التي تخص سيرة حياته ومصادر تفكيره.

. الظروف التاريخية التي جعلت من مدينة البصرة المركز الذي احتضن البدايات الأولى لعلم الكلام وعلوم اللغة وغيرها.

Summary

The study begins to approach the (dialectical) Islamic theology as the word ideology was born during the historical events of .the Islamic nation in the first century

:There are several themes

the dialectic relationship between Islamic theology (active theory of Islamic faith) and the historical reality of the Muslim .nation

the historical substance of the idea of fate, political issues and .motivations of the thinkers of that time

The silence of historical sources on the personality Ma'bad .Khaled Al-Johani

The historical circumstances and the relationship with the beginning of theology in Basra city.

. ما الذي حدث في تاريخ المجتمعات الإسلامية حتى تشكل الاهتمام بما أصبحنا نصلح عليه بالعقيدة وحتى تصارع بها وحوّلها الناس؟ كيف ومتى تكثف الانشغال بالميتافيزيقا على حساب التاريخ؛ على حساب الوعي باللحظة الراهنة بكل تفاصيلها وتعقيداتها وجلالها وخفائها وكل الأدوار والمسؤوليات ضمنها والموعى والمخفي فيها، الوجداني والمعرفي، الفردي والاجتماعي والزمني التي تقف خلفها

وتؤسسها؟، ولماذا تحول الله الى مشكلة، بحيث صار الخالق الرحيم ذريعة لكثير من الصراع والتشنج والمعاناة، كثير من الاضطهاد واليأس؟

لقد تدخل الله في تاريخ عرب الجزيرة العربية عبر النبي وبواسطة القرآن لتحقيق مشروع جمع ولم شمل ووحدة وحض على تجاوز دوافع الجاهلية الأولى ونزاعاتها، فخاض النبي تاريخاً ساخناً مع القوى التي كانت مصالحها مربوطة بأوضاع الجاهلية فلم يسلس قيادها بسهولة وإنما رضخت من خلال صليل السيوف وآلام الهزائم وأعطى بعضها الطاعة بضغط الواقع الجديد.

كانت الألوهة في هذا المنعطف التاريخي للعرب قوة ضم ووحدة وتعارف، فتحولت بفعل ما ذكرناه آنفاً أداة للتفريق والتقسيم وتبادل التكفير والتبديع والتفسيق، استعملت مادة لتشييد التحوم والحدود والحواجز السياسية والاجتماعية، والملاحم الهادرة التي يدعي فيها كل طرف انه ينافح عن الفرقة الناجية والعقيدة القويمة فيما تكمن العقيدة السليمة في عدم التناحر أساساً ومبدأً أولاً. {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (103) [آل عمران: 103]. {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
(4) { [الجمعة: 2-4].

ان النقاشات التي تفجرت بعد سنوات موت النبي لا تشبه موضوعاتها ولا لغتها ولا طرائقها ما كان يصدر عنه وما تكشف عنه القراءة المتبصرة للقرآن الكريم، ثم ان المجموعات الحديثية التي أخذت تتضخم وتتناسل في القرن الثاني الهجري وما تلاه كانت في العمق حافلة بآثار النزاعات التي تراكمت وتعددت في العهدين الأموي والعباسي، واشتبكت داخلها خيوط السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري؛ صراع الفئات والعناصر الاجتماعية والثقافات والعصبية على السلطة وعلى المواقع داخلها. وبالتالي فان مصداقيتها في التنصيص على أخبار موثوقة وصيغ بيانية صحيحة تعود لشخصية النبي تبقى على محك الفحص والنقد المشروعين¹. تلك السياقات التاريخية المفعمة بمختلف أصناف النزاع هي التي تتحمل المسؤولية التاريخية؛ وبالتالي هي التي صنعت بيئة حاضنة ومحرضة لاجتراح ما صار يسمى علم الكلام. هذا المجال ذاته من المعرفة والاشكالات والأسئلة خضعت استراتيجيته المعرفية لتطورات عدة، وتحركت اشكالياته من مباحث القدر والجبر والحرية والإرادة الى قضايا الأفعال والأعمال وتوصيفاتها؛ الايمان، الكفر، الفسق، النفاق، مرتكب الكبيرة، المنزلة بين المنزلتين وغيرها، ثم تطور التفكير الكلامي الى البحث اللاهوتي الانطولوجي الخالص والمعني بذات الله وأسمائه وصفاته، تحول تم انطلاقا من سلوكات الانسان ليصل الى التأمل في الله. صورته تتضمن رفع مكان الانشغال

من الأرض الى السماء ومن العيني الزمني المباشر الى الميتافيزيقي الغيبي الأبدى الخالد، من التاريخ الى الميتافيزيقا. والملاحظة المقارنة لتواريخ مجتمعات أخرى وأديان أخرى ولباحث الأعصبة السيكلوجية وغيرها تجعلنا نفهم كيف تنحرف الإرادة الإنسانية بالوعي الإنساني الجريح والمأزوم من شهود الواقع والوقائع المرعبة التي تعجز الذات الإنسانية عن دحرها الى انتاج عوالم وفضاءات متخيلة ذات طبيعة ميتافيزيقية لتمارس داخلها بقاءها بالحد الأدنى من الأمان، وهي آلية صحية تلجأ إليها طبيعة الانسان لضمان البقاء والاستمرار بدون أن تنشغل بمحتوى البقاء ذاك وقيمه.

كلما كانت الوطأة تشدد على القوى السياسية والفئات المحرومة او العاجزة عن الوصول الى أهدافها يتعمق اليأس وتصير الاهتمامات أكثر ميتافيزيقية للحد الذي انفجرت به في تاريخ الإسلام نزاعات دموية على قضايا تبدو هامشية جدا وغير عملية وبدون أي جدوى تاريخي؛ اللهم الحرص على العقيدة وصيانتها. فتحولت العقيدة هما مقيما مقعدا، والجدال حول صواب وصحة مذهب او آخر مسلكا ثقافيا استنزف قوى عقلية كثيرة ورهن مواهب ذهنية.

القدرية كمنظومة أيديولوجية:

كل ما هو يتعلق بالعقلنة والفكر في التاريخ الباكر لثقافة الإسلام انما نشأ في البصرة او ساهمت في إنجازه. ربما لأنه من المتوقع أن تكون البصرة المصير الأكثر حيادا في الصراعات السياسية التي خاضتها الأمصار الأساسية كالكوفة والشام،

يعني ذلك أنها كانت المصر الأقل أدلجة وبالتالي امتلك أهلها القدرة على اصطناع مسافة موضوعية بين المصريين الأشد اضطرابا؛ الشام والكوفة.

على أرض البصرة جرت أولى وقائع الصراع الذي نشب بين علي ومخالفه والذي سيقود فيما بعد الى النزاع الأكبر بينه وبين معاوية على أرض صفين. وفي نواحيها شهد هذا المصر الصدمة التاريخية الثانية على اعتبار ان مقتل عثمان أصاب روح الجماعة في مقتل وهزها من أعماقها. فاذا كانت المسؤولية على موت عمر قد تم الصاقها بأبي لؤلؤة الجوسي المحسوب على العنصر الفارسي الجريح والحائق، فان مقتل عثمان اريد له ان يكون بتدبير شخصية عبد الله بن سبأ الغامضة حتى تتوارى الجماعة المسلمة عن المسؤولية وتصون براءتها، لكن ما حدث على تراب البصرة فيما سمي بموقعة الجمل كان نزاعا بين طرفين عربيين مسلمين يرجع قادتھا الى أصل واحد وقبيلة واحدة، وانتهى الى مقتل شخصيتين لعبتا أدوارا مهمة في مسيرة الإسلام التاريخي الباكرة؛ وهما طلحة والزبير².

لقد شئت ذلك الانقسام الكبير وحدة الأمة الى ولاءات متنازعة وأدخل الزعامات القبلية في حيرة؛ بين الرغبة في الحفاظ على مكاسبهم ومكاسب أنصارهم التي صنعوها بجهودهم الحربية؛ ومن ثمة صيانة مواقعهم داخل قبائلهم والتي بدا أنها مهددة برياح التغيير التي اخذت تعصف بالجميع، وبين خيار اعتزال الفتنة وترقب ما ينجر عنها؛ وهذا الوقف يحتمل خطورة ان تجدد القوى المعتزلة نفسها منبوذة ومقصية من طرف المعسكر المنتصر، وقد سجل الطبري بعض النقاشات التي دارت بين

بعض زعماء القبائل العربية بهذا الشأن وذلك في الوقت الذي: جَاءَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهَا مِنْ مَنْزِلِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ حَتَّى نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ الْخُدَّانِ فِي الْأَزْدِ، وَكَانَ
الْقِتَالُ فِي سَاحَتِهِمْ، وَرَأْسُ الْأَزْدِ يَوْمَئِذٍ صَبْرَةُ بْنُ شَيْمَانَ، فَقَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ سُورٍ:
إِنَّ الْجُمُوعَ إِذَا تَرَاءَوْا لَمْ تَسْتَطِعْ، وَإِنَّمَا هِيَ بُحُورٌ تَدْفَقُ، فَأَطِيعِي وَلَا تَشْهَدِيهِمْ،
وَاعْتَرِلْ بِقَوْمِكَ، فَإِنِّي أَخَافُ أَلَّا يَكُونَ صُلْحٌ، وَكُنْ وَرَاءَ هَذِهِ النُّطْفَةِ، وَدَعْ هَذَيْنِ
الْعَارَيْنِ مِنْ مُضَرَ وَرَبِيعَةَ، فَهُمَا أَخْوَانِ، فَإِنِ اضْطَلَحَا فَالْصُلْحُ مَا أَرَدْنَا، وَإِنِ
اقتَبَلَا كُنَّا حُكَّامًا عَلَيْهِمْ غَدًا- وَكَانَ كَعْبُ بْنُ الْجَاهِلِيَّةِ نَصْرَانِيًّا- فَقَالَ صَبْرَةُ:
أَخَشَى أَنْ يَكُونَ فِيكَ شَيْءٌ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ، أَتَأْمُرُنِي أَنْ أُغِيبَ عَنْ إِصْلَاحِ بَيْنِ
النَّاسِ، وَأَنْ أَخْذُلَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ إِنْ رَدُّوا عَلَيْهِمُ الصُّلْحَ، وَأَدْعَى الطَّلَبَ
بِدمِ عُثْمَانَ! لا وَاللَّهِ لا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا، فَأَطْبَقَ أَهْلُ الْيَمَنِ عَلَى الْخُضُورِ.. عن ابن
يعمر، قَالَ: لما رجع الأحنف بن قيس من عند علي لقيه هلال ابن وكيع بن مالك
بن عمرو، فَقَالَ: مَا رَأَيْكَ؟ قَالَ: الاعتزال، فما رأيك؟ قَالَ: مكانفة أم المؤمنين،
أفتدعنا وأنت سيدنا! قَالَ: إنما أكون سيدكم غدا إذا قتلت وبقيت، فَقَالَ هلال:
هَذَا وَأنت شيخنا! فَقَالَ: أنا الشيخ المعصي، وأنت الشاب المطاع فاتبعته بنو
سعد الأحنف، فاعتزل بهم إلى وادي السباع، واتبعته بنو حنظلة هلالا، وتابعت
بنو عمرو أبا الجرباء فقاتلوا³. لقد شهد الأحنف بعد ذلك صفين مع علي لما صار
خيار الاعتزال غير مجد سياسيا، لكنه ظل محتفظا بروح الوفاق وطلب السلام
وتحاشي الفتن والبقاء متحررا من اغراءات الخضوع أو الثورة، هذه الرؤيا التي دفعته
الى أن يصير سيد أهل البصرة ورجلها لأنه يمثل سرها وروحها⁴.

رغم مشاركة كثير من القبائل العربية البصرية في تفاصيل النزاع ذلك، إلا أن الرؤيا السياسية العامة الذي انتصر فيها بعد ذلك هي خيار الاعتزال؛ فتشكل ثمة مزاج العام لمجتمع ظل بمنأى عن الاصطفاف السياسي والعسكري المتحمس للحرب. فكانت صدمة الجمل حدثا عمق الإحساس بمأساوية الوضع وقاد الاتجاه العام هناك الى استعادة حنينية ماضوية لزمان عثمان؛ الى ما قبل الفتنة، الأمر الذي سيجعلها في نظر السياسيين مصرا عثمانيا بكل ما يختلف به نعت العثماني عن الأموي رغم الوشائج بين عثمان وبني أمية. فالبصرة عثمانية لا بالمعنى العرقي لنسب عثمان وإنما بمعنى الولاء لمرحلة كاملة جسدها عثمان وصنع سياساتها. بعبارة أخرى؛ تتضمن عثمانيتها حيادية تجاه المسارات التي آلت اليها تطورات الصراع. فاذا مثلت الشام من الناحية السياسية مصرا أمويا وجسدت الكوفة المظلومية العلوية فان البصرة ظلت متحفظة بين الطرفين مصرة على العودة الى اللحظة التاريخية التي سبقت الانحراف التاريخي. وقد كان الحسن البصري يمثل هذا الاتجاه فقد أثر عنه ما رواه ابن المبرد: فأما أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان ينكر الحكومة، ولا يرى رأيهم وكان إذا جلس فتمكن في مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثاً، ولعن قتلته ثلاثاً، ويقول: لو لم نلعنهم للعنا، ثم يذكر علياً فيقول: لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرفه النصر، ويساعده الظفر، حتى حكم، فلم تحكم والحق معك! ألا تمضي قدماً، لا أبالك، وأنت على الحق! قال أبو العباس: وهذه كلمة فيها جفاء، والعرب تستعملها عند الحث على أخذ الحق والإغراء⁵.

وجاءت وصية محمد بن علي شيخ الدعوة العباسية الى أنصاره وهو يعدد لهم خصائص الأمصار السياسية واضحة في بيان أن البصرة قد استمرت محافظة على نهجها صامدة في وجه التغيير حتى بدايات الدولة العباسية: ومن كلامه في هذا الجنس أنه قال لرجال الدعوة حين أراد توجيههم: أمّا الكوفة وسواها فهناك شيعة علي وولده، وأمّا البصرة وسواها فعثمانية تدين بالكف وتقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأمّا الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى، وأمّا أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وعداوة لنا راسخة، وجهلا متراكبا، وأمّا أهل مكّة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإنّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سالمة، وقلوب فارغة لم تتقسّمها الأهواء ولم تتوزّعها النحل، ولم تشغلها ديانة، ولم يقدح فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب، ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر، وما يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤمنون⁶.

وقال الأصمعي يعدد ولاءات الأمصار: البصرة كلها عثمانية، والكوفة كلها علوية، والشام كلها أموية، والجزيرة خارجية، والحجاز سنية، وإنما صارت البصرة عثمانية من يوم الجمل؛ إذ قاموا مع عائشة وطلحة والزبير؛ فقتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل لرجل من أهل البصرة: أتحب عليا؟ قال: كيف أحبّ رجلا قتل من قومي من لدن كانت الشمس هكذا إلى أن صارت هكذا ثلاثين ألفا⁷.

ان توصيف الخيار السياسي للبصرة بالاعتزال ليس اختزالا لتاريخها المعقد تعقيد تواريخ جميع امصار الإسلام في ذلك العهد الميسس جدا؛ اذ شهدت ارضها نشاطا سياسيا وحركات ثورية كانت تنطلق منها أو تفد اليها طيلة العهد الأموي؛ موضوع الدراسة، لكنها في جملتها كانت من الأحداث التي لا يمكن تلافيتها بسبب تعقيد العلاقات القبلية التي لازالت تمتلك قوتها وسطوتها والتي تضطر أبناء هذه القبيلة او تلك الاستجابة لنفير أبنائها في أماكن أخرى، خاصة حركة الخوارج التي كانت بين فترة وأخرى تهاجم البصرة أو تتخذ منها مأوى ومنطلقا لها، ولعل الحدث الأبرز الذي شغل البصريين في هذا العهد هي الاستجابة الكبيرة التي أبداها فقهاؤها ومواليها لثورة ابن الأشعث التي قامت في وجه الحجاج و من ورائه عبد الملك بن مروان؛ وذلك لما تواترت مظالم الحجاج وتجاوزاته بحق الناس الى حد لم يعد بمستطاعهم الصبر عليه فوجدوا في انتفاضة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث متنفسا لهم فساندوها بما استطاعوا: وأقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها. وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بيعته أن عمال الحجاج كتبوا إليه إن الخراج قد انكسر، وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار. فكتب إلى البصرة وغيرها: إن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية، فجعلوا يكون وينادوني محمدا! يا محمدا! وجعل قراء البصرة يكون⁸. لكن كل هذا لا ينفي حقيقة تفضيل البصريين لموقف الحياد والاعتزال ما وجدوا لذلك سبيلا لأنه يوفر لهم مناخا عاما يساعدهم في التركيز على أنشطتهم الاقتصادية ويتيح لهم الانصراف الى العمل من أجل تنمية الثروة. فلم

يكن غريبا أن يتطور بين جنباتها الأفكار التي مثلها المعتزلة، وليس غريبا أن يربط بعض مؤرخي المقالات بينهم وبين اعتزال الفتنة كموقف سياسي سلكه بعض الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وغيرهم.

ثم انما اعتاضت عن الفعل السياسي الموجه الذي كان يخوضه المصران السالفان بالممارسة العلمية ذات الطابع الفكري، والاهتمام بالشؤون الاقتصادية التي كانت يوفرها لها موقعها الهام المحاذي للخليج العربي وشط العرب والفرات الذي ربطها تجاريا ببلاد فارس والهند والصين⁹ وجنوب جزيرة العرب وشرق افريقيا فنشطت بذلك ديناميات المجتمع البصري وراح يتحول من صورة تجمع قوى غالبيتها بدوية قبلية الى صورة مجتمع حيوي يملك كفايته من التعقيد والوفرة الفئوية؛ حيث تمايزت داخله فئات اجتماعية كثيرة كالتجار والباعة والحرفيين وعمال النسيج وعمال الأرض من مزارعين فلاحين منكبين على صيانة نخيلها الذي طبقت شهرته الآفاق وموظفين لدى الإدارة وغيرهم¹⁰. ناهيك عن العبيد والغرباء القادمين من أماكن مجهولة او فارين من أوضاع بائسة يطلبون فرصة العيش في البصرة¹¹، والذين سيصوغون مستقبلها المنير والمظلم فيما يتلو من السنين. فاستقطبت بذلك عناصر كثيرة متباينة الأصول والأعراق؛ الأمر الذي سرع من وتيرة الاندماج الاجتماعي واضطر القيمين على المجتمع الى تفعيل نظام الموالاتة¹². واستمرت تتوسع ويتعقد نسيجها الاجتماعي حتى اکتسبت خصوصيتها بين الأمصار واستحقت ثناء العارفين، فقد دخل صعصعة بن صوحان العبدي مرة على معاوية فقال له: يا ابن

صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبجالها، فأخبرني عن أهل البصرة، وإياك والحمل على قوم لقوم، قال: البصرة واسطة العرب، ومنتهى الشرف والسؤدد، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره، وقد دارت بهم سرّوات العرب كدوران الرحا على قطبها¹³. وبكثرة أعداد النازحين الى البصرة تضخمت كتلة الموالي المندرجين داخل القبائل والعشائر العربية وقادت الى جملة تحولات عميقة داخل البنية الاجتماعية؛ حيث أخذت البصرة تنزع جلودها القبلي القديم وتتحرك من مجرد مكان يضم جمعا من القبائل المحاربة المنتشرة على مساحات الأرض ومتراصة بحسب أصولها وانسابها خاضعة لسلطة الدم والقراية والذاكرة المشتركة؛ الى مجتمع الجماعات الاقتصادية المترابطة والمشيدة حول نوى قراية. وقد تجلّى هذا التحول في التوصيفات الجديدة التي صارت تلحق في نعت القبائل فيقال تميم البصرة وهمدان الكوفة وأهل العراق، مما يعني أن المصر من هذه الأمصار لم يعد مجرد بعد جغرافي ومكان احتواء واستقرار بل تحول كيانا مدينيا له طابعه وخصوصيته وصار مرجعية تعريفية للقبيلة. حتى ظهر أدب المفاخرات بين البلدان الذي ترددت أصداؤه في مجالس الخلفاء والأمراء¹⁴. وكان للبصرة نصيبا وافرا منها؛ من ذلك الوصف الذي نقله المسعودي عن الأحنف بن قيس جاء فيه:

فقال الأحنف: أما البصرة فإن أسفلها قصب، وأوسطها خشب، وأعلىها رطب، نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً، ونحن أكثر قنذاً ونقداً، والله ما آتي البصرة إلا طائعا، ولا أخرج منها إلا كارهاً، قال: فقام إليه شاب من بكر بن

وائل فقال: يا أبا بحر، بيم بلغت في الناس ما بلغت؟ فو الله ما أنت بأجلهم، ولا بأشرفهم ولا بأشجعهم، قال: يا ابن أخي، بخلاف ما أنت فيه، قال: وما ذاك؟ قال: بتركي ما لا يعنيني كما عنك من أمري ما لا ينبغي أن يعينك¹⁵.

وجدت الحركة المعرفية بمختلف اتجاهاتها في البيئة البصرية مناخا صحيا أكثر ملاءمة للانشغال العلمي الموضوعي البحث المتحرر نسبيا من التجاذبات الأيديولوجية التي تحفرها السياسة. وان لم يخل أي مصر من امصار الإسلام في ذلك العهد من المشاركة في الجدل السياسي العام والتورط في صراعاته. فاختبر بذلك المجتمع البصري مختلف التيارات التي شكلت الثقافة الاسلامية وشهدت مساجدها ومجالسها وأسواقها ودورها ومجالس امرائها وأعيانها سجالا فكريا؛ دينية وأدبية كانت تحفز أهل المعرفة نحو انتاجات أكثر تنظيما ودقة وحرصا. فلا غرابة إذا أن يطلع من ثناياها القدرية ثم المعتزلة كما تنطلق من مساجدها وأسواقها بوادر التأصيل النحوي واللغوي الأولى، إضافة الى الاختبارات الروحية التي تزعمتها طوائف الزهاد والنسك من الذين شكلوا طلائع سابقة لحركة التصوف.

وفيما يخص علم الكلام فان أقدم شخصية متكلمة توردها المصادر بوضوح هي شخصية معبد الجهني البصري¹⁶. فبرغم المعلومات المقتضبة عنه والمتفرقة في بطون المصادر المتاحة، ورغم التشويش الذي تصنعه اقحامات الرواة والكتاب المتأخرين لميولهم الأيديولوجية في عرضهم لتلك المعلومات الا ان الفائدة المستخلصة منها تظل هامة في غياب معلومات أدق وافر. ولعل ابن عساكر هو أكثر من توفرت لديه

أخبار على معبد الجهني سجلها في كتابه تاريخ دمشق وعليه أعتمد في جل ما سأورده بصدد. رغم التحفظ المبدئي الذي يقع على عاتق الباحث في بحث إشكالات المرحلة الباكرة من تاريخ الإسلام من جملة الروايات والأخبار التي تتناول الشخصيات التي اعتبرها المتأخرون ذات مذاهب ضالة ومشبوهة.

قال المقرئ في خطه: أول من قال بالقدر في الإسلام معبد بن خالد الجهني وكان يجالس الحسن بن الحسين البصري، فتكلم بالقدر في البصرة، وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله، وأخذ معبد هذا الرأي عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه ويعرف بالأسواري، فلما عظمت الفتنة به عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان، سنة ثمانين من الهجرة. إلى أن قال: وكان عطاء بن يسار قاضياً يرى القدر وكان يأتي هو ومعبد الجهني إلى الحسن البصري، فيقولان له إن هؤلاء يسفكون الدماء ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله فقال: كذب أعداء الله قطعن عليه بهذا¹⁷. هذا في الوقت الذي كانت فيه عقيدة الجبر تنتشر وتتجذر لدى لفيف كبير من الناس حتى عبروا عنها في اشعارهم وارجازهم، وصارت تدور في خطاباتهم وحكاياتهم:

قَالَ بَعْضُ الرَّجَّازِ:

يَا أَيُّهَا الْمُضْمِرُ هَمَا لَاتَهُمُ إِنَّكَ إِِنْ تُقَدَّرَ لَكَ الْحَمَى تُحْمُ

وَلَوْ عَلَوَتْ شَاهِقًا مِنَ الْعَلَمِ كَيْفَ تَوْقِيكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ

وَقَالَ آخِرُ

هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلُمْنِي أَوْ فَذَرُ إِنَّ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدْرُ

وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا عَدْتُ مِنِّي مَطْلَقَةً نَوَائِرُ

وَكَاثُ جِنَّةً فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَأَدَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضَّرَّارُ

وَلَوْ ضُنَّتْ يَدَايَ بِهَا وَنَفْسِي لَكَانَ عَلَيَّ لِلْقَدَرِ الْخِيَارُ¹⁸

ان الذي يهمننا في معبد الجهني أسبقيته التاريخية في الكلام على قضايا أصبحت فيما بعد من الثوابت النمطية لمباحث الاعتقاد؛ خاصة مسائل القضاء والقدر التي اشتهر بها. ونصوص ابن عساكر واضحة في ربطها بالوقائع التاريخية المفصلية التي شهدها المجتمع الإسلامي في قرنه الأول. اذ يسجل ان معبد الجهني كان من بين القراء الذين شهدوا وقائع صفين وتداولوا فيما بينهم انشغالهم العميق بالمصير الذي ينتظر أمة الإسلام: عن عبد الملك بن عمير قال: اجتمعت القراء إلى معبد الجهني وكان ممن شهد دومة الجندل موضع الحكمين فقالوا له قد طال أمر هذين الرجلين فلو لقيتهما فسألتهما عن بعض أمرهما فقال تعرضوني لأمر أنا له كاره والله ما رأيت كهذا الحي من قريش كأن قلوبهم أقفلت بأقفال من حديد وأنا صائر إلى ما سألتكم. قال معبد الجهني فخرجت فلقيت أبا موسى الأشعري فقلت له صحبت رسول الله فكنت من صالحه واستعملك فكنت من صالحه

عماله وقبض وهو عنك راض وقد وليت أمر هذه الأمة فانظر ما أنت صانع فقال لي يا معبد غدا يدعو الناس إلى رجل لا يختلف فيه اثنان فقلت في نفسي أما هذا فقد عزل صاحبه فطمعت في عمرو فخرجت فلقيته وهو راكب بغلته يريد المسجد فأخذت بعنانه فسلمت عليه فقلت أبا عبد الله إنك قد صحبت رسول الله فكنت من صالحى أصحابه قال بحمد الله قلت واستعملك فكنت من صالحى عماله فقال بتوفيق الله قلت وقبض وهو عنك راض فقال بمن الله ثم نظر إلي شزرا فقلت قد وليت هذه الأمة فانظر ما أنت صانع فخلع عنانه من يدي ثم قال لي إيها تيس جهينة ما أنت وهذا لست من أهل السر ولا من أهل العلانية والله ما ينفحك الحق ولا يضرك الباطل ثم مضى وتركني فأنشأ معبد يقول:

إني لقيت أبا موسى فأخبرني بما أردت وعمرو ضن بالخبر

وشتان بين أبي موسى وصاحبه عمرو لعمرك عند الفصل والخطر

هذا له غفلة أبدت سريره وذلك ذو حذر كالحية الذكر¹⁹

ولابد ان كثيرا من المراقبين للأحداث التي كانت تتطور آنذاك بوتائر سريعة وباتجاه مصائر مخيفة قد شغلوا أنفسهم بالتفكير فيها؛ في دوافعها واسبابها، الأمر الذي كان سيدفع مفكرا حياديا لا مصلحة له في ذلك الصراع ولا أهمية سياسية يملكها حتى يدافع عن مواقعه فيها؛ ان تدور برأسه الأفكار الأشد حرجا لأنها أكثر بدهاءة؛ وكان معبد يمتلك المواصفات التي أهلته لأن يكون سباقا في التعبير بصراحة عما تجيش به نفسه إزاء ما حدث ويحدث. لأن صفة الصدق التي تصفه بها

مصادرنا السنوية مهمة في فهم المنطلقات التي تحرك بها في دعوته لفكرة القدر والتي تنص صراحة على أن الانسان صانع أفعاله وأن حوادث التاريخ تقع من خلال فعل الناس لا بقدر سابق: وكان قوم يتكلمون في القدر احتمل الناس حديثهم لما عرفوا من اجتهادهم في الدين وصدق ألسنتهم وأمانتهم في الحديث لم يتوهم عليهم الكذب وإن بلوا بسوء رأيهم فمنهم قتادة ومعبد الجهني هو رأسهم²⁰. وتقدمه بعض الروايات القليلة في صورة طالب المعرفة لا يكف عن البحث والسؤال: عن معاوية بن قرّة عن معبد الجهني قال قلت لعبد الله بن عمر رجل لم يدع من الخير شيئاً إلا عمل به إلا أنه كان شاكا قال هلك البتة قال فقلت رجل لم يدع الشر شيئاً إلا عمل به غير أنه يشهد أن لا إله إلا الله قال عش ولا تغتر ثم لقيت ابن عباس فقلت له مثل ذلك فقال لي مثل ذلك²¹.

وفي هذا الصدد لا نستطيع أن نصدق ما تنقله المصنفات المدونة في العقيدة السنوية من ان النبي وصحابته قد تكلموا سلفا في هذه الأمور وحددوا وجه الحق والباطل فيها وحسموا أمرها وبالتالي من خالفها يكون مخالفا لمعلوم من الدين بالضرورة، والأقرب للمنطق التاريخي أن الرواة تحت ضغط نزاعات القرن الأول والثاني هم من وضعوا الأخبار ونسبوها إليهم. خاصة إذا تذكرنا ان الفكرة المقابلة لفكرة القدر هي الجبرية؛ وهذه صيغت من طرف بني أمية وأنصارهم ووجدت تشجيعا لها من معاوية نفسه. والروايات التي نقلها المحدثون بشأن مشكلة القدر وفيرة وكلها يدور حول

التحذير من الوقوع فيما ذهب اليه معبد وغيره وتشدد النكير عليه، منها ما رواه المحدث الفريابي في كتاب القدر:

عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ جَمِيعًا: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي هَذَا الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا، وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ حَاجِبِينَ أَوْ مُعْتَمِرِينَ، قَالَ: فَكُنَّا: لَوْ أَتَيْنَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ، فَوَافَقْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاسْتَنْفَعْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِهِ، فَطَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ. وَقَالَ الْمُعْتَمِرُ فِي حَدِيثِهِ: وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ، وَيَقُولُونَ أَنَّ لِقَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَنْفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ، فَأَخْبِرُوهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ مِنِّي بِرَاءً، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمَنَ بِالْقَدْرِ²². وما سجله ابو داود السجستاني في سننه:

عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، وَحُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: لَقِينَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ فَذَكَرْنَا لَهُ الْقَدَرَ وَمَا يَقُولُونَ فِيهِ فَذَكَرَ نَحْوَهُ زَادَ قَالَ: وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ مُزَيْنَةَ أَوْ جُهَيْنَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا نَعْمَلُ أَمَّا شَيْءٌ قَدْ خَلَا أَوْ مَضَى أَوْ فِي شَيْءٍ يُسْتَأْنَفُ الْآنَ؟ قَالَ: فِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا وَمَضَى فَقَالَ الرَّجُلُ أَوْ بَعْضُ الْقَوْمِ: فَنِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُيسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يُيسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ²³. ان

التعريض بمعبد الجهني في رواية ابي داوود واضح، وذلك في الإشارة الى نسب الرجل الذي سأل النبي وتحديده في جهينة او مزينة أسهل من جهة ربطه بمعبد الجهني.

عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ جُهَيْنَةَ فِيهِ رَهَقٌ وَكَانَ يَسْتَوِبُ عَلَى جِيرَانِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَفَرَضَ الْفَرَائِضَ، وَقَصَّ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّهُ صَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَنْفٌ، مَنْ شَاءَ عَمِلَ خَيْرًا، وَمَنْ شَاءَ عَمِلَ شَرًّا. قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا الْأَسْوَدِ الدِّبَلِيَّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: كَذَبَ، مَا رَأَيْتَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا يُثْبِتُ الْقَدَرَ، ثُمَّ إِنِّي حَجَجْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ، فَلَمَّا فَضَيْنَا حَجَّنَا فُلْنَا نَأْتِي الْمَدِينَةَ فَتَلَقَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَدْرِ قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْنَا الْمَدِينَةَ لَقِينَا إِنْسَانًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمْ نَسْأَلْهُ، قَالَ: فُلْنَا حَتَّى نَلْقَى ابْنَ عُمَرَ أَوْ أَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: فَلَقِينَا ابْنَ عُمَرَ كَفَّهُ عَنْ كَفِّهِ، قَالَ: فَعُمْتُ عَنْ يَمِينِهِ وَقَامَ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ: قُلْتُ: أَتَسْأَلُهُ أَوْ أَسْأَلُهُ قَالَ: لَا بَلْ سَلُهُ، لِأَبِي كُنْتُ أَبْسَطَ لِسَانًا مِنْهُ قَالَ: فُلْنَا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ نَاسًا عِنْدَنَا بِالْعِرَاقِ قَدْ قَرَعُوا الْقُرْآنَ، وَفَرَضُوا الْفَرَائِضَ، وَقَصُّوا عَلَى النَّاسِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْعَمَلَ أَنْفٌ، مَنْ شَاءَ عَمِلَ خَيْرًا، وَمَنْ شَاءَ عَمِلَ شَرًّا، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتُمْ أَوْلِيَكُمْ فَقُولُوا: يَقُولُ ابْنُ عُمَرَ هُوَ مِنْكُمْ بَرِيٌّ وَأَنْتُمْ مِنْهُ بُرَاءٌ؛ ابْنُ عُمَرَ مِنْكُمْ بَرِيٌّ، وَأَنْتُمْ مِنْهُ بُرَاءٌ، فَوَاللَّهِ لَوْ جَاءَ أَحَدُهُمْ مِنَ الْعَمَلِ، أَوْ قَالَ أَحَدًا أَحَدُهُمْ مِثْلَ أَحَدٍ مَا تُقْبَلُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ²⁴. وما أورده البيهقي في كتاب القضاء والقدر:

عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدْرِ قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبِيًّا فَقُلْتُ: إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدْرِ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُوْذِبُهُ مِنْ قَلْبِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ قَالَ: فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ فَحَدَّثَنِي بِمِثْلِ هَذَا قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَحَدَّثَنِي بِمِثْلِ هَذَا قَالَ: فَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ هَذَا وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَنِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَثِيرٍ بِنَحْوِ مَعْنَاهُ²⁵.

والحديث التالي: حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَمْرُو بْنَ شُعَيْبٍ، يَقُولُ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ جَالِسًا فَذَكَرُوا رِجَالًا يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدَرَ كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا الْأَعْمَالَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ سَعِيدًا غَضِبَ قَطُّ غَضَبًا أَشَدَّ مِنْهُ حَتَّى هَمَّ بِالْقِيَامِ، ثُمَّ سَكَنَ فَقَالَ: تَكَلَّمُوا بِهِ، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ فِيهِمْ حَدِيثًا كَفَاهُمْ بِهِ شَرًّا، وَيُحِبُّهُمْ لَوْ يَعْلَمُونَ. قَالَ: قُلْتُ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ وَمَا هُوَ؟ قَالَ: فَتَنَظَّرَ إِلَيَّ وَقَدْ سَكَنَ بَعْضُ غَضَبِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يَكُونُ قَوْمٌ فِي أُمَّتِي يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَبِالْقُرْآنِ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، كَمَا كَفَرَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَقْرُونَ بِبَعْضِ الْقَدْرِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ قَالَ: قُلْتُ: مَا يَقُولُونَ؟ قَالَ: يَجْعَلُونَ إِنْ لَيْسَ عَدْلًا لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ وَقَوْلِهِ، وَيَقُولُونَ: الْحَيُّ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّرُّ مِنْ إِبْلِيسَ، فَيَكْفُرُونَ بَعْدَ الْإِيمَانِ

وَالْمَعْرِفَةَ بِالْقُرْآنِ، مَا يَلْقَى أُمَّتِي مِنْهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْجِدَالِ، أَوْلَيْكَ زَنَادِقُهُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَالَ: ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ طَاعُونًَا فَتَفْتَنِي عَامَّتُهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ خَسْفٌ فَمَا أَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُ، الْمُؤْمِنُ يَوْمِنِدٍ قَلِيلٌ فَرَحُهُ، شَدِيدٌ غَمُّهُ، ثُمَّ يَكُونُ الْمَسْحُ، فَيَمْسَحُ اللَّهُ عَامَّةَ أَوْلَيْكَ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ قَرِيبًا ثُمَّ بَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَكَينَا لِبُكَائِهِ قُلْنَا مَا يُبْكِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: رَحْمَةٌ لَهُمْ، الْأَشْقِيَاءُ مِنْهُمْ الْمُتَعَبِّدُ، وَمِنْهُمْ الْمُجْتَهِدُ، مَعَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَوَّلِ مَنْ سَبَقَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَصَاقَ بِحِمْلِهِ ذَرْعًا، إِنَّ عَامَّةَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ؟ قَالَ: يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَعَهُ أَحَدٌ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَيُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمَا قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ، وَخَلَقَ خَلْقًا فَجَعَلَ مِنْ شَاءٍ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْ شَاءٍ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلٌ ذَلِكَ مِنْهُ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ بِمَا خُلِقَ لَهُ وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ، قَالَ: قُلْتُ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ كَمَا قَالَ²⁶. ثم الرواية التي تريد أن تجمع بين معاوية وعلي في اعتقادهما بما يتعارض ومذهب معبد والتي أوردها البيهقي كالتالي: عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: دَخَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَبُوكَ الَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ، فَإِذَا كَانَ آخِرَ النَّهَارِ مَشَى فِي طُرُقِهَا؟ قَالَ: عَلِمَ أَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: صَدَقْتَ²⁷. وتستمر الروايات لدى البيهقي تترى وتصب كلها في اتجاه تخطئة القائلين بالقدر وتبديعهم لتجعل من الأمر كلمة اجماع لدى صحابة النبي وتابعيه فيكتب: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، قَالَ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَمَا كَلَامُهُمْ إِلَّا إِنْ قُضِيَ وَإِنْ قُدِّرَ²⁸.

ولا بد أن معبد وغيره قد تأملوا في تاريخهم الذي عاشوا تفاصيله وراودهم السؤال حول مدى مسؤولية الله أو الانسان فيه. ومشكلة معبد تكمن في أنه لم يستطع أن يعتقد أن إرادة الله السابقة تقف خلف الانقسامات التي قصمت ظهر السلف الأول والانحرافات التي أخذت تتجذر منذ بدايات العهد الأموي، ليس الله مسؤولاً عنها لأن الانسان هو الذي يصنعها ويفعلها وبالتالي يكون حسابه عليها معقولاً. ومشكلته الأخرى أنه لم تكن لديه رغبة في ان يكون محسوباً على أي طرف من الأطراف التي تعمل ضمن تدافع سياسي واضح ولأجل قضايا سياسية بينة ولمصلحة قبائل او بيوت او شخصيات محددة، فلا قريش ولا بني أمية ولا آل البيت ولا عامة الأعراب من الذين استنفرتهم الحركة الخارجية. مما يعني أنه كان يفتقر للسند السياسي الذي يحميه من غائلة التهم والرقابة. وقد تجلت عزلته في الخبر الذي يرويه ابن عون قال: كنا جلوساً في مسجد بني عدي وفينا أبو السوار فدخل معبد الجهني من بعض أبواب المسجد فقال أبو السوار ما أدخل هذا مسجدنا لا تدعوه يجلس إلينا. وذكر عمرو بن دينار قال: بينا طاووس يطوف بالبيت لقيه معبد الجهني فقال له طاووس أنت معبد قال نعم قال فالتفت إليهم طاووس فقال: هذا معبد فأهينوه²⁹.

والغريب أن بعض المصادر قدمت بسبيل التعريض به معلومات يستطيع الباحث أن يستكنه منها ما ذكرته آنفاً منها أنها جعلت الجعد مسبقاً بشخصية غامضة تدعى سيستويه البقال³⁰: حماد بن زيد عن ابن عون قال أدركت الناس وما

يتكلمون إلا في علي وعثمان حتى نشأها هنا حقير يقال له سستويه البقال وكان أول من تكلم في القدر فقال حماد فما ظنكم برجل يقال له ابن عون هنا حقير. وعن يونس بن عبيد قال أدركت البصرة وما بها قدري إلا سستويه ومعبد الجهني وآخر ملعون في بني عوانة. سمعت الأوزاعي يقول أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد³¹. والنص واضح في تهكمه على معبد من خلال ربط شخصيته بشخصية رجل يقال ضعيف الدين متقلب عديم العصبية الأمر الذي نفهم منه ان الذين تكلموا في القدر هم من الفئات المهمشة التي لا رأي لها ولا مصلحة فيما كان يحدث؛ وبالتالي تستطيع بنظرنا أن تمتلك الرؤيا الأكثر موضوعية بما أنها الأشد حيادية في صراع كانت تحركه قوى نافذة يجمعها انتمائها لقبيلة قريش. لأن اللعبة السياسية كانت تدور رحاها بقريش وعليها، دعما لهذا البيت من بيوتها أو ذاك؛ أو ضدها تماما كما كان يفعل الخوارج.

عن يحيى بن يعمر قال كان رجل من جهينة فيه زهو وكان يتقرب من جيرانه ثم إنه قرأ القرآن وفرض الفرائض وقص على الناس ثم إنه صار من أمره أنه زعم أن العمل أنف من شاء عمل خيرا ومن شاء عمل شرا. عن ابن عون قال أمران أدركتهما وليس بهذا المصير منهما شيء وأنا بين أظهركم كما ترون الكلام في القدر إن أول من تكلم فيه رجل من الأساورة يقال له سستويه كان لحيقا قال ما سمعته قال لأحد لحيقا غيره قال فإذا ليس له تبع عليه إلا الملاحيق، ثم تكلم فيه بعده

يعني رجلا قد كانت له مجالسة يقال له معبد الجهني فإذا له عليه تبع قال وهؤلاء الذين يدعون المعتزلة³².

والذي تغفله المصادر أن فكرة القدر قد تكون نشأت أساسا ردا على الفكرة التي أخذ يروجها الأمويون حول سندهم الإلهي في امتلاك السلطة لأنه لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدم منك الجد التي كان يكررها معاوية من على منبره. فالمعتزلة في النص السابق هم معتزلة الصراع الذي كان يدار عبر الاصطفاف والموالاة لهذا الطرف أو ذاك.

وتدليلا على إيمانه بفكرته فقد خاض معبد تجربة النضال السياسي ضد السلطة الأموية من خلال مشاركته في الثورة العاصفة التي تزعمها محمد بن الأشعث ولفيف هام من فقهاء الإسلام والتي لو نجحت لكانت غيرت تاريخ الإسلام إلى غير الوجهة التي سار إليها. وتذكر بعض الروايات عن مالك بن دينار قال لقيت معبدا الجهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح وقد قاتل الحجاج في المواطن كلها.. وعن صدقة بن يزيد قال كان الحجاج يعذب معبدا الجهني بأصناف العذاب ولا يجزع ولا يستعذب قال فكان إذا ترك من العذاب يرى الذباب مقبلة تقع عليه قال فيصيح ويضحج قال فيقال له، قال أما إن هذا من عذاب بني آدم فأنا أصبر عليه وأما الذباب من عذاب الله فلست أصبر عليه فقتله. وجاءت في ذات النص رواية أخرى مفادها أنه: في سنة ثمانين قتل عبد الملك معبدا الجهني وصلبه بدمشق³³.

وقد خلف معبد في مقالته شخصية أخرى شهيرة لفرط ما تداولتها مصنفات اهل السنة بالتشنيع؛ هي شخصية غيلان الدمشقي الذي قتل على عهد هشام بن عبد الملك بإيعاز من فتوى الأوزاعي شيخ متسننة الشام. أخذ غيلان الدمشقي المذهب عن الحسن بن محمد بن الحنفية ولم تكن مخالفة الحسن لأبيه ولأخيه إلا في شيء من الإرجاء. روى أنّ الحسن كان يقول . إذا رأى غيلان في الموسم .: أترون هذا، هو حجّة الله على أهل الشام، ولكنّ الفتى مقتول، وكان وحيد دهره في العلم والزهد والدعاء إلى الله وتوحيده وعدله، قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه. وسبب قتله أنّ غيلان كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يحذّره فيه من انطفاء السنّة وظهور البدعة. فلمّا وصلت الرسالة إلى عمر بن عبد العزيز دعاه وقال: أعنيّ على ما أنا فيه. فقال غيلان: ولني بيع الخزائن وردّ المظالم فولاه فكان يبيعها وينادي عليها ويقول: تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنّته وسيرته، وكان فيما نادي عليه جوارب خزّ فبلغ ثلاثين ألف درهم، وقد أكل بعضها. فقال غيلان: من يعذريني ممّن يزعم أنّ هؤلاء كانوا أئمة هدى وهكذا يأكل والناس يموتون من الجوع. فمرّ به هشام بن عبد الملك قال: أرى هذا يعينني ويعيب آبائي وإن ظفرت به لأقطعنّ يديه ورجليه فلمّا ولى هشام قتله على النّحو الذي أوّعه³⁴.

أردت من هذا العرض الموجز لمساهمة معبد الجهني في التأسيس للثقافة الإسلامية وارتباطها بالسياق التاريخي الذي عاش فيه من خلال الروايات المتوفرة التأكيد على الطابع الأيديولوجي للأفكار التي تحولت بعد ذلك الى عقائد مغلقة تأبى العودة الى

التاريخ؛ لأن استرجاعها تاريخيا يكشف جوهرها التبريري المصلحي ومصدرها الإنساني البشري فيما هي تدعي حقيتها الإلهية وتعاليتها الميتافيزيقي ومن ثمة قوتها وسلطتها على الناس.

لقد حاولت ان أعرض معبد الجهني في خلفيته التاريخية بحسب ما تمنحه لنا النصوص المتوفرة وبحسب ما تقتضيه ضرورات الاختصار؛ لان الاستقصاء في جملة الشروط التاريخية التي أحاطت به كشخصية مسلمة عاشت بين أمصار العالم الإسلامي في منعطف تاريخي حرج؛ يخرج بسطه من حدود المقالة الى الكتاب. لكن يلاحظ المتتبع أن النصوص المعروضة في شأن معبد وشأن فكرة القدر تكاد تخلو من أي تعريف او تصور لمضمونها لا بلسان معبد ولا بلسان غيره من خصومه. كأن القدر مجرد لفظة لغوية من جملة كلمات اللغة وليست مفهوما معقدا. والمفهوم . بداهة . يحتاج فهمه الى بيان مبسوط يستعرض محتواه ومضامينه، والى ما يحدده إيجابا وما يميزه عن أصداده ونقائضه سلبا. يحتاج الى نقاش مستفيض محله الحوارات الهادئة لا المناظرات الهادرة والى بيئة مسالمة تكفل حق الحياة والأمن والتعبير بعيدا عن الارجاف والضغط والتهديد. خاصة ممن يدعي امتلاك الحقيقة الجاهزة. ان الانفعالات المتشنجة لا تعني سيكولوجيا الا شك أصحابها العميق فيما يعتقدونه، ومن طبيعة المحق امتلاك الرغبة والقدرة على الاقناع بالوسائل الهادئة لا بالقمع والتضييق والمصادرة. فليس معبد الجهني الا ذاك الذي قال بالقدر، أما محتوى هذه الفكرة كما طافت بخلده فلا نكاد نعثر عليه في النصوص المتقدمة زمنيا، اللهم ما

تردد صداه في العصور التالية بعد أن استفحل الخلاف وذر قرن النزاع، والذي يجعل الباحث النزيه في حل من التسليم به.

لا تخلو النصوص الواردة آنفا من تناقضات تعشش في بنيتها وتبطن محتواها، من ذلك أنها تجعل معبد أول من قال بفكرة القدر وتعطي ايجاء بأنها أول بدعة ظهرت في عقائد الإسلام؛ بحيث يفهم من السياق أن نصوص الإسلام؛ وهي القرآن تحديدا قد فصلت في الأمر وحسمته، وان معبد بذلك خرج على الناس بما يتناقض مع قطعيات الدين. في حين أن مشكلة معبد تتلخص في كونه أول من تكلم في هذه القضية التي تحولت مسألة عقديية بعد ذلك. مما يعني انه أول من بلور مجال معرفي اشكالي يقع في مركزه فكرة القدر. فليس لأن القدر كمشكلة فلسفية قد تم التعريف به وتم ايضاحه وحسمه؛ وانما لأنه كفكرة لم تكن موضوعا للكلام، أي لم تكن موضوعا للوعي والتفكير والتساؤل، ظلت مندرجة في قطاع الالاتفكير وكانت أسبقية معبد تتلخص في مبادرته الى إخراجها الى عالم التفكير وبالتالي محاولة السيطرة عليها بالكلام لأن الكلام سلطة. والأمر برمته يقود الى سلسلة من القضايا الأخرى المتشابكة التي تدور حول الله والانسان والتاريخ والإرادة والجزاء والايمن وغيرها. فاذا كان التساؤل الذي يأتي قسرا كإشكالات تعانيها الذات المفكرة لا باختيار يعتبر بدعة فان هذا الرأي لا ينطلق من فهم لحقيقة ما يحدث في الانسان والعالم والشروط المعقدة للعبة التاريخية وللذات الإنسانية التي تتحرك داخلها.

ان الانحراط في الفعل التاريخي والنقاش السياسي الذي كان يدور في كل بيت من بيوت المسلمين في تلك الحقبة كان لا بد ان يقود الى مسألة الحق والصواب، من المصيب ومن المخطئ في نزاع علي ومعاوية تحديدا؛ لأن الواقع لا يحتمل فكرة أن كليهما على صواب؛ الفكرة التبسيطية التي اخترعت فيما بعد للتغطية على عسر هضم المعضلة ومحاوله لتجاوزها بالقفز عليها. حيث أن عبارة: **تلك فتنة طهر الله منها أيدينا فالنظر منها السنننا**، يجري اغفالها لما تستخدم حيثيات الفتنة ذاتها في التعريض بالخوارج والمعتزلة وغيرهم ولعنهم.

والواقع التاريخي الذي عبرت عنه الوقائع يقول أن من أجاب على مسألة الخطأ والصواب بحقية علي وقف الى جانبه ينصره، ومن أجاب لمصلحة معاوية انحط الى صفوفه، أما ومن توقف ولم تبين لزم الحياد واعتزل المعسكرين. كانت الأمور معارك ومجابهات حقيقية قادت الى كثير من الأسى والألم، وسالت دماء وسقطت شخصيات تاريخية مهمة في ميدانها؛ فلم يكن من الصواب أن تختزل في عبارات تلطيفية تھوينية من قبيل العزاءات الفارغة، وانما كان لزاما أن تستفرغ العقول القوية جهدها لفهم الإوالات التي تحكمت في انتاجها وصاغت تعقيدها. فهل كان مستطاعا تلافي كل الذي حدث؟ وهل قصرت جهة ما في بذل قصارى جهدها حتى تجنب الجميع ويلات ما حصل؟ هل الذي حدث كان بتقدير من الله وقضائه أو صنيعا يتحمل البشر مسؤوليته؟ وغيرها من الأسئلة الجادة.

ان الإجابات التي تم اقتراحها بعد ذلك من طرف الفرق المختلفة كانت من قبيل الصيغ التبريرية التي تخدم برامج سياسية محددة ولم تكن منتجات معرفية موضوعية. لذلك جنحت الى استخدام ذلك التاريخ واستعماله بدلا من معرفته واستكناهاه وفهمه. ففكرة القدر في هذا السياق بمعنى أن الانسان هو الذي يصنع تاريخه ويفعله وهو المسؤول بذلك على مصائره ليست غريبة، وليس مفاجئا أن تطوف برأس معبد وغيره من الناس الجادين. والخبر التي ينسب الى ابن عون من طريق حماد بن زيد: أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان حتى نشأها هنا حقير يقال له سستويه البقال وكان أول من تكلم في القدر³⁵. واضح في الانشغال الذي كان عليه جمهور المسلمين بما ألم بهم وآلمهم وأكرهم. وانما الغريب من يرفض تأملها ونقاشها والتداول بشأنها؛ بل يعمد الى تسخيف قائلها وتشويه مراده. واذن فان المرفوض في المسألة هو الكلام ذاته؛ القول؛ التفكير؛ التعبير عن الانشغالات العميقة بصراحة؛ والمطلوب كان يتمثل في الالتزام بالصمت المطبق.

ومن طرائف الحكايات التي بقيت محفوظة عن حجم مشاركة الناس في الانشغال بالمسائل الكلامية ما جاء عن فزارة الذي كان مشرفا على مظالم البصرة، وكان ظريفاً، فسمع ذات يوم صياحاً فقال: ما هذا الصياح؟ قيل: قوم تكلموا في القرآن، قال: اللهم أرحنا من القرآن³⁶.

وطرائف أخرى عن كيفية تشكل اتجاهات داخل الفرقة الواحدة؛ منها ما يرويهِ أبو الحسن الأشعري قال: كان سبب فرقة الشعبية والميمونية أنه كان لميمون على

شعيب مال فتقاضاه فقال له شعيب: أعطيكه إن شاء الله فقال ميمون: قد شاء الله أن تعطينه الساعة فقال شعيب: لو شاء الله لم أقدر ألا أعطيكه فقال ميمون: فإن الله قد شاء ما أمر وما لم يأمر لم يشأ ما لم يشأ لم يأمر فتابع ناس ميموناً وتابع ناس شعيباً فكتبوا إلى عبد الكريم بن عجرد³⁷ وهو في حبس خالد بن عبد الله البجلي يعلمونه قول ميمون وشعيب فكتب عبد الكريم: إنا نقول ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا نلحق بالله سوءاً، فوصل الكتاب إليهم ومات عبد الكريم فادعى ميمون أنه قال بقوله حين قال: لا نلحق بالله سوءاً وقال شعيب لا بل قال بقولي حيث قال: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتولوا جميعاً عبد الكريم وبرئ بعضهم من بعض³⁸.

هذا وقد تسللت فكرة القدر بعد مقتل معبد الجهني وغيلان الدمشقي لتتحيا داخل المنظومة الاعتزالية، فقد بادر هؤلاء بقيادة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إلى اعداد مجال معرفي كامل هو علم الكلام من أجل السيطرة على المشكلات التي راح يثيرها الخوارج وغيرهم في حراكهم السياسي ضد السلطة الأموية والذي تطور بعدها إلى موجات عنف هوجاء عامة بدون تمييز؛ حيث اتسعت مساحة تعريف العدو لتتحرك من السلطة إلى غالبية جمهور الأمة من القاعدين عن نصرتهم، واتكأت في تبرير مسلكيتها على مقاطع من آيات القرآن تتضمن الفاظ وعبارات توصيفية كالإيمان والكفر والفسق والنفاق، مما يعنى بعبارة أخرى أنهم جعلوا من القرآن مستندا يدعم توجهاتهم وسياساتهم. بهذا الاستخدام الأيديولوجي للقرآن

تحول الكتاب الى إشكالية تقتضي النظر والتدبر والفهم، وأخذت وظيفته التجميعية تتزعزع كلما زادت كثافة استخدامه، وتشكلت بذلك للنص أهمية جديدة؛ هي سياسية في العمق؛ بحسبانه رأسمال رمزي عظيم لا تنفذ موارده ولا ينقطع مدده. وبين إخبارية الرواة النصية وتأويليات الشيعة الامامية وظاهرات الخوارج وضبابية المرجئة صار من الضروري ابداع مجال معرفي جديد يسهم في تنظيم المفاهيم المتنازع عليها وضبط دلالاتها ومعانيها وعلاقاتها بالواقع. فجاءت مساهمة المعتزلة بهذا نظريا رصينا بالمقارنة مع ما كان متداولاً. واستقطبت بذاك اهتمام كثير من المنشغلين بمختلف قطاعات العلم والمعرفة. قال إبراهيم الحارثي: كان البصرة أربعة من النحويين أصحاب سنة: الخليل وأبو عمرو بن العلاء ويونس والأصمعي، وسائرهم قدرية³⁹.

صار لزاما على الاتجاهات الأخرى أن تنهل من معين الاعتزال وتحذو حذوه وفي أحسن أحوال الابداع ان تكيفه على أصولها وقواعدها. لقد فهم الاتجاه الشيعي والخارجي الأهمية النظرية في عمل المعتزلة وقوتها الفكرية فقاما بامتصاصه امتصاصا شبه كامل لكنهما ظلا محتفظين بالأساس الذي يميز كل فريق عن الفرق الأخرى ويمنحه شرعية بقائه واستمراره الاجتماعي السياسي. في حين بقيت أشتات متناثرة من الجمهور دون صياغة نظرية لموقفهم لأنه لم يكن موقفا معرفيا واضحا بالأساس؛ عدا ارتياحهم من الأساليب الجديدة في البحث والمناظرة واشتباهم فيها. هذا الاتجاه سيصير في تاريخ آخر يحمل صفة السني، ويبقى متوجسا من المنظومة المعتزلية

ومتحفظا تجاه طرقها وأدواتها في النظر والتدبر، ثم تجاه بعض النتائج والتصورات التي خلصت إليها.

عود على بدء:

لابد أن نصل بين المسار التاريخي للفكرة وتجلياتها الزمنية في ارتباطها بالإنسان والمجتمع الذي يحيا داخله وبين المحتوى المعرفي او غير المعرفي الذي كانت تتضمنه والوظيفة التي كانت تخدمها لدى الفرد ولدى المجتمع بعامه او الفئات التي تقبلتها من ذات المجتمع، لأن الاكتفاء بالعرض التاريخي للأمر لا يفي بغرض الفهم والادراك وبالتالي لا يتيح لنا الحصول على الوعي التاريخي الذي هو ضروري في أي عملية تحريرية وتطهيرية تتبغى تجاوز تاريخها وتلمس المسالك الى مستقبلها. ففكرة القدر اذن هي صياغة لغوية ترتقي الى درجة المفهوم لجملة رؤى واعتبارات انقذت في وعي مفكرها في التخوم بين ذاته والعالم الذي كان يعيش فيه؛ بين ذاته والتاريخ؛ بين اختبارات النفسية والذهنية والتجربة التاريخية المحتمدة التي كانت تهيمن على كل من كان موجودا ويقظا في تلك الأيام. الفكرة جاءت نتاج وعي مهموم ومتوتر ومتسائل في العمق إزاء كل ما كان وظل يحدث، وإزاء فكرة المسؤولية بكل ثقلها ومركزيتها في الوجود الإنساني؛ حيث أن بداية التاريخ كما ترويه كل الديانات والأساطير ارتبطت بنيويا ببداية المسؤولية، والقصة الشائعة في تراث الشرق الأدنى والتي توارثتها الديانات الكتابية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام عن خلق الله للعالم والانسان، وواقعة الاختبار الذي تعرض له آدم في جنته وحالة الخزي التي

شعر بها إثر شهوده للذنب الذي اقترفه لما أكل من الشجرة المحرمة؛ وصولاً إلى إخراجها من الجنة إلى عالم الأرض. كلها تدور حول مفاهيم الأمانة والمسؤولية والحرية والجزاء؛ حالة اختبار للإنسان على مسرح التاريخ؛ بل التاريخ ذاته هو ثمرة ناتجة عن ذات الاختبار. الإنسان المنظور إليه ككائن يمتلك القدرة على القرار ومن ثمة يتحمل المسؤولية عليه؛ كائن خالق ومسؤول؛ وتلك هي ميزته وخصوصيته؛ وذلك هو قدره الذي لم يستشر فيه، فإذا كان ثمة قدر فانه الحرية ذاتها، وإذا حدث وأن وجد ذاته يتقلب في عالم العبودية بكل أنواعها فان مسؤوليته حينها تتمثل في خوض النضال من أجل استرداد حريته، هل نقول استرداد أو بناء؟ لأن الحرية ككل الأمور العظيمة وضع لا نعثر عليه جاهزا متوفرا للاستعمال كما هي الأدوات؛ وانما هي حال ومستوى ودرجة من الكينونة الذاتية الفردية وواقع تاريخي اجتماعي لا يتحقق دون الدخول في الانفاق المظلمة واجتراح مسيرة التغيير والتحويل كما تتحول المواد الحسيسة إلى معدن نفيس. لذلك فان الوصف الدقيق لدينامية التحول ذاك لا تقبل أفضل من اسم **الجهاد**؛ ليس فعلا سياسيا يرجو امتلاك سلطة زمنية ما يتحكم بموجبها في رقاب الآخرين، لكنه المسؤولية على الذات ابتداءً؛ والمسؤولية على الآخرين بمساعدتهم على تحقيق مسؤوليتهم الشخصية انتهاءً. والمقتول فيه ليس الجسد وانما النفس كما عرفتھا الأدبيات الأخلاقية، ليس الدم الذي يجري في الأوردة والشرايين لكنه الدم النفسي حيث يتغذى الشيطان. وليس العقيدة الدوغمائية التي هي ذاتها قيد دون الحرية، وانما امتلاك حالة من الإيمان هو طمأنينة

ورضا وسلام وانتماء عميق للكون والناس؛ خالقية تستحق خلافة الله على الأرض وعلى التاريخ.

انها في جوهرها تتضمن خطابا تاريخيا واضحا ضد جميع أشكال السلطة؛ وبالتالي ضد الشبكة السلطوية التي تنظم بين مؤسسات مختلفة يمتلك كل منها مجاله السلطوي وأدواته ومستويات نفوذه؛ وتعمل على منحها التجانس والتعاون قبل أن تجمعها وتكثفها في قوة واحدة ذات وجوه متعددة. فللسلطان مجاله ونفوذه وأدواته، ولرجال الدين وجاهتهم ومركزيتهم وتأثيرهم، وللقوة الاقتصادية سطوتها وتحكمها واغرائيتها؛ هذه القوى تصطرع على روح الانسان وعقله ونفسه وجسده، فتتجاذبه حتى تمزقه نتفا وتدفع به نحو الاغتراب قسرا. أو تتحد فيما بينها حتى تنتج أيديولوجيا منظمة تتيح للإنسان الخاضع الشعور باتزان زائف فيما هي تمتصه حد العظم. ذلك في اعتقادي جوهر حقيقة فكرة القدرية.

لكن الذي حدث تاريخيا ان الرؤيا الإبداعية؛ التي هي لحظة خلق لا على مثال سبق، وبالتالي لحظة غير زمنية، بل لحظة متجاوزة للزمن وسطوته وبالتالي مقدسة؛ سريعا تقع أسيرة التطبيع والتكييف ومن ثمة المسخ والتشويه من طرف القوى الجائرة. ان الدين يتحول بواسطتها الى دينونة، والحقيقة تتحول الى قانون، والروحانية المبدعة تتحول الى مؤسسة ولوائح وتنظيمات، والانسان الفرد العارف المستنير يصير زنديقا تجري محاكمته وملاحقته من اجل قطع رأسه لما يعوز خنق روحه. الايمان يصير عقيدة. بدليل أن العقيدة فرقت الناس ولم تجمعهم وأسالت من الدماء البشرية

ما لم تتمتع به آلهة العصور القديمة، لكن الايمان يجمع ويضم ويشفي الجروح التي أحدثها التاريخ.

لقد تحولت القدرية الى أيديولوجيا بمغزى تبريري؛ وضح ذلك لما أدرجت في المنظومة الاعتزالية للاعتقاد، وعندما تمكن المعتزلة من الوصول الى عقل المأمون وقراره، وساندوه في صياغة البيان العقدي الذي أراد ترويجه بين الناس؛ قبل ان يطور رغبته من محاولة الاقناع الى ضرورة الالتزام؛ وبالتالي العمل على فرضه على الرعية بواسطة القوة المنظمة والتهديد والأذى وايقاع العقاب. فلم يستطع اعلام المعتزلة من الذين كانوا في حاشية المأمون ومستشاريه أن يروا ان فعل الالتزام الاكراهي في العقيدة يتنافى مع المقتضيات النظرية لمذهبهم. فوقعوا بذلك فيما وقع فيه الآخرون، وفيما يجعل أناسا آخرين يرون ان المضامين التحريرية لفكرة القدر مضامين ميتافيزيقية لا تحتملها طبيعة التاريخ.

لقد انتصرت الأيديولوجيا على حساب الحقيقة، وصاغ انتصارها ملامح تاريخ المجتمعات الإسلامية طيلة العصور الوسيطة واستقطبت قوى كثيرة واستنزفتها، ذلك أن جميع الفرق والمذاهب التي شهدتها مجتمعات الإسلام قد احتضنت عقليات جبارة أمضت حياتها في تشييد دعائم تلك المذاهب والمنافحة عنها من دون أن يعني ذلك أنهم امتلكوا الحقيقة. رغم أن كل منهم كان يتحرك بوهم انه اوفر حظا من الجميع في تمثل الحقيقة والوكالة عليها.

أورد هذه المعاني لأن قطاعا كبيرا من مسؤولية استمرار كثير من الرؤى التي تعتبر عتيقة ماضوية؛ انما يتأسس على قوة السلطة المرجعية لكثير من الشخصيات التي عمدت كتب المناقب الى عرضهم في صور وهيئات ميتافيزيقية غير تاريخية بالمرّة، فساهمت بذلك في تكريس هيبتهم وديمومة الكاريزما التي تمتعوا بها أو أريد لهم أن يتمتعوا بها بعد موتهم، لأن صناعة الهيبة ضرورية لديمومة ما يفترض أنه صار في خبر كان وما تجاوزه حركة التاريخ وكشفت زمنيته وظرفيته ومشروطيته وبالتالي ناقصه.

الهوامش:

¹ تأمل النص التالي المنسوب الى النبي: خرج من رسول الله باب البيت يريد الحجر فسمع قوما يتراجعون في القدر ألم يقل الله تعالى في آية كذا وكذا ألم يقل الله في آية كذا كذا ففتح رسول الله باب الحجر وكأنما فقى في وجهه حب الرمان قال أبهذا أمرتم أبهذا عنيتم إنما هلك من كان قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعبه ببعض أمركم الله بأمر فاتبعوه ونهاكم عن شيء فانتهاوا عنه فلم يسمع الناس أحدا بعد ذلك تكلم في القدر حتى كان زمن الحجاج فكان أول من تكلم فيه معبد الجهني. ابن عساکر، تاريخ دمشق، ت عمرو بن غرامة العمري، د ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1995م، ج59، ص320

² اشتد حزن عليّ على من قتل من ربيعة قبل وروده البصرة، وهم الذين قتلهم طلحة والزبير من عبد القيس وغيرهم من ربيعة، وجدد حزنه قتل زيد بن صوحان العبدي قتله في ذلك اليوم عمرو بن سبرة، ثم قتل عمار بن ياسر عمرو بن سبرة في ذلك اليوم أيضاً، وكان علي يكثر من قوله:

يا لهف نفسي على ربيعة ربيعة السامعة المطيعة

وخرجت امرأة من عبد القيس تطوف في القتلى، فوجدت ابنين لها قد قتلا، وقد كان قُتل زوجها وأخوان لها فيمن قتل قبل مجيء علي البصرة، فأنشأت تقول:

شهدت الحروب فشييني فلم أر يوماً كيوم الجمل

أضر على مؤمنٍ فتنهً وأقتله لشجاع بطل

فليت الطعينة في بيتها وليتك عسكر لم ترتحل. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، ت أسعد داغر، د ط، دار الهجرة، قم، 1409هـ، (2/369)

³ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط2، دار التراث، بيروت، 1387هـ، ج4، ص 503. 504

⁴ قدم على عمر في وفد البصرة، فرأى منه عقلاً، وديناً، وحسن سميت، فتركه عنده سنة، ثم أحضره، وقال: يا أحنف، أتدري لم احتبستك عندي؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذرنا كل منافق عليم، فخشيت أن تكون منهم، ثم كتب معه كتاباً إلى الأمير على البصرة، يقول له: الأحنف سيد أهل البصرة، فما زال يعلو من يومئذ. وكان ممن اعتزل الحرب بين علي، وعائشة رضي الله عنهما بالجمل، وشهد صفين مع علي، وبقي إلى إمارة مصعب بن الزبير على العراق، وتوفي بالكوفة سنة سبع وستين، ومشي مصعب بن الزبير وهو أمير العراق لأخيه عبد الله في جنازته. عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ت علي محمد معوض وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ج1، ص178

⁵ أبو العباس بن المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ج3، ص159

⁶ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، البلدان، ت يوسف الهادي، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1996م، ص604. أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، د ط، دار صادر، بيروت، 1991م، ص293

⁷ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ، ج7، ص275

⁸ شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ، ج2، ص237

⁹ خانقوا وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب الى بحر الصين، وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند، المسعودي، المصدر السابق، ج1، ص156

¹⁰ قال الجاحظ: الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب، المصدر السابق، ج1، ص371

¹¹ دخل فتى من أهل المدينة البصرة ثم انصرف، فقال له أصحابه: كيف رأيت البصرة؟ قال: خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس: أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء؛ لا ينفق في الشهر درهمين، وأما العزب فيتزوج بشق درهم، وأما المحتاج فلا عيلة عليه ما بقيت عليه استه يخرأ ويبيع. ابن قتيبة، عيون الأخبار، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ج1، ص321

¹² ايرام لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ت فاضل جكتر، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص112

1 المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج3، ص41

¹⁴ ذكر عن عبد الملك بن عمير، أنه قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفي مع مصعب بن الزبير، فما رأيت شيخاً قبيحاً إلا ورأيت في وجه الأحنف منه شبهها، كان صعل الرأس، أجحى العين، أعصف الأذن، باخق العين، ناتئ الوجه، مائل الشدق، متراكب الأسنان، خفيف العارضين، أحنف

- الرَّجُل، ولكنه كان إذا تكلم جَلَّى عن نفسه، فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المصدر نفسه، ج3، ص330. رضوان السيد، مفاهيم الجماعات في الإسلام، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993م، ص73
- ¹⁵ المسعودي، مروج الذهب، المصدر نفسه، ج3، ص331
- ¹⁶ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ت حمد عوامة، ط1، دار الرشيد، سوريا، 1986م، ص539
- 17 تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ج4، ص188. 189
- 18 أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مختلف الحديث، ط2، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراف، 1999م، ص80
- ¹⁹ ابن عساکر، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج59، ص315. 316
- ²⁰ ابن عساکر، المصدر نفسه، ج59، ص317
- ²¹ ابن عساکر، المصدر نفسه، ج59، ص315
- ²² أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي، كتاب القدر، ت عبد الله بن حمد المنصور، ط1، أضواء السلف، 1997م، ص148
- ²³ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، د ط، المكتبة العصرية، بيروت، د ت، ج4، ص224
- ²⁴ أبو بكر البيهقي، القضاء والقدر، ت محمد بن عبد الله آل عامر، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2000م، ص191
- ²⁵ البيهقي، المصدر نفسه، ص196

²⁶ البيهقي، المصدر نفسه، ص 197

²⁷ البيهقي، المصدر نفسه، ص 199

²⁸ البيهقي، المصدر نفسه، ص 201

²⁹ ابن عساكر، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 59، ص 323. يورد ابن عساكر روايات أخرى في هذا المعنى منها ما رواه غيلان بن جرير قال: سمعت الحسن يقول لا تجالسوا معبدا فإنه ضال مضل. وعن مسلم بن يسار وأصحابه أنهم كانوا يقولون إن معبدا الجهني يقول بقول النصارى. المصدر نفسه، ج 59، ص 322.

ولا ندري أي نصارى قالوا بهذه المقالة لأن جوهر المعتقد المسيحي يتأسس على مقولات واشكاليات من طبيعة أخرى.

³⁰ ذكر ابن حجر أن اسمه يونس الأسواري يلقب سيسويه، وقال: أول من تكلم بالقدر وكان بالبصرة فأخذ عنه معبد الجهني. ذكره الكعبي في طبقات المعتزلة وذكر أنه كان يلقب سيسويه. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ت عبد الفتاح أبي غدة، ط 1، دار البشائر الإسلامية، 2002م، ج 8، ص 579

³¹ ابن عساكر، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 59، ص 319

³² ابن عساكر، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 59، ص 318

³³ المصدر نفسه، ج 59، ص ص 324 . 325

³⁴ القاضي عبد الجبار الهمداني، المنية والأمل، ت الدكتور سامي النشار وآخرون، د ط، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 1972م، ص ص 30 . 32

³⁵ ابن عساكر، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 59، ص 319

³⁶ أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ت و داد القاضي، ط1، دار صادر، بيروت، 1988م، ج4، ص41

³⁷ عبد الكريم بن عجرد أحد رؤوس الخوارج وهو كبير الطائفة المعروفة بالعجاردة وافق النجدات في بدعهم وزادوا عليهم بأنهم ذهبوا إلى أن سورة يوسف ليست من القرآن قالوا لأنها قصة محبة وعشق وحالفوا النجدات فكفروا أصحاب الكبراء وتفرد عبد الكريم بقوله تجب البراءة من الأطفال إلى أن يبلغوا ويدعوا إلى الإسلام ويجب دعائهم إليه إذا بلغوا. وافترقت العجاردة ثماني فرق الصلتية والميمونية والحمزية والخلفية والأطرافية والحمدية والشعبية والحازمية وزعمت الميمونية أن الله تعالى لا مشيئة له في الشرور والمعاصي وأنه يريد الخير دون الشر وحكى الحسين الكرابيسي الفقيه الشافعي في كتابه الذي حكى فيه مقالات الخوارج عن الميمونية أنهم أحلوا نكاح بنات البنات وبنات الإخوة وحكى الشيخ أبو الحسن الأشعري وأبو القاسم الكعبي عنهم إنكارهم سورة يوسف أنها من القرآن. صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ت أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، د ط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م، ج19، ص57. أنظر: ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، د ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت، ج4، ص145

³⁸ أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ت نعيم زرزور، ط1، المكتبة المصرية، 2005م، ج1، ص90

³⁹ أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج3، ص124

معاهدتا الجزائر مع إسبانيا 1786 و 1791 ظروفهما وانعكاساتهما على

العلاقات بين البلدين

أ. عبد القادر فكايير /جامعة الجيلالي بونعامة/ خميس مليانة

الملخص:

يتناول هذا البحث أحد صور العلاقات بين إيالة الجزائر وإسبانيا خلال الفترة الحديثة . ويتمثل ذلك في المعاهدتين اللتين تم عقدهما بين البلدين الأولى خلال سنة 1786 و الثانية في سنة 1791 ، وقد اتصفت العلاقات بين البلدين بالتوتر والحروب ابتداء من سنة 1505، وهو تاريخ احتلال أول مدينة جزائرية من طرف الإسبان وهي المرسى الكبير. وقد تبع ذلك قيام الإسبان بسلسلة من الهجمات الإسبانية على العديد المدن الساحلية الجزائرية واحتلال البعض منها خلال القرن السادس عشر مثل وهران وبجاية ، وهنين وغيرها. وقد ترتب عن ذلك قيام البحارة الجزائريين بهجمات على بعض المناطق الساحلية الإسبانية وجزر البليار، ما زاد من جعل منطقة الحوض الغربي تعرف عدم الأمن والاستقرار. وقد استمرت العلاقات غير السلمية بين البلدين ، خلال القرن السابع عشر رغم مرورهما بظروف داخلية صعبة ، وقد شهد القرن الثامن عشر في ربه الأخير تجدد الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر ، قصد إجبارها على التسليم ، وهذا يتمثل في حملة أوريللي سنة 1775، وحملي أونطونيو بارثيليو 1783 ، 1784، لكنها فشلت كلها في إخضاع الجزائر لسلطة الإسبان، ورغم ذلك فقد أبرم الطرفان المعاهدتان المذكورتان. وقد اختلفت ظروف عقد كل منهما ، فالأولى انعقدت بعد سنتين فقط من حملة بارثيليو الأخيرة (1784)، واقتناع إسبانيا بضرورة التحول إلى حالة السلم مع الجزائر ، ودخول البلدين في مفاوضات استمرت لمدة سنة كاملة . أما المعاهدة الثانية

فجاءت إثر تحرير وهران من الوجود الإسباني والتي كانت محاصرة من طرف الجزائريين. وقد تحولت العلاقات بين الطرفين من حالة الحرب والتوتر إلى حالة السلم والتبادل التجاري، ساركنز في هذه الدراسة على الظروف التي تم فيها انعقاد هذين المعاهدتين ، كما أتناول بالتحليل محتوى كل منهما ، وانعكاساتهما على سير العلاقات بين البلدين إلى غاية تعرض الجزائر إلى الاحتلال الفرنسي، التي ظلت سلمية رغم ما كان يشوبها في بعض الأحيان من أحداث تثير التوتر لكنها لم ترتقي إلى حالة الحرب .

Abstract :

This study focuses on one aspect of the relations between the Regency of Algiers and Spain during the modern period. It is valuable to the Treaties on which entered into a between the two countries in the years 1786 and 1791, which are the only two concluded between them. The relationships between them dominated by tensions and wars, distinguished Spanish attacks on some Algerian coastal towns and occupy some of them during the sixteenth century, as Oran and Bejaia. This led the Algerian sailors to attack certain areas cō Spanish ts and the Balearic Islands. Despite the new Spanish attacks on the city of Algiers, which have failed to occupy the city, in the last quarter of the eighteenth century, this is SAGIT to O'Reilly campaign in 1775, and both attacks Ontonio Barcelo in 1783 and 1784. the two countries concluded the mentioned treaties. The

circumstances of the conclusion of the two treaties are different .The first treaty was concluded just two years after the last campagne de Barcelo (1784), and after processing of Spain to make peace with the Regency of Algiers, and entry of the two countries in the negotiations lasted years. The second treaty was concluded after the liberalization of Oran the Spanish occupation, which was besieged by the Algerians. I will focus in this study on the conditions of the two treaties, and the contents of each of them, and their impact on the relations between the two countries until the year 1830.

مقدمة:

تعرض هذه الدراسة إلى المعاهدتين الوحيدتين اللتين أبرمتا بين إيالة الجزائر وإسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر (1786 و 1791)، بعد مرور قرابة ثلاثة قرون (281 سنة) من العداء بينهما. وأهم المحاور التي سنتعرض لها، ظروف انعقاد معاهدة 1786، وخاصة ما يتعلق بالمفاوضات التي سبقت إبرام المعاهدة، ونشير إلى أن البلدان توصلا إلى ذلك رغم بقاء الإسبان يحتلون وهران والمرسى الكبير. ومن أهم مظاهر هذا التحول في العلاقات بين البلدين هو تعيين إسبانيا قناصل لها في مدينة الجزائر ووهران وعنابة. ومن تداعيات هذا السلم مع الجزائر طلبت إسبانيا من إيالة الجزائر التوسط لها لإبرام صلح مع تونس، بعدما وأن سبق لها وأن أبرمت معاهدات مع المغرب سنة 1780، والدولة العثمانية سنة 1782، وطرابلس سنة 1784، ثم مع الجزائر سنة 1786. وأتعرض بعد ذلك إلى ظروف انعقاد معاهدة

سنة 1791، وإلى بنودها. وقد انجر عنها خروج الإسبان نهائيا من وهران والمرسى الكبير، الذي جاء بعد حصار طويل من طرف القبائل والقوات الإيالة للإسبان في المدينتين إلى غاية تعرض وهران إلى زلزال في شهر أكتوبر 1790 أدى إلى تدمير جزء كبير من المدينة. وشجعت هذه الكارثة حركة المقاومة على تجديد الهجوم ، فاضطر الملك الإسباني كارلوس الرابع إلى قبول الصلح مع الجزائر مع ضمان الخروج من وهران.

1- معاهدة الصلح بين البلدين سنة 1786 :

بعدما فشلت حملتا إسبانيا اللتان شنهما القائد أونطونيو بارثيليو (Antonio Barcelo) على مدينة الجزائر سنة 1783 ، 1784 ، وفشلت كل المساعي الدبلوماسية التي كانت تحمل شروطا مسبقة من قبل الإسبان، التي يفهم منها فرض السلم على الجزائر. أدركت إسبانيا أنه لا يمكنها فرض إرادتها على الجزائر، لذا بذل ملكها كارلوس الثالث جهودا كبيرة، وبحث عن العديد من المبادرات التي تؤدي إلى حالة السلم مع إيالة الجزائر، كما أنه كان يسعى إلى ربط علاقات تجارية مع الجزائر تسمح لبلاده بتوظيف قدراتها في هذا النشاط مع أوروبا وأمريكا⁽¹⁾. وهكذا اهتدى إلى أسلوب التفاوض ، فتجاوبت الجزائر معه.

وقد وصف أبو راس الناصري هذه المفاوضات بالعبارات التالية: « إن الكفرة أذلم الله ، لما علموا من المنصور بالله ما هو عليه من كثرة جنوده وشدة حربه... فأصبحوا فرائس له يتوقعون وثبته عليهم ، جعلوا للتوصل بالصلح وسائط وألزموا أنفسهم عدة أمور وشرائط. بادلين على ذلك المنا اللهاء والرشا حتى أنهم توصلوا بسلطان الجزائر محمد بن عثمان باشا وبعد موته طلبوا في ذلك خليفته حسن دولاتي وألخوا عليه في المراسلة وكذلك توسلوا بجميع أهل دولته... »⁽²⁾

بدأت المفاوضات بين البلدين في جوان 1785، فقد حل بمدينة الجزائر مندوبان وهما الكونت ديسبيلي (d’Espilly) والأميرال "ماتاريديو" (Mazzaredo) للتفاوض وتذليل نقاط الخلاف بين البلدين ، وقد لعب دور الوسيط القنصل الفرنسي "دي كيرسي" (De Kersey)⁽³⁾.

لقد كان ترقب انعقاد المعاهدة يحضى باهتمام الولايات المتحدة الأمريكية من خلال مفوضها في مدريد ويليام كارميكائيل (William Carmichael)⁽²⁾ الذي بعث خطابا مؤرخا في 19 ماي 1786 ، إلى هيئة المفوضين الأمريكية (American commissioners) ، يخبره أنه تلقى رسالة من الكونت ديسبيلي أحد المفاوضين الإسبانين إلى الجزائر ، تحتوي على معلومات متعلقة بشؤون أمريكا في الجزائر ، وذكر كارميكائيل⁽⁴⁾ أن التفاوض بين الجزائر وإسبانيا لم يؤد بعد إلى إبرام المعاهدة ، ولا يزال هناك احتمال تأخير عقدها.⁽⁵⁾ لأن الجزائريين لم يكونوا ليقبلوا أي مشروع يقدم لهم، فكانوا يتشددون، حيث كانوا في موقف قوة بعد إفشال الغارات الإسبانية الثلاثة في سنوات (1775 ، 1783 ، 1784) على مدينة الجزائر.

وبعد مفاوضات استمرت لمدة سنة، توصل الطرفان في 17 من شعبان 1200هـ الموافق ليوم 14 جوان 1786 إلى إبرام معاهدة تألفت من خمسة وعشرين مادة. تناولت جوانب سياسية واقتصادية وأمنية بين البلدين. وقد ورد في بدايتها ما يلي: « الحمد لله العلي القدير. في 17 من شعبان 1200هـ. انعقدت معاهد سلم وصداقة دائمة بين إسبانيا والجزائر، وعليه فقد تمت الاتفاقية في الانسجام الكامل وبالإرادة الحسنة، بين صاحب الجلالة المعظم دون كارلوس الثالث

ملك إسبانيا والهند بفضل الله من جهة وصاحب السمو محمد باشا داي والديوان والانكشارية بمدينة الجزائر ومملكتهما من جهة أخرى».

تضمنت المعاهدة حالة السلم بين البلدين ومن ينتمي إليهما ، والذين يمارسون التجارة، وألا يقوم طرف بأعمال تضر الطرف الآخر(البند الأول). التعاون بين سفن البلدين في البحر بتقديم يد المساعدة، وفي حالة تعرضها للزوابع البحرية ، يجوز لسفن البلدين الرسو في موانئ البلد الآخر، وقد حددت موانئ أليكانت وبرشلونة ومالقة يسمح دخول الجزائريين إليها قصد التجارة أو شراء مؤن (البند2، 3) . وسمحت الاتفاقية لتجار البلدين النزول في موانئ البلد الآخر(البند 7). كما تضمنت الاتفاقية عدم تقديم العون لمراكب دولة أخرى تكون في حالة حرب مع الدولتين المتصالحتين (البند9). إلى جانب ذلك نصت على حرية الإspanيين بالجزائر على ممارسة شعائر دينهم المسيحي (المادة11)⁽⁶⁾.

وإذا أخضعنا نص الاتفاقية إلى قراءة متأنية للاحظنا أن إسبانيا كانت حريصة على تأمين حرية الملاحة لسفنها في البحر المتوسط، لتدعيم نشاطها التجاري وتحقيق مكاسب أخرى لفائدة الكنيسة . وكان الإspan يشغل أذهانهم قضية القرصنة، حيث وردت الإشارة إليها في كثير من المواد، ساعين إلى منعها . كما يستشف منها أن الإspan كانوا حريصين أن يحصلوا على نفس المكانة والمعاملة التي كانت تحظى بها فرنسا في الجزائر، مما كان لديها من امتيازات تجارية على الخصوص. وأهم ما يؤخذ على هذه الاتفاقية أنها لم تعالج السبب الرئيسي الذي أبقى الخصام مستمرا بين الجزائر وإسبانيا والمتعلق ببقاء الوجود الإspanي في وهران والمرسى الكبير، والذي أبقى حالة الشك وعدم الثقة بين البلدين. فقد نصت المادة العشرون على بقاء قاعدتي وهران والمرسى على ما كانت عليه ، وألا يهاجمها داي

الجزائر ولا باي معسكر . كما ألزمت هذه المادة الداوي أن يوافق على أية اتفاقية تحصل بين الإسبان والباي المذكور والتي تخص منع الاعتداء على القواعد والحصون في الموقعين المحتلين . وتعد هذه المادة من بين أطول المواد في نسختها باللغة الإسبانية⁽⁷⁾،

إلى جانب المادة الرابعة، التي تتحدث عن حماية السفن التجارية الإسبانية الموجودة في أحد الموانئ الجزائرية من قبل القوات الجزائرية في حالة تعرضها لاعتداء من طرف سفن معادية أخرى .

وقد استغل الباي محمد الكبير هذه المفاوضات ليوجه أنظاره إلى إخضاع القبائل المستقلة في جنوب بايليك الغرب سنة 1785⁽⁸⁾

2- تعيين إسبانيا قناصلها في الجزائر:

إن أهم ما نتج عن معاهدة الصلح بين البلدين هو إرسال إسبانيا قناصل لها على الجزائر، وقد تم ذلك من خلال رسالة بعثها الوزير الأول الإسباني الكوندي دي فلوريدا بلانكا (Conde de Florida Blanca) (- 1728)⁽⁹⁾ إلى الداوي عثمان باشا بتاريخ 31 أكتوبر 1786، أعلمه فيها بأنه سيرسل إليه قنصل بلاده اسمه مانويل دي لاس هيراس (Manuel de las Heras)⁽¹⁰⁾ .

وقبل استقرار الملك الإسباني على تعيين هذا الرجل في منصب القنصلية في الجزائر، وقع جدل بين حكام الجزائر والسلطات الإسبانية، وكذلك بين الحكام الإسبان أنفسهم حول الشخصية التي ستتولى هذا المهمة في الجزائر. ففي رسالة وجهها الداوي محمد باشا إلى الوزير الأول الإسباني الكوندي دي فلوريدا بلانكا مؤرخة في 29 مارس 1786، اقترح فيها تعيين خوان وولف (Juan Wolf)⁽¹¹⁾

قائلا له : « أيها الصديق الكبير نخطكم علما بأن السيد المركاتي المعروف باسم خوان وولف الإنكليزي الأصل الموجود عندنا رجل خدوم وموفق، وقد تأكد بذلك عندما أحضروا إليه خادمكم ووكيلكم السيد الكوندي دي إكسبي، كما رآه مناسبا للاختيار، لذلك نلتبس منكم إعلامنا بموافقتكم عليه برسالة »⁽¹²⁾.

ورغم طول المفاوضات بين البلدين والتريث على توقيعها لمدة سنة كاملة، إلا أنه سرعان ما تجددت الخلافات بين البلدين حول بعض البنود، استمرت لعدة سنوات، لكنها لم تؤد إلى قطع العلاقات بينهما. وتبدلت خلالها العديد من الرسائل بين قادة البلدين، تناولت وجهات النظر حول الاتفاقية ومراجعة بعض البنود وغيرها من القضايا، خاصة التي كانت تم أمن إسبانيا في حرصها على منع الغارات على وهران من قبل باي معسكر⁽¹³⁾ وسعيها لإبرام صلح مماثل مع تونس⁽¹⁴⁾.

أما ما يتعلق بتعديل بعض المواد فقد بعث الداوي محمد عثمان خطابا في 24 أبريل 1787 إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا ، عرض له فيها قيام الكوندي "دي سبيلي" بتغيير بعض بنود المعاهدة ، حيث وجد فيها تعديلا في ثلاث مواد ، وطلب منه التأكد من ذلك التغيير الذي مس المادة 7 المتعلقة بالتجارة ، ومما ورد في هذه الرسالة حول هذا الموضوع : « تم الاتفاق على أن تأخذوا من تجارنا العشر ، مثلما نفعل نحن مع تجاركم . وهذا على خلاف التجار الآخرين القادمين من غير بلادنا كتجار فرنسا مثلا الذين يمكنكم أن تأخذوا منهم حسب عادتكم »⁽¹⁵⁾.

والمادة العشرين التي تخص وهران والمرسى الكبير ، والمادة خمسة وعشرين التي تعني سواحل الإمارات البابوية في إيطاليا حيث ذكر الداوي للوزير الأول الإسباني : « إن حرمة المراكب الإسبانية في بلادكم والبلاد التي تخضع لكم ... وهذا ما تم الاتفاق

عليه ، وكذلك بالنسبة إليكم تجاهنا . أما غير بلادكم إلى بونظيفسة وهي سواحل الإمارات البابوية فلا مدخل للأسبان فيها وليست مشمولة بالصلح»⁽¹⁶⁾ وأكد الداوي على بلانكا احترام ما جاء في البنود الثلاثة الأصلية وليس المحرفة⁽¹⁷⁾ . ومن تدايعيات هذا الصلح طلب الداوي مستحقاته المالية من الملك الإسباني كارلوس الثالث (Carlos III) ، في رسالة مؤرخة يوم 18 فيفري 1787 ، أجابه فيها عن رسالة سابقة ، وأبلغه فيها عن المقدار المالي تعويضا عن الأضرار التي لحقت بالبلاد من جراء القصف الإسباني الذي أصاب مدينة الجزائر وخاصة خلال سنتي 1783 ، 1784 ، حدده بمليون ريال . وكذلك طالبه في هذه الرسالة بمبلغ 200 ألف ريال بدلا من الأسلحة التي اعتذر الملك تقديمها كشرط من شروط الصلح المذكور سابقا⁽¹⁸⁾ .

ومن أهم القضايا التي شغلت البلدين والتي وردت في كثير من الرسائل التي تبودلت بين القادة الجزائريين والقادة الإسبان إلى غاية سنة 1792 تاريخ جلاء الإسبان عن وهران ؛ حركة سفن البلدين في البحر المتوسط ، وما يقع بينها في بعض الأحيان من مناورات وصدامات ، تؤدي إلى حجز بعضها من هذا الطرف أو ذاك . ومن الأمثلة على ذلك اعتقال البحارة الجزائريين مركبا جنويا لا يحمل علما أسبانيا ، وقد أكد الداوي محمد عثمان إلى الكوندي بلانكا في 15 أوت 1787 ، أن عمل البحارة الجزائريين قانوني ولا يتعارض مع بنود الصلح . كما ذكره بأن عددا من السفن الإسبانية يتراوح عددها ما بين العشرة والخمس عشرة ، كانت تتردد على السواحل الجزائرية لمدة عشرين يوما ، وهذا ما يوحى بأنها كانت تسعى للقيام بشن اعتداء ، وذكر الكونت بأنه قد أبلغ ذلك التصرف إلى القنصل

الإسباني بالجزائر، بإبعاد مرورها قرب السواحل الجزائرية ، وإلا فإن السفن الجزائر ستعترض طريقها⁽¹⁹⁾ .

وقد طلب وكيل الحرج حسن من فلوريدا بلانكا في نفس الشهر والسنة أن تلتزم السفن التجارية الإسبانية العابرة للبحر المتوسط بحمل جوازات سفر ، وإلا فإن المراكب الجزائرية ستعترض طريقها⁽²⁰⁾ .

ورغم هذه المسائل الخلافية إلا أنها لم ترق إلى تعكير الجو بين البلدين ، بل كان القادة يتجاوزونها ، وأكثر من ذلك فإنهم كانوا يتبادلون الهدايا . ونسوق في هذا الصدد نموذجا على سبيل المثال ، حيث بعث الداوي محمد عثمان إلى الكوندي فلوريدا بلانكا هدايا مع القنصل الإسباني وتمثل في ثلاثة أحصنة ذكور وثلاثة أحصنة إناث مزينة بشباب مزركشة، وثلاث بنادق وثلاثة رشاشات، وسكين مذهب وعدد من الطيور⁽²¹⁾ .

ونظرا للعداء الذي كان قائما بين الدولة العثمانية وروسيا⁽²²⁾، أرادت الخلافة استغلال الصلح القائم بين الجزائر وإسبانيا في منع سفن عدوتها من الدخول إلى البحر المتوسط عبر مضيق جبل طارق ، وذلك من خلال خطاب بعثه محمد عثمان إلى كارلوس الرابع (Carlos IV)⁽²³⁾ ذكره فيها بتوصية الباب العالي المذكورة ، التي طبقتها إسبانيا في السنة الفارطة (1788) استجابة للطلب الذي أرسل إلى إسبانيا. وتمنى الداوي منها أن تكرر العملية مرة أخرى في قوله : « إن الدولة الإسبانية العظيمة تستطيع أن تسد الباب على السفن الموسكوفية هذه السنة أيضا مثلما قررت ذلك وفعلته في السنة الماضية ، وتمنعها من المرور والدخول في بوغاز سبتة (جبل طارق) » . وفي آخر الرسالة قال له بأني في انتظار إجابة وافية وصريحة⁽²⁴⁾ .

3- إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس (1786-1787):

بعدها أبرمت إسبانيا معاهدات مع المغرب (1780)، الدولة العثمانية (1782)، طرابلس (1784)، والجزائر (1786) لم تبقى إلا تونس لم تبرم معها أية معاهدة حتى هذا الوقت. ولما كان حكام إسبانيا مطمئنين إلى التوصل لإبرام الصلح مع الجزائر، وقبل أن يتم ذلك فعليا، فإنهم ألحوا على الداوي محمد عثمان باشا وعلى بعض وزرائه مثل وكيل الحرج حن، وخزندار سيد علي برغل وغيرهم، لكي يتوسطوا لدى بايات تونس من أجل إبرام معاهدة صلح مع بلادهم، وقد سعى هؤلاء القادة إلى تحقيق رغبة الإسبان، ويتجلى ذلك في المساعي التي أباحت بها الرسائل التي تبودلت بين الحكام الإسبان ونظرائهم الجزائريين.

وفيما يلي ذكر لمحتويات الرسائل المتعلقة بشأن الوساطة الجزائرية الرامية إلى

عقد الصلح بين إسبانيا وتونس:

جاء في نص من رسالة بعثها وكيل الحرج حسن إلى الكونت فلوريدا بلانكا بتاريخ 25 جوان 1785 يجيبه عن انشغاله في رسالة سابقة: «وكما لا يخفاكم وقفنا في إمرت تونس الذي أمرتم به خدمكم دسبلي، وما زلنا واقفين على ذلك حتى يقضي إن شاء الله، كما تنبغي وترضى»

وفي رسالة مؤرخة في 17 سبتمبر 1785 بعث الكونت فلوريدا بلانكا إلى أحد وزراء الجزائر يحتمل أن يكون حسن وكيل الحرج جاء فيها: «إن الملك الإسباني يرجو منك أن تبذل جهدك وتتصل بباي تونس، وتحثه على إبرام صلح مع إسبانيا... إن دي سيببي سيحدثك بالتفصيل على ما يرد الملك قوله، وذلك عندما يحضر إلى الجزائر.» (25).

وتلقى حسن وكيل الحرج رسالة مؤرخة في 20 جانفي 1786 من الوزير الأول التونسي الحاج مصطفى خوجة باشا⁽²⁶⁾

، أبلغه « أن الباي التونسي حمودة باشا يتمنى هو الآخر من هذا المبعوث أن يحضر إلى تونس لنفس المهمة ، وكعربون وتمهيد لذلك أبلغ الحاج مصطفى وكيل الحرج حسن بأن الباي قد أعلن هدنة لمدة ثلاثة أشهر مع إسبانيا ابتداء من أول مارس 1786. وأنه انتزع من البحارة التونسيين جوازات السفر حتى لا يقوموا بمهاجمة السفن الإسبانية في البحر. »⁽²⁷⁾

أرسل الخزندار سيد علي برغل إلى فلوريدا بلانكا خطابا مؤرخا في 19 مارس 1786، أخبره فيها عن تحادثه مع الداوي محمد عثمان باشا ، بشأن الوساطة الجزائرية بين تونس وإسبانيا، واتفق معه على تشكيل لجنة للوصول إلى تحقيق الصلح بين تونس وإسبانيا.⁽²⁸⁾

وبعث وكيل الحرج حسن رسالة إلى الكونت فلوريدا بلانكا مؤرخة في 26 مارس 1786 جاء فيها: « ... نخبركم ونعلمكم على أمر تونس ، إعلم نحن كتبنا وبعثنا لوزير الباي الحاج مصطفى خوجة مع خدمنا ... سليمان بن جلون ... في أمر الصلح هنا بالجزائر مع وكيلكم الكند دي سبلي ... وكذا نحن وصنا ووكدنا عن واحد الرجل من حضرت الباي الذي جاء مع الهدية التي تأتي إلينا في كل سنة أن لا يخالفنا في كل ما أمرهم به في أمرت صلح أصبينة ، وبعثنا مع صاحبنا وصحب الكند دي سبلي الترك شريف أن يبقى هناك ويسكنهم على ما ارتضى واتفق به لشندر وسليمان حتى نأمر بأمرك. »⁽²⁹⁾

وفي أخرى بعثها حسن وكيل الحرج إلى فلوريدا بلانكا مؤرخة في 26 مارس 1786، جاء فيها أن الوزير الأول التونسي الحاج مصطفى خوجة اتفق مع

المفاوضين الكسندر بازيليني (Alexandre Bazillini) وسليمان بن جلول على عقد هدنة لمدة أربعة أشهر. وقد عارض صولير أن يتم تفاوض بلاده مع تونس عبر الرجلان الموفدان من الجزائر، وأنه هو الأجدر أن يقوم بالتفاوض. ولهذا نصح الداوي محمد عثمان باشا الباي التونسي أن يتفاوض مع صولير. «⁽³⁰⁾

بعث الوزير الأول الإسباني فلوريدا بلانكا رسالتين إحداهما إلى حسن وكيل الحرج ، والثانية إلى الخزندار سيد علي، مؤرختين في 25 أبريل 1786 ، شكرهما فيهما على الجهود التي يقومان بها من أجل تحقيق الصلح بين تونس وإسبانيا ، كما حدثهما عن المساعي التي يقوم بها الكونت دي سيبيي . وتأسف فيهما عن ظهور الصعوبات التي تعرقل التوصل حالة السلم⁽³¹⁾ .

وفي رسالة أخرى بعثها الكونت فلوريدا بلانكا حسن وكيل الحرج في نفس التاريخ . ذكر له فيها أن بلاده قبلت هدنة 3 أشهر مع تونس ، كخطوة أولى من أجل التوصل إلى معاهدة الصلح، وتمنى أن تقبل تونس كذلك⁽³²⁾ .

ووجه فلوريدابلانكا رسالة أحد القادة الجزائريين ، حث فيه مخاطبه بأن يبذل كل ما في وسعه ، ويستعمل نفوذه ، وأنه هو الملك الإسباني يعولان عليه من أجل إبرام الصلح مع تونس.⁽³³⁾ .

10 . وفي 31 أكتوبر 1786 وجه فلوريدا بلانكا رسالة إلى حسن الخزناجي ، وعلي آغا وكيل الحرج. شكرهما هو والملك الإسباني على جهودهما التي أدت إلى تحقيق الصلح بين الجزائر وإسبانيا. وحثاهما على بذل جهود مماثلة لتحقيق الصلح مع تونس، وذكر أن شروط الصلح مع تونس توجد لدى الجزائر.⁽³⁴⁾

ووجه علي خزندار رسالة إلى فلوريدا بلانكا مؤرخة في 15 نوفمبر 1786، قال له فيها: «...أما ما يخص تونس فقد كتبنا إلى الوزير الأول التونسي مصطفى خوجة ، وما زلنا ننتظر حتى يتم إبرام الصلح بينكم وبينهم.»⁽³⁵⁾

وفي 25 فيفري 1787 أرسل حسن الخزناجي رسالة إلى فلوريدا بلانكا ، وحول تونس قال له: « أعطيت ورقة إلى بيدرو سوقيطا (Pedro Sogueta) إلى تونس مع البريك ، ونقول إن شاء الله كل شيء يمضي مريح مع تونس »⁽³⁶⁾

وجوابا على الرسالة السابقة وجه فلوريدا بلانكا رسالة إلى حسن الخزناجي وكيل الحرج ، طلب منه أن يستعمل نفوذه حتى يتحقق إبرام الصلح بين تونس وإسبانيا.⁽³⁷⁾

4- المغزى من اختيار الإسبان للجزائر للتوسط لدى تونس :

لا شك أن اختيار إسبانيا للجزائر وإلحاحها عليها على التوسط بينها وبين تونس، كان من أجل التوصل إلى إبرام معاهدة صلح مع هذا البلد المجاور للجزائر، وهذا جاء نتيجة للمكانة التي كانت تحظى بها الجزائر لدى الإسبان ، رغم فترة العداء الطويلة التي ابتدأت منذ بداية القرن السادس عشر. فقد كانت الدعوة للتوسط قبل أن يتم التوصل إلى إبرام معاهدة الصلح مع الجزائر ، الذي تم في 14 جوان 1786. فكما تتبعنا محتويات تلك الرسائل التي تبودلت بين الساسة الإسبان ونظرائهم الجزائريين قد ابتدأت على الأقل في سنة 1785، وقد استمرت إلى غاية التوصل إلى إبرام الصلح بين البلدين.

إن هذا الصلح المنتظر تحقيقه بين إسبانيا وتونس لم يتحقق بسرعة، فإنه تأخر عقده إلى غاية 19 جانفي 1791، أي بعد مرور إحدى عشر سنة من إبرام الصلح مع المغرب الأقصى ، وخمس سنوات من تاريخ إبرام الصلح مع الجزائر.

وإلى جانب هذه الثقة الإسبانية في الدبلوماسية الجزائرية في ذلك الوقت، بادرت الدولة العثمانية لكي توسط الجزائر من أجل إقناع الإسبان على منع الأسطول الروسي من الدخول إلى البحر المتوسط عبر مضيق جبل طارق. خلال الحروب الروسية العثمانية في عقدي السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر.

5- ظروف انعقاد معاهدة 1791 :

يذكر أن الزلزال الذي ضرب وهران خلال سنة 1790 قد بدأ منذ شهر أوت بهزات خفيفة استمرت إلى شهر سبتمبر، وفي 9 أكتوبر وقعت هزات عنيفة التي أدت إلى تدمير جزء كبير من مباني مدينة وهران، وقد ترتب عن الزلزال اشتعال حرائق في أماكن متعددة من المدينة، كما اندلعت النيران في السفينة بيرلانت التي كانت تحمل على متنها أربعة وسبعين مدفعا، خلال. وفر السجناء من سجونهم، وقاموا بالسطو ونهب ممتلكات الديار الغنية. وقد قتل حوالي ثلاثة آلاف شخص، ولم يبق من الجنود سوى 1500 شخص، كانوا تحت قيادة الكونت دي كومبري هيرموسا (Comte de Cumbre Hermosa) حاكم وهران، الذي عمل على التصدي لقوات المسلمين، حتى قبل وصول الإمدادات الإسبانية، وتمكن فعلا من إيقاف الهجوم الإسلامي. استمرت حالة الفوضى حتى 17 من شهر أكتوبر.

لقد ساهم الزلزال في إحداث الهلع والاضطراب في نفوس الإسبان، ولم يسمح لهم الوقت في تجهيز أنفسهم للدفاع عن أنفسهم ضد هجمات المسلمين. فقد انشغلوا بمعالجة الجرحى، ودفن الموتى الذين سقطوا تحت أنقاض البنايات العسكرية والمدنية. وتأمين النظام الداخلي والأمن. كما كان انشغالهم محصورا في ترميم الأسوار والحصون والأبراج التي أصابها الدمار.⁽³⁸⁾

وفي 26 أكتوبر وصلت الإمدادات الإسبانية، التي انطلقت من قرطاجنة، كانت تحتوي على سبعمائة خيمة و ثمانمائة رجل، ومواد غذائية وأسلحة. وفي 29 من الشهر اضطر محمد بك غلى التراجع بعدما واجهته مقاومة عنيفة. لكنه ظل ضاربا حصاره على المدينة. وقد أرق هذا الحصار والمعارك الطويلة المجلس الملكي الإسباني التي تسببت في تكاليف باهضة، ولذلك قرر التخلي عن وهران، ووافق الملك شارل الرابع على ذلك.⁽³⁹⁾

وقد خلد الحافظ أبو راس الناصري الواقعة بقصيدة نورد منها الأبيات التالية:

حتى تدراكها الله برأفته من بعد ما مضى لها مدة العنس
بتقليد المغرب الوسط لعمدتنا أضواء شمسه بعد حلك القلس
محمد بن عثمان نجم سعدهم رصد بأهل وهران الويل في النص
نصارى وهران تركوها عامرة فالحمد لله أمنا عن المهجس
بأبي عثمان وعثمان قد رجعا إلينا من يسلي عن أرض أندلس
في خامس الفرد ضحى يوم إثنينه كان الدخول بعون الملك القدس
ففتحت عنوة في تسع عشرة من بعد سكنى ره والدين في وكس⁽⁴⁰⁾

رغم ما توصل إليه الطرفان في إبرام المعاهدة السابقة ؛ إلا أن التوتر ظل قائما، وخاصة من الطرف الجزائري الذي لم يهنأ له بال مادام الإسبان يحتلون وهران والمرسى الكبير ، رغم تلك المحاملات التي كانت تحملها رسائل زعماء البلدين ، ولكنهم ظلوا ساعين لتحقيق هذا الغرض .

تركز كثير من الدراسات الغربية أن الزلزال الذي تعرضت له مدينة وهران كان السبب المباشر الذي دفع بالإسبان إلى الانسحاب ، ولكنها تتغافل عن المقاومة التي كانت تقوم القبائل المعادية للإسبان ، المدعومين في كثير من الأحيان من طرف

السلطات الرسمية الجزائرية ، التي كان على رأسها في هذه الأثناء محمد عثمان باشا. ليس هناك من شك أن حادث الزلزال قد ساعد الجزائريين في فتح وهران ، حيث استغلوا ما أحدثه من تدمير للمنازل ، والأضرار التي لحقت بالحصون والقلاع المنيعه التي كان يتحصن وراءها الأسبان . فعلى سبيل المثال كان الجزء العلوي للقصبة بمدينة وهران الذي يحتوي على أهم المراكز الرئيسية للقيادة الإسبانية بالمدينة ، مثل قصر الحاكم ، والثكنة العسكرية ، ومنشآت العلاج، إلى جانب الكنائس قد دمرت بشكل كبير. وما ترتب عنه من موت حوالي ثلاثة آلاف من السكان والجنود ، وحالة الهلع التي عاشها من بقي منهم على قيد الحياة. إلى جانب هذا تعرضت المدينة إلى أعمال النهب ، فقد ذكر قائد الجيش الأسباني في تقرير له إلى الملك: « إن بعض الرجال (من إسبانيي وهران) الذين لا خلاق لهم ، أصحاب الحياة السافلة قد اغتتموا فرصة هذه الحادثة وأمعنوا في نهب الديار الغنية، بصفة أفضع مما لو كان العدو هو الناهب ، ولم يبق للمستعمرين البائسين أي شيء مطلقا . ورغم القسوة التي قابلنا بها هذه الأعمال اللصوصية والعقاب الصارم الذي أنزلناه بمرتكبيها ، فإن الأشقياء لم يرتعدوا أصلا ، واستمروا في أعمال النهب والسلب »(41).

إن هذه الكارثة الطبيعية وحالة الاضطراب الذي ساد سكان المدينة من الأسباب قد شجع حركة المقاومة على تجديد الهجوم ، وكان الأسباب من جهتهم يستमितون في الدفاع عن الموقع إلى درجة أنهم أشركوا النساء في أعمال الترميم ، مع التركيز على المراكز الخطرة . ولم يتمكن محمد عثمان من تحقيق أي تقدم إلى داخل المدينة، خاصة بعد وصول الدعم العسكري من أسبانيا الذي بلغ تعداده سبعة آلاف جندي. لكنه ظل فارضا الحصار . ومع مرور الأيام أحس الأسبان بصعوبة

الموقف ، حيث أرهقت هذه المعارك الطويلة البلاط الملكي الأسباني من زيادة التكاليف ، وإنفاق المزيد من الأموال عليها وعلى إصلاح ما فسد من الحصون . إلى جانب هذا كان الأسباب في وهران يعانون من أوضاع اقتصادية مزرية من جراء الحصار المضروب عليهم من قبل السكان ، حيث منعت السلطات الحاكمة في الجزائر القبائل الموالية بمنع التجارة معهم.

وفي أبريل 1791 بعث الملك كارلوس الرابع وفدا إلى الجزائر بقياده الضابط السامي غوينباردا (Guinbarda) يحمل مقترحاته للتصالح والرغبة في التوصل إلى عقد معاهدة سلم . وكان رد الداى محمد عثمان الذي كان عمره يتجاوز الثمانين سنة ويعاني من المرض ، أنه يريد ضم وهران دون شروط⁽⁴²⁾.

وبعدما توفي الداى في 12 جويلية وتولي حسن منصب الداى⁽⁴³⁾

الحكم ، أرسل الملك الأسباني إلى الأميرال غرابينا (Gravina) الذي كان موجودا في هذا الأثناء في وهران مع أسطوله وكلفه بإبلاغ الداى الجديد موافقته على الصلح مع الجزائر بضمن الخروج من وهران ، وقبوله بشروط الجزائر ، فوافق الداى الجديد على عقد معاهدة السلم .

وتمثلت هذه الشروط فيما يلي:

1. الانسحاب الكامل والعاجل من المرسى الكبير ووهران.
 2. إيصال جرة ماء من عيون وهران بالإضافة إلى المفتاحين الذهبين لوهران والمرسى الكبير على ظهر سفينة إسبانية وتسليمهم إلى السلطان العثماني.
 3. تلتزم إسبانيا بدفع مبلغ مالي قدره 12000 فرنك للخزينة الجزائرية .
- وعلى ضوء هذه الشروط تلتزم الجزائر بما يلي:

1. الحق في استئناف الإسبان صيد المرجان في السواحل الغربية للجزائر.

2. إنشاء مركز تجاري في مدينة الغزوات.

3. يسمح للإسبان بشراء ثلاثة آلاف حمولة سنوية من القمح.

إن ما يسعى توضيحه هو أن هذه الشروط مضافة إلى الشروط التي وردت في الاتفاقية ، حيث يلتزم الإسبان بترك كل المعدات الحربية والعتاد داخل المدينتين. وبعد مرور ثمانية أيام من تاريخ التوقيع على مواد الصلح ، أي في يوم 17 ديسمبر 1791، يشرع الإسبان في الإنسحاب من وهران⁽⁴⁴⁾.

6. إبرام المعاهدة وبنودها:

في يوم 12 سبتمبر 1791 عقدت معاهدة سلم جديدة بين الداي حسن والوفد الأسباني في الجزائر، تتألف من دياحة وتسعة مواد من أهمها المادة التي تحدثت عن جلاء الأسبان عن وهران⁽⁴⁵⁾

صادق عليها الملك كارلوس الرابع في 16 ديسمبر، وبدأ الجلاء عن وهران والمرسى الكبير في اليوم التالي (17 ديسمبر) وانتهى في يوم 24 فيفري 1792. وفيما يلي مختصر لبنود الاتفاق :

1. أن تنسحب أسبانيا من قاعدة وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط وتسليمهما إلى إيالة الجزائر.

2. تقوم أسبانيا بدفع مبلغ مقداره 120 ألف فرنك في كل سنة لخزينة الجزائر

3. يسمح للأسبان بإقامة مؤسسة تجارية بالجزوات.

4. يسمح للأسبان بشراء ثلاثة آلاف كيلا من القمح والشعير ومحاصيل زراعية

أخرى سنويا من الجزائر .

5. يسمح لها بصيد المرجان على الساحل الغربي من الجزائر.

6 . أن تحمل سفينة أسبانية إلى اسطنبول مفتاحين ذهبيين وجرتين من ما عيون
وهران كمركز لاستردادها.

7 . إخلاء المدينة من جميع ما فيها من سلاح وذخيرة ، التي كانت قد غنمتها
منذ استيلائها على مدينة وهران والمرسى الكبير ، يوم خروج الباي مصطفى
بوشلاغم منها عام 1732.

8 . يترك الخيار إلى الأسبان لتهدم ما بنوه منذ عام 1732.

9 . يسمح للسكان الأسبان البقاء بمدينة وهران لمدة أربعة أشهر ابتداء من يوم
إمضاء عقد الصلح⁽⁴⁶⁾ .

كانت هذه المعاهدة مرهقة لأسبانيا حيث ألزمتها زيادة عن الجلاء عن وهران
والمرسى الكبير ، أن تدفع ضريبة سنوية قدرها 120 ألف فرنك ، إلى جانب هدايا
مختلفة تتكون من أسلحة وسفن وعتاد بحري ، وأن ترجع إلى هران المدافع
والقاذفات والذخائر وجميع المعدات الحربية الأخرى التي لأسبانيا في مدينة وهران
نقلتها قبل خروجها إلى قرطاجنة في أسبانيا . وهناك شروط أخرى فرضها الداى
حسن على كارلوس الرابع تتمثل في حمل مفتاحين من ذهب لمدينة وهران وجرتين
من ماء عيونها إلى اسطنبول لتقدمها إلى الخليفة العثماني سليم الثالث⁽⁴⁷⁾ .

بدأ الانسحاب الأسباني من وهران في منتصف ديسمبر 1791 ، بعد ما
ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليم المدينة للباي محمد الذي دخلها ومعه
المجاهدين الذين كانوا يحاصرونها ، وذلك في 24 فيفري 1792 . وقد وصف لنا
ابن سحنون الذي كان ضمن المرافقين للباي فقال : >> وكان أول من دخلها .
بعد الذين وضعوا الأعلام وعمروا المدافع وبنوا مضرب الأمير . العلماء يقدمهم
صحيح البخاري ، ثم تلاهم الأمير في جنده الجرار وفي يده رمح ... فنزل داخل

البرج الأحمر بمضربه الفياح ...، فكان أول ما بدأ به أن صلى ركعتين شكرا لله تعالى ، فضربت مدافع التهنئة وطبولها ، ثم دخل عليه الناس يهتفون أفواجا أفواجا ، ولما تمثلت بين يديه استأذنته في الإنشاد فأذن لي فأنشدت قولي:

بشرى الوصال لطيفة الأخبار فانشد حديث لطيفة الإibar
 كرر حيث وصلها متسلسلا عن فرعها الداجي على الأشعار⁽⁴⁸⁾

انعكاسات المعاهدتين على العلاقات بين البلدين:

رغم التوتر الذي ساد العلاقات بين البلدين قبل سنة 1786، إلا أن المعاهدة التي أبرمت بينهما في هذه السنة قد فتحت المجال لتحسن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، فقد التحق العديد من القناصل الإسبان بمدينة الجزائر وهران وعنابة ، بعدما كان الوجود القنصلي الإسباني بالجزائر منعما من قبل بسبب حالة الحرب التي كانت سائدة بين البلدين ، ولهذا فقد استقر في مدينة الجزائر القناصل: "مانويل دي لاس هيراس" (Manuel de las Heras) (1786 – 1796) ، "مانويل أسبرير إيجانير" (Manuel Asprer y Janer) (1079 – 1794) ، "ميغويل لاريا سالسيدو" (Miguel Larrea Salcedo) (1794 – 1802) ، "خوسي ألونسو أورتيز" (José Alonso Ortiz) (1803 – 1809).

إلى جانب هؤلاء القناصل فقد كان لهم نواب يساعدونهم في مهامهم نذكر منهم: ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo) (1787 – 1794)، خوسي خواكين سيرارين (José Joaquine Cerain) (1801) ، بيدرو أورتيز دي ثوغاستي (Pedro Ortiz de Zugasti) (1817) ، خوان ريثو (Juan Rizo) (1819 – 1822).

وكان في مدينة وهران قنصل ونواب قنصل نذكر منهم: القنصل خوان غاريدو (Juan Garrido) (. - 1800) ، نائب القنصل خوسي هيغويرو (José Higuero) (1796 - 1808) ، نائب القنصل أونطونيو هيغويرو (Antonio Higuero) (1818 - 1822) .

ولم تخل مدينة عنابة من الوجود القنصلي ، فقد مثل إسبانيا في هذه المهمة : بارتولومي إيسكوديرو (Bartolomé Escudero) (1793 - 1799) ، خوان بيغو (Juan Vigo) (1800 - 1807) ، أوغسطين كسيكلانا (Augustin Xiclana) (1807 - 1815)⁽⁴⁹⁾ .

وقد زادت معاهدة سنة 1792 التي أبرمت بينهما إثر تحرير وهران النهائي من الوجود الإسباني، من وتيرة العلاقات التجارية ، التي بدأت تنشط منذ إبرام المعاهدة السابقة الذكر (1786). حيث أقامت العديد من الشركات التجارية الإسبانية مراكز لها في الجزائر مثل شركة "كامبانيا" (Campana) سنة 1792، وكانت اهتماماتها منصبه على شراء الحبوب والمواشي⁽⁵⁰⁾. وشركة صيد المرجان الإسبانية التي باشرت نشاطها في الجزائر سنة 1791، فقد حصلت على حق الصيد في السواحل الجزائرية وخاصة الغربية منها. وشركة "غاريجو" (Garrigo) التي تهتم بشراء الجلود والصوف والشمع وكذلك الحبوب من الجزائر. وكانت هذه الشركة إلى جانب شركة كامبانيا مسموح لهما بتصدير عملة البياستر الإسباني إلى الجزائر ، وذلك من أجل شراء السلع الجزائرية⁽⁵¹⁾. أما من الجانب الجزائري فقد تولت شركة بكري وبوجناح نشاطها مع بعض المدن الساحلية الإسبانية مثل قرطاجنة وأليكانتي. من أهم الصادرات الجزائرية إلى إسبانيا هي الحبوب والمواشي والجلود والصوف والشموع ، وأهم الواردات من إسبانيا الأسلحة وأدوات النشاط

البحري والمواد الغذائية مثل الشاي والسكر والبن والأقمشة. وأهم الموانئ الجزائرية التي كانت تصدر وتستقبل السلع من أسبانيا هي وهران أرزيو والجزائر وعنابة.

الهوامش:

(1) مولاي بلحميسي ، صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية - معاهدة 1786 بين الجزائر وإسبانيا سبب إبراما ، مضمونها ، نتائجها ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد 11، جوان 1974، ص.7.

(2) محمد أبو راس الناصري ، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، تقديم وتحقيق محمد غالم ، منشورات CRASC ، وهران ، 2008 ، الجزء الثاني ، ص.36.

(3) بوعزيز: مفاوضات الصلح بين الجزائر وأسبانيا من خلال مراسلات الداوي محمد عثمان باشا (1780-1787) الثقافة ، الجزائر، 1985 ، العدد: 89 ، ص.101.

(4) ولد حوالي سنة 1739 في راوند توب (Round Top) بولاية ماريلاند بالولايات المتحدة الأمريكية، درس في أوربا في جامعة إيدمبورغ (Edimbourg) بإيقوسيا المملكة المتحدة، تولى مناصب إدارية ممثلا لبلاده في باريس وبرلين، وفي عام 1779 ذهب إلى إسبانيا وشغل منصب سكرتير مفوضية، وفي عام 1782 عين القائم بالأعمال في مدريد، وبحكم وجوده في إسبانيا أجرى مفاوضات مع الجزائر تتعلق بتحرير الأسرى الأمريكيين ، توفي في مدريد في 9 فبراير 1795، ودفن بها بالمقبرة البروتستانتية).

(5) رسالة من ويليام كاريمائيل إلى هيئة المفوضين الأمريكية، مدريد ، 19 ماي 1786 . (

(6) A.H.N., Estado, leg.3617.

(7) La Plaza de Oran y sus fortalezas y la Plaza de Mazalquivir que daran como estaban antes sin comunicacion por tierra con el compo de los Moros. El Dey de argel ofrece no atacarlar en ningun tiempo y encargar al Bey de Mascara que no las moleste de modo alguno para mantener la buena harmonia y amistad ostablecudad ; asi amo S.M.C. prohibira que la garnicion de dichas Plazas ataque ni insulte el compo de los moros . para

asegurar mayormense lo capitulado en este articulo, se hara con el Bey de Mascara, Medianse la autoridad del Dey De Argel, un convenio sobre el arreglo de los parages hasta los quales han acostumbrado y puedan llegar los de aquellas Plazas, y sobre el de otros puntos que se juzguen convenientes para consolidar las mismas buena harmonia y amistad entre los espanoles y el campo fronterizo. A.H.N., Estado, leg., 3588.

(8) أنظر التفاصيل في : أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري 1785، تقديم : محمد بن عبد الكريم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.

(9) اسمه الأصلي خوسي مونيينو ريوندو (Jose Monino Redondo)، ولد بمدينة مورسية (Murcia) سنة 1728 ، وتوفي بمدينة إشبيلية سنة 1808 سياسي إسباني، عين سفيراً بروما في سنة 1772، وحصل على موافقة البابا على إلغاء طائفة اليسوعيين، تولى رئاسة الوزارة لدى الملك كارلوس الثالث في سنة 1777 ورأس الوزارة ، قوي نظام الحكم المطلق، ونفذ برنامج الإصلاح الاقتصادي، وشجع السلم.

(10) يحيى بوعزيز، المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني (1748-1780)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص. 93.

(11) هو تاجر بريطاني من أيرلندا له خبرة كبيرة بشؤون بلدان المغرب العربي ، وله معرفة بأساليب المعاملات مع الجزائر. ونظرا لهذه المكانة عرض نفسه ليكون قنصلا لكل من إسبانيا وانكلترا في الجزائر، لكنه لم يتمكن من الفوز بهذا المنصب . ومن المهام التي قام بها ، أنه استقر في طرابلس الغرب عدة سنوات لمزاولة التجارة، وفي عام 1779 انتقل إلى الجزائر، وعين قائما بالأعمال القنصلية البريطانية، واشتغل مفاوضا باسم الولايات المتحدة الأمريكية لافتداء أسراها قبل تعيين قنصلها جان لامب (Jean Lamb)، وظل الداي متمسكا بهذا الرجل إلى غاية 1797، حيث طلب من جديد من كارلوس تعيينه قنصلا في الجزائر ، ومنندا بالتعليقات التي ردها ، وهي عدم انتمائه إلى أسرة الملوك.

- (12) بوعزيز، المراسلات ، ص.77.
- (13) وهو ما نصت عليه رسالة علي خزندار إلى فلوريدا بلانكا المؤرخة في 15 نوفمبر 1786
- (14) وذلك في الرسائل التي بعثها بلانكا إلى كل من حسن وكيل الحرج وعلي آغا وإلى شخص ثالث وهي مؤرخة في 31 أكتوبر 1786.
- (15) رسالة من الداوي محمد بن عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا، 24 أبريل 1787.
- بوعزيز ، المراسلات ...، ص.103.
- (16) رسالة الداوي محمد بن عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا بتاريخ 24 أبريل 1787. بوعزيز ، المراسلات ...، ص.103.
- (17) بوعزيز: مفاوضات الصلح ...، مقال سابق ، صص.115-118.
- (18) بوعزيز: المراسلات ...، ص.96.
- (19) رسالة محمد عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا ، مؤرخة في 15 أوت 1787.
- بوعزيز : المراسلات ص.114.
- (20) رسالة من وكيل الحرج حسن إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا : 28 وت 1787، بوعزيز ، مراسلات ، ص.115.
- (21) رسالة محمد عثمان باشا إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا ، مؤرخة في 4 أكتوبر 1787.
- بوعزيز : مراسلات صص.123-124.
- (22) كانت الدولة العثمانية تعاني الكثير من الخطر الروسي ، وخاصة أنها كانت ترغب في مد نفوذها إلى البحر المتوسط عبر البحر الأسود ، وكانت تدعي أنها ورثة الدولة البيزنطية ولها الحق في حماية المسيحيين الأرثوذكس والدفاع عن السلاف في البلقان وشرق أوروبا، ولهذا بدأت هجماتها على أملاك الدولة العثمانية منذ أوائل القرن الثامن عشر تنفيذًا لسياسة بطرس الأكبر وكاترين الثانية.
- (23) ابن كارلوس الثالث ولد في مدينة بورتيشي (Portici) بمقاطعة نابولي بإيطاليا سنة 1748، ملكا على إسبانيا ما بين 1788-1808، توفي بروما سنة 1819)
- (24) رسالة محمد عثمان باشا إلى كارلوس الرابع مؤرخة في 21 جوان 1789 ، بوعزيز: المراسلات ، صص. 142-143.
- (25) بوعزيز: المراسلات ، ص.61.

- (26) حمل منصب وزير أول ما بين (1782-1800) في عهد الباي علي باي والباي حمودة باشا.
- (27) يحيى بوعزيز ، إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر، العدد الرابع ، 1988.، ص.57.
- (28) نفسه، ص.57.
- 29 نفسه ، ص.58.
- (30) نفسه، ص.58.
- (31) نفسه، صص.58-59.
- (32) نفسه، ص.59.
- (33) نفسه، ص.59.
- (34) نفسه، ص.59.
- (35) نفسه، ص.59.
- (36) نفسه، ص.60.
- (37) نفسه، ص.60.
- (38) سيد أحمد بلبوري، وهران وضواحيها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لابان الاحتلال الإسباني 1505-1792م ، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس ، السنة الجامعية 2006-2007، ص.263.
- (39) عزيز سامح التري، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة: محمود علي عامر، ط:1، دار النهضة العربية ، بيروت، ص.559.
- (40) المزاري بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: د.يحيى بوعزيز، ط.1، دار الغرب الإسلامي، ج. 1 ، صص.264-266.
- (41) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1792-492، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.524-525.
- (42) Henri Leon Fey, Histoire d'Oran avant pendant après la domination espagnole, Adolphe Perrier, Oran, 1858, p.256.

(43) حسن الخزناجي سابقا.

(44) بلبوري ، مرجع سابق ، ص.258.

(45) Al ingreso del prospero Hassan Baxa nuestro senor al mando y gobierno de la Regencia de Argel , el Rey de Espana abandona libre y voluntaviamente , y restituye a los principios de Muharam de este ano de 1206 la plaza de Oran que ahora tine baxo su dominio , y por lo pasado pertenecia a la Regencia de Argel. Artículo 1º, A.H.N., Estado, leg., 3579.

(46) A.H.N.: Estado, leg., 3579.

(47) يرمز المفتاحان إلى المفتاحين اللذين أخذهما الكاردينال خيمينيس إلى أسبانيا رمزا لإلحاق وهران بأسبانيا . أما الجرتان من ماء وهران رمزا إضافيا ، لأن الماء رمز الحياة حسب تعبير القرآن الكريم .

(48) ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني عبدل تحقيق وتقديم ، المهدي البوي ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص.459.

(49) Jesus Pradells Nadal, La Expansion consular espanola en el siglo XVIII, tesis de doctorado, Universitat d'Alicant , 1988, pp. 52-53.

(50) Luis Cara del Aguilla, Les espagnols en Afrique. Les relations politiques et commerciales avec la Régence d'Alger, thèse de 3º cycle, 1974, Bordeaux, p.69.

(51) كانت عملة البياستر تشهد إقبالا عليها من قبل التجار الجزائريين نظرا لمادة صنعها من الذهب.

ملحق

قائمة القناصل ونوابهم ومستشاريهم في الجزائر (1786-1822)

1- القناصل العامون في مدينة الجزائر:

الفترة	الإسم
1796 - 1786	مانويل دي لاس هيراس (Manuel de las Heras)
1794 - 1079	مانويل أسبرير إيجانير Manuel Asprer y (Janer)
1802 - 1794	ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo)
1809 - 1803	خوسي ألونسو أورتيث (José Alonso Ortiz)

2 - نواب قناصل إسبانيا في مدينة الجزائر:

الفترة الزمنية	اسم نائب القنصل
1794 - 1787	ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo)
(- 1801)	خوسي خواكين سيراين (José Jiaquine Cerain)
1818 - 1817	بيدرو أورتيث دي ثوغاستي (Pedro Ortiz de Zugasti)
1822 - 1819	خوان ريشو (Juan Rizo)
	فرانسيسكو أورتيث (Francisco Ortiz)

3 - مستشار القنصل في مدينة الجزائر:

الفترة الزمنية	اسم المستشار
1799 - 1787	فرانسيسكو أورتيث (Francisco Ortiz)

في مدينة وهران:

الفترة	المهمة	الإسم
(- -) 1800	قنصل	خوان غاريدو (Juan Garrido)
1796 - 1808	نائب القنصل	خوسي هيغويرو (José Higuero)
1818 - 1822	نائب القنصل	أونطونيو هيغويرو (Antonio Higuero)

في مدينة عنابة:

الفترة	الإسم
1799 - 1793	بارتولومي إيسكوديرو (Bartolomé Escudero)
1807 - 1800	خوان بيغو (Juan Vigo)
1815 - 1807	أوغسطين كسيكلانا (Augustin Xiclana)

المصدر: .: Nadal La Expansion ..., pp. 43-44.

ملحق

قائمة القناصل ونوابهم ومستشاريهم في الجزائر (1822-1786)

1. القناصل العامون في مدينة الجزائر:

الفترة	الإسم
1796 - 1786	مانويل دي لاس هيراس (Manuel de las Heras)
1794 - 1079	مانويل أسبرير إيجانير (Manuel Asprer y Janer)

1802 - 1794	ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo)
1809 - 1803	خوسي ألونسو أورتيث (José Alonso Ortiz)

2 - نواب قنصل إسبانيا في مدينة الجزائر:

الفترة الزمنية	اسم نائب القنصل
1794 - 1787	ميغويل لاريا سالسيدو (Miguel Larrea Salcedo)
(- - 1801)	خوسي خواكين سيراين (José Jiaquine Cerain)
1818 - 1817	بيدرو أورتيث دي ثوغاستي (Pedro Ortiz de Zugasti)
1822 - 1819	خوان ريشو (Juan Rizo)
	فرانسييسكو أورتيث (Francisco Ortiz)

3 - مستشار القنصل في مدينة الجزائر:

الفترة الزمنية	اسم المستشار
1799 - 1787	فرانسييسكو أورتيث (Francisco Ortiz)

في مدينة وهران:

الفترة	المهمة	الإسم
(- - 1800)	قنصل	خوان غاريدو (Juan Garrido)
1796 - 1808	نائب القنصل	خوسي هيغويرو (José Higuero)
- 1818	نائب القنصل	أونطونيو هيغويرو (Antonio Higuero)

1822		
------	--	--

في مدينة عنابة:

الفترة	الإسم
1799 - 1793	بارتولومي إيسكوديرو (Bartolomé Escudero)
1807 - 1800	خوان بيغو (Juan Vigo)
1815 - 1807	أوغسطين كسيكلانا (Augustin Xiclana)

المصدر: Nadal La Expansion ..., pp. 43-44.

أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز

إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي

أ. صادق الحاج /جامعة الجزائر 02 /أبو القاسم سعدالله

الملخص

في الوقت الذي تعطلت فيه الرحلات بالمشرق، نلاحظ نهضتها بالغرب الإسلامي حيث جاب أبناءه الأقطار الإسلامية حاملين رسالتهم الحضارية والفكرية دون أن يصطدموا بقيود سياسية أو جنسية. ذلك أن كفاءة المرء كانت تقدم على لونه أو إقليمه، فكان للوعي الاجتماعي وفضيلة التسامح بين المسلمين أثره في إمتزاج الدم وذوبان المهاجرين في المجتمع.

ولم يقصر المغاربة علاقاتهم على دول ما وراء الصحراء، بل نراهم حريصين على تعزيز صلاتهم بالمشرق سواء بنية أداء فريضة الحج أو إستكمال المعارف ولقاء المشايخ وربط السند العلمي وبرز في هذا المجال جملة من الأعلام المغاربة. ولعل أبا الوليد المعروف بإبن الفرضي قد بين في كتابه تاريخ علماء الأندلس جانب الأخذ والعطاء وأحوال الرحالين.

Summary

At a time when flights were disrupted Pilcher, we observe renaissance of the Islamic West, where Jaap sons Islamic countries, carrying their message of cultural and intellectual slam without political or nationality restrictions. So that the

efficiency of one has been progress on its color or its territory, was the social consciousness and the virtue of tolerance between Muslims immiscible impact on the blood and the melting of immigrants into society.

Moroccan relations was not limited to countries beyond the desert, but we see them are keen to bolster their prayers Pilcher whether to perform the Hajj or complete knowledge structure and meet with the elders and linking scientific Sindh has emerged in this area a number of Moroccan flags. Perhaps the father of newborn known as Ibn premise has the book in the history of Andalusia scientists along with give and take and conditions Rahalin.

مقدمة:

تعد منطقة الحجاز أهم محطة لأنظار أبناء العالم الإسلامي لما لها من أهمية دينية وتاريخية، ففيها المسجد النبوي الشريف التي تشد إليها الرحال، ومنها خرج الصحابة بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم لنشر دعوة الإسلام، ويوجد بها متوى آلاف الصحابة - رضوان الله عليهم - كما توجد بمنطقة الحجاز عدة حواضر إسلامية، خاصة حاضرة المدينة المنورة التي كانت عاصمته الأولى ما يربو على أربعين عامًا، شهدت كل الأحداث السياسية المؤثرة والتي لا يزال صداها على العالم الإسلامي كله، ومنها خرج الإمام مالك لنشر دعوة الإسلام، وكان احد أصحاب المذاهب الفقهية الشهيرة، والذي نشر مذهبه في بلاد المغرب على

إتساعها وغيرها، كل هذه الأسباب دفعت المغاربة الى الاستقرار في الحجاز عامة والمدينة المنورة ومكة المكرمة خاصة ومشاركة أهلها حياتهم بما فيها من إيجابيات وسلبيات¹.

لقد إحتوت منطقة الحجاز في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي على أعداد هائلة من العلماء الذين لم يكونوا من أبناء الحجاز وحدها، وهؤلاء أدوا عملاً بارزاً في رواج الحركة العلمية فيها، وهذا ما ظهر جلياً من خلال ما سجله الرحالة المغاربة من أسمائهم وتراجمهم التي زادت في تلك الفترة حسب ما ورد في كتب التراجم حول الشخصيات المغاربة، كما لُوحظ أن هؤلاء العلماء المغاربة منهم من كان يفد سنويًا الى الحجاز، ومنهم من كان يفد بعد سنوات²، وهكذا نجد منطقة الحجاز وخاصة المدينة المنورة ومكة المكرمة قد تهيأ لهما ما لم يتهيأ لغيرهما من مدن العالم الإسلامي من توافد العلماء الذين ذاع صيتهم وشهرتهم العلمية عليهما³، وكانوا يعقدون حلقات الدرس في المسجد المكي والمدني اللذين كان نظام التعليم فيهما يسير وفق نظم وقوانين محددة من حيث تخصيص أيام معينة للدراسة، وأخرى للإجازات، كما حُددت العلوم التي تُدرس والأماكن التي تعقد فيها حلقات تلك الدروس، إذ كان لكل عالم وشيخ زاوية أو ركن خاص به وخزانة لكتبه العلمية الموقوفة على طلبته، فيدرسه ويُعطيهم الإجازات .

لقد افرز ذلك كله رحلات أصبحت بمثابة موسوعات علمية مُصغرة لما حوته من معلومات مهمة لجميع أحوال المسلمين في ذلك الوقت، إضافة الى أنها ضمت قوائم لأسماء العلماء البارزين واهم مؤلفاتهم والعلوم التي تخصصوا فيها وبرعوا فيها، فالرحالة كانوا بمثابة العين اللاقطة يستقطب إهتمامهم جميع الأمور وإن صغرت بحسب ميلهم⁴.

كان هم الناس عموماً في البلدان والأجناس المختلفة والأماكن والأزمان السفر والشغف بمعرفة العالم المحيط بهم، وعلى الرغم من محاولة هؤلاء اعتبار ذلك سعياً وراء غايات بذاتها، لكنهم في الحقيقة يكونون مدفوعين برغبة لا تعرف الحدود لفهم واستيعاب الأخر، الغريب، والمختلف، وإقحام الذات في ما هو أبعد من الأفق المعروفة والولوج بها إلى فضاءات مجهولة وخرافية التفاصيل أحياناً، وربما علل الفاتحون العظام أمثال الاسكندر الأكبر، أو جنكيزخان أو نابليون أو شخصيات على طرازهم انجذابهم الجامح للغزو والفتوحات بالضرورة العسكرية والاقتصادية وذلك إخفاء لدوافعهم الشخصية في حب المغامرة.

وربما تستر بعض الرحالة العرب، ومنهم المقري عن ذكر الأسباب الحقيقية التي تدفعهم لذلك كالفرار من احباطات شخصية، أو مضايقات سياسية أو خوف من مصير مجهول⁵. كل هذه الأسباب وغيرها يمكن أن يؤسس إلى فكرة الرحلة.

إن الإنسان العربي المسلم عامة والمغاربي خاصة متعطش بطبعه لمعرفة العالم ، فهو شغوف بالذات لرصد تفاصيل الأعياد والمناسبات والعجائب التي تظهر غير ذات أهمية بالنسبة لنا اليوم⁶ ، فقد احتوت كتب الرحلات المغاربية إلى الحجاز على موروث مهم، وصفوا فيه مسالك الطرق ، وصنفوا الأماكن والحيوانات والثقافات والبلدان التي عرفوها في العوالم التي حلوا بها أو تخيلوها، وقد يعكس بعضا من ذلك شغفهم بسرد العجائب والغرائب ، فحتى الرسائل التاريخية والجغرافية الخاصة بطبيعة الأماكن كانت موشاة بحوادث وأخبار عجيبة، فهي بدلا من أن تكتفي بذكر الحقائق الموصوفة نجدتها قد تعمدت أسلوب الإثارة الأدبية عند القارئ المثقف المتلقي لهذه الحكايات⁷.

إن الرحلة نقلة في المكان والزمان ، كما سبق ذكره ، وسفر داخلي في فكر صاحبها ومعارفه وموقفه من الحياة والوجود ونظرتة إلى الناس والمجتمع، وقد ارتحل الناس ولا زالوا يرتحلون غير أن قلة منهم أقبلوا على تدوين الأحداث التي صادفتهم ووصف الأقطار التي مروا بها، وقد فعلوا ذلك لشعورهم أنهم إطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم فرغبوا في تخليده حتى يعرفه من لم يرحل إلى تلك الأماكن. وقد اختلفت طرق كتابة الرحلات حسب ثقافة الكاتب وتصوره ومكان الرحلة وزمانها ونوعها فإن كان عالما فانه ينظر إلى الكون والناس والمجتمع من خلال علمه ، إما أن كان متصوفا فان الغالب عليه تحكيم التصوف ، ولا يتجلى موقف هذا أو ذاك من القضايا التي يثيرها أو المواقف التي يستعرضها أو الآراء التي يعبر عنها فحسب

بل يبدأ من اللحظة الأولى للكتابة ومن طريقة التأليف واختيار الأحداث والمواقف ، فصاحب الرحلة لا يعرض كل ما شاهده أو كل الوقائع التي حضرها ولكنه ينتخب ويختار حسب فكره ومكانته في المجتمع وموقفه من البيئة التي كانت مجال رحلته ، فالأحداث التي تبدو لبعض الناس عادية قد تكون طريفة عند الآخرين ، كما أن سبب التأليف هام في تحديد اتجاه المؤلف فأما أن يكتب لذكر الأحداث والمواقف التي تعرض لها مما يعتبره غريباً وطريفاً يستحق الذكر وإما أن يكتب لإبراز سيرته في سفره.

وقد كان المغاربة منذ القديم وحتى في العصور الحديثة أهل سفر وترحال ولعل الموقع الجغرافي ساعدهم على ذلك، حيث يقع المغرب العربي في أقاص بلاد الإسلام، ويمكن أن نميز بين دافعين أساسيين للرحلات عند المغاربة⁸ إلى منطقة الحجاز.

1- الأسباب الدينية:

يعتبر الحج أساسه لدى المغاربة عامة، لأنهم كانوا أبعد الناس عن الحجاز من جهة الغرب فكان شوقهم لأداء الفرائض وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من غيرهم وكانوا يتحملون في سبيل ذلك مشاق السفر⁹.

لا نبالغ إذا قلنا انه لا يوجد مكان في العالم يؤمُّه عشرات الآلاف من الأشخاص كل سنة مثل الحجاز (مكة والمدينة) ولعل هذا الوضع هو الذي قاد إلى

ما يسمى برحلات الحج، وهي رحلات تختلف عما هو معهود من رحلات. هذه الرحلات مخصصة لنسك إسلامي هو الحج والعمرة لا تتعدان ولم يعرف أصحاب تلك الرحلات أمكنة خارج نطاق الحج ومكانه، ولم يسبحوا في الأرض ابتغاء مآرب أو بتكليف مسبق وهم لا يرحلون إلا لهذين النسكين، ومع هذين النسكين طفق عدد كبير من الحجاج الرحالة أو الحجاج العلماء أو الحجاج طلاب العلم من اهتبال الفرصة، فآخذوا يكتبون ويؤلفون، ويدرسون وينشرون علمًا نافعًا يتمحور في مجمله حول الحرمين الشريفين، وحول المدينتين المقدستين وحول المناسك والشرائع، وحول الحج والعمرة والزيارة، وحول ما تعلق بهذا وذاك¹⁰، مثل ملاحظة أحوال سكان المدينتين (مكة والمدينة) ومعاشهم وعاداتهم، أو من مثل التأليف في شعيرة لها مساس بوجود المسلم في مكة، والطرق والمسافات في مكة والمدينة¹¹، بل كان البعض يجمع بين الحج والعناية بالأثر والدراية بالرواية على يد مشايخ البلدين الشريفين، وبعض من المقيمين أو المجاورين من الرحالة يسجلون لأساتذتهم تراجم ومعلومات لا تتوافر إلا في مثل هذه الكتب، ومن هنا توافر لنا اليوم عدد وفير من المؤلفات التي تندرج تحت مسمى كتب الحرمين الشريفين.

ويظهر أن الرحالة الحجاج من المغرب العربي يأتون في المقدمة مقارنة بإخوانهم من بقية البلاد الإسلامية في هذا الشأن، فقد رصد الشيخ محمد الجاسر حوالي سبعين إسما وأثرًا من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حتى القرن الرابع عشر

الهجري (العشرون الميلادي) وكلهم من المغرب قدموا إلى الحجاز لأجل الحج والزيارة¹².

إن ما يقوي الاعتقاد بان الرحلة إلى الحجاز عند المسلمين عامة والمغاربة خاصة تتخذ طابعاً روحياً ودينياً، هو حرص الرحالة المغربي المسلم على أن يكون قصده من رحلته وجه الله حتى لا يكون حظه من السفر هو النصب. ومن الإمارات الدالة على عمق الأواصر بين الرحلة والدين عند المغاربة، إنكباب كثير من الأئمة والعلماء على السفر وإنشغالهم بتنفيذ رحلاتهم. وجدير بنا في هذا السياق، أن نشير إلى أن أهل المغرب العربي كانوا أكثر الناس رحلة وتقليداً لها، وفي مقدمتهم ثلة من الأئمة المفسرين والحفاظ المحدثين والفقهاء¹³.

ولا عجب من أن يستعمل الرحالة المغربي الرحلة التي بيت الله الحرام دون أن يكثرث بما يلاقيه من المشاق، طالما أنه يسعى إلى الظفر بما يرغب فيه من مثوبة من الله، فيحج لينخلع عن أوزار الدنيا ومآثمها، ولا شك في أن سلوك الرحالة في هذه الحالة هو جزء من الكل، لأن نشاط الرحالة يمثل فيه حساً دينياً مشتركاً بين مختلف فئات المجتمع المسلم التي تهبوا إلى أداء فريضة الحج، إستجابة لتعاليم الدين الإسلامي¹⁴.

ومهما بدت رحلة الحجاج المغاربة في ذهابهم وإيابهم محاطة بالمخاطر ومحفوظة بالمكاره، فإن جسورهم الروحية إلى البقاع المقدسة، بقيت موشوجة و

قوية،¹⁵ فلقد عظم المغاربة هذه البقاع و عبروا عن شوقهم لزيارتها، وإن هذا الشوق و الحنين للأماكن المقدسة، ليس تعظما للمكان و إنما للرسول نزيل ذلك المكان ، و في حبه حب الرسول صلى الله عليه و سلم و لعل الرحلة الحجية من هذا المنطق تمثل امتداداً للشوق العارم و العاطفة الدينية الملتهبة ، فلا يشفى غليل المسلم إلا أن يظل مستحضراً جلال المكان و قداسته¹⁶ و لا يستطيع هذا المسلم أن يفارق البيت الحرام إلا بأسى و شجن.

و من هذا المنطلق نستطيع أن نقول إن الرحلة بمعناها الديني، تختزل اختزالاً مكثفًا في رحلة الحج التي نعتقد أنها خير إرتحال لأنها تشدان للمنطلق. وإذا لم يستطع المسلم إليها سبيلا، فما جعل الله لأحد سلطاناً على مشاعره، حتى يحرمه من التشوق إليها عن طريق ابتغاء معادل روحي و عمل شرعي يسمو به إلى مراتب الطمأنينة التي ما خص ببلوغها غير من شرح الحق نفسه.

إذا رجعنا إلى كتب التراجم وجدنا أسماء العلماء المغاربة الذين أدوا فريضة الحج، عبر عصور التاريخ الإسلامي، ربما بلغت المئات. فمنذ الفتح والوفود والأفراد تتدفق على مكة المكرمة والمدينة المنورة استجابة لنداء: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُؤُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)¹⁷.

إن الرحلة إلى الحجاز لم تقتصر على موسم الحج الأكبر بل كانت تحدث من أجل أغراض أخرى كالعمرة وطلب العلم ومجاورة الحرمين والمهجرة، ولكن ليس كل عالم أو متعلم قصد الحجاز ترك رحلة مكتوبة¹⁸.

2- الأسباب العلمية:

كانت الرحلة في طلب العلم من التقاليد عند علماء المسلمين، فبعد أن ينهل الطالب من علماء بلده وبلداته والمحيطات يبدأ في الاستعداد للرحلة إلى الحواضر الكبرى، والغرض منها هو تحصيل علو الإسناد ولقاء الحفاظ والمذاكرة معهم¹⁹.

فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والملكات، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال علماً بأن حصول الملكات عن المباشر والتلقين، أشد إستحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. لهذا فإن طالب العلم يجني من رحلته فائدة عظيمة، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد في تمييز الاصطلاحات. بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعلم، وطرق توصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والإستحكام في المكان وتصبح معارفه وتميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم.

إن الرحلة فرصة تتاح للرحالة لكي يتفاعل تفاعلاً مثمراً مع العلماء و الطلبة الموجودين في الحجاز، حيث تتكون المجالس العلمية ، وينظر في مواضيع متنوعة،

تتوحد فيها أو تتشعب حولها وجهات النظر، وعلى هذا النحو، نرى أن القرآن الكريم يستأثر باهتمام خاص في الرحلة الحجازية مثلاً: فقد ترد الآيات القرآنية الكريمة على سبيل الاستشهاد أو التدليل و الإحتجاج و الإستنباط ، وتثار أسئلة من أجل التفهه والمدارسة و التذوق، فضلاً على أن الرحالة يتجاوب تجاوباً روحياً و فكرياً مع فقهاء الركب و علماء الزوايا و المساجد أثناء الطريق في رحلته إلى الحجاز²⁰.

تعتبر الرحلة من شروط إكتمال المعارف ووسيلة للقاء الشيوخ بشد الرحال إليهم و صارت مكانة العالم تقاس بإتساع رحلته و كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم ، ولما كان المغرب العربي معروفاً منذ القديم بتعدد المدارس و كثرة الخريجين ، فقد كان الكثير منهم يطمحون لإستكمال دراستهم بالمعاهد العلمية الكبرى بحواضر الشرق الإسلامي خاصة منطقة الحجاز، و قد إستقر بعضهم بتلك المنطقة و لم يعودوا إلى أوطانهم، و تحفل كتب التراجم بأسمائهم²¹، لأن الحجاز يتمتع بميزة أخرى جعلته أكثر جذباً للعلماء وطلاب العلم بحكم مكانته الدينية، فأكثر من يقدم للحج و العمرة ، يقيم فترة للمجاورة في الحرمين، للتزود ببعض العلوم الشرعية و مجالسة أهل العلم الذين قد لا يتيسر لقاءهم في غير الحجاز ، و ربما طال به المقام، فيستقر فترة من الزمن، فقد تطول و قد تقصر، وفي هذه الحالة يعد مجاورا فيستفيد من اتصاله بالعلماء، كما يفيد غيره من علمه²² ، وعليه يمكن أن نصف الذين قاموا بهذه الرحلات إلى نوعين:

- نوع قاموا بالرحلة لطلب العلم والإفادة من علماء عصرهم.

- نوع آخر ممن نال حظًا وافراً من العلم فارتحل إلى أقطار أخرى للإفادة.

لم تكن المدينة المنورة هي المعقل الوحيد - وإن كانت تحتل الصدارة في هذا الباب- بل قصد طلاب العلم معظم الحجاز بسبب تعدد المراكز العلمية، وقد أسهمت المراكز العلمية بدور كبير في زيادة النشاط العلمي كما أسهمت الرحلة إلى طلب العلم في سرعة انتشار الآراء والمذاهب والأفكار على أيدي طلاب العلم والمتعلمين²³.

كانت الرغبة الشخصية في الترحال أو السفر لطلب العلم والمعرفة من أقوى الدوافع للمغاربة لزيارة البلاد التي تحقق هدفهم بغض النظر عن الصعوبات التي يمكن أن تصادفهم²⁴.

تحمل طلاب العلم مشقات السفر و الترحال إلى مراكز الحجاز العلمية و المعرفية، ولم يقف طلب العلم عند التفقه في الدين و علومه فقط ، بل كانت هناك رحلات لطلب العلوم الدنيوية أيضاً ، و قد إرتبط تاريخ الإصلاح في الجزائر برحلات قام بها علماء مصلحون وأئمة إلى المشرق عامة وإلى الحجاز خاصة تلقوا خلالها العلوم الشرعية في الحرمين الشريفين ويذكر الجزائريون الرحلة الثانية لأبو راس الناصري إلى الحجاز و مكوثه بالمدينة المنورة، ورحلة الأغواطي و كلاهما كانت أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي²⁵، وتعد رحلة طلب العلم

من الجزائر إلى الحجاز تقليدًا لدى الجزائريين ، توارثوه على مدى أكثر من ألف سنة. الرحلة تبدأ من إحدى مدن الجزائر وتمر عبر جامع الزيتونة فالأزهر وصولاً إلى الحجاز، ويغيب طالب العلم عن وطنه خلال هذه الرحلة الطويلة لفترات قد تصل إلى 20 سنة. يذكر الجزائريون رحلات طلب العلم الأولى التي نفذها أئمة ومشايخ، من خلال كتب الرحالة والرسائل التي دونتها مخطوطات مازال بعضها محفوظًا، وبعضها الآخر أُتلف وأتى عليه الزمن، ويقدر الباحثون في هذا المجال بأن الأرشيف الفرنسي الخاص بالجزائر وتونس يحتوي على مئات الرسائل والشهادات التي تصف الحياة الاجتماعية والتجارية في مدن الجزائر وتونس²⁶.

وخلاصة القول فعلى الرغم من وجود مؤسسات علمية كبيرة خلال تلك الحقبة التاريخية تؤدي دورها العلمي في بلاد المغرب العربي مثل: الزيتونة في القيروان، والقرويين في فاس وغيرها من المدارس والمساجد الكبيرة والزوايا المنتشرة في كافة ربوع المغرب الكبير²⁷ إلا أن المغاربة في طرابلس وتونس والجزائر والمغرب وشنقيط وما تبقى من علماء الأندلس قد رغبوا في الرحلة إلى الحجاز وذلك لعدة أسباب:

أ- الإطلاع على الإتجاهات العلمية والفكرية عند علماء الحجاز.

ب- إتحاد المذهب الفقهي فغالب العلماء المغاربة ينتمون إلى المذهب المالكي

وهو مذهب أهالي الحجاز²⁸.

ج-الحصول على الإجازة العلمية من علماء الحجاز، او من عاش في المنطقة من المجاورين.²⁹

د-الإحتكاك بين العلماء المغاربة وعلماء الحجاز من الذين أتوا من بلاد الشرق الإسلامي الأقصى مثل علماء الهند وداغستان والسند والأكراد وغير تلك الأقاليم وتلقي على أيديهم العلوم الإسلامية والعربية وغيرها من العلوم³⁰، وسوف نجد في فصول آتية كيف إلتقى العلماء المغاربة بهؤلاء وما الذي أخذوه عنهم من علوم جمة يؤكد رغبة المغاربة في هذا الإحتكاك.

فلعل هذه الأسباب العلمية كانت الدافع المباشر والمؤثر الأول في تخطي الصعاب والإتجاه نحو منطقة الحجاز خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي بالإضافة الى المشكلات السياسية التي كانت تواجه بعض هؤلاء العلماء، والتي دفعتهم للفرار الى الحجاز³¹.

ولا شك أن الدافع العلمي له صلة أكيدة بالوازع الديني أو هو نتيجة له، لأن طلب العلم مرغوب فيه مثاباً عليه في الإسلام، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {من خرج من بيته إبتغاء العلم وضعت الملائكة أجنحتها له رضاء بما يصنع}، الشيء الذي جعل العلماء وطلاب العلم يضربون في الأرض ويتجشّمون وعشاء السفر ويقطعون المفازات والصحاري والبحار ويجوبون الأقطار بحثاً عن فائدة أو رجاء لقاء شيخ عالم، حتى أصبحت الرحلة أمراً لازماً وشرطاً من شروط

التحصين وبلوغ درجة عليا في التضلّع في المعرفة، بحيث لا يتبوأ الشخص مكانة ذات إعتبار في أوساط المشتغلين بالعلم إلا بعد أن يرتاد الآفاق ويغترب طلباً له، وفي ذلك نظّم السفير الرحالة محمد ابن عثمان المكناسي يقول:

لا يبلغ المرء في أوطانه شرفاً حتى يكيل تراب الأرض بالقدم³²

وقد سبق العلامة ابن خلدون أن كتب في هذا الشأن قائلاً: "إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلّون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشر... فلقاء أهل العلم وتعدد المشايخ يفيدته تمييز الإصطلاحات بما يراه من إختلاف طرقهم فيها... فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال."³³

لذا زحرت رحلات المغاربة بأخبار لقاء العلماء ومجالستهم ومناظرتهم والأخذ والسّماع عنهم وإستجازهم، فضلاً عم إقتناء المصنّفات ونسخها في شتى بلدان المشرق، وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفي ذلك يقول ابن خلدون بأن رحلة المغاربة "كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذٍ دار العلم ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقترضوا على الأخذ هن علماء المدينة."³⁴

ونظرًا لله المعرفي لجل الرحالة المغاربة وحرصهم على الاستفادة والإفادة، بنقل الأفكار والمعارف التي كانوا يحصلون عليها في أسفارهم، لم يفت أحدهم التنويه بالهدف الأساسي من تدوين رحلته والتصنيف في هذا الباب، إذ يؤكد ابوسالم العياشي صاحب رحلة ماء الموائد الشهيرة بالرحلة العياشية "إن قصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، إن وجد الأمران فيها معًا فذلك أدعي لنشاط الناظر فيها."³⁵ فتنافس مؤلفو الرحلات في تضمين رحلاتهم ما وسعهم من العلوم والمعارف التي نهلوها من أصولها سواء من افواه الشيوخ أو إقتباسًا من بطون الكتب التي وقفوا عليها رغبة منهم في علو السند وإثبات طول الباع.³⁶

ومما يشئ بقوة الوازع العلمي لديهم أن أول ما كان يقوم به جلهم لدى حلولهم بأي بلد هو السؤال عن أهل العلم به، مبدئين تقديريهم وتبجيلهم لمن لقوهم من العلماء ومدى الاستفادة منهم،³⁷ مما يفسر عدم خلو أي رحلة من الرحلات التي خلفوها من أخبار لقاء العلماء والتناظر معهم في شتى العلوم. فهذا محمد بن عثمان المكناسي يعرض على ذكر العلماء الذين إجتمع بهم خلال رحلته التي قادته سنوات 1786-1788 الى الحجاز، فخلال مقامه بالعاصمة العثمانية توطدت العلاقة بينه وبين أحد علمائها وقضاها، وفي ذلك كتب: "وقد حررت هذه المراتب العلمية من بعض الأفاضل من علماء الروم وأحد قضاها، وفضله مشهور ومعلوم يقال له صدقي مصطفى، وقد كانت بيني وبينه معرفة وإتصال، ترامى على معرفتنا

من حسن أخلاقه ذات يوم ونحن بمسجد السلطان محمد، ودعاني الى منزله ولم يجعل لنا فسحة في التخلف، وأحضر جمعاً من الطلبة وأطعمة كثيرة، وزارني في منزلي بعد ذلك فتأكدت بيننا وبينه المعرفة".³⁸

علاوة على طلب العلم والإستزادة منه والتضلع فيه بلقاء الشيوخ والعلماء والحصول على الإجازات والأسانيد العالية ونقل حصيلة ذلك الى المراكز العلمية بالدول المغاربة، إغتتم المغاربة فرص رحلاتهم الى الحجاز لإرتياد مكباتها ومدارسها قصد الإطلاع على المصنفات التي لم يقفوا عليها بدولهم ونسخ وشراء الكتب، إذ تفيد روايات معظم الرحالة حرصهم على إرتياد هذه المؤسسات العلمية وطلب الكتب في أسواق الكتبين، مثال ذلك ما أفردته ابن عثمان المكناسي للموضوع في رحلته السالفة الذكر، فخلال مقامه بالمدينة المنورة أبدى إعجابه الكبير وإستحسانه لما كانت تتوفر عليه من خزانات ومكتبات حيث يقول: "وأما ما في هذه المدينة من خزائن الكتب المعتبرة، التي لا يوجد مثلها في سائر البلاد فشيء لا يفي به تقرير ولا يؤديه تعبير، كل مسجد له خزنة وهناك خزائن أخرى من غير المساجد، ويضل الجميع مفتوحاً والقيّم حاضر، ومن أراد أن يطالع أو ينسخ يضلّ هناك حتى يقضي غرضه ولا تخرج ورقة من هنالك."³⁹ وعلى قول المؤلف يقف القارئ على أن ابن عثمان نسخ أبواباً كاملة من مظانٍ متعددة، سواءً تلك التي نهل منها في المكتبات والخزانات التي إرتادها⁴⁰ أو تلك التي إقتناها خلال سفره، فقلّما طرق موضوعاً ولم يأت بإقتباس من مصدر أو أكثر ناقلاً بذلك أفكاراً ومعارف في حقول متعددة

كالفقه والكلام والتصوف والتاريخ والجغرافيا من كتب كثيرة لم تكن متوفرة بالمغرب.⁴¹

وفي هذا الصدد يمكن الجزم بأن العديد من الرحلات المغاربية في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي تبدو بمثابة ملخصات ومقتبسات لمصادر وقف عليها مؤلفوها في أسفارهم. فقد عوّل المكناسي في إستقاء مادة رحلته من مصادر متنوعة في شتى الحقول المعرفية إقتبس من بعضها أboatاً وفضولاً بكاملها⁴²، ومن بين تلك المظان "تهذيب الأسماء واللغات" للنووي و "وفيات الصحابة" للصغاني و "الإستعاب" لابن عبد البرّ و "الإصابة" لابن حجر، إعتمدها أساساً في تراجم الأعلام فيما رجع للتعريف بأسماء الأماكن إلى "القاموس" للفيروز بادي و "المشترك" لياقوت الحموي، بينما إقتبس مادته عن موضوعات التصوّف والكلام من تأليف جلال الدين السيوطي المتعددة مثل "العرف الوردية في أخبار المهدي" و "الكشف عن مجاوزة هذه الألف"، في حين إعتمد تاريخ القرماني "أخبار الدول وآثار الأول" لإيراد موجز لتاريخ الدولة العثمانية، كما إقتبس من كتاب عبد الغني بن إسماعيل النابلسي "الحقيقة والحجاز في الرحلة إلى بيت الشام ومصر والحجاز" لوصف مراحل طريق الرّكب الشامي.⁴³

فضلا عما سبق، لن تفوتني الإشارة إلى عامل هام ساهم بقصد وافر في إنتقال المغاربة إلى الحجاز في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي هو

تشجيع الدولة العثمانية علماء الجزائر للهجرة إلى بلاد الحجاز لطلب العلم، كما حرص سلاطين المغرب على تكليف أمراء ركب الحج وسفرائهم إلى البلاد الشرقية خاصة الحجاز بجلب الكتب والمؤلفات العلمية، فهذا أبو القاسم الزياني يورد عن جانب من مهمته خلال سفارته عام 1876م أنه "لما قضيت الغرض واشترت الكتب التي أوصاني بشرائها أمير المؤمنين، وهو مسند أبي حنيفة النعمان ومسند الإمام الشافعي ومسند الإمام أحمد، والطريقة المحمدية المختصرة من الأحياء... وأعطاني الوزير الأعظم إختصار المواهب الأربع في سفر، وتأليف الدرر المتداول عندهم في الفقه الحنفي... وشرحه المسمى بالغرر على الدرر في سفرين."⁴⁴

وبديهي أن كثير من الرحالة المغاربة فعلوا الشيء ذاته في بلاد الحجاز، إذ يوردون أنهم رجعوا محملين بنوادير المؤلفات والكتب، فانتقلت بذلك أعداد هامة من المخطوطات العربية من المشرق إلى الخزانات العامة والخاصة بالمغرب، وكما يشير إلى ذلك الحسن الشاهدي، فإن كثيراً من الكتب الشرقية لو تكن لتنال شهرة في الدول المغاربية وتحظى بالإهتمام بها شرحاً وتلخيصاً وتقييداً وحفظاً وتدريساً لولا الرحالة، بل أن بعضها إنفرد دون سواها "بإيراد جملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول... التي لا نكاد نقف لها على أثر في غيرها من المضان."⁴⁵

3 - الأسباب السياسية:

تمثل الجوانب السياسية أبرز الدوافع التي جعلت المغاربة - خاصة علماء بلاد الأندلس - يهاجرون إلى مصر والحجاز، ويسكنون المنطقة، ففي أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حدثت تغيرات في شبه جزيرة إيبيريا، تمثلت في إتحاد ممالك إسبانيا - التي كانت تسمى الأندلس ومنها (أرجوانة - قشتالة) ثم تم الاستيلاء على غرناطة آخر معاقل المسلمين وعقدت معاهدات كثيرة تحفظ حقوق المسلمين - العنصر المهزوم - وتأمين حياتهم، وعلى الرغم من تلك المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والأوروبيين الكاثوليك، فإن المسلمين لقوا من التعذيب ما حملهم على الفرار إلى خارج الأندلس شرقاً وغرباً وجنوباً إلى بلاد المغرب ومنها إلى شمال إفريقيا حتى مصر ومنها إلى الحجاز، وكان المورسكيون في فرارهم يستقر منهم في كل إقليم فيفدون إليه طائفة حتى تفرقوا في البلاد⁴⁶، ووصلت منهم طائفة ليست بالقليلة إلى المدينة المنورة سواءً من الأهالي أو العلماء البارزين⁴⁷، وفي هذا القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي وحده وجد من أهالي الأندلس ما يزيد على إحدى عشرة أسرة أندلسية إستوطنت الحجاز وكان لها أثراً بارزاً على الحياة السياسية كفتنة عذيب القبيطي الأندلسي⁴⁸ وغيره مما حدث إبان ذلك القرن⁴⁹، بمساعدة العثمانيين.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه وفي مرحلة تالية عقب الخروج المهين للمسلمين في الأندلس وجود طائفة إسلامية عظيمة الشأن لها وجودها الاقتصادي والاجتماعي إشتدت عليها المظالم من قبل التحالف الكاثوليكي، وكان طبيعياً أن يهاجر الكثير

من الأندلسيين إلى بلاد المغرب العربي -الحالي- ومصر ثم الحجاز حتى تسكن المدينة المنورة بعض الأسر الأندلسية العريقة.

ولم يكتفي الإسبان والبرتغاليون بطرد المسلمين إلى الأراضي المغربية والجزائرية والتونسية وما شرقها، وإنما قاموا بحركة هجومية على بلاد المغرب العربي الأقصى والأوسط والأدنى في حركة إلتفاف حول العالم الإسلامي من أجل القضاء على الحياة السياسية والدينية⁵⁰، ودخلوا في صراع كبير مع أهالي تونس والجزائر والمغرب الذين قاوموا المحتل بمساعدة القباطنة الأتراك⁵¹، الذين حاولوا جاهدين مساعدة المسلمين الموجودين بعد سقوط الأندلس أو المسلمين في شمال إفريقيا⁵² وقد دفع المغاربة ثمنًا غاليًا لهذا الصراع، حيث قام الإسبان بالإستيلاء على بعض المدن المغربية كطنجة وسبتة ومليلية والمهدية والمعمورة، والعرائش، ولم يسترد المغاربة بعضها الا بعد صراع كبير للغاية، ولا شك أن هذه الصراعات السياسية قد حملت الكثير من المغاربة الى إثارة السلامة والرحيل نحو الشرق، فإستوطن الكثير منهم مصر وإستوطن بعضهم الشام والحجاز حتى إستقرت العديد من الأسر والأفراد في المدينة المنورة، وكونوا جالية كبيرة من مجاوري بلاد المغرب فيها، وإستطعوا تكوين إدارة لها للعمل على شؤونها .

إن الأوضاع السياسية التي شهدتها بلاد المغرب العربي إختلفت من قطر الى آخر، لذلك فإن الأسباب السياسية التي دفعت بالمغاربة الى الهجرة الى منطقة

الحجاز إختلفت من إقليم الى آخر، بالرغم من أن في مجملها كانت متشابهة، ومن ابرز الأسباب والدوافع السياسية التي دفعت بالمغاربة الى الهجرة الى منطقة الحجاز في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي نذكر ما يلي:

أ-الصراعات السياسية في بلاد المغرب، بحيث إستهل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي والأحوال الداخلية في بلاد المغرب في حالة الإضطراب وساعد على ذلك الإختلافات الواضحة بين سكان الأقاليم المختلفة من المغرب، فسكان جبال الأطلس يتميزون بإستقلالهم وبدائيتهم ويصعب مقارنتهم بسكان فاس الذين كانت حياتهم ناعمة، كما كان يصعب مقارنتهم برجال البحر في سلا، والذين تميزوا بطموحهم الزائد، وإذا كانت هذه الإختلافات في وطن واحد بما فيها من طبقات وطائفية⁵³، بالإضافة الى الإستبداد السياسي والصراعات بين القبائل والأقاليم والبربر الى غير ذلك من مختلف الطبقات والفئات وهي مشكلات سياسية كانت ترسم الحياة السياسية في بلاد المغرب (شمال إفريقيا ما عدا مصر).

ب-الصراعات على الحكم، فمنذ أن وطأت أقدام مولاي إسماعيل الى الحكم والأوضاع الداخلية في بلاد المغرب وفي قصر الحكم على غير ما يرام، حيث كان لوالد الأمير إسماعيل ثلاثة وثمانون ابنًا وأكثر هذا العدد من البنات،⁵⁴ وبالتالي يتضح حجم التشاجر والتخاصم، وكم من أمير دفع حياته ثمنًا لمؤامرات الأميرات وزوجات الشريف، وكان ذلك النقص الموجود في الاستقرار الأسري للدولة العلوية

يساعد نموّ الصراعات السياسية داخل البيت الحاكم،⁵⁵ وانتقل هذا الصراع الداخلي إلى صراع بين مراكش والستوس وسجلماسة وسالا وغيرها من الأقاليم المغربية في بلاد المغرب الأقصى،⁵⁶ وانتشرت في هذه المرحلة التاريخية المعارك والمناوشات بين السلطان وأقرباه، وبعمليات زحف وهجوم وعمل الكمائن وكثر عدد القتلى، حيث كانت هذه الحروب سبباً في خراب مناطق بأكملها من المغرب، ولم يكن السلطان أو الأمير يأبى بها أو بسكانها، إذ كانت تعتبر بلادهم وأهلها عبيداً، كما أن المعارك أجبرت الكثير من الفلاحين على ترك أراضيهم والفرار منها، ومن إمكانية تجنيدهم في القوّات المحاربة وكانت الجيوش تقوم بالبحث عن الحبوب والأغذية داخل المطامير في القرى المهجورة إلى غير ذلك من الأحداث التي دفعت أهالي بلاد المغرب إلى البحث عن مكان آمن على حياتهم، والذي كان المشرق بما فيه الحجاز، وخلاصة القول فإن الأوضاع لم تكن مستقرة في بلدان المغرب بوجه عام أما في طرابلس وتونس والجزائر لم تكن تقلُّ الأحوال فيها سوءاً عن مراكش، وهو ما دفع المغاربة إلى الإتيان نحو منطقة الحجاز وغيرها من أقاليم الشرق الإسلامي.

ج- إضطهاد العلماء المغاربة، كان من الأسباب القوية والمباشرة التي أدت إلى رحيل المغاربة إلى المشرق عامة والحجاز خاصة، خاصة العلماء، حيث كان الحكام يتخذون ممن يتعرضون لأعمالهم وتصرفاتهم من العلماء مواقف متشددة⁵⁷، وكانت من نتائج هذه الأحداث السياسية قيام الحكام بقتل العلماء أو نفيهم أو فرارهم إلى الحجاز.

فمن الأمثلة على هذا الموقف المتشدد الذي يدفع المغاربة الى الهجرة الى الحجاز ما حدث للشيخ الكراي،⁵⁸ وهو من أبرز العلماء في بلاد المغرب فكان يعقد مجلساً للوعظ والإرشاد، وأنشأ زاوية وأنفق عليها من ماله الخاص ، وكلما فضل عنده شيء من غلال الوقف يشتري به عقاراً ويضيفه لربع الزاوية حتى أتسع نشاطها، وكل ذلك لم يرضي الحكام، ففي العقد الأخير من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ومطلع فترة البحث تعرض الشيخ الكراي لمحنة على عهد المراديين إبان صراعاتهم على الحكم، إذ دخلوا عليه في زاويته ليلاً بصحبة ستين فارساً من أتباعهم، وأهانوه وأجبروه على الخروج من زاويته والمشى إلى داره بعد التهديد والإهانة.⁵⁹

ومنها كذلك ما حدث للشيخ علي النوري الصفاقسي المتوفى عام 1118هـ / 1726م وهو عالم من أهم وأبرز علماء تونس أو المغرب الأدنى، فلم يسلم من أذى الحكام على الرغم من أنه كان قريباً منهم ومحبباً إليهم، وعلى الرغم -أيضاً- من جهوده السياسية والدينية ضد فرسان القديس يوحنا⁶⁰ الذين أتوا من مالطا في الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، ونهبوا مدينة صفاقس وسرقوا سفنها فخرج هو وتلامذته من رجال العلم والسياسية وحاربوهم حتى ردّ عادياتهم، ولم يكتفي بذلك فإنه تشاور مع الساسة وأنشأ عدداً من السفن بديلة لما نهبه هؤلاء الفرسان، وكانت النتيجة أنه دخل في محنة كبيرة بدلاً من التكريم، وسبب هذه المحنة -كما تذكر المصادر- أن بعض الوشاة الحاقدين وشوا به

إلى السلطة بأنه يتآمر على قلبها نظراً لمكانته ونفوذه في بلاده، وصادفت هذه الوشاية أذنًا صاغية من السلطة فنكّلت بأتباعها ونجا بالفرار متنكرًا إلى الحجاز، وأرسل السلطان بعد ذلك جماعة من رجال العسكر لأخذ الشيخ وأتباعه وأموالهم، فأرسل بعض أهل الفضل كتاباً إلى الشيخ يحذره قبل وصول العسكر إليه، فلبس إحرام المرأة ونعلها وخرج مع نساء الشيخ أبي عبد الله السيالة متخفياً مهاجرًا بدينه إلى إحدى الزوايا بتونس، ومنها رحل إلى الحجاز وظلّ بها حقبة تاريخية قبل استقرار الأوضاع في بلاده.⁶¹

لقد كانت الحوادث السياسية قد أفضت إلى خسائر كبيرة وأدت إلى فناء خلائق لا يُحصون، ووقع نهب في شتى بلاد المغرب الواسعة ويعبر عن ذلك صاحب الأعلام قائلاً: "وكاد أن يهلك جميع من في بلاد المغرب لولا لطف الله ورحمته بالمؤمنين"⁶²، كما لخص صاحب شجرة النور سوء الأوضاع في قوله ملقياً التبعة على الحكام: "متى أستعمل على الرعية الأرازل والسفهاء وأهل البطالة والإعلان والشهوات، كان ذلك داعياً إلى فساد نيتهم وإنهماكهم في الشهوات" وختم حديثه ببيت من الشعر قال فيه:

لا تصلح الناس فوضى لإسراهم لهم ولا سراهم إذا جُهِّاهم سادوا⁶³

فبالإضافة إلى الأسباب السالفة الذكر هناك أسباب سياسية أخرى كانت من بين عوامل هجرة المغاربة إل الحجاز في مطلع القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي منها:

- إستقرار الوضع السياسي للإيالة الجزائرية خلال هذه الفترة، مما ساعد على حرية التنقل دون خوف من مخاطر الطريق.⁶⁴
- الخطر الصليبي وحالة الحرب المستمرة ضد القوى المسيحية ولّد لدى المغاربة وخاصة الجزائريين حب الجهاد في سبيل الله، وبالتالي التمسك بالدين.
- إن الأوضاع السياسية التي عرفتھا الدول المغاربية وخاصة إيالة الجزائر أثناء العهد العثماني، وتراجع حركة التعليم من الدوافع التي إضطرت كثيراً من المغاربة وخاصة الجزائريين إلى الهجرة للمشرق عامة والحجاز خاصة والاستقرار هناك نهائياً.
- الرحلة للقيام بسفارة كانت لها أهداف سياسية، حيث كان الباشاوات يختارون بعض العلماء للقيام بهذه المهمة الدبلوماسية، وعلى سبيل المثال فإن الداوي عمر باشا (1815م-1817م) كان قد كلف محمد بن العنابي للقيام بسفارة إلى المغرب الأقصى، طلباً للمساعدة العسكرية من السلطان سليمان بعد حملة اللورد إكسموث (1816م) كما قام بسفارة إلى إسطنبول عام 1817م.

4- الأسباب الاقتصادية:

بالإضافة إلى ما سبق من أسباب توجد الأسباب الاقتصادية والتي كانت سبباً هاماً في رحيل المغاربة إلى الحجاز خلال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ذلك أن الصراعات السياسية التي سبق ذكرها سواءً أكانت الخارجية بين بلاد المغرب والإسبان أو الصراعات بين الحكام وما تلاه من فتن كان لها أثرها الاقتصادي السيء على بلاد المغرب العربي.⁶⁵

إضافة إلى ذلك فقد كانت المنتجات التي ينتجها المغاربة والتي يرغب التجار في تصريفها وتسويقها في بلاد المشرق إبتداءً من مصر⁶⁶، ثم بلاد الحجاز عبر ميناء السويس، وكانت تأتي بالدخل الكبير للمغاربة، وهو ما كان دافعاً قوياً للمغاربة في العمل التجاري، وبالإضافة على ذلك فقد أصبح للمغاربة في الحجاز تأثير قوي في الأنشطة التجارية والزراعية والصناعية البسيطة المؤثرة، مما دفع العديد منهم إلى إستيطان الحجاز والعمل بتلك الأنشطة المتنوعة.⁶⁷

إن حدوث بعض المجاعات في نهاية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي كانت سبباً لرحيل المغاربة إلى الحجاز، ومنها المجاعة التي سميت: "المجاعة الكبرى"، وقد وقف فيها العلماء مواقف مشرفة ساعدوا بلاد المغرب العربي في الخروج من نكبتها مثل: الشيخ إبراهيم الرياحي⁶⁸، وكانت من نتائج هذه المجاعة هجرة العديد من العلماء الى بلاد المشرق خاصة الحجاز، وهذه المرحلة التاريخية سجلت أكبر عدد للهجرة الى الحجاز⁶⁹.

خاتمة:

لقد كانت بلاد المشرق خاصة الحجاز أكثر إستقرارًا وبالتالي أكثر نشاطًا إقتصاديًا، حيث قام التجار المغاربة بالتجارة في المنتجات الهندية والشامية واليمنية والمصرية من خلال وجودهم في الحجاز وعودتهم عبر مصر، في دلالة أن بلاد المغرب العربي كانت أسوأ حالاً من هذه الناحية.

ما يعرف عن المغاربة تعلقهم بالبقاع المقدسة، ولهذا كانت أنفسهم تتذوق الى زيارة هذه الأماكن للتبرك بها وزيارة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم- وخاصة الجزائريين الذين كانوا يعبرون عن هذا الشوق من خلال كتابات نثرية وشعرية تتعلق بهذا الغرض.

الهوامش

¹ مسعود بن محمد آل زيد، تاريخ مكة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد 1041-1299هـ/1631-1881م، دار القاهرة، مصر، 2005م، ص224.

² نفسه، ص226.

³ نفسه، ص227.

⁴ مصطفى رمضان، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر، 1405هـ/1985م، ص127.

⁵ أبو العباس أحمد المقرئ، رحلة في المشرق والمغرب، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3191.

⁶ مصطفى رمضان آل زيد، المرجع السابق، ص129.

⁷ رفائيل إسرائيلي، "المسلمون الذين زاروا الصين خلال العصور الوسطى"، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، مجلة دراسات شرقية، العددان 19 و20، باريس، 2003م، ص58.

- ⁸ محمد الخاقمي، "رحلات السوسيين"، "رحلات السوسيين بين الإفادة والامتاع"، موضوع لأطروحة لنيل دكتوراه الدولة، إشراف عباس الجراي، كلية الآداب، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م، ص 85.
- ⁹ محمد المنوني، **ركب الحج المغربي**، معهد مولاي الحسن، تيطوان، المغرب الأقصى، 1953م، ص 98.
- ¹⁰ حسن جلاب، "أدبيات الشوق إلى البقاع المقدسة"، **مجلة دعوة الحق**، العدد 357، السنة الثانية والأربعون، شوال - ذو الحجة 1421هـ / جانفي - فيفري 2001م، ص 41.
- ¹¹ رافائيل إسرائيلي، **المصدر السابق**، ص 60.
- ¹² ALBERTINI (E), MARCAS (G).YVER (G), **L'Afrique du nord dans l'histoire**, édition Archat, Lyon, Paris, 1937, P42.
- ¹³ فاطمة خليل، "من ملامح الرحلة المغربية"، **مجلة البحث العلمي**، العدد الرابع، 1991م، ص 28.
- ¹⁴ نفسه، ص 30.
- ¹⁵ نفسه، ص 32.
- ¹⁶ حسن جلاب، **المرجع السابق**، ص 44.
- ¹⁷ القرآن الكريم، **سورة الحج**، الآية 27.
- ¹⁸ أبو القاسم سعد الله، **على خطى المسلمين (حراك في التناقض)**، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ص 32.
- ¹⁹ نفسه، ص 34.
- ²⁰ محمد بن الخوجة، "من صلات الإيحاء والصفاء والعلم والرواية بين رجالات تونس والمغرب"، **مجلة المناهل**، العدد الثاني، 1976م، ص 35.
- ²¹ يوسف بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة، (د.ت) 2003/16م، ص 203.
- ²² Faure-Bignet, « Notice sur le cheikh MOHAMMED ABOURAS EN-NASIRI de Mascara », **Journal Asiatique**, Série 9, Tome 4, Année 1899, PP 402-418.
- ²³ محمد علي فهيم بيومي، **المرجع السابق**، ص 14.
- ²⁴ نفسه، ص 16.
- ²⁵ **جريدة الخبر**، السنة الواحدة والعشرين، العدد 6453، التاريخ 21 رمضان 1432هـ/21 أوت 2011م، ص 11.

²⁶ MERCIER, (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus recules jusqu' a la conquête française 1830, E Leroux, Paris, 1897, P 32.

- ²⁷ العباس بن إبراهيم، الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1977م، الجزء الثامن، ص-ص 321-375
- ²⁸ محمد ظافر الأزهري، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب المدينة، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1999م، ص-ص 44-45.
- ²⁹ إسماعيل العجلوني، إجازات الشيخ العجلوني، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 97 مصطلح، ورقة 30.
- ³⁰ الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، الجزء الأول، ص-ص 155-200.
- ³¹ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت)، الجزء الخامس، ص-ص 55-56.
- ³² عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001م، ص 85.
- ³³ عبد العزيز بن عبد الله، المرجع السابق، ص 92.
- ³⁴ حسن جلاب، المرجع السابق، ص 48.
- ³⁵ مارتين هيجر، مبدأ العلة، ترجمة: نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات، (د.ت)، ص 101.
- ³⁶ عبد الكريم الجبلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تحقيق: صالح عويضة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1418هـ، ص 122.
- ³⁷ محمد بن علال الصديقي، الفتوحات الربانية على الأذكار النورية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1989م، ص 84.
- ³⁸ ابن حسن الحجوي الفاسي، رحلة حجازية، تحقيق: عبد المجيد خبالي، دار ابن حزم، بيروت، 2010م، ص 98.
- ³⁹ محمد بن جعفر الكتاني، الرحلة السامية إلى مصر والحجاز والبلاد الشامية، تخريج: حمزة الكتاني، تعليق: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي، بيروت، 2005م، ص 91.
- ⁴⁰ نفسه، ص 92.
- ⁴¹ محمد الطيب الكتاني، الأنفاس النورانية في الرحلة الحجازية، مراجعة: محمد مهدي الكتاني، إخراج عبد الله الكامل الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص 105.
- ⁴² نفسه، ص 110.

- ⁴³ غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1984م، ص 207.
- ⁴⁴ طه عبد الرحمان، **سؤال الأخلاق**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، بيروت، البيضاء، 2009م، ص 34.
- ⁴⁵ نفسه، ص 35.
- ⁴⁶ عبد الله محمد جمال الدين، **مصير المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة**، بحوث الأندلس، دار المعرفة، 1994م، ص 374.
- ⁴⁷ محمد عبد الله عنان، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1987م، ص-ص 244-250.
- ⁴⁸ زين العابدين البرزنجي، "كشف الحجاب والتور عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور"، **مجلة العرب**، ج: 10-9، الرياض، 1985م، ص 601.
- ⁴⁹ عبد الله محمد جمال الدين، **المسلمون المّصرون او المورسكيون الأندلسيون**، الطبعة الأولى، القاهرة، 1991م، ص 399.
- ⁵⁰ نفسه، ص 391.
- ⁵¹ عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة: محمود علي عامر، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1409هـ/1989م، الفصل الثالث، ص-ص 413-414.
- ⁵² نبيل عبد الحي رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس وإسترداده**، مطبعة العصر الحديث، القاهرة، ص 462.
- ⁵³ أحمد بن هطال التلمساني، **رحلة محمد الكبير (باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969م، ص 16.
- ⁵⁴ جلال يحيى، **المغرب العربي الحديث والمعاصر، الفجر وإحتلال فرنسا للجزائر**، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ص 248.
- ⁵⁵ عبد الرحمان الأنصاري، **تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب**، تحقيق: محمد العروسي المطوي، دار النشر، المكتبة العتيقة، الكعبة الأولى، تونس، 1390هـ/1970م، ص-ص 49-50.
- ⁵⁶ عبد الله محمد جمال الدين، **مصير المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة**، من بحوث ندوة الأندلس في جامعة الإسكندرية، سبق ذكره، ص 370.
- ⁵⁷ نفسه، ص 372.

⁵⁸ الكراي: هو الشيخ أبو الحسن بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن علي بن ميمون الكراي الصوفي الوفاي، مولده في صفاقس إرتحل إلى الأزهر، ثم عاد إلى بلاده، ثم دل في محنة غادر في إثرها إلى الحجاز، وتوفي سنة 1115هـ/1723م.

- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الجزء الخامس، ص-ص 55-56.

⁵⁹ محمد محفوظ، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص 156.

⁶⁰ نفسه، ص 158.

⁶¹ محمد علي فهيم بيومي، المرجع السابق، ص 22.

⁶² نفسه، ص 23.

⁶³ محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكنتها، 1349هـ، القاهرة، ص 163.

⁶⁴ GRAMMONT, (H.DE), **Histoire d'Alger sous la domination Turque, 1515-1830**, E, Leroux, Paris, 1887, P 82.

⁶⁵ محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص-ص 216-219.

⁶⁶ جيار، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، من وصف مصر، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1978م، الجزء الثالث، ص-ص 253-254.

⁶⁷ عبد الرحمان الأنصاري، المصدر السابق، ص-ص 147-397-429.

⁶⁸ محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 167.

⁶⁹ محمد ظافر الأزهري، المصدر السابق، ص-ص 44-45.

مصورون أجنب في الثورة التحريرية، بين المهنة والصدقة.

أ. عمر اوي جمال الدين / جامعة سطيف 2- قسم التاريخ / الجزائر

الملخص:

لقد كانت الثورة الجزائرية مفتوحة على المحيط الخارجي، ولم تكن منطوية على نفسها بل عملت قياداتها بقوة من أجل ايقاض الضمير العالمي، و تحسيسه بشرعية كفاح الشعب الجزائري و تشكيل شبكات دعم و تضامن للثورة على الصعيد الخارجي، خاصة في الجانب الإعلامي، بحيث استطاعت مجموعة من المصورين و الصحفيين الأجانب الذين آمنوا بالثورة التحريرية من تخليد واقع المجتمع الجزائري البسيط والأليم، و فضح جرائم الاستعمار الفرنسي و وحشيته عن طريق صور التقطوها في أوقات جد صعبة كان لها دور وإثراء للأرشيف الوطني، من بينهم "إيلي كاغان" مصور أحداث 17 نوفمبر 1961 "أودولفو كامينسكي" مزور وثائق أعضاء جبهة التحرير الوطني، "ستيفان لابودوفيتش" مصور جيش التحرير الوطني على القاعدة الشرقية (1959-1962)، "مارك كارنجر" جندي فوتوغرافي معارض للسياسة الاستعمارية.

Abstract:

The Algerian revolution was open to the external world, it was not isolated but its leaders made their efforts (worked strongly)

to awaken the conscious of the other countries of the world and to sensitize then of the legality of the fight of the Algerian people and to form groups of supporters and solidarity to the revolution on the external side especially the media.

A group of foreign photographers and journalists who believed in the Algerian revolution could show the reality of the disastrous situation of the Algerian society and the crimes of the French colonization and its ingresses by photos they took in very difficult times which have a role in enriching the Algerian archives.

From them "Elie kagan":The photographer of the November 17th1961"Adolpho Kaminsky": The forger of the documents of the members of the Algerian Liberation Front ,"Stevan Labodovic ": photographer of the National Liberation Army," Mark Garanger": a photographer who opposed the colonial policy.

تمهيد

لقد لعب المصورون الأجانب في الثورة التحريرية، دورا كبيرا في فضح جرائم الاستعمار الفرنسي، عن طريق صور فوتوغرافية دعمت كثيرا القضية الجزائرية عبر وسائل الإعلام الأجنبية من صحف و يوميات المتخصصة في الأخبار في تلك الحقبة من الزمن.

وعليه، فالصور الفوتوغرافية الملتقطة من طرف جنود الأبيض و الأسود(تقنية الأسود و الأبيض)، تبين ثقل المسؤولية التي كانت على عاتق مصوري الثورة التحريرية المتعاطفين مع القضية الجزائرية ، و الذين ساهموا في إثراء الأرشيف الوطني، والتاريخ الجزائري إبان الثورة التحريرية بالوثائق المخصصة لهذه الثورة، فيا ترى ماهي أهم هذه الشخصيات الفوتوغرافية؟ وكيف ساهمت في كشف مجازر الاستعمار الفرنسي في الجزائر؟.

و على هذا الأساس، استهواني هذا الموضوع ، فمصورو الثورة ليسو مصورو أفلام سينمائية ، فالخطأ غير مسموح بت، كونه مع الأحداث قد يكلف في بعض الأحيان، فقدان الحياة ، أو بتر أحد الأعضاء من جراء قيامهم بتصوير الأحداث بعدسات آلات التصوير التي بحوزتهم.

لقد قدموا للرأي العام الدولي معاناة شعب بأكمله مطالبا من خلال تلك الصور الفوتوغرافية حقه في الحرية و الاستقلال، فصحيح أنهم أورثونا ابيض واسود بصور من يوم اسود لنهاها في اليوم ابيض ، فعرفانا لكل مجهود ، كان لزاما علينا أن نقوم بالتعريف والترجمة و لو بالشيء القليل عن هذه الشخصيات التاريخية ودورها في تدويل القضية الجزائرية ، وان تعددت جنسياتهم ، كانوا خير أصدقاء لهذه الثورة العظيمة، من أشهرهم:أيلي كأغان:Elie Kagan، أودولفو كامينسكي:Adolfo kaminsky ، ستيفان لابودوفيتش:Stevan Labudovic، ومارك كرنجار: Marc Garanger

أدولفو كامينسكي: Adolfo Kaminsky

ولد أدولفو كامينسكي في 1925/10/01 بأرجنتينا بالأرجنتين¹ رحل هو و عائلته إلى فرنسا عام 1933 حيث استقر بها² ، عرف كثيرا عنه في بلجيكا وألمانيا بعمله لصالح جبهة التحرير الوطني و بتزوير الكثير من بطاقات التعريف و جوازات السفر لأعضاء فيدرالية جبهة التحرير الوطني³ .

وفي هذا السياق، لقد كان متعاطفا كثيرا مع القضية الجزائرية استغل موهبته في التصوير و التي كانت من أنبل المهن في أوقات الثورة، بحيث كان يعمل بلا كلل، مع أخذه بعين الاعتبار أن كل قطعة ينحتها كانت هوية مزورة، لإنقاذ حياة إنسان و لهذا كان عليه أن يبقى مستيقظا لأكثر فترة ممكنة بحيث كان يقول "في ساعة واحدة أمنح ثلاثين بطاقة مزورة إذاً لما أنام ساعة سوف يموت 30 شخص".

و على هذا الأساس، تعود جذور بدايته لهذا العمل إلى الأربعينيات من القرن الماضي، بحيث زور العديد من الوثائق لصالح مناضلي الحركة الوطنية في فرنسا و في الكثير من المناطق، اكتسب هذه الخبرة في التصوير و تزوير الوثائق بعد عمله في مصبغة، بحيث تعرف على مواد التلوين لعشقه مادة الكيمياء ، فقام بإجراء العديد من الأبحاث والتجارب في الأمسيات ونهاية الأسبوع في مختبر صغير أعده بنفسه ، وفي الكثير من المرات كاد يحرقه⁴، لقد كان يحب القتال من أجل الحرية في كل

مكان، خاصة الجزائر حيث عرف أن القضية عادلة، رافضا تلقي أي أجر عن عمله⁵.

وفي عام 1953، زار الجزائر و اطلع على واقع الاستعمار الاستغلالي و العنصري و لم يتفاجأ عند اندلاع ثورة أول نوفمبر فقد كان يقرأ نصوص أخبار الثورة في مجلة الأزمنة الحديثة FRANCIS J LES TEMPS MODERNES JEANSON ، كما كان يقوم بتزوير عملة 100 فرنك بحيث كان يقول: " لقد زورت عملة 100 فرنك لزعزعة استقرار فرنسا" في إطار عمله مع شبكة فرانسيس جونسون لدعم الثورة التحريرية بالأموال⁶ وهذه الشبكة هي مجموعة من الناشطين الفرنسيين، التي تعمل تحت إشراف فرانسيس جانسون منذ 1957 إلى 1960 والتي تعمل كمجموعة دعم لجهة التحرير الوطني خلال الثورة التحريرية في الجزائر، وذلك من خلال جمع ونقل الأموال والوثائق المزورة وبالتالي لقبوا "بجملة الحقائق"⁷.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن فرانسيس جونسون طلب منه في إحدى المرات وخلال يومين تحضير جوازين سفرين سويسريين ، و هذا من المستحيلات، لكن المفاجأة أنه بعد يومين كانت الوثيقتين بيده، إذن فحياته وتجربته غير عادية تستحق أن تحكى.

و بعد الاستقلال سافر إلى الجزائر سنة 1981، حيث التقى شابة تدعى ليلي تزوج بها وأنجب 03 أولاد منها سارة التي كتبت عن حياة والدها في كتاب

عنونته: أدولفو كامينسكي حياة مزور (Adolfo kaminsky , une vie de faussaire) و ذلك في سنة 2009.⁸

شخصية فوتوغرافية أخرى لا تقل أهمية عن الشخصية الأولى ، كان لها دورا فعالا في كشف ما فعله البوليس الفرنسي بالمتظاهرين الجزائريين من مجازر خلال مظاهرات 17 أكتوبر 1961 بفرنسا، هذه اشخصية هي للصحفي الفرنسي ايلي كاقان "Elie Kagan" وهو مصور فرنسي من أصل بولندي ولد في 26 مارس 1928 و توفي عام 1999⁹ شغوف بالعالم الاجتماعي والسياسي ، نقابي اجتماعي اقتصادي ، يصفونه بالمخبر الصحفي العازم والملتزم مع العالم الثالث بمشاعره ، محب للاستفزاز وإثارة الجدل ، أمين محفوظات لجميع الحركات الاجتماعية¹⁰ ، فهو يلبس ثياب المصور وفي نفس الوقت ثياب المتظاهر دون أن يعرف الخوف، يصور الأجسام المعذبة والغارقة في الدم أثناء المظاهرات¹¹ .

وفي سنة 1961 كان عمره 33 سنة ، اعتاد على تصوير الشخصيات الشهيرة ، لريح المال بشكل سريع وسهل ، ولكن سياسيا كان مع استقلال الجزائر، فقد كان يبدو انه مناضل في حزب جبهة التحرير الوطني¹² كان يعمل لصالح أسبوعية يسارية Témoignage Chrétien ، قام بتصوير أحداث أمسية 17 و مظاهرات 17 أكتوبر 1961 بالضاحية لباريسية¹³ .

ومما تجدر الإشارة إليه ، انه تلبية لنداء فيدرالية جبهة التحرير الوطني ، خرج الجزائريون المقيمين بالضاحية الباريسية للتظاهر ضد قانون حضر التحول المعلن عنه من طرف فرنسا في 05 أكتوبر ضد المهاجرين المسلمين (ممنوع الخروج ابتداء من 08.30 ليلا).

وبعد 12 يوما خرج الآلاف من الجزائريين للتظاهر ضد هذا القانون، فقابلهم البوليس الفرنسي بقمع شديد بترخيص من ضابط شرطة الضاحية الباريسية موريس بابون¹⁴* MORICE PAPAN ، و كان من بين المتظاهرين ايلي كاغان بحيث خبأ آلة التصوير في ملابسه ، وكانت أول صورة له توضح الممارسات القمعية ضد المتظاهرين الجزائريين أمام ميترو كونكورد والتي تصور الجزائريين واضعين أيديهم فوق رؤوسهم دائرين نحو الخلف على الحائط¹⁵ وذلك عن طريق دراجته ففي البداية كان خائفا من اخذ الصور ومعاقبته إذا تم إيجاد الفيلم، فنزل من دراجته في محطة الميترو (Concorde) فأخذ ثلاثة صور، ثم سار إلى محطة(Solferino)¹⁶.

وفي هذا المقام، أقرت وزارة الداخلية الفرنسية بوفاة جزائريين(2) و55 جريح¹⁷ ورفضت وكذبت ولمدة 40 سنة تصريحات وصور أيلي "Elie" بحيث اعتبرت صور تلك الجثث لا وجود لها، ولحد الآن لا يعرف العدد الحقيقي للجزائريين الذين لقوا مصرعهم تحت طلقات الشرطة الفرنسية¹⁸ في حين أن عدد الضحايا فاق 500

جزائري بين شهيد ومفقود، كما امتدت حصيلة الاعتقالات لتشمل 7500 شخص من مختلف الشرائح، وقد أوردت العديد من الشهادات الحية أن عشرات الجثث ظلت تطفوا فوق نهر السين أياما عديدة بعد تلك الليلة السوداء وعشرات أخرى اكتشفت في غابتي بولون و فانسون وبالإضافة إلى عدد غير معروف من الجزائريين تم التخلص منهم رميا على متن الطائرات لبيتلعمهم البحر¹⁹.

وعلى هذا الأساس ، فصور Elie Kagan تعتبر الدليل الوحيد على أعمال العنف يوم 17 أكتوبر 1961 لان الكثير من الصحفيين اخفوا حقيقة هذه المظاهرات، وذلك ربما بسبب الرقابة المفروضة عليهم أثناء الحرب مما جعلهم يحدروا ويمتنعوا من التصوير وإعلان الحقيقة ، وفي يوم 19 من نفس الشهر قامت جرائد يسارية بنشر الأحداث أكثر تفصيلا ولكن ميزها الغموض ، فتهافت الكثير من الصحفيين إلى البيوت القصديرية وضواحي باريس لاكتشاف آثار العنف²⁰.

وفي هذا المقام ، فجريدة Témoignage Chrétien خصصت ملفا كاملا عن هذه الأحداث اعتمادا على صور أيلي كاغان وشهاداته في عددها رقم 903 يوم 27 أكتوبر 1961 ، قام بنشرها الصحفي Hervés Bourges الذي دعى من خلال هذه الجريدة منظمة الصحة العالمية والحركات والاحزاب والنقابات للتنديد بتجاوزات البوليس الفرنسي ، ووضع نهاية للحرب والتميز العنصري المشين في الجزائر وعدم تضامن الشعب الفرنسي مع هذه الاحداث²¹.

وعلى هذا الأساس، قرر ايلي كأغان تحد هذه القيود خاصة مبالغة السلطات الفرنسية في الرقابة والتمويه وإخفاء الأحداث التي شاهدها وعاشها، بحيث لم يتوقف بعد ذلك في الإعلان عن أي دليل أو علامة تظهر عنصرية الفرنسيين ، فكان ينشط ويشارك في كل المظاهرات ضد تناسي هذه المجزرة²²

وفي 20 أكتوبر 1961 ، دعت فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا كل النساء والأطفال للتظاهر والمطالبة بتحرير جميع المساجين ، لكن السلطات الفرنسية قمعتهم بنفس العنف السابق²³ ومن المؤكد أن ايلي كأغان كان برفقتهم وصورهم أمام السجون الفرنسية.

ومما تجدر الإشارة إليه ، انه تتبع أيضا مظاهرات 8 فيفري 1962²⁴ ضد مجازر والأعمال التخريبية لمنظمة الجيش السري O.A.S²⁵ في ميترو شارون حيث قتل حوالي 08 فرنسيين من طرف هذه المنظمة والتي يتذكرها جميع الفرنسيين في حين لا يتذكرون أحداث 17 أكتوبر 1961.²⁶

وفي سنة 1963 تنقل إيلي كأغان إلى الجزائر، بحيث عمل في جريدة الثورة الإفريقية "révolution africain" وقد جال في هذه الفترة كل التراب الوطني لمدة سنة، وقد ساهمت صوره في الضغط على فرنسا بتحمل مسؤولياتها في الأعمال

الإجرامية التي قام بها موريس بابون²⁷، وبعد حوالي ثلاثين سنة من الحادثة اعترف مجلس الشيوخ الفرنسي على نص تشريعي سنة 1998 على كون مظاهرات 17 أكتوبر 1961 انتهت بقمعها بوحشية وإدراجها في المقررات الدراسية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن فرنسا تعي جيدا مسؤوليتها اتجاه ما اقترفته من جرائم، وان تقادم بها الزمان لا يمكن أن تنساه ذاكرة الشعوب، كما أن اعتراف فرنسا بهذه الجريمة هو إدانة رفعتها على نفسها بنفسها²⁸.

وعلى هذا الأساس، وإذا كان الكثير من هؤلاء المرحومين قد غادرونا، فهناك ولحسن الحظ وبفضل الله عدد لا بأس به من الناجين من تلك الحادثة، لازالوا على قيد الحياة، وعلينا وعلى كل الجزائريين المسارعة لجمع ذكرياتهم، والتي لا الوقت ولا الآلام استطاعت محيها، حتى نتمكن من جعلها في متناول كل المواطنين وخصوصا أطفالنا كي لا يستطيعوا القول " لا أعلم"²⁹.

مصور فوتوغرافي آخر كان لي الشرف أني قابلته وتحدثت إليه، أنه المصور اليوغسلافي ستيفان لبودوفيتش "Stevan Labudovic" حيث ولد هذا الأخير في 28 ديسمبر 1926 ببران بصربيا،³⁰ مصور فوتوغرافي آمن بعدالة القضية الجزائرية، دخل الجزائر عبر تونس سنة 1959، بقي فيها إلى غاية 1962. وبعد خمسون سنة من الاستقلال عاد إلى الجزائر، لنفس الغاية وبنفس العاطفة والتأثير

لعرض ذكريات رجال لم يستطع نسيانها أبدا بحيث كان يقول دائما " هم يحاربون بالسلاح ، وأنا أحارب معهم بعدسات كاميرتي، وهذا لنفس الهدف :وهو النضال من اجل الحرية ، هذا مارأيته في أعين رفاقنا في الكفاح".³¹

وأثناء قيامي بالخدمة العسكرية في المتحف المركزي للجيش كمرشد في التاريخ، وقبل قيامنا بالإعداد لمعرض أول نوفمبر لسنة 2007، زارنا هذا المصور وقام بإهداء المتحف المركزي للجيش كامرته الخاصة التي كان يصور بها نضال وكفاح جيش التحرير الوطني في القاعدة الشرقية بتونس ، والعديد من الصور الفوتوغرافية التي تحكي نضال جنود جيش التحرير الوطني ضد العدو الفرنسي، والتي خصص لها جناح خاص في الطابق الأخير من هذا المتحف، بحيث كان يقول:" في كل قصف للاستعمار الفرنسي أتذكر دائما ، كيف كان رفاق الكفاح يقومون بحمايتي، وذلك بإلقاء أجسامهم عليا حتى لا أتأذى " له العديد من الصور أهمها صوره مع الراحل هواري بومدين³² .

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذا المصور قد خلّد في مئات الكيلومترات من الصوّر والأشرطة حياة المجاهدين ومآثرهم ومحاولاتهم عبور خطي موريس وشال، ومن بين الصور النادرة التي التقطها في أقصى الحدود في الجزائرية التونسية بواد بغلة نهاية ديسمبر 1961، والتي تروي دفن الرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد للمفكر فرانتز فانون في 6 ديسمبر 1961، وتظهر الرئيس الأسبق المرحوم الشاذلي بن جديد محاطا بممثّلة الصليب الأحمر الدولي، ومحمد الصغير نقّاش مسؤول الصحة في جيش التحرير الوطني،

الطبيين يعقوبي وبونفة، والصحفي اليوغسلافي بيتشار الذي كتب فيما بعد رسالة دكتوراه بعنوان "تاريخ الثورة الجزائرية"، وصدیق الرئيس أحمد ترخوش مع جماعة من مسؤولي منطقة العمليات الشمالية، وإلى الخلف تماما خالد نزار.

ويعتبر كذلك ستيفان لابودوفيتش المصور الشخصي للرئيس اليوغسلافي جوزيب بروز تيتو 1892-1980 من مؤسسي حركة عدم الانحياز³³

ومن بين الصور المعروضة له بالمتحف "ماما" صور المقاومة الجزائرية من 1959 إلى 1962، ومن خلال تلك الصور يظهر جنود جيش التحرير الوطني يستعملون عتاد حربي من الحجم الثقيل و هذا في الجبال و غابات إحدى المناطق الجزائرية، الصورة بتقنية الأسود و الأبيض، كما يجدر بنا التذكير أن هذا المصور تعرض له عدة صور فوتوغرافية في نفس الموضوع³⁴.

وعلى هذا الأساس، أصدر الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة مرسوما بمنح السيد ستيفان لابودوفيتش ميدالية تذكارية وشهادة تكريم تقديرا لمساهمته كمصور للثورة الجزائرية خلال حرب التحرير، بحيث قام سفير الجزائر في بلغراد عبد القادر مسدو بتقليد لابودوفيتش الميدالية وسلمه شهادة التكريم تقديرا لمساهمته، والذي استطاع بفضل شجاعته وبصوره اطلاق العالم على النضال المجيد الذي خاضه الشعب الجزائري من أجل استقلاله، ومنذ أيام الثورة فإن أكثر الأسماء المعروفة في الجزائر هي تيتو ولابودوفيتش وقد أصبح هذا الأخير بطلا شعبيا يُقدم له الاحترام في كل أعياد الدولة³⁵.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هناك من الجنود الفرنسيين من عارض سياسة بلاده اتجاه الشعب الجزائري ، وفي هذا المقام نذكر شخصية الجندي الفرنسي مارك كرنجار Mark Granger" مصور فوتوغرافي فرنسي من مواليد سنة 1935، بمنطقة نورماندي بفرنسا، نودي لتأدية الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي سنة 1960، كان عمره آنذاك 25 سنة، والتي حاول دائما التأخر عنها لمعارضته الحرب الاستعمارية في الجزائر، بحيث كان له صديق يدعى "Rojer Vailland" عرفه منذ سنتي 1957-1958، عاش معه أمسيات تحدثا فيها عن تطورات العالم آنذاك بحيث كان مارك يقول " كان صديقي روجر يحدثني عن ما سوف ألاقه في هذه الحرب التي لم يرد ذكرها"³⁶

ومما تجدر الإشارة إليه، انه منذ 10 سنوات كان مصورا هاويا ثم امتهنها سنة 1957 كمصور في التعليم، ولدى وصوله الجزائر كان يقول " لما وصلت الجزائر بدأت خطابات العنصرية تحوم حولي في كل جانب، لكن هذه الكلمات كانت غير مهمة بالنسبة لي لقد قررت التعبير عن ما أرى لأنادي بمعارضتي لهذه الحرب"، و من حسن حظله أنه كان متحصلا على شهادة البكالوريا، بحيث تم تعيينه في أمانة الفوج العسكري لمنطقة عين تارزين بصور الغزلان Ain Tarzine، كانت وظيفته تتمثل في استقبال الرسائل الصادرة و الواردة ، ولكن هذا العمل لم يعجبه حتى أنه كان ينسى أرقام البريد الوارد لدى نقلها إلى السجل، حتى أن رفيقه في المكتب قد لاحظ ذلك بدون أن يعلق على ذلك، فأصبح يعمل في مكانه لعدة أسابيع.

و على هذا الأساس، بدأ يفكر للتخلص من هذا العمل، و في هذا الشأن كان يقول " تركت بعض الصور متناثرة على مكتب قائد الفوج العسكري كما يضع الصياد الطعم للسمكة، فنجحت الخطة بحيث مر علينا الرائد في الحين و عيني مصورا للفوج، بسبب عدم وجود أي مصور هناك".³⁷

و في هذا السياق، ولمدة 24 شهرا لم يتوقف عن التصوير فقد كان متأكدا أنه سيأتي يوم سوف يعرضهم كشهادة لتاريخ هذا الشعب الذي عانى الولايات. و لما أتاه أمر بتصوير النساء اللواتي أجبرن على التصوير حتى يوضع لهن بطاقات هوية، لكنهن رفضن ذلك و مزقن صورهن، فبدأ الرائد يصرخ عليهن و باحتقار حيث قال لجنوده " تعالوا لترو القردة" فقرر مارك و أقسم أن يعرض صورهن للناس لإثبات عكس ما يقال في الجزائر.

و عليه استغل عطلته السنوية الوحيدة، بزيارة صديقه Robert Barrat في نهر Chevreuse الذي كان يكتب مقالات معارضة للحرب الفرنسية في الجزائر في جريدة Témoignage Chrétien ، ثم سافر بعدها إلى سويسرا بطريقة غير شرعية، لعرض ألبوم صورته المتضمن صور لنساء جزائريات عانين من قهر الاستعمار في مجلة l'Illustré ، و بعدها عاد إلى الجزائر في فيفري 1962 دون أن يعلم أن كانت سوف تنشر أم لا، ولكن بعد عدة أسابيع نشرت تلك الصور

مع تعليق نصي Charles Henri Favrod هذا ملخصه "... هذا ما تفعله فرنسا في الجزائر" ³⁸.

و بعد الاستقلال عرض الكثير من صوره التذكارية في الكثير من المعارض كان آخرها معرض المتحف العمومي الوطني للفن الحديث و المعاصر "ماما" بشارع بن مهيدي بالجزائر العاصمة جوان 2013، الذي عرض فيه أشهر صوره من بينها احد المجاهدين المقبوض عليه ، بحيث توحى الصورة بمعاني كثيرة كالرجولة والشهامة ³⁹ و له أيضا الكثير من المؤلفات و الكتب منها:

La Guerre d'Algérie vue par un appelé du contingent » (Seuil , 1984) .

⁴⁰Femme algériennes 1960, édition atlantica , 2002.

خاتمة:

من خلال ماسبق ذكره: يخلص الدارس لهذا الموضوع إلى مايلي:

- تعد الصورة الفوتوغرافية وقفة تاريخية هامة في حياة المجتمعات البشرية، لاسيما عندما يتعلق الأمر بتلك الوقفات البطولية التي تصنعها التضحيات في ساحة الوغى، شهادات حية لا تعثرها اضطرابات الذاكرة مهما طال بها الزمن، لتنتقل وقائع لا يشوبها التزييف ولا التمثيل إلى الأجيال.. وفي

الجزائر مازال وقع الرصاصات النوفمبرية الأولى يخرق الآذان، ويسرد للأبناء منذ قرابة نصف قرن قصة كفاح شعب وحده حب الوطن وواجب الدفاع عنه في زمن ما قبل الثورة الاتصالية.

- أن الصورة الفوتوغرافية سجل تاريخي دقيق لنقل قيم البطولة والتضحية وسط النشء مازال بعض الهواة ممن يستهويهم جمع كل ما له صلة بالماضي حريصين منذ عدة عقود على جمع الصور التاريخية وعرضها أمام الراغبين في العودة إلى أيام الحقبة الاستعمارية بكل ما تحمله من مشاهد الظلم والقهر، وما يقابلها من نضال سياسي ومقاومة ميدانية لونها الدماء.

- الثورة الجزائرية كانت بحق ملحمة كبرى، جلبت الرأي العام الدولي والفرنسي بشكل لا مثيل له، مؤكدا على أهمية الاعتراف بالتضحيات التي قدمها أصدقاء الجزائر دعما لثورة أول نوفمبر 1954 من أوروبيين ودول أخرى.

- يجب نثر هذا الغبار على هذا الموضوع، وإحيائه لأن هناك الكثير من الصحفيين والمصورين الأجانب قدموا دعما للقضية الجزائرية وظلوا في طي النسيان.

الملحق رقم 1: اودولفو كامينسكي

Source: 2Jean, LucEnaudi, France tireur, george Mattei de la guerre d Algérie à la guérilla ,digital index,italy,2013p23.



الملحق 2: ايلي كاغان وتصويره لأحداث 17 أكتوبر 1961

source: : Caroline, Apotolo poulos, Elie Kagan et La nuit du 17 octobre 1961, op.cit ,P1.



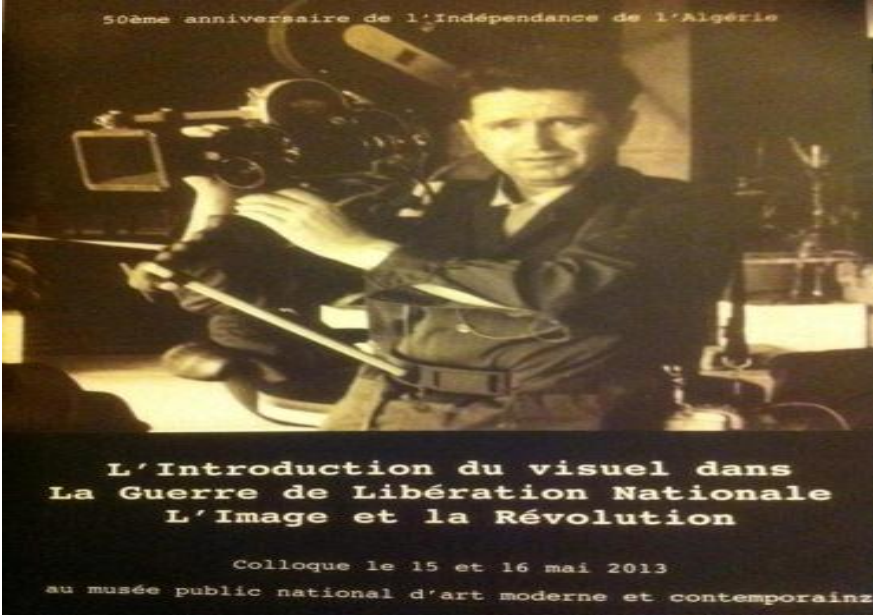


الملحق 3: ايلي كاغان ينشر صور احداث 17 اكتوبر 1961 في المجلة

اليسارية: Témoignage Chrétien

17 octobre 1961 : Le temps : **Source:** Hervé Bourge de Tartuffe, Témoignage Chrétien, N°903, Paris, p3.

الملحق 4: صور ستيفان لابودوفيتش مع الراحل هواري بومدين في القاعدة الشرقية بتونس



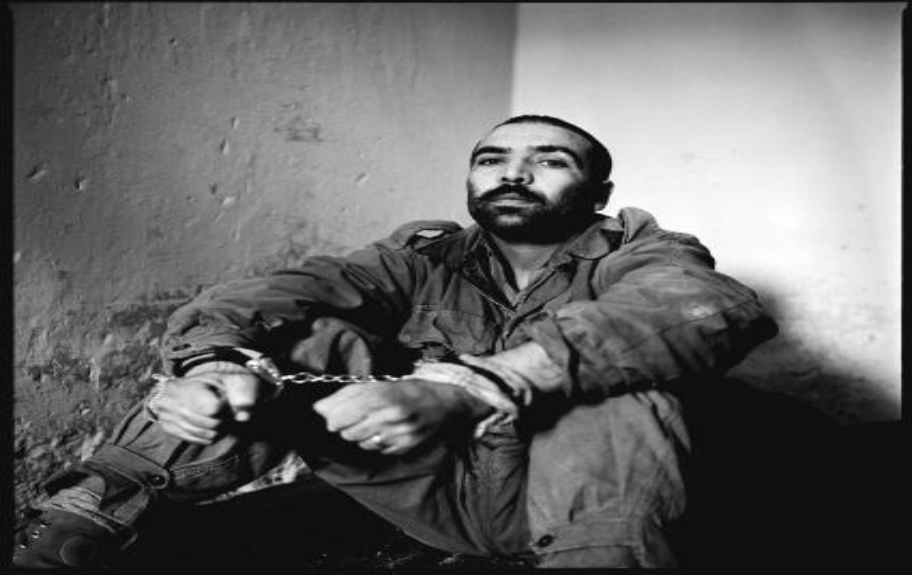
Source: MUSEE NATIONAL D'ART MODERNE ET CONTEMPORAIN

الملحق 5: مارك كرنجار يصور بؤس ومعاناة المرأة الجزائرية إبان الثورة
التحريرية



Source : Galerie binôme photographie contemporaine, dossier de presse, Marc Garanger photo exposition du 8 mars au 7 avril 2012, vernissage, p5.

الملحق رقم 6: صورة مجاهد مقبوظ عليه ، توحى الصورة بمعاني كثيرة كالرجولة والشهامة التقطها مارك كرنجار



Source : Marc Garanger : La Guerre d'Algérie vue par un appelé du contingent, op.cit, p1.

مراجع البحث و هوامشه :

1محمد بونيل، وقفة احترام و تقدير لمصوري الحرب، مجلة أخبار اليوم الجزائرية، العدد 1888، الأربعاء 2013/06/26، الجزائر ص 21.

2Jean, LucEnaudi, France tireur, george Mattei de la guerre d Algérie à la guérilla ,digital index,italy,2013,p23.

3Lucie pruvost et Laurence, amour, Algérie terre de rencontre, kartliala, France 2009, p153.

4Jean, Luc Enandi, op.cit, p94.

محمد بونيل: المرجع السابق⁵

6Halli, Ahmed, un faussaire de FLN rien a avoir avec ceux d'aujourd'hui, El Moudjahid,N°114750 de 24/02/2013, p16.

فرانسييس جانسون " FRANCIS JEANSON " 1922-2009: فيلسوف فرنسيكان مديرا لمجلة الأزمنة الحديثة (Les temps modernes) ألف مع زوجته السيدة كوليت كتابا بعنوان الجزائرالخارجة عن القانون (L'algerie hors la loi) وذلك عام 1955، وقد سبق قبل تأسيسه لشبكة الدعم وأن قدم خدمات إلى جبهة التحرير الوطني،ومع بداية عام 1956 كان أول فرنسي عارض سياسة بلاده العدوانية في الجزائر مما دفعه إلى تنظيم شبكة دعم قوية في فرنسا وأوروبا خدمة للقضية الجزائرية وهي الشبكة التي عرفت باسم حملة الحقائق (Les porteurs de valises) عام 1957، ونظرا لخطورة هذه الشبكة التي كان يقودها على المصالح الفرنسية كان عرضة لمضايقات الشرطة وملاحقتها له خاصة عام 1960 حيث أصدر مع بداية هذه السنة كتابا تحت عنوان حربنا (Notre guerre) كما قام بتأسيس جبهة أطلق عليها اسم جبهة دعم الثورة الجزائرية وكان ذلك عام 1961. أصدرت إحدى المحاكم الفرنسية في حقه حكما بعشر سنوات سجنا نافذة غيابيا وذلك في أكتوبر 1960، وقد مسه العفو العام الذي أصدرته السلطات الفرنسية في سنة 1966. للمزيد انظر:

Robert Davezies:un temps pour Laguerre,l'Age d'Homme,lausanne, Suisses, 2002, p80-86.

7Raymond Muelle, La gangrène des « porteurs de valises », La Nouvelle Revue d'Histoire, n° 4H, printemps-été 2012, p 25-27.

8Halli, Ahmed, op.cit

. محمد بونيل: المرجع السابق نص 21 9

Caroline, Apotolo poulos, Elie Kagan et La nuit du 17 10
ctobre 1961, BDIC , 17 octobre 2011 , P1.

11Daniel, Bensaid: Elie kagan (1929-1999) photographe militant
de Mai 68, éditions du Laveur, Bdic, p1.

12Caroline Apotolopoulos: Op.cit, p2.

13Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie
(1954.1962) Coll. Reperes, Paris, p64

14Désirée, Schyns: La Mémoire littéraire de la guerre d'Algérie,
Lrmattan, Paris, P110.

موريس بابون: ولد موريس بابون في 03 ديسمبر 1910 أب لثلاثة أطفال، تخرج من كلية الحقوق، وحاز دبلوم في الدراسات العليا في القانون والاقتصاد السياسي، كما درس علم الاجتماع والنفس وشغل عدة مناصب منها: مدير في مصلحة شؤون الجزائر في وزارة الداخلية الفرنسية في 1945، وفي 1949 واليا على قسنطينة وفي مارس 1958 عينه الجنرال ديغول محافظا على شرطة باريس، وفي 1968 تم انتخابه على منطقة "شير"، وفي 1971 شيخا لبلدية "سانت اماند" وشغل

منصب وزير للميزانية في حكومة "رينولد بار" في ظل رئاسة "جيسكار ديستان" وبقي في هذا المنصب إلى غاية 1978 حتى 1981. مجلة الجيش، العدد 495، ص37
 15www.bdic.fr:Ratonnades du17october1961, Déroulé du parcours dElie Kagan, de Paris a Nanterre. P1.

16Caroline Apotolopoulos:Op.cit, p4.

17Gervereau, Laurent et Stora, Benjamin: photographe Laguerre D 'Algérie, ParisMawal, 2004, p37.

18Caroline Apotolopoulos:Op.cit,

19نسيم بن الصغير، لبنة تواتي:المهاجرون الجزائريون بفرنسا ودورهم في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى (1924-1962)، مذكرة لنيل شهادة الليسانس، المسيلة 2011، ص103.

.20Caroline Apotolopoulos:Op.cit, p4

17 octobre 1961 : Le temps de :21Hervé Bourge Tartuffè, TémoignageChrétien, N°903, Paris, p3.

هيرفي بورج: يعتبر من الصحفيين الفرنسيين الذين ساندوا القضية الجزائرية، ووقف إلى جانب الشعب الجزائري خلال حرب التحرير، وكان من بين الصحفيين الذين كشفوا التعذيب الذي مارسه الجيش الفرنسي على الفدائيين لما كان صحفيا متعاوناً بجريدة "تيموانياج كريتيا" ذات التوجه المعادي للاستعمار. انظر جريدة الخبر الجزائرية:22نوفمبر2011.

.22Caroline Apotolopoulos:Op.cit,p

23L'Association des moudjahidines de la fédération du FLN en France
1954-1962, Wilaya 7El-Watan, Dimanche 17 octobre 2010, p4.

24Caroline Apotolopoulos:Op.cit

le 8 février 1962, Tribune Etudiant - Numéros 5 et 6 - Janvier-Février 1962, p2.

26محمد سيف الإسلام بوفلاقة: في كتاب عن 17 أكتوبر 1961 الأسود، يومية المساء الجزائرية،
العدد 4663، 09 جوان 2012، الجزائر، ص 15.

727Caroline Apotolopoulos:Op.cit,p

28وكالة الأنباء الفرنسية: اعتراف رسمي بقمع مظاهرات باريس، جريدة الخبر، 20 أكتوبر 2001
العدد 3250، ص 1.

op.cit, p25.:29Daniel, Bensaid

:المرجع السابق، ص 21.30 محمد بونيل

,Le soir Stevan Labudovic, un cameraman dans les djebels:Kader Bakou31
D'Algérie,^NO7026 ,17/11/2013 ,P9.

32مقابلة شخصية مع المصور الصربي ستيفان لابودوفيتش أثناء تأديتي للخدمة الوطنية في المتحف
المركزي للجيش بالجزائر العاصمة كمرشد في التاريخ عام 2007-2008، قام هذا المصور بزيارتنا
بناسبة ذكرى اندلاع الثورة التحريرية 1 نوفمبر 2007.

33 عبد العزيز بوباكير: قصة صورة، جريدة الشروق الجزائرية، العدد 2438، الأحد 4 نوفمبر 2012
الجزائر، ص 25.

34محمد بونيل، المرجع السابق.

Kader Bakou, op.cit.35

36 Marc Garanger : La Guerre d'Algérie vue par un appelé du contingent,Seuil, 1984, p13.

روجر فالاند (Rojer Vailland): 1907-1965 صحفي وكاتب فرنسي، من معارضي الحرب الفرنسية على الجزائر، عمل ضمن شبكة جونسون أو ما يسمى "بحملة الحقائق" كشبكة دعم لجهة التحرير الوطني بفرنسا للمزيد انظر:

Alain (Georges) Leduc: Roger Vailland (1907-1965): Un homme encombrant,L'harmattan,Paris, 2008, p13.

37 Marc Garanger: Femme algériennes 1960, édition atlantica,2002.p45-47.

(Robert Barrat) روبرت بارات: 1919-1976 صحفي فرنسي، من معارضي كذلك الحرب الفرنسية على الجزائر، كان يكتب مقالاته المعارضة للحرب في المجلة اليسارية Témoignage Chrétien السابقة الذكر للمزيد انظر:

Philippe Baudorre, La plume dans la plaie: les écrivains journalistes et la guerre d'Algérie, Presses Universitaires de Bordeaux, France, 2003, p280.

38 Marc Garanger: La Guerre d'Algérie vue par un appelé du contingent, op.cit.

39 محمد بونيل : المرجع السابق

40 Galerie binôme photographie contemporaine, dossier de presse, Marc Garanger photo exposition du 8 mars au 7 avril 2012, vernissage, p5.

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria
Faculty of social and human sciences



JOURNAL OF EL MAAREF

For researches and historical studies
Periodical and international vefereed journal

